وليام فوكنر

@ketab_n
Follow Me
11.5.2016

وردة لإميلي

وقصص أخرى

ترجمة سامر أبو هوّاش

وليام فوكنر

وردة لإميلي

وقصص أخرى

ترجمة: سامر أبو هواش

دار الآداب

كلمة
KALIMA

Twitter: @ketab_n

وردة لإميلي
وقصص أخرى

Twitter: @ketab_n

وردة لإميلي
تأليف / وليام فوكنر

الطبعة الأولى: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
جميع الحقوق محفوظة لدى كلمة www.kalima.ae
ص.ب. ٢٣٨٠ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف ٦٣١٤٤٦٨ ٢ ٩٧١+
فاكس ٦٣١٤٤٦٢ ٢ ٩٧١+

دار الآداب للنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ساقية الجنزير - بناية بيهم ص. ب. ٤١٢٣ - ١١
هاتف: ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١+ ٧٩٥١٣٥ ١ ٩٦١+ فاكس ٨٦١٦٣٣ ١ ٩٦١+
e-mail:d_aladab@cyberia.net.lb

ISBN: 978-9953-89-100-2

هذه الترجمة العربية لكتاب: Collected Stories

© Vintage International Collected Stories of William Faulkner.

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة.
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

الأريـاف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إحراقُ حظيرة(١)

كان المتجرُ حيث يجلسُ قاضي محكمة الصلح(٢) يعبقُ برائحة الجبن. وقد عرفَ الصبيّ القابع فوق برميل مسامير في عمق الغرفة المكتظّة، أنّه شمّ رائحة جبن، وأكثر من ذلك: كان في وسعه أن يرى، من مكانه ذاك، الأرفف التي رُصّت عليها علبٌ معدنيّةٌ مربّعةٌ قرأت معدته أصنافها، ليس من خلال حروف كلماتها التي لم

---

(١) إحراق حظيرة: في القرن التاسع عشر في أميركا، كان إحراق الحظائر، وسيلة رائجة للانتقام، خصوصًا مع رواج ما يعرف باستئجار المزارع أو المزارعين المستأجرين الذين كانوا يستأجرون أراضي غيرهم وحصدها لقاء أجر يدفعونه لصاحبها، وهؤلاء غالبًا هم من الفقراء. كتب فوكنر هذه القصّة عام ١٩٣٨. وقد رفضت خمس مجلّات أدبيّة نشرها حتى نشرتها عام ١٩٣٩ مجلّة «هاربرز». وقد شكّلت هذه القصّة لاحقًا الفصل الأول من روايته «القرية»، على عادة استعمال فوكنر بعض قصصه القصيرة في رواياته والعكس. يدرجها الناقد هانز سكي ضمن أفضل قصص فوكنر القصيرة. مثل الكثير من الأعمال تخضع هذه القصّة لتأويلات وتفسيرات متناقضة أحيانًا، بين من يعتبرها صرخة ضدّ النظام الطبقي والرأسمالي. ومن يعتبرها ضدّ النظام البطريركي أو الأبوي. فازت بجائزة «أو هنري» لأفضل قصّة قصيرة في ذلك العام.

(٢) محكمة الصلح Court of Justice: أو محكمة السلم، نوع من النظام القضائي الذي كان سائدًا في أميركا منذ الاستعمار البريطاني لها، وقد اقتبس عن هذا النظام، وهو يقوم على تعيين محكمة أو شخص (القاضي) للبتّ في قضايا وشكاوى في مدينة أو قرية صغيرة.

Twitter: @ketab_n

تعنِ شيئًا لعقله، بل من خلال رسوم الشياطين القرمزيّة والأسماك الفضيّة الملتوية. وهذه ـ أي رائحة الجبن التي عرف أنّه يشمّها، واللحمة المعلّبة التي حسبت أمعاؤه أنّه يشمّها في نفحات وجيزة جدًّا تخلّلت الرائحة الأخرى الثابتة ـ ليست إلاّ رائحة بعض الخوف والإحساس به، لأنّها على الأغلب رائحة اليأس والحزن، تلك القوّة المهيمنة للدم[١]. لم يكن، من مكانه، يرى الطاولة التي جلس إليها القاضي، ووقفَ أمامها والده وعدوّ والده (عدوّنا، فكّر الصبي باليأس عينه؛ عدوّنا! عدوّي! وعدوّه! لأنّه أبي!)، لكن تناهى إلى مسامعه الحوار الدائر بين القاضي والعدوّ، أمّا والده فلم يكن قد نطق كلمة بعد:

«لكن ما هو دليلك يا مستر هاريس؟»[٢].

«لقد قلت لك. وجدتُ الخنزير في رقعة الذرة. فأمسكت به وأعدته إليه. سياجه لا يصلح لحجز الخنزير. وقد أخبرته بذلك وأنذرته. وحين تكرّر الأمر أبقيتُ الحيوان في زريبتي. وحين جاء لكي يستعيده أعطيته ما يكفي من الأسلاك الشائكة لكي يرقّع به سياج زريبته. وفي المرّة الثالثة حجزتُ الخنزير. ثم قصدتُ منزله ورأيت بكرة الأسلاك ما زالت على حالها في فناء منزله. فقلت له إنّني لن أعيد له خنزيره ما لم يدفع لي دولارًا غرامة زرب

(١) بمعنى السلالة، النسب العائلي.
(٢) مالك الأرض التي يستأجرها الأب.

Twitter: @ketab_n

الخنزير. وفي ذلك المساء جاءني زنجي يحمل دولارًا وأخذ الخنزير. لم يكن من هنا. وقال لي: يقول لك إنّ الحطب والقشّ قابلان للاشتعال. فسألته ماذا؟ وأجابني: طلب منّي أن أخبرك بهذا: إنّ الحطب والقشّ قابلان للاشتعال. وفي تلك الليلة احترقت حظيرتي. وقد استطعتُ إنقاذ الماشية لكنّني خسرت الحظيرة».

«وأين هو هذا الزنجي؟ أقبضت عليه؟».

«أؤكّد لك أنّه زنجي غريب. لا أعرف أين أراضيه».

«لكن هذا ليس دليلاً. ألا ترى أنّ هذا ليس بدليل؟».

«أحضروا ذاك الفتى للشهادة. إنّه يعرف». وظنّ الصبيّ لحظتذاك أنّ الرجل يقصد أخاه الأكبر، حتى قال هاريس: «ليس هذا، بل الصغير، الصبي». وجاثمًا هناك، ضئيل القامة قياسًا إلى سنّه، نحيفًا كأبيه، يرتدي سروال جينز مرقّعًا وباهتًا وقصيرًا حتى على جسمه الصغير، شعره البنيّ الناعم مشعّث وعيناه حزينتان جامحتان كعاصفة، رأى الرجال الذين يحولون بينه وبين طاولة القاضي يتفرّقون إلى صفّين من الوجوه المتجهّمة، وعند نهاية كل من الصفّين رأى القاضي، وهو كهلٌ رثّ الملابس، يرتدي قميصًا بغير ياقة، يؤشّر له. شعر بأنّ الأرض قد انزاحت تحت قدميه الحافيتين؛ بأنّه يمشي تحت وطأة الثقل المادّي للوجوه المقطّبة الشاخصة نحوه. أمّا والده الذي وقف متخشّبًا في معطف الأحد

Twitter: @ketab_n

الأسود الذي لم يرتده من أجل المحاكمة بل للرحيل، فلم ينظر إليه حتى. يومئ لي بأن أكذب، حدّث الصبي نفسه، مجدّدًا بالحزن واليأس المسعورين نفسهما. وسأضطرّ إلى أن أكذب قليلاً.

سأله القاضي: «ما اسمك يا فتى؟».

جاء صوته خفيضًا إلى حدّ الهمس: «كولونيل سارتوريس[1] سنوبس».

قال القاضي: «هاي! ارفع صوتك. تقول الكولونيل سارتوريس؟ أحسبُ أنّ شخصًا يحمل هذا الاسم في هذه النواحي لا يسعه إلاّ قول الحقيقة، صحّ؟».

لم يُجب الصبيّ. عدوّ! عدوّ! جعل يقول في سرّه؛ لبرهة لم يستطع حتى أن يرى الدماثة التي تعلو وجه القاضي ولا مخاطبته المدعوّ هاريس باستياء: «أوَتريدني أن أستجوبَ الصبي؟».

ولكنّه كان يحسن الاستماع، وخلال اللحظات الطويلة التي تلت سؤال القاضي والتي تخلّلها صمتٌ ساد الغرفة الصغيرة المكتظّة، ما عدا صوت التنفّس الصامت المركّز، شعر أنّه رُمي

(١) Sartoris على اسم إحدى الشخصيّات الأسطوريّة البطوليّة في مقاطعة يوكناباتوفا الخياليّة التي جعلها فوكنر مسرحًا لأحداث أعماله. هو الجدّ الأعلى لسلالة سارتوريس والشخصيّة المحوريّة في ثلاثيّة سارتوريس الروائيّة. يظهر في عدد من الأعمال القصصيّة منها «جدّتي ميلارد» والتي يلعب فيها دور ملكة.

Twitter: @ketab_n

من جُرف كرمة إلى واد، وفي ذروة انحداره علقَ في لحظة ممتدّة من الجاذبيّة السحريّة، وبات منعدم الوزن في الزمن.

أجاب هاريس بعنف: «لا! اللعنة! أخرجوه من هنا!».

شعرَ أنّ الزمن، ذلك العالم السائل، يتدفّق سريعًا تحت قدميه مجدّدًا، وعادت تصله الأصوات عبر رائحة الجبن واللحم في العلب محكمة الإغلاق، أصوات الخوف واليأس والحزن المزمن في الدم.

قال القاضي: «هذه القضيّة قد أُقفلت. لم أجد ما يدينك يا مستر سنوبس. لكن يمكنني أن أسدي إليك النصح، غادر هذه المنطقة ولا تعد إليها ثانية».

تكلّم والده للمرّة الأولى. فجاء صوته باردًا وقاسيًا ومسطّحًا بغير نبر: «إنّني أعتزم ذلك. لا أتصوّر البقاء في منطقة بين أناس...». وتلفّظ بشتائم فظّة ومهينة، من دون أن يوجّهها إلى شخص محدّد.

قال القاضي: «هذا يفي بالغرض، فلتركب عربتك وترحل قبل حلول الظلام. القضيّة أُقفلت».

استدار والده ومشى، وسار الصبيّ وراء معطفه الأسود المتصلّب وجسده النحيل المتخشّب، الذي يتحرك بشيء من التثاقل بسبب رصاصة أصابه بها، في كعب قدمه، قائد فرقة كونفدراليّة، أثناء فراره على صهوة جواد مسروق قبل ثلاثين عامًا. ثم تحول

Twitter: @ketab_n

الظهر إلى اثنين، إذ برز فجأة أخوه الأكبر من مكان ما بين الحشد، وهو ليس بأطول قامة من أبيه، لكنّه أعرض منه ولا يكفّ عن مضغ التبغ، سائرًا بين صفّي الرجال المتجهّمين، ثم إلى الخارج، وعبر الشرفة الخارجيّة[1] المتهالكة، ثم نزولاً على الدرجات الرثّة، ثم مارًّا في غبار مايو المعتدل بين الكلاب والفتية أنصاف البالغين الذين دمدمَ أحدهم:

«يا محرقَ الحظائر!».

مجدّدًا لم يرَ جيّدًا حين التفتَ إلى الخلف؛ جلّ ما لمحه وجهٌ مغلّفٌ بضباب أحمر أشبه بهالة القمر، بل أكبر من القمر المكتمل، صاحبه بضعف حجمه، فقفز باتّجاه السديم الأحمر نحو الوجه، غير شاعر بالضربة، بارتطام رأسه بالأرض، لأنّه عاود الوقوف بسرعة وراح يلكمُ عشوائيًّا أمامه، من دون أن يشعر بأيّ ضربة هذه المرّة أيضًا، ومن دون أن يتذوّق دمًا، متحسّسًا طريقه ليرى الصبيّ الآخر يفرّ مسرعًا، وليهمّ باللّحاق به قبل أن تكبحه يد أبيه، ويأمره الصوت البارد القاسي: «اذهب واصعد إلى العربة».

كانت العربة في الجهة المقابلة من الشارع، عند أيكة من أشجار الخرنوب والتوت. وقد سبقته إليها أختاه الجسيمتان اللتان ترتديان ثياب يوم الأحد، وأمّه وخالته اللتان ترتدي كلّ منهما فستانًا

(١) Portico: شرفة أرضية أو رواق بأعمدة.

Twitter: @ketab_n

من قماش الكاليكو[1]، وتعتمر قلنسوة واقية من الشمس. قعدنَ بين حفنة من الأثاث الرثّ الذي حتى الصبي يحفظه عن ظهر قلب: الموقد القديم، الفرُش والكراسي المحطّمة، الساعة المرصّعة باللؤلؤ، المتجمّدة عند الساعة الثانية وأربع عشرة دقيقة من يوم وزمن منسيين وميتين، وقد كانت هذه الساعة مهرَ أمّه. كانت الأخيرة تبكي، بيد أنّها حين رأته غطّت وجهها بكمّ فستانها وهمّت بالنزول من العربة.

قال لها الأب: «ارجعي».

«إنّه مجروح. يجب أن آتي ببعض المياه وأغسل...».

كرّر الأب: «عودي إلى العربة». وصعد هو أيضًا، من الباب الخلفي. صعد أبوه إلى المقعد واتّخذ مكانه بجانب الأخ وساطَ البغلين الهزيلين سوطين قويين بقضيب الصفصاف المقشّر، لكن دونما انفعال. لم يكن بالأمر السادي حتى؛ بل ينتمي بالتحديد إلى الخاصيّة نفسها التي ستدفع، في أزمنة لاحقة، ذريّته إلى تحمية المحرّك قبل تشغيل السيّارة، تحفيزًا وكبحًا في حركة واحدة. ثم مضت العربة، وخلفها حشد المتجر المتجهّم الصامت، قبل أن تختفي وراء منعطف. إلى الأبد، حدّث الصبي نفسه. ربّما يشعر بالرضى الآن، الآن بما أنّه... ولجم نفسه عن الاسترسال في

---

(١) الكاليكو Calico: نوع من القماش القطني يسمّى شيت.

Twitter: @ketab_n

أفكاره، لكي لا يقولها بصوت عالٍ حتى بينه وبين نفسه. لمست يد أمّه كتفه.

«أتشعر بالألم؟».

«لا، لا أشعر بالألم. دعيني وشأني».

«هلاّ مسحتَ الدمَ قبل أن يجفّ الجرح؟».

«سأنظّفه الليلة، دعيني وشأني، أقول لك».

مضت العربة. لم يكن يعرف وجهة ذهابهم. لم يكن أحدهم يعرف، ولا سأل أحدهم، لأنّ الوجهة دائمًا إلى مكان ما، دائمًا إلى كوخ ما ينتظرهم على بعد يومين أو حتى ثلاثة أيّام من المسير. من المرجّح أنّ أباه قد رتّب أمر استئجار حصاد مزرعة أخرى قبل أن... مجدّدًا عمدَ إلى كبح أفكاره. هو (الأب) دائمًا يفعل ذلك. كان ثمّة في استقلاليّته شبه الذئبيّة، وحتى في شجاعته حين تكون الفرص على الأقلّ متساوية، ما يثيرُ إعجاب الغرباء، كأنّ ما يستشعرونه من ضراوته الكامنة ليس حسًّا بتبعيّته بل شعورًا بأنّ قناعته الراسخة بصوابيّة أفعاله هي لصالح جميع من تكمن مصلحتهم معه.

تلك الليلة خيّموا في أيكة من السنديان والورورار بجوار ينبوع. كانت الليالي ما زالت باردة فأخذوا لوحًا خشبيًّا فالتّا من سياج قريب وقاموا بتقطيعه وأوقدوا نارًا صغيرة، شحيحة ودقيقة.

Twitter: @ketab_n

ذلك أنّ إضرامَ نيران صغيرة كهذه هو دأب أبيه دائمًا، حتى في عزّ البرد. لو أنّ الصبيّ كان أكبر سنًا من ذلك، فلربّما لفتَ ذلك انتباهه، ولتساءل لمَ لا يضرمُ أبوه نارًا كبيرة، لمَ لا يقوم رجلٌ لم يشهد خرابَ الحرب وغلواءها فحسب، بل يجري في دمه حبٌّ موروث وعنيف لتبذير كلّ ما لا يملكه، بإضرام النيران في كلّ ما تقع عليه عيناه؟ لكن عندئذ، لو كان الصبيّ أكبر سنًا، لكان مضى أبعد في أفكاره، ولفكّر أنّ هذا هو السبب: تلك النار الشحيحة هي الثمرة الحيّة للّيالي التي أمضاها والده طوال أربع سنوات مختبئًا في الغابات، فارًا من الجميع، سواء من أصحاب البزّات الزرق أو الرماديّة[1]، مع أرسان الخيول تلك (كان يسمّيها الخيول المأسورة). ولو كان أكبر أيضًا فلربّما تمكّن من سبر غور السبب الحقيقي: أنّ عنصر النار يخاطبُ نبعًا أساسيًا في كينونة أبيه، تمامًا مثلما يخاطب عنصر الفولاذ أو البارود رجالاً آخرين، بوصفه السلاح الوحيد لحفظ السلامة، وإلاّ لما استحقّت الأنفاس أن تتنفّس، وبالتالي ينبغي النظر إلى هذا العنصر باحترام واستعماله بحرص.

لكن ليس هذا ما كان يشغله وقتذاك، فقد رأى مثل هذه النيران الشحيحة طوال حياته. بالكاد تناول عشاءه بجوارها وكاد

---

(١) الأزرق هو لون البزّات العسكريّة للجيش الكونفدرالي، والرمادي هو لون بزّات جيش الحكومة الفدراليّة إبّان الحرب الأهليّة الأميركيّة (١٨٦١ ــ ١٨٦٥).

Twitter: @ketab_n

يغفو فوق طبقه الحديدي حين ناداه أبوه، ومرّة أخرى تبعَ الظهر المتخشّب، وذلك العرج المتصلّب العنيف، أعلى المنحدر إلى الدرب المضاء بالنجوم حيث، حين التفتَ، رأى وجه أبيه تحت ضوء النجوم، لكن من دون أن يتبيّن ملامح وجهه أو أعماقه، إذ بدا ظلاً أسودَ، مسطّحًا وميتًا، كأنّما قُصّت من القصدير الثنيّات الحديديّة في معطفه الفراك[1] الذي ليس على مقاسه، وجاء صوته قاسيًا كالقصدير ومثله خاليًا من العاطفة:

«كنتَ تنوي أن تخبره. كنت ستعترف له».

لم يجبه. صفعه أبوه بقفا يده على رأسه. صفعة قويّة لكن خالية من الانفعال، تمامًا مثلما ساط ذينك البغلين خارج المتجر، تمامًا مثلما يمكن أن يضرب أيًّا منهما بأيّ قضيب لكي يقتل نُعرة[2]، وصوته ما زال خلوًا من الانفعال أو الغضب: «إنّك في طريقك إلى أن تصبح رجلاً. يجب أن تتعلّم. يجب أن تتعلّم التشبّث بدمك، وإلاّ فلن يكون لك دم تتشبّث به. أتظنّ أنّ أيًّا منهما، وأيًّا من الذين كانوا حاضرين هناك هذا الصباح كان ليفعلَ ذلك؟ ألا تعرف أنّ كلّ ما أرادوه هو فرصة للانقضاض عليّ لأنّهم يعلمون أنّني هزمتهم؟».

---

(١) Frockcoat: معطف رجالي أسود مزدوج الصديري يبلغ الركبتين، كان شائعًا في القرن التاسع عشر. في أيّامنا هذه يلبس في المناسبات الرسميّة فحسب.

(٢) النعرة Horse Fly: ذبابة الخيل والماشية.

Twitter: @ketab_n

لاحقًا، بعد عشرين سنة، سيحدّث الصبيّ نفسه: لو أنّه أجابه بأنّ كلّ ما أراداه منه هو الحقيقة، والعدالة، لضربه ثانية. لكنّه لحظتئذ لم يقل شيئًا. لم يبكِ. وقفَ صامتًا فحسب.

«أجبني».

أجاب بصوت خفيض: «بلى».

أشاح أبوه بوجهه:

«اذهب إلى النوم، سنصل غدًا».

وفي اليوم التالي وصلوا. توقّفت العربة في مطلع العصر أمام كوخ أجرد اللون من غرفتين يكاد يكون صورة مطابقة لدزينة البيوت الأخرى التي عاش فيها الصبيّ خلال سني حياته العشر. وكما في المرّات السابقة ترجّلت أمّه وعمّته وشرعتا بتفريغ العربة من حمولتها، من دون أن يحرك أيّ من أختيه وأبيه وأخيه ساكنًا.

قالت إحدى الأختين: «الأرجح أنّه لا يتّسع للخنازير».

فأجابها الأب: «بيد أنّه سيتّسع وستحبّينه، تحرّكا وساعدا أمّكما على تفريغ الأغراض».

ترجّلت الأختان، ضخمتان كبقرتين، مرفرفتان في أسمالهما: إحداهما جاءت من صندوق العربة المتهالك بقنديل، والأخرى بمقشّة بالية. ناول الأب الرسن لابنه الأكبر وهمّ بالنزول متثاقلاً من العربة، «حين ينتهي التفريغ خذ البغلين إلى الحظيرة وأطعمهما».

Twitter: @ketab_n

ثم قال، وظنّ الصبي في البداية أنّه يكلّم أخاه، «تعالَ معي».

«أنا؟».

«أجل، أنت».

نادت الأمّ: «آبنر»[1].

توقّف أبوه والتفت إليها بتلك النظرة القاسية تحت الحاجبين الأشعثين الغضوبين المائلين إلى اللون الرمادي. قال:

«أظنّ أنّ عليّ أن أقابلَ الرجل الذي ينوي ابتداءً من الغد أن يمتلكني، جسدًا وروحًا، خلال الأشهر الثمانية التالية».

ارتقيا الدرب ثانية. قبل أسبوع، أو قبل يوم أمس تحديدًا، كان يمكن أن يسأله عن وجهة ذهابهما، لكن ليس الآن. فقد ضربه أبوه في مرّات سابقة لكنّه لم يقف قطّ ليشرح له السبب، وكأنّ الصفعة والهدوء الذي أعقبها، والصوت الغاضب الذي ما زال يتردّد صداه في أذنيه، لا تعني له شيئًا سوى الإعاقة الرهيبة المتمثّلة في أن يكون صغيرًا، خفّة سنوات عمره القليلة، الثقلية كفاية فقط لتمنعه من الانعتاق من العالم المنتظم على هذه الشاكلة، لكن غير الثقيلة كفاية لكي تعينه على الوقوف بصلابة فيه، على مقاومته ومحاولة تغيير مسار أحداثه.

---

(١) آبنر Abner أو آب أحيانًا Ab: اسم والد الصبيّ.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما رأى أيكة السنديان والسدر والأشجار الأخرى المثمرة، والأيكات الأخرى المحيطة بالمنزل، وإن لم يلح له المنزل بعد. مشيًا بمحاذاة سياج عرّشت عليه بكثافة نباتات صريمة الجدي وزهرة الشيروكي[1] حتى وصلا إلى بوّابة مفتوحة بين عمودين حجريّين، ثم في نهاية مجاز طويل، رأى المنزل للمرّة الأولى، وفي تلك اللحظة نسيَ أباه والرعب واليأس معًا، وحتى حين عاودَ تذكّر أبيه (الذي لم يتوقّف عن المشي)، فإنّ الرعب واليأس لم يعاوداه. لأنّه خلال ارتحالاتهم السابقة، التي أقاموا خلالها بصورة موقّتة في أرياف معدمة، بين مزارع وحقول ومنازل صغيرة، لم يرَ قطّ منزلاً كهذا المنزل. فردّد في سرّه: إنّه كبير كبناء محكمة. وقد اجتاحه شعور بالطمأنينة والبهجة لم يجد له تفسيرًا بالكلمات، فقد كان صغيرًا بعد على ذلك: إنّهم بمأمن منه، الأناس الذين حيواتهم جزء من هاتين الطمأنينة والرفعة، أبعد من أن تطاولهم يده، وهو بالنسبة إليهم ليس أكثر من دبّور طنّان: يستطيع أن يلسع لبرهة وجيزة لا أكثر؛ إنّ سحر الطمأنينة والرفعة هاتين يشمل حتى الزرائب والإسطبل والمعالف ههنا، وجميعها منيعة ضدّ النيران التافهة التي يسعه إضرامها. انحسرَ إحساسه هذا لبرهة حين رأى ثانية الظهر الأسود المتخشّب، ذلك العرج المتصلّب والعنيد للقامة

---

(١) صريمة الجدي Honeysuckle وزهرة الشيروكي Cherokee Roses: نوعان من النباتات المعرّشة دائمة الخضرة .

Twitter: @ketab_n

التي لم يقزّمها المنزل، لأنّها لم تبدُ طويلة في أيّ مكان والتي الآن، أمام هذا المنزل الفخم المجلّل بالأعمدة، بدت في مناعتها، وأكثر من أيّ وقت مضى، شيئًا قُصّ بلا رحمة من القصدير؛ بدت بلا عمق، كأنّها إذا مشت جانبيًّا مع الشمس، فلن تُحدث ظلاً. لاحظ الصبيّ أنّ أباه يمشي باستقامة شديدة، ورأى قدمه المتخشّبة وهي تدوس على كومة رَوْث حديثة خلّفها حصان في مجاز المنزل، وكان في وسعه أن يتجنّبها لو حادَ عنها قليلاً. لكن سرعان ما استعاد الصبيّ بهجته، التي لم تترجم في عقله إلى كلمات، سائرًا تحت سحر المنزل، الذي استطاع حتى أن يرغب فيه، لكن من دون حسد، ولا أسف، وبالتأكيد دونما ذلك السخط الحسود الثائر المجهول بالنسبة إليه الذي يخطو في المعطف الحديدي أمامه. ربّما سيشعر بذلك أيضًا. ربّما سيغيّر هذا المنزل الآن حتى طبيعته التي ليس بيده أنّه لا يملك سواها.

عبرا الرواق. فتردّد وقع خطوات قدم أبيه الثقيلة على الألواح الخشبيّة بنهائيّة تشبه دقّات الساعة، مُصدرًا صوتًا لا يتناسب قطّ في ضخامته مع القامة التي تحمله، والتي لم يقزّمها كذلك الباب الأبيض الذي وقف أمامه، كأنّها اكتسبت دونيّة وحشيّة ومفترسة حتى ما عاد في وسع أيّ شيء أن يقزّمها ـ القبّعة السوداء الواسعة، المعطف الذي كان أسودَ اللون في ما مضى، قبل أن يصطبغ بخضرة لامعة بالأصفر كالتي تشعّ من حشرات المنازل

Twitter: @ketab_n

القديمة، الكمّ المطويّ الواسع أيضًا، واليد المرفوعة كمخلب استعدادًا للطرق على الباب. فُتح الباب بغتة، فأدركَ الصبيّ أنّ الخادم الزنجي كان يراقبهما منذ مدّة، وهو عجوز ذو شعر صُفِّف بالزيت، يرتدي سترة من الكتّان، وقف سادًّا الباب بجسده، قائلاً: «امسح قدميك أيّها الرجل الأبيض قبل أن تدخل. المايجور ليس في المنزل حاليًّا».

قال والده: «تنحَّ عن طريقي أيّها الزنجي»، من دون انفعال أيضًا، وهو يدفع الباب والزنجي ويدخل، وقبّعته ما زالت على رأسه. عندئذ رأى الصبيّ بصمات القدم المتخشّبة على عتبة الباب وعلى البساط الباهت وراء موطئ القدم شبه الآلي الذي بدا يحمل (أو ينقل) ضعفي ثقل الجسد. جعل الزنجي الواقف خلفهما يصرخ: «مسّ[١] لولا! مسّ لولا!».

ثم سمع الصبي – الذي أحسّ كأنّ موجة دافئة تغمره قوامها ذلك السلّم الدائري المفروش بالسجّاد، والثريّات المتوهّجة والبراويز الذهبيّة اللمّاعة – وقعَ القدمين الرشيقتين ورأى صاحبتهما أيضًا، سيّدة، لايدي[٢]، ربّما لم يرَ مثلها من قبل أيضًا، ترفلُ في فستان

---

(١) مسّ Miss ومسز .Mrs ومستر Mr: حيث يرد ذلك على لسان إحدى الشخصيّات، في معرض المناداة أو المخاطبة أو الإشارة إلى شخص آخر فضّلنا تركها كذلك. ذلك أنها تصبح جزءًا من الاسم نفسه، إشارة – كما في مسّ – لا إلى كون السيّدة متزوّجة أم لا، بل إلى الهرميّة الطبقيّة.

(٢) لادي Lady: في عرف الجنوب الأميركي وقتذاك لا تشير هذه الكلمة إلى

Twitter: @ketab_n

رمادي ناعم مزيّن بالتخاريم عند العنق، وتعقد مريلة حول خصرها، وقد رفعت كمّي فستانها، وأخذت تمسح بمنديل بقايا الكعك أو البسكويت عن يديها بينما تدخل إلى الصالة، غير ملتفتة البتّة إلى أبيه، بل إلى البصمات المنطبعة على البساط الزهري وقد علا وجهها الذهول.

صرخ الزنجي متشكيًا: «لقد حاولت منعه، قلت له إنّ...».

قالت بصوت مرتعش: «هلاّ تفضلتَ بالرحيل؟ المايجور دي سباين غير موجود. هلاّ غادرت رجاء؟».

لم يتكلّم أبوه ثانية. فهو لا يتكلّم أكثر من مرّة. لم ينظر إليها حتى. بل وقف متجمّدًا فوق البساط، معتمرًا قبّعته، وحاجباه الكثّان الأقرب إلى الرمادي الفولاذي يرتعشان فوق عينيه الشمعيّتين، وحانت منه نظرة وجيزة فاحصة إلى داخل البيت. ثم بالتصميم نفسه استدار. رآه الصبيّ يرتكز على قدمه السليمة جارًّا قدمه المتخشّبة في حركة دائريّة خلف تلك السليمة، مخلّفًا لطخة أخيرة وطويلة باهتة، غير ملتفت البتّة إليها، ولا إلى البساط. أقفلَ الزنجي الباب خلفهما، على صياح المرأة الهستيري. وقف أبوه أعلى

«السيّدة» بمعنى المرأة المتزوّجة أو المحترمة، بل تحديدًا إلى السيّدة البيضاء من الطبقة الأرستقراطيّة التي ينبغي، بحكم موقعها، ليس احترامها فحسب بل حمايتها أيضًا وعدم المسّ بكرامتها.

Twitter: @ketab_n

درجات الشرفة وكشطَ الطّين العالق بجزمته بحافّتها. وحين بلغ البوّابة وقف لبرهة مزروعًا بصلابة على القدم المتخشّبة، والتفتَ صوبَ المنزل. ثم قال: «جميل وأبيض، أليس كذلك؟ هذا عرَق. عرَق زنجي. ربّما ليس أبيضَ كفاية بعد ليناسبه. ربّما يريد أن يمزجه بمزيد من العرَق الأبيض».

بعد ساعتين كان الصبيّ يقطّع الحطب خلف الكوخ الذي في داخله انشغلت أمّه وخالته وأختاه (بل الأمّ والخالة من دون الأختين، عرف هذا رغم المسافة، ومع أنّ صوت الفتاتين، على ارتفاعه، كان مكتومًا وراء الجدران، فقد أشارَ إلى تبطّل أكيد) في نصب الموقد لإعداد الطعام، حين سمع وقع الحوافر ورأى الرجل المتجلببَ بالكتّان الفاخر على صهوة فرسه الكميتة الأصيلة، وعرفه قبل أن يلمحَ البساط الملفوف أمام الغلام الزنجي الذي يتبعه على حصان جرّ سمين. مرّ به الوجه الغاضب المخضّب بالحمرة واختفى بسرعة شديدة خلف الكوخ حيث يسترخي أبوه وأخوه على كرسيّين؛ وبعد برهة، تقريبًا قبل أن يضع الفأس من يده، سمع مجدّدًا وقع الحوافر ورأى الفرس تعدو ثانية خارجة من الفناء.

راح أبوه ينادي على إحدى الأختين. ثم رآها الصبيّ تخرج لفورها من باب المطبخ، جارّة البساط الملفوف على الأرض من أحد أطرافه، بينما سارت الأخت الأخرى خلفها.

قالت الأولى: «إذا كنتِ لا تريدين مساعدتي على حمله،

Twitter: @ketab_n

فلتذهبي وتعدّي طشتَ الغسيل».

وصاحت الثانية: «أنت يا سارتي![1] حضّر وعاء الغسيل!».

ظهر أبوه، مؤطّرًا بالباب المتهالك، مثلما أطّره من قبل ذلك الباب الرقيق، المنيع ضدّه على حدّ سواء، وبدا وجه الأمّ القلق وراء كتفه.

صاح بالأختين: «هيّا، احملاه». فانحنتا، ضخمتين، بليدتين، كتلة هائلة من الثياب البالية المرفرفة.

قالت الأولى: «لو أنّني تجشّمتُ عناء الإتيان ببساط كل هذه المسافة من فرنسا لما تركته حيث يدوسُ الناس عليه». ثم حملتا البساط.

قالت الأمّ: «آبنر، دعني أتولَّ تنظيفه».

أجابها: «أنت عودي إلى الداخل وجهّزي الطعام، وأنا سأتولّى هذا الأمر».

من مكانه أمام كومة الحطب، خلال ما تبقّى من العصريّة، رآهم الصبيّ؛ البساط المفروش على الأرض المغبرّة بجوار طشت الغسيل الذي تغلي فيه المياه، وقد انكبّت الأختان على العمل بذلك النفور العميق المتكاسل، بينما الأب، متجهّمًا وصارمًا، يشرف على

---

(١) سارتي، مختصر سارتوريس، الصبيّ.

Twitter: @ketab_n

عمليّة التنظيف لكن من دون أن يرفع صوته مجدّدًا. كانت تصله رائحة القلي[1] منزلي الصنع الذي كانتا تستعملانه؛ رأى أمّه تقف بالباب مرّة وتنظر تجاههم وقد لاحَ على وجهها تعبير لم يعد ينمّ عن القلق، بل بات أقرب ما يكون إلى اليأس؛ رأى أباه يلتفت نحوه، فهبط بالفأس، ولمح بطرف عينيه أباه يرفع عن الأرض حجرًا صغيرًا مسطّحًا ويتفحّصه ثم يعود إلى الطشت، وهذه المرّة تكلّمت أمّه:

«آبنر، آبنر، أرجوك لا تفعل، أرجوك يا آبنر».

ثم فرغَ من عمله هو أيضًا. حلّ الغسق وبدأت طيور السّبد الأميركي[2] تغرّد. واشتمّ رائحة القهوة تنبعث من الغرفة التي سوف يتناولون فيها الطعام البارد من وجبة منتصف العصريّة، غير أنّه حين دخل إلى البيت أدرك أنّهم يشربون القهوة ثانية على الأرجح لأنّ النار ما زالت مشتعلة في الموقد، الذي فرش البساط أمامه على ظهري كرسيّين. كانت طبعات قدمي أبيه قد زالت عنه، لتحلّ محلّها تواشيح طويلة أشبه بالأثر الذي تحدثه آلة جزّ عشب صغيرة.

---

(١) محلول لصنع الصابون.

(٢) طائر السّبد الأميركي Whippoorwill : طائر ينام نهارًا ويطير ليلاً، يقتات على الحشرات، ويعرف بصوته المميّز.

Twitter: @ketab_n

وكان البساط ما زال هناك حين تناولوا الطعام البارد وأووا بعدها إلى النوم، مفترشين الغرفة كيفما اتّفق، من دون أن يزعم أحدهم امتلاك ركن يخصّه فيها؛ أمّه على السرير، الذي سيضطجع عليه أبوه لاحقًا، وأخوه الأكبر على السرير الثاني، أمّا هو والخالة والأختان فعلى فُرش من القشّ على الأرضيّة. آخر ما تذكّر الصبيّ رؤيته كان ظلّ القبّعة الحادّ والمسطّح، والمعطف يميل فوق البساط، وبدا له أنّه حتى لم يغمض عينيه حين وجد الظلّ مائلاً فوقه، وقد خبت النار تقريبًا وراءه، بينما القدم المتخشّبة تهزّه، ويأمره الصوت: «أحضر البغل».

حين عاد مع البغل كان أبوه واقفًا بالباب المعتم، حاملاً البساط على كتفه. سأله: «ألن تركب؟».

«لا. أعطني قدمك».

وضع قدمه على يد أبيه الذي رفعه بخفّة مباغتة إلى ظهر البغل العاري (كان لديهم مهر ذات مرّة؛ وما زال الصبيّ يذكره وإن لم يعد يذكر أين ومتى)، وبالسرعة نفسها طرح الأب البساط أمامه. على هدي النجوم سلكا مجدّدًا الدرب نفسها التي سلكاها عصرًا، تلك الدرب المغبرّة المحتشدة بأشجار الخرنوب، ثم عبرا البوّابة والمجاز القاتم كالنفق الذي يفضي إلى مدخل البيت المعتم، حيث قبع على ظهر البغل وأحسّ بالبساط الخشن ينسحب على فخذيه ثم يختفي.

Twitter: @ketab_n

سأله هامسًا: «ألا تريد المساعدة؟». لم يجبه الأب. وسرعان ما سمع مجدّدًا تلك القدم المتخشّبة تخبطُ على الرواق بتلك النهائيّة الخشبيّة الشبيهة بدقّات الساعة، ذاك الإعلان المبالغ به عن الوزن الذي تحمله. البساط، الذي كان مطروحًا لا محمولاً (كان يمكنه أن يميّز ذلك حتى في العتمة) على ظهر أبيه، ارتطم بزاوية الجدار والأرضيّة مُصدرًا جلبة لا تُصدّق، ثم عاد وقع القدم، بطيئًا وهائلاً؛ التمع ضوء في البيت ومكث الصبي، متوترًا، يتنفّس بانتظام وهدوء وبسرعة قليلة فحسب، مع أنّ صوت خبط القدم على الأرض لم يتصاعد البتّة حين عاودت هبوط درجات الرواق؛ ثم رآه.

همسَ الصبي: «ألا تريد أن تركب الآن؟ يمكننا أن نركب كلانا». تبدّل الضوء داخل البيت، فتوهّج قليلاً ثم بهت. إنّه يهبط الدرجات الآن، حدّث الصبي نفسه. وكان قد قرّب البغل إلى جانب مرقاة الخيول[1]؛ سرعان ما صعد أبوه خلفه وأمسك طرفي الرسن بيد واحدة وساط البغل على رقبته باليد الأخرى، لكن قبل أن يبدأ الحيوان بالهرولة كانت ذراع أبيه تحيط برقبته، ويده القويّة المعروقة تعيده إلى حركة المشي العادية.

عند بزوغ أول خيوط الشمس الحمراء، كانوا يضعون المحصول على ظهور البغال. هذه المرّة رأى الفرس الكُميتة قبل

(١) مرقاة الخيول: منصّة ترتفع عن الأرض تستخدم لارتقاء الخيل أو الترجّل عنها.

Twitter: @ketab_n

أن يسمع صوتها، وكان الرجل الذي يمتطيها حاسر الرأس يرتدي القميص بلا ياقة[١]، ووقف مرتجفًا يصرخ بصوت مرتعش مثلما فعلت المرأة في المنزل، بينما بالكاد رفع أبوه رأسه نحوه، قبل أن ينحني مجدّدًا ويستأنف ربط المحراث بالسّمط، بحيث جعل الرجل أعلى الفرس يحدّث ظهره المنحني.

«يجب أن تعرف أنّك أفسدتَ ذلك البساط. ألم يكن من أحد هنا، أيّ من نسائك...»، ثم صمت، وجعل يرتجف، والصبيّ ينظر إليه، بينما وقف الأخ الأكبر في الأثناء مستندًا إلى باب الحظيرة، ماضغًا التبغ، وناظرًا ببطء وثبات من دون أن يركّز نظره على شيء محدّد. «ثمنه مئة دولار. لكنّك لا تملك مئة دولار، ولن تملك في حياتك مثل هذا المبلغ. لذا سأحسمُ عشرين بوشل ذرة من محصولك. سأضيف هذا إلى عقدك وحين تأتي إلى مخزن التموين[٢] يمكنك أن توقّع. هذا لن يهدّئ خاطر مسز دي سباين، لكن ربّما سيعلّمك أن تمسح قدميك قبل أن تدخل إلى منزل مجدّدًا».

---

(١) حاسر الرأس وبلا ياقة: إشارة إلى خروج المايجور دي سباين على عجل من منزله. إذ وقتذاك كان ارتداء القبّعة وياقة القميص يُعدّ من بديهيّات الطريقة التي يظهر بها الرجل، لا سيّما الأرستقراطي. تعبير «بلا ياقة» يتكرّر كثيرًا في عدد من القصص كوصف لحال بعض الشخصيّات أو منزلتها الاجتماعية.

(٢) مخزن التموين: كناية عن متجر داخل المزرعة يبيع فيه المزارعون محصولهم بعد الموافقة على خصم نسبة معيّنة منه لصاحب الأرض.

Twitter: @ketab_n

ثم مضى. نظر الصبيّ إلى أبيه، الذي لم يكن قد قال شيئًا بعد أو رفع رأسه حتى، وانشغل بتعديل ذراع السّمط.

قال الصبيّ: «أبتاه». نظر إليه أبـوه ذلـك الوجـه المقفـل بحاجبيه الكثّين اللذين تحتهما تومض عيناه الرماديّتان ببرود. فجأة هرع الفتى نحوه، ثم توقّف فجأة: «لقد فعلتَ كلّ ما في وسعك! إذا كان يريدك أن تنظّف البساط بطريقة أخرى، فلمَ لم ينتظر ويخبرك كيف؟ لن يحصل على عشرين بوشل! ولا علـى بوشـلاً واحـد! سنجمع المحصول ونخبّئه، وسأتولّى أنا المراقبة...».

«هل أعدت السكّة إلى المحراث مثلما قلت لك؟».

«لا يا سيّدي».

«اذهب وأعدها إذن».

كان ذلك يوم الأربعاء. طوال بقيّة الأسبوع عمل بانتظام في ما هو ضمن قدراته، وأحيانًا في ما يتجاوزها، في مثابرة لا تحتاج إلى توجيه أو إلى تكرار التعليمات؛ ورث ذلك عن أمّه، بفـارق أنّ بعض ما يقوم به على الأقلّ كان يحبّ القيام به، مثل تقطيع الحطب بالفأس متوسّطة الحجم التي كانت أمّه وخالته قد كسـبتا المـال أو ادّخرتاه بطريقة ما لكي تشترياها له علـى الكريسـماس. برفقـة الامرأتين (وذات عصريّة برفقة إحدى الأختين حتى) أنشأ زريبـة صغيرة للخنّوص والبقرة اللذين كانا جزءًا من عقد أبيه مع صاحب

Twitter: @ketab_n

الأرض، وذات أصيل، في غياب أبيه، الذي ذهب إلى مكان ما على ظهر أحد البغلين، ذهب إلى الحقل.

عمل مع أخيه في تمهيد الأرض بالمحراث، أخوه أبقى المحراث مستقيمًا بينما أمسك الرسن، ومشى بجانب البغل المجهد، شاعرًا بالتربة السوداء الكثيفة باردة ورطبة على ركبتيه العاريتين، محدثًا نفسه، ربّما كانت هذه نهاية الأمر. ربّما حتى تلك العشرون بوشلاً التي يبدو صعبًا الاضطرار إلى دفعها لقاء بساط ستكون ثمنًا بخسًا ليتوقّف إلى الأبد ودائمًا عن أن يكون ما اعتاد على أن يكونه؛ شاردًا، بل حالمًا، بحيث اضطر أخوه إلى أن يصيح به لكي ينتبه إلى البغل. ربّما لن يجمع حتى العشرين بوشلاً. ربما سيتراكم كل شيء وتتوازن الأمور مع بعضها ثم تختفي ـ الذرة، البساط، النيران؛ الرعب والحزن، وأن أكون مشدودًا في اتّجاهين متنافرين كأنّما يجرّني جواد من كل جهة ـ ربّما سينتهي هذا كلّه إلى الأبد.

ثم جاء يوم السبت. كان يسرج البغل حين رأى أباه مقبلاً بمعطفه الأسود وقبّعته. قال أبوه: «ليس هذا، بل العربة». ثم بعد ساعتين، قاعدًا في صندوق العربة وراء أخيه وأبيه، اتّخذت العربة منعطفًا أخيرًا، ورأى المتجر المتهالك الأجرد الذي أُلصقت عليه إعلانات التبغ والعقاقير الطبّيّة، وحيث أُسرجت العربات والحيوانات أسفل الشرفة الخارجيّة. ارتقى الدرجات المحتوتة وراء أبيه وأخيه، ثم هناك مجدّدًا رأى صفّي الوجوه الصامتة الشاخصة التي على ثلاثتهم أن يمرّوا بينها. رأى الرجل ذا النظّارات جالسًا

Twitter: @ketab_n

إلى الطاولة الخشبيّة وعرف أنّه القاضي. ثم نظر إلى الرجل الآخر الذي لم يره سوى مرّتين في حياته، وفي المرّتين ممتطيًا صهوة الفرس، لكنّه يرتدي هذه المرّة قميصًا وربطة عنق، وقد لاحت في عينيه نظرة تحدّ شرسة نشوانة، وعلت وجهه ملامح لا تنمّ عن الغضب بل عن عدم التصديق والذهول الذي لم يكن الصبيّ ليعرف أنّ سببه هذه الواقعة غير المعقولة، واقعة أنّه يتعرّض للمقاضاة من قبل أحد العاملين لديه. تقدّم الصبي ووقف أمام أبيه وصاح بالقاضي: «لم يفعل ذلك، لم يحرق شيئًا...».

قال أبوه: «عُد إلى العربة».

قال القاضي: «يحرق؟ هل أفهم من هذا أنّ البساط حُرق أيضًا؟».

قال أبوه: «هل ثمّة هنا من يزعم أنّه تعرّض للحرق؟ عد إلى العربة».

لكنّه لم يعد. بل بالكاد تراجع إلى عمق الغرفة، المحتشدة مثل سابقتها، لكنّه لم يجلس هذه المرّة بل وقف ضاغطًا على الأجساد الجامدة، مصغيًا إلى الأصوات:

«وأنت تزعم أنّ عشرين بوشلاً من الذرة تعويض مبالغ به عن الضرر الذي أحدثته بالبساط؟».

Twitter: @ketab_n

«لقد جاءني بالبساط قائلاً إنّه يريد محو الطبعات عنه. فغسلته وأعدته إليه».

«لكنّك لم تعده إليه مثلما كان قبل أن توسّخه».

لم يجب أبوه، ولبرهة طويلة سادَ الغرفة سكون تامّ، ما عدا صوت التنفّس، التنفّس الخافت المنتظم النابع من الإصغاء التامّ والتركيز.

«أترفض الإجابة عن هذا يا مستر سنوبس؟». مجدّدًا لم يجب أبوه. «سأحكم ضدّك يا مستر سنوبس، سأحكم أنّك مسؤول عن الأذيّة التي لحقت ببساط المايجور دي سباين... لكنّ عشرين بوشلاً من الذرة تبدو تعويضًا مبالغًا به بعض الشيء على رجل في مثل أوضاعك. يقول المايجور دي سباين إنّ ثمن البساط مائة دولار. والبوشل الواحد من ذرة أكتوبر يساوي نحو خمسين سنتًا. أتصوّر أنّه إذا كان المايجور دي سباين احتمل خسارة ٩٥ دولارًا لقاء شيء دفع ثمنه نقدًا، فيمكنك تحمّل دفع خمسة دولارات لم تكسبها بعد. أحكم بأن تدفع لقاء الضرر الذي ألحقته بالمايجور دي سباين عشرة بواشل تضاف إلى عقدك معه، وأن تدفعها من محصولك عند الحصاد. رفعت الجلسة».

انتهى الأمر بسرعة. كان الصباح ما زال في بدايته. ظنّ أنّهم سيعودون إلى البيت وربّما إلى الحقل، بما أنّهم قد تأخّروا سلفًا

Twitter: @ketab_n

عن جميع المزارعين الآخرين. لكن بدلاً من ذلك مرّ أبوه من أمام العربة، مشيرًا بيده للأخ الأكبر لكي يتبعه بها، واجتاز الشارع إلى ورشة الحدادة في الجهة المقابلة؛ هرع وراء والده، وأخذ يكلّم، همسًا، وجهه الهادئ القاسي تحت القبّعة الرثّة: «لن يحصل على عشرة بواشل. ولا على بوشل واحد... سوف...». حملق به أبوه لبرهة، وجهه ساكن تمامًا، حاجباه الكثّان معقودان فوق عينيه الباردتين، صوته يكاد يكون جذلاً ولطيفًا:

«أهذا رأيك؟ حسنًا، سننتظر حتى أكتوبر على أيّ حال».

لم تتطلّب صيانة العربة ـ وضع مسمار أو اثنين في العجلات ـ وقتًا طويلاً، فقد انتهى الأمر بقيادة العربة إلى النهير الصغير خلف المتجر وركنها هناك، حيث راح البغلان يعبّان الماء من وقت لآخر، والصبيّ على المقعد ممسكًا الرسن، ناظرًا إلى المنحدر، وإلى النفق القاتم لسقيفة الحدّاد الذي يهبط بمطرقته ببطء بينما جلس أبوه على مزلاج خشبي طويل، إمّا متحدّثًا وإمّا مصغيًا، وكان ما زال على هذه الحال حين عاد الصبيّ بالعربة التي يقطر منها الماء من النهير وركنها أمام الباب.

قال أبوه: «خذها واركنها في الظلّ». ففعل ذلك وعاد. كان أبوه والحدّاد ورجل ثالث يجلسُ القرفصاء داخل المتجر يتجاذبون أطراف الحديث عن الحصاد والحيوانات؛ الصبيّ الذي أقعى أيضًا في الغبار العابق بغاز الأمونياك بين حدوات الجياد ومحفّات

Twitter: @ketab_n

الصدأ، سمع أباه يخبر برويّة قصّة طويلة تعود إلى ما قبل ولادة أخيه الأكبر، حين كان تاجر خيول محترفًا. ثم جاء إليه حيث يقف أمام ملصق إعلاني لسيرك عند جانب الورشة، محدّقًا بصمت وشرود في رسم الجياد القرمزيّة، وأزياء مؤدّي المجازفات الحريريّة وسراويلهم الضيّقة، ووجوه الهزليّين التي تعلوها الأصبغة، وقال له: «حان وقت الطعام».

لكنّهم لم يعودوا إلى الكوخ. جلس القرفصاء بجانب أخيه خارج المتجر، حتى خرج أبوه من المتجر يحمل كيسًا ورقيًّا أخرج منه شريحة من الجبن قسّمها بعناية بسكّين الجيب إلى ثلاث حصص، ثم أخرج رقائق البسكويت من الكيس نفسه. أقعوا ثلاثتهم على الشرفة الخارجيّة للمتجر وتناولوا الطعام، ببطء وصمت؛ ثم عادوا إلى المتجر، وشربوا من كوز معدني مياهًا فاترة مطعّمة برائحة الدلو المصنوع من خشب السّدر. ولم يعودوا إلى الكوخ بعد ذلك أيضًا. بل ذهبوا إلى ميدان بيع الخيول، وهو كناية عن سياج طويل احتشد الرجال خلفه، قعودًا ووقوفًا، وراحت الجياد تُساق تباعًا، حيث تختال وتجري جيئة وذهابًا بينما تتمّ صفقات البيع والشراء والمساومات الطويلة. بدأت الشمس تميل نحو الغروب، بينما انشغلوا ثلاثتهم بالمشهد؛ الأخ محملقًا بعينيه الوحليّتين، ماضغًا تبغه الدائم، والأب معلّقًا من وقت لآخر على أحد الجياد، من دون أن يوجّه كلامه إلى شخص بعينه.

Twitter: @ketab_n

وصلوا إلى البيت بُعيدَ الغروب. تناولوا العشاء على ضوء القنديل، ثم، قاعدًا على العتبة، شاهدَ الصبيّ الظلمة تهبطُ بالكامل، مصغيًا إلى طيور السّبد وإلى الضفادع، حين سمع صوت أمّه: «آبنر! لا! لا!، آه يا إلهي، آبنر»، فقام شاعرًا ببعض الدوار ورأى الضوء المنبعث من الباب حيث شمعة مشتعلة في عنق زجاجة، وحيث أبوه الذي ما زال بالمعطف والقبّعة، ويبدو في آن جدّيًّا وهزليًّا، كأنّه تأنّق خصوصًا لممارسة عنف دنيء وطقوسي، يعيد إفراغ مخزون القنديل من الكاز في الصفيحة التي تتّسع لخمسة جالونات، بينما الأمّ تجذبه من ذراعه، حتى نقل القنديل إلى اليد الأخرى، ودفعها، ليس بوحشيّة أو بعنف، فقط بقوّة، نحو الجدار، حيث حاولت موازنة نفسها لكي لا تقع أرضًا، فاغرة فمها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح اليأس العاجز نفسها التي في صوتها. ثم رآه أبوه واقفًا بالباب.

«اذهب إلى الحظيرة واجلب صفيحة الكاز تلك التي نُزيّت بها العربة».

لكنّ الصبي لم يبرح مكانه. ثم تمكّن من التكلّم.

صرخ: «ماذا... ماذا ستـ...».

قال أبوه: «اذهب وأحضر الكاز، هيّا».

ثم هرع إلى الحظيرة: تلك العادة القديمة، الدم القديم الذي لم يُسمح له بأن يختاره لنفسه، الذي ورثه هكذا والذي جرى طويلاً

Twitter: @ketab_n

(ومن يعرف في أيّ أرض، يحبلُ غضبًا ووحشيّة وشهوة) قبل أن يصل إليه. أستطيع الاستمرار، قال في سريرته، أستطيع الاستمرار في الجري وألاّ أنظر خلفي إطلاقًا، وألاّ أضطرّ إلى رؤية وجهه ثانية. بيد أنّني لا أستطيع، لا أستطيع. أحضر الصفيحة الصدئة، وراح الكاز يترجرج في داخلها وهو يجري بها إلى البيت، إلى أبيه، وإلى نحيب أمّه في الغرفة الأخرى. ناوله الصفيحة.

صاح به: «ألن ترسل زنجيًّا حتى؟ على الأقلّ أرسلتَ زنجيًّا في المرّة السابقة!».

هذه المرّة لم يضربه. تحرّكت اليد أسرع من الضربة حتى، رأى اليد نفسها التي وضعت الصفيحة على الطاولة بعناية شبه موجعة منعكسة على سطح الصفيحة وهي تتحرك نحوه بسرعة أكبر من أن تتبعها عيناه، ثم تمسك به من تلابيب قميصه وتسحبه على أطراف أصابعه قبل أن يفارق انعكاسها الصفيحة، ويرى وجه أبيه شاخصًا نحوه بضراوة متجمّدة منقطعة النفس، والصوت الميت البارد يخاطب أخاه الأكبر المتّكئ إلى الطاولة، يمضغ التبغ بحركة الفم الغريبة تلك التي تتميّز بها الأبقار:

«أفرغ هذه الصفيحة في تلك الكبيرة وامضِ. سأتبعك لاحقًا».

قال الأخ: «يستحسن أن نقيّده إلى السرير».

قال الأب: «افعل ما أقوله لك».

Twitter: @ketab_n

ثم جرّ الصبيّ بيده العظميّة القاسية المنغرزة في كتفيه، تقريبًا رافعًا إيّاه عن الأرض، إلى الغرفة الأخرى، أمام الأختين الجالستين بأفخاذ ثقيلة منفرجة على الكرسيّين قبالة الموقد البارد، وإلى حيث جلست أمّه وخالته جنبًا إلى جنب على الفراش، وخالته تحيط كتف أمّه بذراعيها.

قال الأب: «أمسكي به». فأجفلت الخالة. «ليس أنت. ليني، أمسكي به. أريد أن أراك تفعلين ذلك». أمسكته أمّه من معصمه. «ستمسكينه بقوّة أكبر. إذا ما أفلت منك ألا تعرفين ما الذي سيفعله؟ سوف يذهب ويخبر دي سباين». وأومأ برأسه صوبَ الطريق «ربّما من الأفضل أن أوثقه».

همست أمّه: «سأمسك به».

«فلأرك تفعلين ذلك إذن».

ثم خرج. القدم المتخشّبة القاسية تخبط على الأرضيّة الخشبيّة، قبل أن يتلاشى صوتها.

أخذ يصارع لتحرير نفسه. تشبّثت به أمّه بذراعيها الاثنتين بينما راح يحاول تحرير نفسه منها. سيصبح أقوى في النهاية، كان يعرف ذلك. لكن لا وقت لديه لانتظار ذلك «دعيني»، صرخ، «لا ترغميني على ضربك».

قالت الخالة: «دعيه، إذا لم يذهب، فقسمًا بالله سأذهب إلى ذلك المنزل بنفسي».

Twitter: @ketab_n

قالت أمّه: «ألا تفهمين أنني لا أستطيع فعل ذلك، سارتي سارتي، لا، لا، ساعديني يا ليزي!».

ثم أفلت منها. حاولت خالته الإمساك به لكنّ الأوان كان قد فات. راوغها وهو يركض، وبينما أمّه تحاول الإمساك به وقعت أرضًا، فهتفت بالأخت الأقرب «أمسكي به، أمسكي به يا نات». لكنّها تأخّرت كثيرًا أيضًا. فلم تكن (الأختان كانتا توأمين ولدتا في الوقت نفسه، لكنّ كل واحدة منهما، كونها محاصرة بهذا القدر من اللّحم الحيّ والضخامة والوزن، ما كانت تعطي الانطباع بأنّها تشبه أيّ فرد آخر في العائلة) قد شرعت بعد بالنهوض عن الكرسيّ، رأسها، وجهها، وحده بالكاد التفت، كاشفًا له في برهة خاطفة وفرة هائلة من الملامح الأنثويّة اليافعة التي لم تدفعها المفاجأة حتى إلى الاضطراب، ولم ترتسم عليها سوى البلادة عينها. ثم خرج من الغرفة، والكوخ، إلى الغبار الكثيف على الدرب المضاء بالنجوم، المحتشد بنباتات صريمة الجدي. وراح الدرب يجري ببطء شديد تحت قدميه المسرعتين، ليصل أخيرًا إلى البوّابة ويدخل ويركض وقلبه ورئتاه تقفز، ثم عبر الطرقة المفضية إلى المنزل المضاء. لم يقرع الباب، بل دخل مقتحمًا، لاهثًا، عاجزًا عن النطق، رأى وجه الزنجي المذهول من دون أن يعرف متى ظهر.

صرخ، لاهثًا: «دي سباين، أين...»، ثم رأى الرجل الأبيض

Twitter: @ketab_n

يبرز من باب صغير في نهاية الصالة، فصرخ بـه: «الحظيـرة! الحظيرة!».

«ماذا؟ الحظيرة؟».

«أجل، الحظيرة!».

صرخ الرجل الأبيض: «أمسك به!».

لكنّ الأوان كان قد فات هذه المرّة أيضًا. أمسكه الزنجي من قميصه، الذي لكثرة ما بلي من الغسيل تمزّق في يده. وخرج من الباب وإلى الممرّ ثانية، ولم يتوقّف عن الركض حتى وهو يصرخ في وجه الرجل الأبيض.

خلفه، كان الرجل الأبيض يصرخ بالزنجي. «حصاني، جئني بالحصان»، وفكّر للحظة في عبور الحديقة وتسلّق السياج إلى الدرب، لكنّه لم يكن يعرف الحديقة ولا مدى ارتفاع السياج المعرّش، ولم يجرؤ على المخاطرة. لذا ركض في الطرقة، دمه وأنفاسه تزأر؛ سرعان ما عاد إلى الدرب وإن لم يكن قادرًا على تبيّنه. ولم يكن يتسطيع السماع أيضًا: كان الحصان قد بات تقريبًا فوقه مباشرة قبل أن يتمكّن من سماعه، وحتى عندئذ استمرّ في الركض كأنّما إلحاح حزنه الوحشي وحاجته ينبغي أن ينبتا له جناحين، منتظرًا اللحظة المطلقة، اللحظة الحاسمة، حتى يقفز جانبًا إلى قناة الدرب المليئة بالحشائش الضارية، بينما هدر الحصان

Twitter: @ketab_n

متجاوزًا إيّاه، وقد طغى ظلّه الرهيب للحظة على ضـوء النجـوم، على سماء بداية الصيف الرقيقة التي حتى قبـل أن يختفـي ظـلّ الحصان وراكبه، كانت قد تلطّخت في ناظريه بعنف وفجائيّة: زئير طويل كتيم لا يُعقل لطّخ النجوم، وهو قفز مجدّدًا وعاد إلى الدرب، واستأنف العدو، مدركًا أنّه فات الأوان، ومع ذلك ظلّ يعدو، حتـى بعد سماعه الطلقة الأولى، والطلقتين الأخريين بعد ثانيـة[1]، لكنّـه توقّف عن الركض من دون أن يعرف أنّه توقّف، صارخًا «أبتـاه! أبتاه!»، ثم استأنف الركض قبل أن يدرك أنّه بدأ يركض، متعثـرًا، واقعًا فوق شيء ما، ثم واقفًا ثانية من دون أن يتوقّف، ناظرًا خلفه إلى النيران المضطرمة بينما هو ينهض، راكضًا بـين الأشـجار السوداء، لاهثًا، باكيًا «أبتاه، أبتاه!».

عند منتصف الليل كان جالسًا أعلى هضبة. لم يعـرف أنّـه منتصف الليل ولم يعرف كم من المسافة قد قطع. لكن لم يعـد الآن من نيران تضطرم خلفه، وقد قعدَ الآن، مديرًا ظهره إلى ما أسـماه بيتًا طوال أربعة أيّام، شاخصًا نحو الغابات المظلمة التي سـيدخلها حين يستعيد أنفاسه مجدّدًا، صغيرًا، مرتجفًا في العتمـة الجليديّـة، مدثّرًا نفسه بما تبقّى من قميصه الهزيل المهترئ، والحزن واليأس لم يعودا الآن رعبًا وخوفًا، بل حزنًا ويأسًا فحسب. أبي، أبي، حدّث

(١) إشارة إلى أنّه تمّ إطلاق الرصاص على آبنر سنوبس وابنه الأكبـر معًـا (بحسب تريزا تاونر وجايمس كاروثرز في كتابهما «مسرد وليم فوكنر»).

Twitter: @ketab_n

نفسه «كان شجاعًا!»، صرخ فجأة، بصوت مسموع، لكن غير مرتفع، لا يتجاوز الهمس «لقد كان هناك! كان في الحرب! كان في كتيبة فرسان الكولونيل سارتوريس»، غير عالم أنّ أباه ذهب إلى تلك الحرب جنديًا بالمعنى الأوروبي القديم الجميل، دون بزّة عسكريّة، غير معترف بسلطة أحد، وغير مانح ولاءه لأيّ شخص أو جيش أو راية، ذاهبًا إلى الحرب مثلما فعل مالبروك[1] نفسه: من أجل الغنائم. ولم يكن ليعني له شيئًا، بل عنى أقلّ من لا شيء، أن تكون غنائم أعدائه أم أنصاره.

عبرت كوكبة النجوم السماء ببطء. سرعان ما سيحلّ الفجر ثم تشرق الشمس. وسيشعر بالجوع. لكن هذا سيكون غدًا، أمّا الآن فلا يشعر إلاّ بالبرد، الذي قد يعالجه بالمشي. هدأت أنفاسه، فقرّر أن ينهض ويتابع طريقه، ثم اكتشف أنّه كان غافيًا لأنّه عرف أنّه الفجر تقريبًا، وأنّ الليل شارف على الانتهاء. عرف ذلك من طيور السّبد التي احتشدت بين الأشجار القاتمة المائلة تحته، بحيث إنّه مع دنوّ الفجر اقتربت العصافير أكثر فأكثر من بعضها، حتى لم يعد

(١) مالبروك: تحريف لاسم دوق مالبورو: أحد أجداد السير ونستون تشرشل، كان يعدّ عبقريًا في فنون الحرب في زمنه. لكنّه يُذكر هنا بسبب ما عُرف عن جشعه واستغلاله الحرب لتحقيق المكاسب خلال ما يُعرف بحرب الملكة آن (١٧٠٢ ــ ١٧١٣). وقد انتقده جوناثان سويفت علانية كما شاعت أغنية فرنسيّة في القرن التاسع عشر تسخر منه بعنوان «مالبورو ذهب إلى الحرب».

Twitter: @ketab_n

من مسافة بينها. نهضَ، شاعرًا ببعض التشنّج في أوصـــاله، لكـــنّ المشي سيعالج هذا أيضًا، وقريبًا ستشرق الشـــمس. انحـــدر علـــى الهضبة، نحو الغابات القاتمة التي تصدح فيها بلا توقّف العصـــافير الفضيّة السائلة ــ ذلك القرع الملـــحّ والمســـتمرّ للقلـــب اللّجـــوج المضطرب لليل أواخر الربيع. لم ينظر وراءه.

Twitter: @ketab_n

سقفٌ جديدٌ للربّ(١)

استيقظَ أبي قبل الفجر بساعة وركبَ البغل إلى منزل كليغرو لكي يستعير منه المفلعة والمطرقة. وكان يفترض أن يعود في غضون أربعين دقيقة. لكن أشرقت الشمس وفرغتُ من حلب الأبقار وإطعامها، وبدأت بتناول إفطاري حين عاد، ومعه البغل الذي لم يكن فقط شديد

---

(١) **سقف جديد للربّ**: عنوان القصّة بالإنجليزيّة هو Shingles for the Lord وتعني Shingles الصفائح الخشبيّة الصغيرة الرقيقة التي يُكسى بها السقف في صفوف متراكبة.

نشرت للمرّة الأولى في «ساترداي إيفننغ بوست» عام ١٩٤٣. وهي القصّة الثالثة لفوكنر التي تتمحور حول عائلة غرير (بعد «جنديّان» و«لن نفنى»)، وهي عائلة فقيرة تعيش في «فرنشمانز بند» في مقاطعة يوكناباتوفا الوهميّة. لكن على عكس الطابع المأساوي للقصّتين السابقتين فإنّ هذه القصّة تنحو منحًى كوميديًا، في تصويرها لحياة الناس البسطاء وعلاقتهم بالدين وبالتجارة، كما يسخر فيها فوكنر، مثلما يرى إدوارد فولبي، من سياسات تدخّل الحكومة الفدراليّة الأميركيّة في حياة الناس، والتي أرساها روزفلت في الثلاثينيّات من القرن الفائت من خلال برنامجه «نيو ديل»، ولا سيّما من «مشروع إدارة العمل» الذي هدف إلى خفض البطالة عبر منح الناس فرصة المزيد من الكسب المادّي عبر العمل في المشاريع العامّة.

Twitter: @ketab_n

الإجهاد بل أيضًا على وشك الإصابة بالحازوقة[1].

«يصيدُ الثعالب!»، قال أبي متبرّمًا «يصيد الثعالب! رجلٌ في السبعين، يضع كِلتا قدميه وإحدى ركبتيه في القبر، يكمن طوال اللّيل على هضبة، ظانًا نفسه يصغي إلى جري ثعالب لن يسمعها حتى، ما لم تقف على الجذع نفسه الذي يجلس عليه وتنبح عاليًا في أذنه». ثم قال لأمّي: «عجّلي بالإفطار، إنّ ويتفيلد هناك في هذه اللّحظة بالذات، يقف مستنفرًا أمام تلك الشجرة المقطوعة حاملاً الساعة في يده».

كان الأمر كذلك. حين وصلنا إلى الكنيسة لم نرَ شاحنة سولون كويك التي حولّها إلى حافلة مدرسيّة فقط، ولكن أيضًا فرس المبجّل ويتفيلد العجوز أيضًا. أوثقنا البغل إلى شجيرة وعلّقنا دلو زوّادتنا[2] على غصن. حمل أبي المفلعة والمطرقة والأسافين وحملت الفأس، ومضينا إلى الشجرة المقطوعة حيث جلس سولون وهومر بوكرايت، كلّ منهما معه مفلعته ومطرقته وأسافينه وفأسه، على حطبتين كبيرتين، أمّا ويتفيلد فكان واقفًا مثلما قال أبي تمامًا يرتدي

---

(١) حالة يصاب بها الحصان عادة، تعرف باسم thump، ويصاب بها الحصان حين يعاني من إجهاد كبير، وعلى خلاف الحازوقة البشريّة، فإنّ الحصان يصدر صوتًا شبيهًا بالحازوقة من صدره.

(٢) كانت العادة أن يأخذ المزارعون والعمّال وجبة الطعام الرئيسيّة في دلو أو سطل.

Twitter: @ketab_n

قميصًا أبيض بلا ياقة وقبّعة وسروالاً أسود ويضع ربطـــة عنـــق، حاملاً الساعة بيده. كانت ساعة ذهبيّة وفي وهج الشمس الصباحيّة بدت ضخمة كحبّة قرع مكتملة النمو.

قال: «لقد تأخّرت».

روى أبي ثانية أنّ العجوز كليغرو كان يصطاد الثعالب طوال الليل، ولم يجد في البيت من يعيره المطرقة سوى مســز كليغـــرو والطبّاخة. وبطبيعة الحال لم تكن الأخيرة لتعيرَ أحدًا شيئًا من عدّة سيّدها، أمّا زوجته فتعاني من صمم أفدح من صمم زوجها. فإذا ما هرعتَ إليها وأخبرتها أنّ بيتها يشتعل، فإنّها ستهزّ رأسها قائلة إنّ هذا ما حسبته، هذا ما لم تأمر طبّاختها بأن تطلق عليك الكلاب قبل أن تتمكّن حتى من فتح فمك.

قال ويتفيلد: «كان يمكنك الذهاب بالأمس واستعارة المطرقة، أنت تعلم منذ شهر أنّك وعدت بتخصيص هذا اليوم فقط دون جميع أيّام الصيف لكي تساعد على بناء سقف لبيت الربّ».

قال أبي: «لم نتأخّر سوى ساعتين، أحسب أنّ الربّ ســيغفر ذلك. والربّ لا يهمّه الوقت بأيّ حال، كلّ ما يهمّه هو الخلاص».

لم ينتظر ويتفيلد حتى يفرغ أبي من كلامه. شـــعرت كأنّــه صار أطول قامة، وهو يقصف أبي مثل وابل من المطر، «إنّــه لا يهتمّ بأيّ منهما! ولماذا يهتمّ بهما ما دام يملكهما؟ ولماذا عليــه أن

Twitter: @ketab_n

يلتفتَ وينظر إلى أرواح الرجال المساكين الذين لا يستطيعون استعارة العدّة في الوقت المحدّد لاستبدال سقف كنيسته، لا أعرف هذا أيضًا. ربّما لأنّه خلقهم. ربّما قال لنفسه: لقد خلقتهم؛ لا أعرف لماذا. لكن بما أنّني فعلت ذلك، فأنا الربّ، سأشمّر عن ذراعي بنفسي وأجرّهم إلى الجنّة سواء أأرادوا ذلك أم لا!».

لكن هذا الكلام ما عاد يقدّم ولا يؤخّر الآن، وأحسب أنّه عرف ذلك، تمامًا مثلما عرفَ أنّه لن يُنجَز شيء من العمل ما دام سيبقى موجودًا بيننا. أعاد الساعة إلى جيبه وأشار إلى سولون وهومر لكي يقفا، وجميعنا خلعنا قبّعاتنا ما عداه، حيث وقف شاخصًا بوجهه نحو الشمس، مغمضًا عينيه، وحاجباه يبدوان مثل يسروع طويل أخضر داكن يقف على حافّة جرف. وقال: «يا ربّ اجعلها ألواحًا جيّدة مستقيمة لكي يسهل رصفها، وسهّل انفلاقها؛ فهي من أجلك»، وفتح عينيه وشخص نحونا ثانية، غالبًا إلى أبي، وذهب وفكّ فرسه واعتلاها، شأن العجائز، ببطء ومشقّة، ومضى مبتعدًا.

وضع أبي المفلعة والمطرقة وصفّ الأسافين الثلاثة بالترتيب على الأرض وحمل الفأس، قائلاً:

«حسنًا يا شباب فلنبدأ. فقد تأخّرنا بما فيه الكفاية».

فقال سولون: «أنا وهومر لم نتأخّر، جئنا منذ ساعتين».

Twitter: @ketab_n

هذه المرّة لم يكن وهومر جالسين على الحطبتين، بل مقرفصين على الأرض. ثم لاحظت أنّ هومر يبري قضيبًا لم ألاحظ أنه يحمله من قبل. قال سولون: «جئتُ قبل ساعتين أو أكثر بقليل.. تقريبًا».

وقف أبي نصف محنيّ، حاملاً الفأس: «فلنسلّم جدلاً أنك جئت من ساعتين. فما القضيّة؟».

قال هومر: «أيّ قضيّة؟».

«حسنًا، هما ساعتان، ماذا إذن؟».

قال سولون: «إذن هي وحدة عمل تساوي حاصل عمل ثلاثة رجال ضرب اثنين أو ما مجموعه ستّ ساعات عمل». حين وصلت «إ.م.ع»(١) إلى مقاطعة يوكناباتوفا(٢) وبدأت بمنح الوظائف والطعام والبطّانيّات، ذهب سولون إلى جيفرسون لكي يحصل على عمل هناك. كان صبيحة كلّ يوم يقودُ شاحنته التي حوّلها إلى حافلة مدرسيّة مسافة اثنين وعشرين ميلاً إلى البلدة ويعود ليلاً. فعل ذلك

---

(١) أي «إدارة مشاريع العمل» Work Progress Administration.

(٢) يوكناباتوفا: Yoknapatawpha: اسم المقاطعة الوهميّة التي جعلها فوكنر مسرحًا للكثير من أعماله الروائيّة والقصصيّة، واسمها مشتقّ من كلمتين هنديّتين «يوكنا» وتعني أرض و«بوتوفا» وتعني «الشقاق»، وكان فوكنر يزعم أنّ الكلمة المركّبة تعني «المياه التي تتدفّق بطيئة على الأرض المستوية». أمّا جيفرسون التي يأتي ذكرها لاحقًا فهي مركز هذه المقاطعة.

Twitter: @ketab_n

لأسبوع تقريبًا قبل أن يكتشف أنّه لن يضطرّ إلى أن يسجّل مزرعته باسم شخص آخر لكي يحصل على وظيفة من الوكالة فحسب، بل إنّه لا يحقّ له حتى بامتلاك الحافلة المدرسيّة التي صنعها بنفسه[1]. لذا قفل عائدًا تلك الليلة ولم يعد إطلاقًا، ومنذ ذلك الوقت يستحسن ألاّ يأتي أحد على ذكر «إ.م.ع» أمامه إلاّ إذا كان ينوي الشجار معه، مع أنّه كان أحيانًا يأتي بنفسه على ذكر أرقام مستنبطة من وحدات العمل مثلما يفعل الآن: «أصبح هناك ستّ وحدات ناقصة إذن».

قال أبي: «أربع منها كان يمكن أن تنهيها أنت وهومر بينما تنتظرانني هنا».

قال سولون: «إلاّ أنّنا لم نفعل، لقد وعدنا ويتفيلد بالقيام بوحدتين من الاثنتي عشرة وحدة التي تتكوّن كل واحدة منها من ثلاث ساعات، للمساعدة على تأمين ألواح خشبيّة جديدة لسقف الكنيسة. وجئنا إلى هنا منذ شروق الشمس بانتظار مجيء الوحدة الثالثة لكي نبدأ. لكن لا تبدو ملتزمًا بتلك الأفكار الحديثة عن العمل التي تجتاح البلاد منذ بضع سنوات».

سأله أبي: «أيّ أفكار حديثة؟ أعرف أنّ هناك فكرة واحدة

(١) كان من شروط الحصول على عمل من «إدارة مشاريع العمل» التي أنشئت لمساعدة العاطلين عن العمل أن يثبت المتقدّم لها أنّه ليس من أصحاب الأملاك، وليس له أيّ مورد آخر.

Twitter: @ketab_n

عن العمل، قبل أن يُنجز العمل لا يكون قد انتهى، وعندما يُنجز يكون قد انتهى».

يرى هومر القضيب ثانية بضربة سكّين طويلة ثابتة. كان سكّينًا حادًّا كشفرة.

أخرج سولون علبة السعوط وملأ غطاءها وأماله نحو شفتيه ثم قدّم السعوط لهومر. هزّ الأخير رأسه رافضًا، فأعاد إقفال العلبة ودسّها ثانية في جيبه.

قال أبي: «إذن، فقط لأنّني اضطررت إلى أن أنتظر ساعتين عجوزًا في السبعين لكي يعود من صيد الثعالب، وهو الذي لا شأن له في المكوث في الغابة طوال الليل مثلما لا شأن له في السهر في ملهى على الطريق السريع، فعلينا نحن الثلاثة أن نرجع غدًا لكي ننهي تينك الساعتين التي أنت وهومر...».

قال سولون: «أنا لن أفعل، لا أعرف بشأن هومر. لقد وعدت ويتفيلد بيوم واحد. وجئت منذ شروق الشمس للبدء بالعمل. وعند المغيب سأعتبر أنّ عملي قد انتهى».

قال أبي: «فهمت، فهمت. سأضطرّ إلى العودة وحدي. سأضطرّ إلى تخريب عملي الصباحي لكي أعوّض الساعتين اللتين أمضيتهما أنت وهومر تستريحان. سيكون عليّ أن أمضي ساعتين غدًا لأعوّض عن ساعتي اليوم اللتين لم تعملا خلالهما أنت وهومر».

Twitter: @ketab_n

قال سولون: «الأمر يتجاوز فترة الصباح. لن يعود هناك فترة صباح أساسًا، لأنّ هناك ستّ وحدات متبقّية. ستّ ساعات من عمل الرجل الواحد. ربّما تستطيع أن تعمل بضعف سرعة هومر وسرعتي وتنهي العمل في أربع ساعات، لكنّني لا أحسب أنّك تستطيع أن تعمل بسرعة مضاعفة ثلاث مرّات وتنهي العمل بساعتين».

عندئذ انتصب أبي واقفًا. وراح يتنفّس بصعوبة، حتى أنّنا سمعنا صوت أنفاسه. وقال: «إذن، إذن»، ولوّح بالفأس ثم هبط به على إحدى الحطبتين، «إذن سأغرّم نصف يوم من وقتي الخاصّ، من عملي الخاصّ الذي ينتظرني في المنزل في هذه الدقيقة بالذات، لكي أنجز ستّ ساعات عمل إضافيّة تعويضًا عن عمل الساعتين الذي لم تقوما به أصلاً بكلّ بساطة ووضوح، لأنّني مزارع كادح عادي أحاول بذل أقصى جهدي، ولست مليونيرًا يملك شركة مطارق من عائلة كويك أو بوكرايت».

بعدئذ انكبّوا على العمل، مقطّعين الحطبات إلى شرائح والشرائح إلى صفائح، لكي تكون جاهزة لتال وسنوبس والآخرين الذين وعدوا بأن يبدأوا غدًا بوضع السقف الجديد للكنيسة بعد أن ينتهوا من نزع الصفائح القديمة. أقعوا بشكل شبه دائري على الأرض، وثبّت كلّ منهم حطبته بين قدميه وبدأ يعمل بالمفلعة والمطرقة على تقطيع الشرائح. عمل سولون وهومر ببطء ورتابة

Twitter: @ketab_n

كساعتين تتعاقب تكّاتهما، أمّا أبي فانهال بمطرقته بكل عزم كأنّه يقتل أفعى «مقسين». ولو كانت ضرباته بنصف السرعة التي فعل بها ذلك، لأنجز من الشرائح ما ينجزه سولون وهومر معًا، لكنّه يرفع المطرقة عاليًا ويبقيها هناك لما يبدو لحظة كاملة أحيانًا ثم يهبط بها بكلّ قوّة على شفرة المفلعة، فلا تنفلق قطعة الخشب فحسب، بل إنّ المفلعة تنفصل عن المقبض وتقع على الأرض، ويروح أبي يحاول انتزاعها ببطء وثبات وقوّة، كأنّه يتمنّى أن تبقى منغرزة في جذر أو صخرة ما.

قال سولون: «مهلاً، مهلاً، إذا لم تنتبه جيّدًا فلن يكون لديك ما تفعله اليوم أو خلال الساعات الستّ الإضافيّة صباح الغد، سوى الراحة».

لم يرفع أبي رأسه، وقال «تنحّ قليلاً». وفعل سولون ذلك. ولو لم يزح دلو المياه من دربه لفلقه أيضًا، ولتطايرت شظايا الخشب مباشرة من أمام خدّ سولون كشفرة منجل.

ثم قال سولون: «ما يجدر بك فعله هو أن تستأجر أحدهم لكي ينجز عنك هذه الوحدات الإضافيّة».

قال أبي: «بأيّ مال؟ لا أملك خبرة الـ إ.م.ع في مساومة العمّال. تنحّ قليلاً».

لكن سولون كان قد تحرّك وحده هذه المرّة. وقد اضطرّ أبي

Twitter: @ketab_n

إلى تغيير وضعيّته بالكامل لكي لا تطير قطعة الخشب التي يفلقها بصورة منحرفة. فلم تصب الضربة سولون هذه المرّة أيضًا، وراح أبي ينزع المفلعة، ببطء وقوّة وثبات، عن الأرض.

وقال سولون: «ربّما هناك شيء آخر عدا المال يمكنك المقايضة به. ربّما يمكنك الاستفادة من ذلك الكلب».

عندئذ توقّف أبي عن العمل فعلاً. ولم أنتبه أنا نفسي إلى ذلك، لكنّني انتبهت قبل سولون بمدّة. جلس أبي هناك رافعًا المطرقة فوق رأسه وشفرة المفلعة منغرزة في الزند تمهيدًا للضربة التالية، شاخصًا نحو سولون، ثم قال: «الكلب؟».

كان كلب صيد هجينًا، فيه خصائص من كلاب صيد الطيور، وكلاب «الكولي»، وخصائص من كافّة أنواع الكلاب تقريبًا، لكنّه يتمتّع بخفّة شبح في الجري بحثًا عن أثر سنجاب، وإذا وجد واحدًا لا ينبح أكثر من مرّة واحدة، إلاّ إذا عرف أنّك قريب بحيث تراه، ثم يمشي على أطراف قوائمه مثلما يفعل الإنسان، ولا يصدر أيّ صوت حتى يبدأ بالجري فقط عندما يعلم أنّك لم تعد تراه. كان هذا الكلب ملكيّة مشتركة بين أبي وفيرنون تال معًا. وقد أعطاه ويل فارنر لتال وهو بعدُ جرو، وقام أبي بتربيته لقاء المشاركة في ملكيّته، وقمنا بتدريبه معًا، وكان ينام معي في السرير، حتى بات كبيرًا جدًّا فلم نعد نبيّته داخل البيت. وخلال الأشهر الستّة الأخيرة كان سولون يسعى إلى شرائه. وقد اتّفق مع تال على أن يدفع له

Twitter: @ketab_n

دولارين ليتخلّى له عن النصف الذي يخصّه، لكنّ الفرق بين سولون وأبي ظلّ بحدود ستّة دولارات، لأنّ أبي قال إنّ الكلب يساوي عشرة دولارات من مال أيّ شخص كان وإذا لم يكن تال يريد الحصول على حصته الكاملة، فإنّه سيفعل ذلك نيابة عنه.

قال أبي: «هذه هي المسألة إذن، تلك لم تكن وحدات عمل على الإطلاق إذن. كانت وحدات كلب».

قال سولون: «هذا مجرّد اقتراح، مجرّد عرض ودّي لكي لا تعطّلك هذه الصفائح صباح غد لستّ ساعات. يعني تتنازل لي عن النصف الذي تملكه من ذلك الكلب الحذق فأنهي عنك عمل الصفائح».

«ويتضمّن ذلك بطبيعة الحال تلك الوحدات الستّ التي تساوي قيمة الواحدة منها دولارًا».

«لا، لا، سأدفع لك المبلغ نفسه، أي دولارين لقاء حصّتك من الكلب مثلما اتّفقتُ مع تال. لاقني هنا صباح غد مع الكلب ويمكنك العودة إلى البيت أو إلى أيّ من شؤونك العاجلة، ونسيان أمر سقف الكنيسة».

لنحو عشر ثوان إضافيّة، ظلّ أبي رافعًا المطرقة فوق رأسه، محملقًا بسولون. ثم لقرابة ثلاث ثوان لم يعد ينظر إلى سولون أو إلى أيّ شيء آخر. ثم عاد يحملق بسولون. كان الأمر بالضبط كأنه

Twitter: @ketab_n

بعد ثانيتين وتسعة أعشار من الثانية اكتشف أنّه لم يكن ينظر إلى سولون، لذا أعاد تصويب ناظريه نحوه بأقصى سرعة. «ها»، قال، ثم انفجر ضاحكًا. كان ضحكًا بكلّ معنى الكلمة، لأنّ فمه كان مفتوحًا وهكذا كان الصوت أيضًا. لكنّ الضحكة لم تتجاوز أسنانه حدّ الوصول إلى عينيه. ولم يقل «تنحّ» هذه المرّة أيضًا. بل غيّر وضعيّته سريعًا ولوّح بالمطرقة وهبط بها على المفلعة المنغرزة أصلاً في الزند، ثم طارت المفلعة على الأرض، بينما كانت قطعة الخشب التي فلقها ما زالت تطير في الهواء قبل أن تصفع سولون على وجهه.

ثم انغمسوا في العمل ثانية. حتى تلك اللحظة ظللت أميّز ضربات سولون وهومر عن ضربات أبي دون أن أنظر حتى، ليس لأنّ ضربات أبي كانت أعلى ضجيجًا أو أكثر ثباتًا، لأنّ هومر وسولون عملا بثبات أيضًا، والمفلعة لم تصدر أيّ صوت خاصّ وهي ترتطم بالأرض، لكن لأنّ ضرباته صارت شديدة التباعد زمنيًّا؛ قد تسمع خمسًا أو ستًّا من ضربات سولون أو هومر الخفيفة ثم تليها ضربة من أبي. أسمع صوت «تشاج!» وأعرف أنّ قطعة أخرى انطلقت في الهواء. لكن بعدها أصبحت ضرباته خفيفة وسريعة ورقيقة مثل ضربات هومر أو سولون، وإن كان من فرق فربّما أنّها أسرع قليلاً، بينما الصفائح تتراكم بانتظام أسرع من أن أستطيع تكديسها. وكان قد تراكم من القطع ما يتجاوز حاجة تال

Twitter: @ketab_n

والآخرين لكي يعملوا يوم غد، حتى الظهر، حين سمعنا صوت جرس مزرعة «أرمستيد»، ووضع سولون مفلعته ومطرقته من يده ونظر أيضًا إلى ساعته. ولم أكن بعيدًا كثيرًا عن أبي، لكن في الوقت الذي تبعته فيه وجدته قد فكّ البغل عن الشجيرة واعتلاه. ربّما ظنّ هومر وسولون أنهما تغلّبا على أبي، وربّما لبرهة حسبتُ ذلك أيضًا، لكنّني أتمنّى فحسب لو أنّهم رأوا وجهه حينها. أنزل أبي دلو الطعام عن الغصن وناولني إيّاه.

قال: «هيّا كُلْ. لا تنتظرني. هو ووحدات العمل تلك. إذا سألك إلى أين ذهبت فقل له إنّني نسيت شيئًا ما وعدت إلى البيت لإحضاره. قل له إنّني ذهبت لكي أحضر ملعقتين لكي نتناول طعامنا بهما. لا، لا تقل له هذا. إذا سمع أنّني ذهبتُ إلى مكان ما لكي أحضر شيئًا ما أحتاج إلى استعماله، وإن كان مجرّد أداة للطعام، فلن يصدّق أنّني ذهبت إلى البيت، فأنا لا أملك شيئًا هناك يمكنني أن أستعيره حتى». استدارَ بالبغل ولكزه بعقب قدمه على جنبه. ثم توقّف ثانية. «وحين أعود، لا تهتمّ بما أقوله له. مهما حدث لا تقل شيئًا. لا تفتح فمك بالمرّة.. هل فهمت؟».

ثم مضى، وعدت إلى حيث يقعد سولون وهومر على عتبة شاحنة سولون، يأكلان. وبالفعل قال سولون تمامًا ما تكهّن أبي إنّه سيقوله.

«إنّني معجب بتفاؤله، لكنّه مخطئ. إذا كان قد ذهب لإحضار

Twitter: @ketab_n

شيء لا يستطيع الاستعاضة عنه بيديه ورجليه، فلقد ذهبَ إلى مكان آخر وليس إلى منزله فحسب».

كنّا قد استأنفنا العمل للتوّ حين عاد أبي على البغل ونزل عنه وربطه إلى الشجيرة وجاء وحمل المطرقة وغرز المفلعة في زند جديد.

ثم قال: «حسنًا يا جماعة، لقد فكّرت في الأمر. وما زلت أرى أنّه ليس بصواب، لكنّني لم أصلْ أيضًا إلى حلّ للموضوع. لكن على أحدهم أن يعوّض عن تينك الساعتين اللتين لم يعملهما أحد هذا الصباح، وبما أنّكما اثنان ضدّي، فيبدو أنّني سأضطرّ إلى أن أعوّض عن الساعتين. لكن ثمّة عمل ينتظرني في المنزل غدًا، هناك ذرة تستصرخني لكي أحصدها. أو ربّما كانت هذه مجرّد كذبة أيضًا. ربّما كانت المسألة برمّتها أنّكما، ولا مانع لديّ من الاعتراف بذلك، تفوقانني عددًا، لكن فلأكن كلبًا إذا كنت سآتي هنا للعمل وحدي صباح الغد وأعترف بذلك أمام الناس. بأيّ حال لن أفعل. لذا فسأقايضك يا سولون، يمكنك الحصول على الكلب».

نظر سولون إلى أبي وقال: «لست متأكّدًا من أنّني ما زلتُ راغبًا في المقايضة».

«فهمت»، قال أبي. كانت المفلعة ما زالت منغرزة في الزند. وجعل أبي ينتزعها منه.

قال سولون: «مهلاً، ضع هذه البلطة اللعينة من يدك». لكن

Twitter: @ketab_n

أبي كان يستعدّ للهبوط بها على المفلعة، شاخصًا نحـــو ســـولون، منتظرًا ما سيقوله: «إنّك تقايضني نصف كلب بنصف يوم عمـــل. النصف الذي يخصّك من الكلب مقابل نصف يوم العمل الــــذي مـــا زلت مدينًا به من أجل تلك الصفائح».

«والدولارين، مثلما اتّفقت مع تال. أبيعك نصف الكلب مقابل دولارين، وتعود إلى هنا يوم غد وتنهي الصــــفائح. تعطينــــي الآن الدولارين، وألاقيك هنا في الصباح مع الكلـــب، وعنــدها ترينــي الإيصال من تال مقابل تنازله عن نصف حقّه».

قال سولون: «أنا وتال قد اتّفقنا».

«حسنًا، في هذه الحال لا مشكلة لديك بأن تدفع لي الدولارين وتريني الإيصال».

«سيكون تال في الكنيسة صباح الغـــد، يقـــوم بنـــزع تلـــك الصفائح».

«حسنًا، عندها لن يكون هناك أيّ مشكلة على الإطلاق فـــي حصولك على الإيصال منه. يمكنك التوقّف بالكنيسة أثناء مرورك. تال ليس غراير[1]، ولن يكون بعيدًا في مكان ما يستعير عتلة».

فأخرج سولون محفظته ودفع لأبي الـــدولارين وعـــادا إلـــى

(١) ريس غراير، يقول المتكلّم هنا اسمه هو، مشيرًا بنوع من السخرية إلى أنّ ما حدث معه، أي تأخّره عن العمل فجرًا، بسبب ذهابه لاستعارة المفلعـــة، لن يحدث مع تال.

Twitter: @ketab_n

العمل. والآن بدا أنّهم، ليس سولون فحسب، بل هومر الذي لم يبدُ البتّة مهتمًّا بالأمر، وأبي الذي بادل نصف كلبه لكي يتخلّص من أيّ عمل قد يزعم سولون بأنّه مدينٌ به، يسعون حقًّا إلى إنهاء عمل فترة العصريّة تلك. كففت عن محاولة مجاراة إيقاعهم، ورحت أرزم الألواح فحسب.

ثم وضع سولون مطرقته ومفلعته أرضًا، وقال: «حسنًا يا جماعة، لا أعرف ما رأيكما، لكنّني أعتبر أنّ العمل قد انتهى».

قال أبي: «حسنًا، أنت من يقرّر متى نتوقّف عن العمل، إذ مهما كان العمل المتبقّي للغد فهو من نصيبك».

قال سولون: «هذا صحيح، وبما أنّني سأعطي الكنيسة يومًا ونصف اليوم بدلاً من مجرّد يوم، مثلما بدأ الأمر، فأظنّ أنّه من الأفضل لي الذهاب إلى البيت والاهتمام قليلاً بعملي الخاصّ». حمل مفلعته ومطرقته وفأسه واتّجه إلى شاحنته ووقف ينتظر هومر لكي يأتي ويركب معه.

قال أبي: «سأكون هنا عند الصباح ومعي الكلب».

«بالتأكيد»، قال سولون. بدا كأنّه نسي أمر الكلب، أو أنه لم يعد بالأمر المهمّ بالنسبة إليه. لكنّه وقف مجدّدًا ونظر بحدّة وصمت إلى أبي لنحو ثانية، «والإيصال من تال، كما قلت لن يكون الحصول على الإيصال منه مشكلة إطلاقًا». صعد هو وهومر إلى

Twitter: @ketab_n

الشاحنة وشغّل المحرّك. يستحيل تبيّن طبيعة الطريقة التي تحرك بها. كان تقريبًا كأنّ سولون يستعجل لكي يحرم أبي من فرصة تقديم أيّ عذر أو ادّعاء للقيام بأيّ شيء أو عدم القيام به. «لطالما فهمت حقيقة أنّ عدم اضطرار الصاعقة إلى أن تضرب مرّتين هو سبب تسميتها بهذا الاسم. لذا فأن يصعق المرء هو خطأ يمكن أن يحدث لأيّ كان. الغلطة التي ارتكبتها هي أنّني لم أدرك البتّة في الوقت المناسب أنّني إنّما كنتُ أنظر إلى غيمة. أراك صباحًا».

قال أبي: «مع الكلب».

«بالتأكيد»، قال سولون، مجدّدًا كأنّه نسي الأمر كلّيًّا، «مع الكلب».

انطلق وهومر بالشاحنة، ثم نهض أبي.

قلت له: «ماذا؟ ماذا فعلت؟ بادلته نصف الكلب من أجل نصف يوم العمل غدًا. والآن ماذا؟».

قال: «أجل، لكنّني قبلَ ذلك قايضتُ تال نصف يوم عمل أقوم خلاله عنه بنزع الصفائح القديمة غدًا، مقابل حصّته من الكلب. كل ما في الأمر أنّنا لن ننتظر حتى الغد. سوف نقوم بنزع هذه الألواح الليلة، ومن دون أن نثير جلبة غير ضروريّة حول الأمر. لا أريد أن يشغل بالي أيّ شيء غدًا سوى مشاهدة مستر سولون وهو يعمل (وحدة عمل سريعة) لكي يحصل على إيصال بالدولارين أو عشرة

Twitter: @ketab_n

دولارات مقابل النصف الثاني من الكلب. وسنفعل ذلك الليلة. لا أريد أن أن يكتشف فجر غد أنّه تأخّر كثيرًا. أريده أن يكتشف أنّه حتى حينما ألقى رأسه لكي ينام كان قد فات الأوان أصلاً».

عدنا إلى البيت وأطعمت الأبقار وحلبتها، بينما ذهبَ أبي إلى مزرعة كليغرو لكي يعيد له المفلعة والمطرقة ويستعير منه عتلة. ليكتشف أنّه من بين كل الأمكنة في العالم، ولا أحد يعرف ماذا كان العجوز يفعل هناك بتلك العتلة، فقد أضاعها وهو على متن قارب. وقال أبي إنّه فكّر للحظة بأن يقصد سولون ويستعير منه العتلة، وذلك من قبيل تحقيق العدالة الخياليّة الخالصة فقط، لكن سولون قد تساوره الشكوك من مجرّد فكرة العتلة. فقصد أبي مزرعة أرمستيد واستعار عتلته وعاد وتناولنا العشاء واستحممنا وملأنا القنديل بالكاز، بينما كانت أمّي تسعى إلى معرفة ما الأمر المُلِحّ الذي ننوي فعله الليلة ولا يحتمل التأجيل حتى الصباح.

خرجنا من البوّابة الأماميّة بينما هي ماضية في كلامها، وقفلنا عائدين إلى الكنيسة، مشيًا على الأقدام هذه المرّة، أبي يحمل الحبل والعتلة وأنا أحمل المطرقة والقنديل الذي لم نضئه بعد. وكنّا قد رأينا حين مررنا بالكنيسة في طريقنا إلى البيت ويتفيلد وسنوبس ينزلان سلّمًا من عربة الأخير، فكان كل ما علينا فعله أن نسند السلّم إلى جدار الكنيسة. ثم ارتقاه أبي إلى السقف وقام بنزع عدد من الصفائح الخشبيّة حتى بات قادرًا على تعليق القنديل داخل هيكل

Twitter: @ketab_n

السقف، بحيث ينير عبر شقوق الصفائح، من دون أن يرى أحد نوره ما لم يكن مارًّا من هناك، وفي هذه الحالة يمكنه أن يسمع صوتنا ونحن نعمل على أيّ حال. ثم ارتقيتُ السلّم حاملاً الحبل، وأدخل أبي الحبل في هيكل السقف وربطه بإحدى الدعائم الخشبيّة، ثم قام بربطه حول خاصرتينا وهَممنا بالعمل، مسقطين تلك الصفائح القديمة كالمطر على الأرض، أنا، مستعملاً المطرقة الصغيرة، وأبي، مستعملاً العتلة، حتى يصبح بوسعنا الاستلقاء على الدعامة المغطّاة بالشرائح الخشبيّة، أو نحاول إيجاد ثقب نحشر فيه العتلة بقوّة، بحيث يشدّها أبي ويرفع رقعة الصفائح كلّها كأنّها غطاء صندوق.

وهذا بالضبط ما فعله أخيرًا. استلقى على دعامة وهذه المرّة لم تكن مجرّد رقعة من الصفائح، بل قسمًا بأكمله من هيكل السقف، بحيث إنّه حين شدّ العتلة خلع ذلك الجزء كلّه من الهيكل من حول المصباح مثلما تقشّر كوز ذرة صغير. كان القنديل معلّقًا في مسمار. لم ينزع أبي المسمار حتى، بل فقط نزع اللوح الخشبي الذي يسنده، بحيث شعرت للحظة كاملة أنني أشاهد القنديل ومعه العتلة معلّقين هناك في الفراغ وسط عاصفة صغيرة من الصفائح الخشبيّة، بينما المسمار الفارغ ما زال بارزًا من علاّقة القنديل، قبل أن يهوي أرضًا. اصطدم بالأرض وارتدّ مرّة ثم ارتطم مجدّدًا، وهذه المرّة اشتعلت الكنيسة برمّتها بنيران صغيرة متقافزة، بينما أنا

Twitter: @ketab_n

وأبي ما زلنا متدلّيين بالحبل من طرف السقف.

لا أنكر كيف فككنا الحبل. ولا كيف نزلتُ من هناك. كلّ ما أنكره صراخ أبي خلفي وهو يدفعني حتى وصلنا إلى نصف السلّم ثم رماني بقيّة المسافة، ثم صرنا كلانا على الأرض، نهرع إلى برميل المياه. كان تحت الميزاب جانبًا، وكان أرمستيد هناك أيضًا؛ فقد حدث أنّه خرج إلى أرضه قبل ساعة ورأى القنديل في سقف الكنيسة وظلّ باله مشغولاً حتى جاء أخيرًا ليرى ماذا يجري، ووصل إلى هناك في الوقت المناسب بحيث يشارك أبي القفز والصراخ حول برميل المياه. وأعتقد أنّه كان ما زال في وسعنا إخماد الحريق. قرفص أبي مديرًا ظهره إلى البرميل الذي كان شبه ممتلئ بالمياه، ثم حمله على كتفه ووقف وانعطف به عند زاوية الكنيسة، ثم صعد درج الكنيسة لكنّه تعثّر على الدرجة الأخيرة فوقع أرضًا ووقع البرميل داخل رأسه تمامًا. فكان علينا أن نسحبه من هناك أوّلاً، ووصلت أمّي هي ومسز أرمستيد في الوقت نفسه تقريبًا، ورحت وأرمستيد نركض، يحمل كلّ منّا دلوًا إلى النبع، وحين عدنا وجدنا حشدًا كبيرًا، من ضمنه ويتفيلد، يحملون المزيد من الدلاء، وفعلنا كل ما في وسعنا، لكنّ النبع كان يبعد نحو مائتي ياردة وعشرة دلاء أفرغته من الماء وكان يحتاج إلى خمس دقائق حتى يمتلئ ثانية، وهكذا أخيرًا وقفنا هناك ومعنا أبي المصاب بجرح كبير في رأسه وشاهدنا الكنيسة وهي تحترق. كانت كنيسة

Twitter: @ketab_n

قديمة، وقد بليت منذ زمن طويل، وكانت مليئة بالرسوم البيانيّة التي راكمها ويتفيلد منذ أكثر من خمسين عامًا، والتي وقع القنديل في وسطها حين اشتعل أخيرًا. كان ثمّة مسمار قديم كان ويتفيلد يعلّق عليه رداء طويلاً يرتديه حين يقوم بتعميد أحدهم. وكنت أحبّ أن أتفرّج عليه دائمًا أثناء الصلاة وعظة الأحد، وكنت والفتية الآخرون نمرّ بالكنيسة أحيانًا فقط لكي نختلسَ النظر إليه، لأنّه بالنسبة إلى فتى في العاشرة لم يكن مجرّد ثوب أو حتى درع حديدي، بل كان هذا الرداء بمثابة القدّيس ميكائيل نفسه، الذي كافح الخطيئة وهزمها لزمن طويل، بحيث بات يمتلك الرداء نفس خاصيّة ازدراء البشر الذين يعودون دائمًا إلى الخطيئة مثل الخنازير والكلاب، على نحو ما كان القدّيس نفسه يزدريهم.

كان هذا الرداء هو الناجي الوحيد من الحريق. رأيناه معلّقًا هناك بين النيران، ليس لأنّه عاصر في زمنه الكثير من المياه بحيث ما عاد يحترق بسهولة، لكن كأنّه كابد وقاتل الشيطان وجميع نزلاء الجحيم طويلاً بحيث لا يحترق بمجرّد نار أشعلها ريس غراير في سعيه إلى أن يهزم سولون كويك ويكسب منه نصف كلب. لكن أخيرًا أتت النيران عليه أيضًا، دفعة واحدة، وأخذت النيران تندلع منه نحو السماء والنجوم والفضاءات البعيدة المظلمة. ثم لم يعد هناك سوى أبي، مبلّلاً ودائخًا، يفتعد الأرض، ونحن حوله، وويتفيلد كعادته بقميصه الأبيض الذي لا ياقة له، وقبّعته

Twitter: @ketab_n

وسرواله الأسودين، وقف هناك، معتمرًا قبّعته، كأنّه كابد طويلاً لكي ينقذ من لم يكن ينبغي خلقهم أساسًا، من اللعنة التي لا يريدون الخلاص منها حتى، بحيث لا يحتاج إلى خلع قبّعته في حضور أيّ كان. راح ينظر إلينا من تحت القبّعة؛ وكنّا جميعًا قد بتنا هناك، كل أبناء الكنيسة والعائلات التي تلجأ إليها في الولادة والزواج والموت؛ عائلتنا وعائلات أرمستيد وتال وبوكرايت وكويك وسنوبس.

ثم قال ويتفيلد: «لقد أخطأت، قلت لكم إنّنا سنلتقي هنا غدًا لكي نبني سقفًا جديدًا للكنيسة. لكنّنا سنلتقي لكي نبني كنيسة جديدة».

قال أبي: «بالطبع، يجب أن تكون لنا كنيسة، وسوف نحصل على واحدة. وعمّا قريب. لكن هناك منّا من تبرّعوا بيوم أو ما شابه هذا الأسبوع من عملهم الخاصّ. وهذا حقّ وصواب، وسنتبرّع بأكثر بكلّ بسرور. لكنّني لا أعتقد أنّ الربّ...».

تركه ويتفيلد ينهي كلامه. لم يتحرّك قطّ. فقط وقف هناك حتى فرغ أبي من كلامه وصمت واقتعد الأرض من دون أن ينظر غالبًا إلى أمّي، قبل أن يفتح ويتفيلد فمه.

قال: «ليس أنت، يا محرق المباني».

قال أبي: «محرق المباني؟».

Twitter: @ketab_n

«أجل، إذا كان ثمّة ما تستطيع القيام به من دون أن تخلّف وراءك النيران والفياضانات والدمار والموت، فقم به. لكنّك لن تضع يدًا واحدة على بيت الربّ الجديد حتى تثبت لنا مجدّدًا أنّك جدير بالثقة». ونظر إلينا مجدّدًا: «تال وسنوبس وأرمستيد قد وعدوا بالعمل غدًا. وفهمت أنّ كويك لديه نصف يوم آخر ينوي أن...».

قال سولون: «أستطيع التبرّع بيوم آخر».

وقال هومر: «أستطيع التبرّع ببقيّة أيّام الأسبوع».

وقال سنوبس: «لست على عجلة من أمري أيضًا».

«هذا سيكون كافيًا كبداية»، قال ويتفيلد، «تأخّر الوقت الآن، فلنعد جميعًا إلى ديارنا».

ومضى أوّلاً. لم ينظر مرّة وراءه. اتّجه إلى الفرس العجوز واعتلاها ببطء ومضى، ثم تبعناه مبعثرين. لكنّني نظرت إلى الخلف، إلى الكنيسة. كانت قد أصبحت مجرّد قشرة، أمّا لبّها فصار جمرة آخذة بالخمود، وكنتُ أحيانًا أشعر تجاهها بالمقت، وبالخشية في أحايين أخرى، وكان ينبغي أن أشعر بالسعادة لاحتراقها. لكن ثمّة ما لم تمسسه حتى النار. ربّما كانت تلك خلاصة الأمر ـ تلك المنعة ضدّ الدمار، ديمومة ذلك الرجل العجوز الذي يستطيع التخطيط لتشييد الكنيسة مُجدّدًا وهي تشتعل، ثم يستدير بهدوء

Twitter: @ketab_n

ويمضي، لأنّه يعرف أنّ الرجال الذين ليس لديهم ما يقدّمونه للمكان الجديد سوى عملهم سيكونون حاضرين عند شروق الشمس غدًا، واليوم الذي بعده، والذي بعده، وطالما استلزم الأمر حضورهم. تلك المنعة لم تكترث بالنار الصغيرة والفيضان أكثر ممّا اكترث رداء العمادة الخاصّ بويتفيلد العجوز. ثم عدنا إلى البيت. كانت أمّي قد غادرت البيت على عجل تاركة القنديل مضاء، وبات في وسعنا رؤية أبي الآن، ما زال يخلّف وراءه بقعة ماء حيث يقف، مع جرح على قفا رأسه حيث تحطّم البرميل وغمرته المياه الممزوجة بالدم حتى خاصرته.

قالت أمّي: «اخلع هذه الملابس المبلّلة».

قال أبي: «لا أعرف إذا كنت سأفعل أم لا، لقد أُنذرت علنًا بأنّني لست أهلاً لمعاشرة الرجال البيض، لذا فإنّني سأُعلّم علنًا هؤلاء البيض والميتوديين(١) أنفسهم أيضًا، ألاّ يحاولوا التكلّم معي، وإلاّ فلتكن الكلمة الأخيرة للشيطان».

لكن أمّي لم تسمع شيئًا ممّا قاله. وحين عادت تحمل ماء ومنشفة وقارورة المرهم، كان أبي قد ارتدى ثياب النوم.

قال: «لا أريد أيًّا من هذا أيضًا، إذا لم يكن رأسي يستحقّ الانفجار فلا يستحقّ الترقيع». لكنّها لم تكترث بكلامه أيضًا. غسلت

---

(١) أتباع الكنيسة الميتوديّة.

Twitter: @ketab_n

جرحه وجفّفته وضمّدته وخرجت، وأوى أبي إلى النوم.

قال لي: «ناولني علبة السعوط، واخرج من هنا وابقَ خارجًا أيضًا».

لكن قبل أن أفعل عادت أمّي تحمل كوبًا من التودية[1]، وأويت إلى السرير ووقفت أمّي هناك تحمل الكوب، والتفت أبي إليها.

«ما هذا؟».

لكنّ أمّي لم تجبه، ثم قعد في السرير وأخذ نفسًا طويلاً مرتعشًا ــ أمكننا سماعه ــ وبعد دقيقة مدّ يده إلى الكوب وظلّ هناك يحمله ويأخذ أنفاسه، ثم أخذ جرعة منه.

«أنا رجل ورع، إذا حسبَ هو وكلّ من معه أنّهم يستطيعون منعي من المشاركة في بناء كنيستي مثل أيّ رجل آخر، فينبغي أن يكون رجلاً صالحًا ليحاول فعل ذلك». أخذ جرعة أخرى من التودية، ثم أخرى كبيرة.

ثم قال: «مُحرق مبانٍ! وحدات عمل. وحدات كلاب. والآن محرق مبانٍ. أنا الرجل الورع، يا له من يوم لعين!».

---

(١) شراب ساخن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الرجال الطوال[1]

مرّا بمحلج القطن المظلم. ثم رأيا المنزل المضــاء بقنــديل، والسيّارة «الكوبيّة»، التي تخصّ الطبيب، مركونــة عنــد البوّابــة تمامًا، وسمعا نباح كلب «الهاوند».

قال المارشال العجوز: «ها قد وصلنا».

«سيّارة من هذه؟»، سأل الشاب، الغريب، المحقّق الفدرالي.

أجابه المارشال: «إنّها سيّارة الطبيب شوفيلد، طلب منّي لــي ماك كلوم أن أرسله إليه حين اتّصلت به أخبره بأنّنا قادمان».

قال المحقّق: «أتعني أنّك أنذرتهم؟ خابرتَهم مسبقًا وأخبــرتهم أنّني آت ومعي مذكّرة جلب بحقّ هــذين الفــارّين مــن الخدمــة

(١) **الرجال الطوال:** نجد في معظم قصص فوكنر إحساسًا عميقًا بفقدان البراءة والقيم التي يعتبرها الكاتب أصليّة لصالح «حداثة» زائفة تحرم الناس (هنا أهل الجنوب الأميركي، مقاطعة بوكناباتوفا) من قــيمهم الخاصّــة، ومــن تاريخهم الشخصي، ومن قدرتهم على المبادرة وتشكيل حياتهم على نحو ما يحبّون. في هذه القصّة ثمّة مواجهة بين «الرجال الطوال»، وهم ممثّلو ذلك الماضي الذين يلقون بظلالهم الطويلة على الحاضر، ممثّلين في عائلة ماك كلوم (تظهر هذه العائلة الذكوريّة، كناية عن أب وستّة أبناء، باســم مــاك كلومز في رواية «رايات في الغبار»)، وبين الحاضر، أو السلطة، ممثّلــة في موظّف الحكومة الفدراليّة. نُشرت «الرجال الطوال» أوّلاً عــام ١٩٤٣ في «ساترداي إيفننغ بوست».

Twitter: @ketab_n

العسكريّة؟ أهكذا تنفّذ أوامر حكومة الولايات المتّحدة الأميركيّة؟».

كان المارشال عجوزًا نحيلاً مرتّب الهيئة يمضغ التبغ، ولد في الأرياف وعاش فيها طوال حياته.

«فهمت منك أنّ كلّ ما تريده هو القبض على الشابّين وأخذهما معك إلى المدينة».

«كان الأمر كذلك! والآن لقد أنذرتهما، ومنحتهما فرصة للهرب. وربّما تكون أثقلتَ على كاهل الحكومة بكلفة إرسال الفرق لمطاردتهما. أنسيتَ أنّك أنت أيضًا ملزم تجاه الحكومة؟».

«لم أنسَ ذلك، ومنذ غادرنا جيفرسون كنت أحاول إخبارك أمرًا لكي لا تنساه. لكنّني أظنّ أنّ الأمر سيتطلّب آل ماك كلوم هؤلاء لكي يطبعوا الفكرة في ذهنك... اركن وراء هذه السيّارة. سنحاول أوّلاً أن نتبيّن مدى المرض في الرجل في الداخل».

ركنَ المحقّق وراء «الكوبيه»، وأطفأ محرّك السيّارة ومصابيحها. «أولئك القوم!»، قال. ثم راح يحدّث نفسه، لكن هذا الكهل ماضغ التبغ العجوز هو واحد منهم أيضًا، رغم مكانة وظيفته وسموّها، والتي كان يفترض أن تجعل منه شخصًا مختلفًا. لذا لم يقل الفكرة بصوت عال، وهو يُخرج مفتاح السيّارة ويترجّل منها، ثم يقفل الباب والنوافذ، مفكّرًا، أولئك القوم الذين يكذبون ويخفون

Twitter: @ketab_n

ملكيّتهم للأراضي أو غيرها لكي يحصلوا على وظائف الإعانة[1] التي لا نيّة لهم لأداء متطلّباتها، محتمين بحقوقهم الدستوريّة ضدّ الاضطرار إلى العمل، الذين يخاطرون بالوظيفة نفسها متحايلين بصورة صريحة ومثيرة للشفقة بهدف الحصول على بطّانيّات مجّانيّة ينوون بيعها، والذين قد يتخلّون عن الوظيفة نفسها، إذا كان ذلك يؤمّن لهم الطعام المجّاني والمسكن، أيّ جحر فئران في المدينة لكي يناموا فيه، والذين، كمزارعين، يقدّمون إفادات زائفة لكي يحصلوا على قروض للسماد يسيئون استعمالها لاحقًا ثم تثور ثائرتهم وتنطلق ألسنتهم بالذمّ والشتم والذهول حين يُقبض عليهم بالجرم المشهود. ثم أخيرًا حين تطالب حكومة معذّبة ومهدّدة بشيء واحد في المقابل، شيء واحد بسيط، وهو أن يتسجّلوا للخدمة العسكريّة الاختياريّة، يأبون ذلك.

سبقه المارشال العجوز باتّجاه البيت المبني من زنود الأشجار. ثم عبر المحقّق بوّابة جرداء اللون تتوسّط سياجًا خشبيًّا، واتّخذ طرقة حجريّة بين صفّين من أشجار سدر قديمة رثّة، تفضي إلى منزل كبير، أجرد كذلك، يتألّف من طابقين.

برز من أسفل الشرفة الخارجيّة المعتمة كلب «الهاوند» الضخم الذي سمعاه قبل قليل، نابحًا بشدّة، ثم وقف في الممشى وراح يجأر في وجهيهما، حتى خاطبه أحدهم من داخل البيت.

---

(١) الإشارة هنا إلى «إدارة مشاريع العمل» المذكورة آنفًا.

Twitter: @ketab_n

ارتقى الشابّ درجات الشرفة الخارجيّة وراء المارشال. ثم رأى الرجل واقفًا في الباب، منتظرًا دنوّهما ـ رجل في الخامسة والأربعين تقريبًا مربوع القامة، أسمر الوجه، له يدا سائس خيول[1]. رمقه الرجل سريعًا ثم أشاح عنه، متوجّهًا بكلامه إلى المارشال: «مرحبًا مستر غومبولت، تفضّل بالدخول».

ردّ المارشال: «مرحبًا راف، من المريض عندكم؟».

«إنّه بادي، تعثّر وعلقت رجله في المطحنة عصر اليوم».

«هل الجرح سيّئ؟».

«يبدو سيّئًا لي، لهذا أرسلنا بطلب الطبيب بدلاً من أن نأخذه إلى المدينة. لم نستطع وقف النزيف».

«يؤسفني سماع ذلك، أقدّم لك مستر بيرسون». مرّة أخرى وجده المحقّق ينظر إليه، عيناه البنيّتان الهادئتان دمثتان، واليد التي مدّها نحوه قويّة، أمّا المصافحة نفسها فرخوة وباردة. وتابع المارشال: «إنّه من جاكسون، من لجنة التجنيد»، ثم أضاف، من دون أن يميّز المحقّق أيّ تغيير في نبرة صوته «معه مذكّرة جلب للفتيين».

لم يلحظ المحقّق أيّ تغيير من أيّ نوع. فاليد الرخوة القويّة بالكاد انسحبت من يده، والتفت الوجه الساكن إلى المارشال: «أتعني أنّنا دخلنا الحرب؟».

---

(١) قويّتان كفاية للتحكّم بالخيول.

Twitter: @ketab_n

«لا».

قال المحقّق: «ليست هذه المسألة يا سيّد ماك كلوم، كلّ ما كان مطلوبًا منهما أن يتسجّلا. قد لا يُسحب رقماهما حتى هذه المرّة؛ بحسب قانون المتوسّطات[١]، قد لا يتمّ اختيارهما على الأرجح. لكنّهما رفضا أو أخفقا على أيّ حال في أن يتسجّلا».

«فهمت»، قال الرجل الآخر. لم يكن ينظر إلى المحقّق. لم يستطع الأخير أن يعرف على وجه التأكيد إذا كان ينظر إلى المارشال حتى، مع أنّه تحدّث إليه «أتريد أن ترى بادي؟ الطبيب معه الآن».

قال المحقّق: «مهلاً، آسف بشأن حادث أخيك، لكنّني...». ألقى المارشال نظرة سريعة نحوه، من تحت حاجبيه الرماديّين الخشنين، بشيء من الدماثة ونفاد الصبر أيضًا، بحيث استشعر المحقّق خلال تلك البرهة في المارشال نفسها الخاصيّة نفسها التي أحسّها في نظرة الرجل الآخر السريعة. كان المحقّق يتمتّع بقدر من الذكاء يفوق المتوسّط، وبدأ يشعر بأنّه أمام شيء مختلف بعض الشيء عمّا كان يتوقّعه. لكنّه عمل في الولاية في مجال الإعانة لسنوات، وتعامل في الغالب حصرًا مع الريفيّين، لذا ما زال يعتقد أنّه يعرفهم. فنظر إلى المارشال العجوز، مفكّرًا، بلى، من الصنف

(١) القانون العلمي الذي يقول إنّ الصاعقة لا تضرب المكان نفسه مرّتين.

Twitter: @ketab_n

نفسه من البشر، رغم رتبته الوظيفيّة، والسلطة والمسؤوليّة اللتين كان يفترض بهما أن تغيّراه. مفكّرًا ثانية، أولئك البشر، أولئك البشر. ثم قال: «أنوي العودة في قطار الليلة إلى جاكسون وقد تمّ الحجز مسبقًا. لذا نفّذ المذكّرة وسوف...».

قال المارشال: «هيّا بنا، أمامنا الكثير من الوقت».

لم يجد بدًّا من أن يتبعه وهو يرغي ويزبد غضبًا، معتزمًا خلال المسافة الطويلة في الردهة أن يستعيد السيطرة على نفسه لكي يتمكّن من السيطرة على الوضع، لأنّه أدرك الآن أنّه إذا ما اضطرّ الأمر إلى ذلك، فستكون هذه مهمّته وحده؛ ذلك أنّه إذا أراد الرحيل سريعًا مع المطلوبَين، فسيكون هو لا المارشال الذي يسهّل ذلك. وكان محقًّا. فالعجوز الخرف لم يكن في العمق واحدًا من هؤلاء الناس فحسب، بل من الجليّ أنّه قد فسد، وعاد إلى بلادته الموروثة المتأصّلة وصار عديمَ النفع بمجرّد دخوله إلى المنزل. لذا تبعه عبر الردهة إلى غرفة نوم، التي جعل يستطلعها، ليس في ذهول فحسب بل بشيء من الرعب. كانت الغرفة كبيرة، أرضيّتها عارية جرداء، لا تحتوي بالإضافة إلى السرير إلاّ على كرسي أو اثنين وقطعة أخرى من الأثاث القديم. لكن بالنسبة إلى المحقّق بدت مليئة بالرجال الضخام الذين لهم نفس حجم الرجل الذي استقبلهم، بحيث شعر أنّ جدران الغرفة منتفخة لمجرّد وجودهم فيها. لكنّهم لم يكونوا كبار الحجم، ولا طوالاً، ولا كانت المسألة مسألة نشاطهم

Twitter: @ketab_n

وحيويّتهم، لأنّهم لم يصدروا صوتًا، وهم بالكاد ينظرون إليه بصمت حيث يقفون عند الباب، وعلى وجوههم بصمة القرابة المتماثلة تقريبًا — رجل نحيل، على شيء من الهزال، في نحو السبعين، أطول بقليل من الآخرين؛ رجل آخر، أبيض الشعر أيضًا، لكنّه باستثناء ذلك يشبه كثيرًا الرجل الذي استقبلهما عند الباب؛ وثالث له سنّ الرجل الذي استقبلهما لكنّ وجهه ينطوي على شيء من الرقّة وتتضح عيناه السوداوان بشيء من المأساويّة والقتامة والجموح؛ وشابّان هما نسختان طبق الأصل تقريبًا، زرق العيون؛ وأخيرًا الرجل أزرق العينين الممدّد على السرير الذي ينحني فوقه الطبيب، الذي يشبه أيّ طبيب من أيّ مدينة، في بذلته المدينيّة الأنيقة — جميعهم التفتوا ناظرين إليه وإلى المارشال حين دخلا. ورأى، بعد الطبيب، السروال المشقوق الذي يخصّ الرجل المضطجع وساقه المكشوفة المدمّاة والمسحوقة، وشعر بالتقزّز، فوقف عند الباب، تحت تلك النظرات الصامتة الثابتة بينما دنا المارشال من الرجل المضطجع، الذي كان يدخّن غليونًا كبيرًا عتيقًا، وكان ثمّة على النضد بجانب سريره دمجانة(١)، مثل تلك التي كان يضع فيها جدّه الويسكي.

---

(١) دمجانة Demijog: زجاجة ضخمة التجويف ضيّقة العنق تحتوي عادة عند = فوكنر على خمس غالونات من الشراب، لا سيّما الويسكي منزلي الصنع.

Twitter: @ketab_n

قال المارشال: «إذن يا بادي، هذا جرحٌ سيّئ».

قال الرجل: «آه، لقد كانت غلطتي اللعينة، لطالما حذّرني ستوارت من القالب الذي كنت أستعمله».

قال العجوز الثاني: «هذا صحيح».

أمّا الآخرون فظلّوا صامتين، شاخصين فحسب بثبات وصمت نحو المحقّق حتى دنا المارشال أكثر من الرجل وقال: «هذا مستر بيرسون، من جاكسون. معه مذكّرة جلب بحقّ الفتيين».

فقال الرجل: «لأيّ غرض؟».

«مسألة التجنيد العسكري تلك يا بادي».

«لسنا في حرب الآن».

«لا، إنّه ذلك القانون الجديد. لم يسجّلا اسميهما».

«ما الذي ستفعله بهما؟».

«إنّها مذكّرة يا بادي، مذكّرة جلب».

«هذا يعني السجن».

«إنّها مذكّرة»، قال المارشال العجوز. ثم رأى المحقّق أنّ الرجل على السرير ينظر إليه، وهو ينفث الدخان بثبات من غليونه.

Twitter: @ketab_n

«اسكب لي بعض الويسكي يا جاكسون».

قال الطبيب: «لا، لقد تناول الكثير حتى الآن».

«اسكب لي بعض الويسكي يا جاكسون»، قال الرجل على السرير، نافثًا بثبات من غليونه، شاخصًا نحو المحقّق، «أأنتَ من الحكومة؟».

«أجل»، أجاب المحقّق، «كان عليهما أن يتسجّلا، هذا كلّ ما كان مطلوبًا منهما. لم...». انقطع صوته، بينما أزواج العيون السبعة تحملق به، والرجل على السرير ينفث الدخان بثبات.

قال الرجل: «كنّا سنبقى هنا، لم نكن لنفرّ». وأدار رأسه نحو الشابّين الواقفين جنبًا إلى جنب في طرف السرير: «آنس، لوشوس».

شعر المحقّق أنّهما أجابا بصوت واحد «أجل يا أبتاه».

«هذا الرجل قطع كل المسافة من جاكسون لكي يقول إنّ الحكومة تنتظركما. أظنّ أنّ أسرع مكان للتسجيل هو ممفيس. اصعدا إلى غرفتكما ووضّبا متاعكما».

قال المحقّق، وقد دنا قليلاً: «مهلاً!».

لكنّ جاكسون، الأكبر، أوقفه، قائلاً «مهلاً» أيضًا، أمّا البقيّة فما عادوا ينظرون إلى المحقّق. بل إلى الطبيب.

Twitter: @ketab_n

قال جاكسون: «ماذا بخصوص ساقه؟».

«انظر إليها»، قال الطبيب، «كاد يبترها بنفسه. الأمر لا يحتمل التأجيل. ولا يمكن تحريكه الآن. سأحتاج إلى ممرّضتي لكي تساعدني، وبعض المخدّر، شرط ألاّ يكون تناول الكثير من الويسكي لكي يتحمّل التخدير أيضًا. يستطيع أحدكم الذهاب إلى المدينة بسيّارتي. سأتّصل هاتفيًّا...».

قال الرجل المستلقي: «المخدّر؟ لأيّ غرض؟». لقد قلتَ بنفسك إنّها شبه مبتورة. أستطيع الإتيان بأحد سكاكين جاكسون وإنهاء الأمر بنفسي، مع كأس أخرى أو اثنتين. هيّا. أنهِ الأمر».

قال الطبيب: «لن تحتمل أيّ صدمة إضافيّة، إنّه الويسكي الذي يتكلّم الآن».

أجابه: «تتكلّم عن الصدمات! ذات يوم في فرنسا كنّا نعدو في حقل قطن ورأيت المدفع الرشّاش يمشّط الحقل، وحاولت القفز فوق الرصاص مثلما تقفز فوق سياج يؤرجحه أحدهم أمام خاصرتك، لكنّني أُصبت. وسقطت أرضًا، ومع هبوط العتمة بدأ الألم، وعندها فقط شعرت بصوت مدوّ في خوذتي شبيه بطرقة السندان، لذا لم أعرف أيّ شيء آخر حتى استيقظت. كان عدد كبير منّا مطروحًا على المقاعد خارج مركز الإسعاف الميداني... وقد تطلّب الأمر وقتًا طويلاً حتى يعايننا الطبيب جميعًا، وفي الأثناء بدأ الجرح

Twitter: @ketab_n

يؤلمني بشدّة. هذا الجرحُ ليس مؤلمًا البتّة مقارنة بذاك، ما دام معي هذه الدمجانة. هيّا أنهِ الأمر. إذا كنت بحاجة إلى المساعدة فستوارت وراف سيساعدانك... اسكبْ لي كأسًا يا جاكسون».

هذه المرّة أخذ الطبيب الدمجانة وفحص كمّيّة الويسكي، ثم قال: «لقد شربت كوارتًا[1] كاملاً، إذا كنتَ قد شربت هذا القدر منذ الساعة الرابعة، فأشكّ أن يجدي التخدير نفعًا. أتظنّ أنّه يمكنك أن تحتمل أن أقوم الآن ببترها؟».

«أجل ابترها. لقد خرّبتها. وأريد أن أتخلّص منها».

جال الطبيب بنظره على الآخرين، على الوجوه الساكنة المتشابهة الشاخصة نحوه «إذا جئت به إلى المدينة، إلى المستشفى، بوجود ممرّضة لكي تراقب حالته، فسأنتظر على الأرجح حتى يتجاوز الصدمة الأولى ويخرج الويسكي من جسده. لكن لا يمكن تحريكه الآن، ولا أستطيع وقف النزيف هكذا، وحتى لو كان معي الأثير أو البنج الموضعي...».

قال الرجل في السرير: «الصدمات! إنّ الله لم يصنع بنجًا موضعيًّا أو شاملاً أفضل ممّا في هذه الجرّة. وهذه ليست ساق جاكسون ولا ستوارت ولا راف ولا لي. إنّها ساقي. أنا تسبّبت لها بذلك، وأحسب أنّني أستطيع المضي في بترها مثلما أشاء».

---

(١) ربع غالون.

Twitter: @ketab_n

لكنّ الطبيب كان ما زال ينظر إلى جاكسون «حسنًا سيّد ماك كلوم، أنت الأكبر سنًّا».

وكان ستوارت من أجاب: «أجل، أنْهِ الأمر. ما الذي تريده؟ مياهًا حارّة على ما أظنّ».

«أجل، وبعض الملاءات النظيفة. هل لديكم طاولة كبيرة يمكنكم نقلها إلى هنا؟».

«طاولة المطبخ»، قال الرجل الذي لاقاهما عند الباب، «أنا والشباب...».

قال الرجل على السرير: «مهلاً، ليس من متّسع من الوقت أمام الفتيين لكي يساعداك»، نظر إليهما مجدّدًا، «آنس، لوشوس».

مجدّدًا شعرَ المحقّق أنّهما أجابا بصوت واحد: «أجل يا أبتاه».

«هذا الرجل المحترم هنا يبدو مستعجلاً. يستحسن أن تنطلقا. بعد التفكير في الأمر، لن تضطرّا إلى توضيب أمتعتكما، فستلبسان البزّة العسكريّة بعد يوم أو اثنين. خذا الشاحنة. لن يكون هناك من يقلّكما إلى ممفيس ويعود بها، لذا تستطيعان تركها أمام «شركة غايوزو للأغذية»[١] حتى نتمكّن من إرسال من يحضرها. أرغب في أن تنضمّا إلى الفرقة السادسة للمشاة التي كنت فيها، لكن

(١) غايوزو Gayoso: جادّة في ممفيس اشتقّ منها فوكنر اسم هذه الشركة.

Twitter: @ketab_n

أحسب أنّ الأمل ضعيف في ذلك، لذا عليكما أن تذهبا حيثما يرسلونكما. لكن لن يكون ذلك مهمًّا على الأغلب ما إن تصبحان في الجيش. لقد عاملتني الحكومة جيّدًا في أيّامي، وستعاملكما جيّدًا. اذهبا إلى أيّ مكان يرسلونكما إليه إذا اضطرّكما الأمر وأطيعا ضبّاطكما، لكن تذكّرا اسميكما، ولا تأخذا شيئًا من أيّ مخلوق. يمكنكما الذهاب الآن».

صاحَ المحقّق مجدّدًا: «مهلاً»، ومشى إلى وسط الغرفة، «إنّني أحتجّ على هذا! أعتذر بشأن حادثة السيّد ماك كلوم. آسف بشأن المسألة برمّتها، لكنّ الأمر أصبح خارج يديّ ويديه الآن. هذه التهمة، عدم التسجيل وفقًا للقانون، قد وُجّهت، والمذكّرة صدرت. ولا يمكن تجنّبها بهذه الطريقة. ينبغي اتّباع المسار القانوني قبل اتّخاذ أيّ خطوة أخرى. كان ينبغي أن يفكّرا بذلك حين امتنعا عن التسجيل. إذا رفض مستر غومبول تنفيذ هذه المذكّرة، فسأنفّذها بنفسي وأصحب هذين الشابّين معي إلى جاكسون لكي يجيبا عن التّهمة الموجّهة إليهما. وعليّ أن أحذّر مستر غومبول بأنّه ستوجّه إليه تهمة العصيان!».

التفتَ المارشال العجوز، رافعًا حاجبيه الكثّين مجدّدًا، وخاطب المحقّق مثلما يخاطب طفلاً: «ألم تكتشف بعد أنّه لا أنا ولا أنت سنذهب إلى أيّ مكان لبعض الوقت؟».

«ماذا؟»، صاحَ المحقّق. نظرَ إلى تلك الوجوه المهيبة مرّة

Twitter: @ketab_n

أخرى وهي ترمقه بذلك الاهتمام النائي والمترقِّب. «هل تهدّدني؟».

قال المارشال: «لا أحد يعيرك أيّ اهتمام على الإطلاق، والآن اصمت فحسب لبعض الوقت، وستكون بخير، وبعدها نستطيع العودة إلى المدينة».

لاذ بالصمت مجدّدًا، بينما حرّرته الوجوه المهيبة المتأمّلة مجدّدًا من ذلك الاهتمام البارد الذي لا يحتمل. ثم دنا الشابّان من السرير وانحنيا بالدور فوق أبيهما وقبّلاه على فمه، ثم استدارا كشخص واحد وغادرا الغرفة، مارّين به دونما التفات إليه. بعدئذ، في الردهة المضاءة بنور القنديل قرب المارشال العجوز، خارج المخدع المقفل الآن، سمعَ ضجيج محرّك الشاحنة، ثم سمعها وهي تتحرّك ثم تخرج إلى الطريق، وصوتها يخفت تدريجيًّا حتى تبدّد كلّيًّا، خارجة من الليل الحارّ الهادئ ـ ليل صيف المسيسيبي الهندي[1]، الذي ما زال مستمرًّا في منتصف نوفمبر، محتشدًا بآخر صيحات الجراد الصيفي، كأنّه هو أيضًا يعي اقترابَ فصل البرد والموت.

«أتذكر آنس العجوز»، قال المارشال بدماثة تنمّ عن الرغبة في المحادثة، بتلك النبرة التي يخاطب بها شخص بالغٌ طفلاً غريبًا، «لقد مضى على موته الآن خمس عشرة أو ستّ عشرة سنة. كان

---

(١) الصيف الهندي: فترة يتّسم الطقس خلالها بالجفاف في آخر الخريف أو بداية الشتاء.

Twitter: @ketab_n

في السادسة عشرة حين اندلعت الحرب، وقد قطع كلّ المسافة إلى فرجينيا لكي يلتحق بها، كان يمكنه أن يحارب هنا في بلده، لكن أمّه كانت من آل كارتر، لذا لم يكن ليقتنع إلاّ بالذهاب والقتال في فرجينيا، وإن لم يكن قد رآها شخصيًّا من قبل. قطع كلّ تلك المسافة إلى أرض لم يرها في حياته ليتجنّد في جيش ستونول جاكسون[١] واجتاز معه الوادي، صعودًا إلى شانسلورزفيل، حيث أطلق فتيان كارولينا النار خطأ على جاكسون، وصولاً إلى ذلك الصباح عام ١٨٦٥ حين قطع خيّالة شريدان[٢] الطريق من أبوماتوكس إلى الوادي، حيث أمكنهم الفرار ثانية. وعاد إلى المسيسيبي حاملاً فقط ما ذهب به حين غادر، وتزوّج وبنى الطابق الأول من هذا البيت، هذا الطابق المصنوع من زنود الأشجار الذي نحن فيه الآن ــ وبدأ ينجب هؤلاء الفتيان ــ جاكسون وستوارت ورافائيل ولي وبادي.

«بادي وُلد متأخّرًا، متأخّرًا كفاية بحيث شارك في تلك الحرب الأخرى[٣] التي شاركت فيها فرنسا. وقد اشتهر أمره هناك.

---

(١) أحد جنرالات الجيش الكونفدرالي البارزين خلال الحرب الأهليّة الأميركيّة، واسمه الحقيقي توماس جوناثان جاكسون. بات يعرف بلقب «ستون وول» (الجدار الحجري) لأنّ جنوده في أولى معارك «بول ران» الشهيرة صدّوا كل اختراق محتمل لهم كجدار حجري.

(٢) أحد جنرالات جيش الاتّحاد خلال الحرب الأهليّة الأميركيّة.

(٣) الحرب العالميّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

وعاد بميداليّتين، واحدة أميركيّة وأخرى فرنسيّة، ولا أحد يعرف حتى الآن كيف حصل عليهما، وما الذي فعله فحسب. لا أعتقد أنّه أخبر ستوارت وجاكسون والآخرين حتى. بالكاد عاد إلى منزله مع تلك الأرقام[1] على بزّته والشارات والأوسمة وتينك الميداليّتين، وسرعان ما وجد لنفسه زوجة، وبعد سنة وُلد التوأمان، صورة حيّة عن آنس ماك كلوم. لو كان آنس العجوز أصغر بخمسة وسبعين عامًا ، لكانوا ثلاثة توائم لا اثنين. أذكرهما، كائنين صغيرين متطابقين، وجامحين مثل ظبيين، يركضان هنا وهناك طوال النهار والليل مع زمرة من الكلاب السوداء حتى شبّا كفاية وبات في وسعهما مساعدة بادي وستوارت ولي في أعمال المزرعة والحلج، وراف في رعاية الجياد والبغال، حيث كان يربّيها وينشئها ويدرّبها ويأخذها ليبيعها في ممفيس، وكان هذا منذ ثلاث سنوات أو أربع، حين ذهبا إلى كلِّيَّة الزراعة[2] لمدّة سنة لكي يتعلّما المزيد عن تربية الماشية البيضاء.

«كان هذا بعد أن توقّف بادي وإخوته عن زراعة القطن. أتذكّرهم أيضًا. كان ذلك حين بدأت الحكومة لأوّل مرّة بالتدخّل في كيفيّة زراعة المرء لأرضه وقطنه. كانوا يسمّون ذلك تثبيت الأسعار واستنفاد الفائض وتقديم النصح والمساعدة للرجال، سواء

---

(١) رقم فرقته العسكريّة.

(٢) أحد المعاهد الزراعيّة المحلِّيَّة.

Twitter: @ketab_n

أطلبوا ذلك أم لم يطلبوه. لعلّكَ لاحظت أولئك الشبّان في الداخل الليلة، أشخاص مثيرون للاهتمام، يمكنك القول. في تلك السنة الأولى، حين راح وكلاء المقاطعة يحاولون شرحَ النظام الجديد للمزارعين، جاء الوكيل إلى هنا وحاول إقناع بادي ولي وستوارت، شارحًا لهم أنّهم إذا خفّضوا إنتاجهم، فستعوّض الحكومة عليهم الفرق بحيث يكون حالهم أفضل في الحقيقة ممّا لو حاولوا الزراعة بأنفسهم.

فأجابهم بادي: «نحن في غاية الامتنان، لكنّنا لا نريد أيّ مساعدة. سنزرع القطن مثلما زرعناه دائمًا؛ إذا لم نتمكّن من إنتاج محصول منه، فسيكون ذلك مصيرنا نحن، خسارتنا نحن، وسنحاول ثانية».

لذا رفضوا التوقيع على أيّة أوراق أو بطاقات أو أيّ شيء. فقط استمرّوا في زراعة القطن مثلما علّمهم آنس العجوز؛ كان الأمر كأنّهم ببساطة غير قادرين على تصديق أنّ الحكومة تهدف إلى مساعدة الرجل، سواء أراد ذلك أم لم يرده، وأنّ هدفها الفعليّ هو التدخّل بمقدار ما يجنيه بكدحه على أرضه هو. ثم أخذوا القطن إلى المدينة لكي يبيعوه، حملوه طيلة الطريق إلى جيفرسون، فقط ليكتشفوا أنّهم لا يستطيعون بيعه لأنّهم أوّلاً أنتجوا الكثير منه، وثانيًا لأنّه ليس لديهم بطاقة ترخيص بالبيع. لذا أعادوه معهم. لم يحتمل المحلج كل الكمّيّة لذا وضعوا بعضه في زريبة راف ووضعوا

Twitter: @ketab_n

الباقي هنا في الردهة حيث نحن الآن، لكي يتذكّروا أن يستخرجوا بطاقة في المرّة القادمة.

«لكنّهم في العام التالي لم يملأوا أيّ أوراق أيضًا، كأنّهم ما زالوا غير قادرين على التصديق، وما زالوا مؤمنين بأنّ المرء حرّ بأن يفعل أمرًا ما أو يفعله تبعًا لرغبته وقدرته على ذلك، وهذا تكفله له الحكومة التي حاول آنس العجوز جعلها اثنتين وفشل، واعترفَ بصدق بفشله وتحمّل العواقب، وهذا منح بادي ميداليّة وجعله معروفًا حين كان بعيدًا ومصابًا في أرض غريبة.

«لذا حصدوا القطن في الموسم التالي. ولم يتمكّنوا من بيعه أيضًا لأنّهم ما كانوا يحملون أيّ بطاقات. هذه المرّة أنشأوا كوخًا خاصًّا خزّنوا القطن فيه، وأتذكّر أنّه في ذلك الشتاء التالي ذهب بادي إلى البلدة يومًا لكي يرى المحامي غافن ستيفنز، لا ليعرف منه كيف يقاضي الحكومة أو سواها لكي تشتري القطن، وإن لم يكن لديهم بطاقة الترخيص، بل فقط ليعرف السبب. كنت سأمضي قدمًا وأوقّع، قال بادي، لو كان هذا سيكون القانون الجديد. لكنّنا تحدّثنا في الأمر وجاكسون ليس مزارعًا، لكنّه يعرف أبي قبلنا جميعًا، وقال إنّ أبي كان ليرفض ذلك، وأحسب الآن أنّه كان محقًّا.

«لذا لم يزرعوا القطن البتّة، كان لديهم الكثير منه، نحو اثنتين وعشرين بالة إذا لم تخنّي الذاكرة، بحيث يدوم مدّة طويلة. وعندها تحوّلوا إلى تربية الماشية البيضاء، وحوّلوا أرض العجوز

Twitter: @ketab_n

آنس إلى مرعى، فهذا ما كان سيريدهم أن يفعلوه إذا كانت الطريقة الوحيدة لزراعة القطن ستكون عبر إملاءات الحكومة عليهم، كم يمكنهم أن يزرعوا، وبكم يمكنهم البيع وأين ومتى، ثم أن تدفع لهم المال لعدم قيامهم بالعمل. حتى عندما توقّفوا عن زراعة القطن، ظلّ وكيل المقاطعة الشابّ يأتي سنويًا لكي يكيّل المحصول الذي زرعوه ويدفع لهم لقاء ذلك، مع أنّه ليس لديهم أيّ قطن. لكنّه لم يقم بتقدير أيّ محصول في هذا المكان: مرحبًا بك إذا أردتَ الاطّلاع على ما نفعله، قال له بادي، لكن لا تضعه على جداولك.

أجابه الشابّ: «لكن تستطيع الحصول على مال لقاء هذا، الحكومة تريد أن تدفع لك لقاء زرعك كل هذا».

فقال بادي: «إنّنا ننوي الحصول على مال مقابله، وحين نعجز عن ذلك سنجرّب طريقة أخرى. لكن ليس من الحكومة. أعطِ هذا لمن يريد أن يأخذه. نحن نستطيع تدبّر أمرنا».

«وهذا كلّ ما في الأمر. تلك الاثنتان والعشرون بالة من القطن اليتيم في المحلج الآن، فهناك متّسع لها بما أنّهم ما عادوا يستعملونه. وكبرا الفتيان وذهبا عامًا إلى كلّيّة الزراعة لكي يتعلّما الطريقة الصحيحة لرعاية الماشية البيضاء، ثم عادا وانضمّا إلى البقيّة، أولئك الذين يعيشون هنا على عاتقهم، بينما سائر العالم مليء بأضواء النيون التي تحرقُ الليل والنهار معًا، والمال السّهل السّريع ينشر نفسه هنا وهناك أمام أيّ رجل لكي ينتش القليل منه، وكلّ

Twitter: @ketab_n

رجل لديه سيّارة جديدة برّاقة بليت فتخلّص منها وأحضر واحدة جديدة قبل أن ينتهي من سداد ثمن السيّارة السابقة، وفي كلّ مكان بدأوا يتكالبون على الـ «إ.ت.ز» و«إ.م.ع»[1]، وعلى أيّ سبب آخر من ثلاثة أحرف، ويتّخذونه حجّة لكي لا يعمل الرجل، ثم جاءت مسألة التجنيد، وهؤلاء الجماعة الظرفاء رفضوا التوقيع على هذا أيضًا، وأنت تقطع كل هذه المسافة من جاكسون حاملاً أوراقك كلّها موقّعة ونظاميّة، ونحن نخرج إلى هنا، وبعد قليل نستطيع العودة إلى المدينة. فالرجل يتنقّل كثيرًا، أليس كذلك؟».

قال الرجل: «أجل. أوَتَحْسَب أنّنا نستطيع العودة إلى المدينة الآن؟».

حافظ المارشال على النبرة الدمثة نفسها: «لا، ليس بعد، لكنّنا نستطيع المغادرة بعد قليل. بالطبع ستفوّت موعد قطارك. لكن سيكون هناك قطار آخر غدًا».

نهض، مع أنّ المحقق لم يسمع شيئًا. تتبّعه الأخير وهو يعبر الردهة ويفتح باب مخدع بادي ويدخل ويغلق الباب وراءه. ثم جلس

---

(١) هيئتان أميركيّتان حكوميّتان، «إدارة التعديل الزراعي» Agricultural Adjustment Administration، و«إدارة مشاريع العمل» المذكورة آنفًا، وكلاهما يعود إلى حقبة روزفلت وبرنامج «نيو ديل»، وكانت الإدارة الأولى تعوّض على المزارعين لكي يقلّلوا من مساحات أرضهم المزروعة بحيث يقلّ الإنتاج وترتفع قيمة المنتجات الزراعيّة.

Twitter: @ketab_n

صامتًا، مصغيًا إلى الأصوات الليليّة، ناظرًا إلى الباب المغلق حتى فُتح وعاد المارشال، حاملاً، بحذر بالغ، شيئًا ما في ملاءة مصطبغة بالدم. وقال له:

«خذ، أمسك لحظة».

«إنّها مدمّاة».

«هذا صحيح، نستطيع أن نغسل بعد أن ننتهي». فحمل المحقّق الصرّة ووقف ينظر إلى المارشال العجوز يعود عبر الردهة ويختفي ثم يعود حاملاً قنديلاً مضاء ورفشًا. وقال: «هيّا بنا، لقد كدنا ننتهي».

تبعه المحقّق إلى خارج المنزل وعبر الفناء، حاملاً بحذر شديد الصرّة الثقيلة الفوضويّة التي شعرَ أنّه لا يزال فيها بعض حرارة الحياة، والمارشال يمشي أمامه بخطى واسعة، مؤرجحًا القنديل عند قدمه، فيرتسم ظلّ خطواته الواسعة جليًّا وكبيرًا على الأرض، وصوته يأتي من وراء كتفيه، مسامرًا ومرحًا، «أجل يا سيّدي. الرجل يتنقل كثيرًا ويرى الكثير، الكثير من الرجال في الكثير من الأوضاع. المشكلة هي أنّنا لا ندخل في عادة الخلط بين الرجال والأوضاع. خذ نفسك مثلاً»، قال بالنبرة الودودة نفسها، المسامرة الدمثة، «أنت تريد الصواب. فقط ذهبت وأربكت نفسك بالقواعد المريحة والسهلة. هذه مشكلتنا. لقد اخترعنا لأنفسنا الكثير

Twitter: @ketab_n

من الأبجديّات والقواعد والوصفات الجاهزة بحيث ما عدنا قادرين على رؤية أيّ شيء آخر؛ وإذا صادفنا شيئًا ما لا يتناسب مع أبجديّة ما أو قاعدة ما، فإنّنا نضيع. أصبحنا مثل الكائنات التي يخلقها الأطبّاء في المختبرات التي تعلّمت نزع عظامها وأحشاءها، ومع ذلك تظلّ حيّة، وتظلّ حيّة إلى الأبد من دون حتى أن تعرف بأنّها بلا عظام وأحشاء. لقد تخلّصنا من عمودنا الفقري، لقد قرّرنا أنّ الإنسان لا يحتاج إلى عمود فقري بعد الآن، أن يكون لك واحد فذلك أمر قديم. لكنّ الثلم مكان العمود الفقري ما زال قائمًا، وقد تمّ الاحتفاظ بهذا العمود حيًّا أيضًا، وذات يوم سنعود ثانية إليه. لا أعرف متى وكم من الألم سيتطلّب الأمر حتى نتعلّم، لكن سيأتي يوم».

كانا قد اجتازا الفناء الآن، وهمّا بارتقاء ربوة؛ أمامهما رأى المحقّق مجموعة أخرى من أشجار السّدر، أشبه بأيكة، على نحوٍ ما شعثاء تحت السماء المحتشدة بالنجوم. دخل إليها المارشال ووقف هناك ووضع القنديل من يده، و ـ متبّعًا إيّاه مع الصرّة ـ رأى المحقّق مستطيلاً صغيرًا من الأرض محاطًا بإفريز حجري، ثم رأى قبرين، أو شاهدين، بلاطتين منتصبتين من الغرانيت.

قال المارشال: «آنس العجوز والسيّدة زوجته، أرادت زوجة بادي أن تُدفن مع أهلها. أظنّ أنّها كانت تشعر بالوحدة مع أشخاص من آل ماك كلوم فقط. الآن لنرَ». وقف لبرهة واضعًا يده على

Twitter: @ketab_n

خدّه؛ وبدا للمحقّق بالضبط مثل سيّدة عجوز تحاول أن تقرّر أين تزرع شجيرة. ثم قال: «كان ترتيبهم عادة من اليسار إلى اليمين، بدءًا بجاكسون. لكن بعد ولادة الفتى، صار ترتيب جاكسون وستوارت هنا قرب والديهما، فبادي يمكنه الانتقال إلى أعلى قليلاً والإفساح في المجال. لذا سيكون موقعه هنا». قرّب القنديل أكثر وحمل الرفش. ثم رأى المحقّق والصرّة ما تزال في يده، «ضعها أرضًا، عليّ أن أحفر أوّلاً».

«سأحملها»، قال المحقّق.

«لا فائدة، ضعها من يدك"، قال المارشال، لن يمانع بادي».

وضع المحقّق الصرّة على الإفريز الحجري وبدأ المارشال بالحفر، بسرعة ومهارة، وهو ما زال يتكلّم بذلك الصوت المرح المسترسل. «أجل يا سيّدي. نحن لا ننسى الأهل. لقد أصبحت الحياة رخيصة، وليست الحياة برخيصة. الحياة قيّمة جدًّا. لا أعني مجرّد الانتقال من شيك معونة من «إ.م.ع» إلى الشيك التالي، لكنّ الشرف والكبرياء والنظام الذي يجعل الإنسان يستحقّ العيش، ويمنحه أيّ قيمة. هذا ما يجدر بنا تعلّمه مجدّدًا[1]. ربما سنتجشّم

---

(١) في خطاب قبول جائزة نوبل في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٠ نجد ما يذكّر كثيرًا بكلام غومبول للموظّف الحكومي الشابّ. حيث يخاطب فوكنر الكُتّاب الشباب قائلاً: «إنّ مأساتنا اليوم هي الخوف الجسدي الكوني... ما عاد هناك مشكلات تتعلّق بالروح... لقد نسي الكاتب الشابّ

Twitter: @ketab_n

عناء كبيرًا لكي نتعلّم استعادة ذلك، ربّما سار إلى فرجينيا لأنّ أمّه تحدّرت من هناك، وخسر الحرب ثم عاد ثانية، ربّما هذا كلّه علّم العجوز آنس. على أيّ حال يبدو أنّه تعلّم ذلك، وتعلّمه جيّدًا بحيث نقله لأولاده. هل لاحظتَ أنّ كل ما كان على بادي فعله أن يقول لولديه لقد آن وقت الرحيل، لأنّ الحكومة أرسلت في طلبهما؟ وكيف ودّعاه؟ رجال بالغون يتبادلون القبلات بلا مواربة ولا خجل. ربّما كان هذا ما أحاول قوله.... هاك»، قال، «هذه مساحة كافية».

تحرّك بسرعة ورشاقة؛ قبل أن يتمكّن المحقّق من التحرّك كان قد وضع الصرّة في الخندق الضيّق وجعل يهيل التراب فوقها، بالسرعة التي دفنها بها، مسويّا الأرض فوقها بالرفش. ثم وقف ورفع القنديل، نحيلاً طويلاً يتنفّس بسهولة وخفّة، «أظنّ أنّنا نستطيع العودة إلى المدينة الآن».

اليوم مشكلات القلب البشري في صراعه مع نفسه... وعليه أن يتعلّمها ثانية». أمّا «العمود الفقري» الذي يشير إليه غومبول في الفقرة أعلاه فالأرجح أنّه يجد صداه أيضًا في خطاب فوكنر نفسه حين يتحدّث عن «الحقائق الكونيّة القديمة... الحبّ، الشرف، الشفقة، الكبرياء، التعاطف، والتضحية».

Twitter: @ketab_n

صيد دب[١]

يروي راتليف[٢] هذه القصّة. إنّه بائع ماكينات خياطة جوّال؛

---

(١) صيد دبّ: إحدى ذكريات فوكنر طفلاً هي الرحلات التي كان يقوم بها مع أبيه لصيد الدببة والغزلان. وقد شكّلت هذه الذكريات مصدرًا مهمًّا له في الكتابة عن هذا الموضوع، والتي شكّلت مادّة مجموعته القصصيّة «الغابات الكبيرة» (١٩٥٥) والتي ضمّنها قصّة «صيد دبّ» بعد أن كان نشرها في هذه المجموعة عام ١٩٥٠، ونشرها قبل ذلك في صحيفة «ساترداي إيفننغ بوست» عام ١٩٣٤. ومع ذلك فالقصّة لا تتمحور حول صيد الدببة، وإن كانت أحداثها تجري في مخيّم خُصّص لهذا الغرض. بل تدور القصّة حول المخيّلة الطفوليّة القائمة غالبًا على مرويّات شعبيّة متعلّقة ببدايات القرن العشرين، ومنها تلك المتعلّقة بالهنود الحمر. يفترض الناقد إدموند فولبي أنّ الراوي الأساسي (هناك تشعّب في الرواة) في هذه القصّة هو كونتن كومبسون، الراوي في الجزء الثاني من «الصخب والعنف» وفي عدد من قصص فوكنر الأخرى القصيرة، وذلك على اعتبار أنّه كان نموذج الراوي الطفل بالنسبة إلى فوكنر. وبصرف النظر عن ذلك ففي هذه القصّة أيضًا نرى ظهور شخصيّات أخرى ظهرت في روايات وقصص قصيرة مختلفة (مثل المايجور دي سباين والعمّ آيك ماكزلين)، ونرى مجدّدًا ميل فوكنر إلى حسّ الدعابة لدى وصفه أهل الأرياف.

(٢) فلاديمير كيرليتش راتليف Vladimir Kyrlytch Ratliff: بائع ماكينات خياطة جوّال. يظهر في عدد من أعمال فوكنر الروائيّة والقصصيّة، ولا سيّما ثلاثيّة سارتوريس و«بينما أضطجع ميتة» و«قدّاس لراهبة» وفي عدد من القصص. وهو شخصيّة تجوب مقاطعات يوكناباتوفا الأربع حاملة أخبار الناس هناك من مكان إلى آخر.

Twitter: @ketab_n

يتنقّل في مقاطعتنا على عربة «باكبورد»[١] تجرّها مجموعة قويّة وإن هزيلة ومتنافرة[٢] من الخيول؛ الآن يركب سيّارة «تي فورد»[٣]، يضع فيها آلة الخياطة الخاصّة بالعرض به في علبة من القصدير على شكل وجار كلب رُسم عليها بيت.

ليس بالأمر المفاجئ أن ترى راتليف في أيّ مكان، فهو الرجل الوحيد الذي تراه متواجدًا في الأسواق ومجموعات الخياطة الخاصّة بزوجات المزارعين[٤]؛ متنقّلاً بين الرجال والنساء طوال اليوم منشدًا في الكنائس وبصوت جهوري جميل أيضًا. وقد شارك أيضًا في صيد الدبّ هذا الذي يتحدّث عنه في مخيّم الصيد السنوي الذي يقيمه المايجور دي سباين أسفل النهر[٥] على بعد عشرين ميلاً

---

(١) Buckboard: عربة تجرّها الخيول تتّسع لأربعة أشخاص وتتكوّن من لوح خشبي طويل.

(٢) المجموعة المتنافرة Mimatched Team هي مجموعة الخيول أو البغال غير المتساوية لناحية وزن وسرعة أو حتى لون كلّ واحد منها.

(٣) تي فورد أو T Ford: أحد موديلات السيّارات التي أنتجتها شركة هنري فورد عام ١٩٠٨، واشتهرت بقوّة محرّكها وبساطته وأيضًا برخصها. وقد باعت منها فورد خلال ١٩ عامًا نحو ١٥ مليون سيّارة.

(٤) الأسواق Bazzars غالبًا تكون من تنظيم الكنائس والهدف منها بيع المنتجات منزليّة الصنع لجمع التبرّعات. أمّا «مجموعات الخياطة» Sewing Bees فهي حين تلتقي مجموعة من النسوة للقيام بعمل خياطة كبير كاللحف وما شابه.

(٥) أسفل النهر River Bottom تعني هنا الأرض المنخفضة التي تقع بجوار النهر.

Twitter: @ketab_n

من البلدة، رغم أنّه لا يوجد هناك من يمكن أن يبيعه آلة خياطة، بما أنّ مسز دي سباين بلا شكّ تملك واحدة سلفًا، إلاّ إذا كانت قد أهدتها لإحدى بناتها المتزوّجات، أمّا الرجل الآخر - الذي يُسمّى لوشوس بروفاين، الذي تورّط معه متسبّبًا لنفسه بأذيّة عنيفة لحقت وجهه وأماكن أخرى، فليس في مقدوره شراء واحدة لزوجته ولو أراد ذلك، إلاّ إذا أقرضه إيّاها راتليف من دون شروط دفع محدّدة.

بروفاين هو من أبناء المقاطعة أيضًا. لكنّه الآن في الأربعين وقد سقطت معظم أسنانه، وقد مرّت سنوات الآن منذ كان مشهورًا هو وأخوه المتوفّى وشخص آخر توفّي ونسيه معاصروه يُدعى جاك بوندز، وكانوا يُعرفون باسم عصابة بروفاين، وقد دأبوا وقتذاك على إرهاب بلدتنا الهادئة، محتذين حذو أبناء جيلهم من الشباب الجامحين، في إطلاق الأعيرة الناريّة في ساحة البلدة في وقت متأخّر من ليالي السبت، أو في العدو على جيادهم بسرعة وإخافة السيّدات الذاهبات إلى الكنيسة صبيحة الأحد ممّا يدفع المسكينات إلى الصراخ. لا يعرفه المواطنون الأصغر سنًّا إلاّ بوصفه رجلاً طويلاً، واضح القوّة وافرَ الصحّة يتسكّع متبطّلاً على نحو مثير للحزن والكآبة حيثما يسمح له بالتواجد، من دون أن تقبله حقًّا أيّ مجموعة، وزوجًا لا يبذل أيّ جهد لكي يعيل زوجته وأولاده الثلاثة.

ثمّة آخرون بيننا الآن ممّن لا يستطيعون إعالة عائلاتهم؛

Twitter: @ketab_n

رجال ربّما ما كانوا ليعملوا بأيّ حال، لكنّهم الآن، خلال السنوات القليلة الأخيرة، لا يستطيعون إيجاد عمل[1]. هؤلاء جميعًا يحتفظون بقدر من الاحترام بالعمل كباعة جوّالين لدى مصنّعي منتجات صغيرة من قبيل الصابون وعدّة الحلاقة الرجّاليّة وأدوات المطبخ، وتراهم دائمًا في الساحة أو يجوبون الشوارع حاملين حقائب سوداء صغيرة تتضمّن عيّنات من مثل هذه المنتجات. ذات يوم، فوجئنا ببروفاين يحمل حقيبة كهذه، وإن بعد أقلّ من أسبوع اكتشفت شرطة البلدة أنّها تحتوي على ويسكي في قناني «باينت»[2]. وقد خلّصه المايجور دي سباين من هذه الورطة بطريقة ما، إذ كان هو من يعيل عائلته، مكملاً ما تكسبه مسز بروفاين من الخياطة وما شابه، ربّما كنوع من التحيّة الرومانيّة[3] للشخص اللامع الذي كانه بروفاين قبل أن يسوطه الزمن.

إذ هناك بين من هم أكبر سنًّا من ما زالوا يتذكّرون «بانش» ـ في مرحلة ما من ماضيه الرثّ خسر بروفاين حتى هذا اللقب القوي المتحدّي الذي حمله قبل عشرين عامًا؛ ذلك الشابّ الذي لا يعرف الهزل، لكن مع بعض التلذّذ الجارف بالعيش الذي جفّ فيه

(١) إشارة إلى الكساد الكبير (١٩٢٩).
(٢) باينت (Pint): وحدة وزن تساوي نصف كوارت أو ثُمن غالون. والإشارة هنا إلى حظر بيع الكحول في أميركا (١٩٢٠ـ ١٩٣٤).
(٣) التحيّة الرومانيّة: التحيّة العسكريّة التي تقوم على ضمّ أصابع اليدّ ومدّها إلى الأمام بزاوية ٤٥ درجة.

Twitter: @ketab_n

منذ زمن طويل. وكان بروفاين هذا قد شارك، في سعار محمـــوم، كان سببه في الغالب الكحول، بارتكاب بعض الموبقات، من بينهـــا قضيّة نزهة الزنوج. كانت النزهة إلى كنيسة زنجيّة تبعـــد بضـــعة أميال عن البلدة. وخلال هذه النزهة، راح الأخوان بروفاين وجاك بوندز، الذين كانوا عائدين على صهوات جيادهم من حفل راقـــص في الرّيف، يمسكون بالزنوج واحدًا بعد الآخر، محرقين بسجائرهم ياقاتهم الشفّافة، تاركين عنق كلّ واحد منهم مدموغة بختم حادّ. هذا هو بروفاين الذي يحكي عنه راتليف.

لكن ينبغي ذكر شيء إضافي هنا تمهيدًا لما سيرويه راتليف. على بعد خمسة أميال من النهر من مخيّم المايجور دي سباين، وفي جزء أكثر قفرًا حتى من دغل النهر المحتشد بالقصب والصمغيّات وأشجار البلّوط، ثمّة ربوة[1] بجوار قرية للسكّان الأصليّين تبـــرز وحيدة في البراري، في ذلك القاع النهري المدغل، برهبة وقتامـــة ملغّزة. وحتى بالنسبة إلينا ــ مع أنّنا كنّا أطفالاً، بيد أنّنا نشأنا فـــي عائلات مثقّفة[2] ــ كانت تنبعث من تلك الربوة إشـــارات إلـــى دم سرّي وعنيف، إلى دمار وحشي وفجائي، كأنّ الصرخات والبلطات التي ارتبطت في عقولنا بالهنود الحمر من خلال الروايات الســـرّيّة

(١) ربوة Mound هي بالأحرى نوع من المتراس أو الحصن الذي كان ينشئه الهنود الحمر إمّا لدفن موتاهم وإمّا بهدف التحصين، لكن في ســـياق هـــذه القصّة فإنّ الاحتمال الأوّل هو الأكثر احتمالاً.

(٢) هنا بمعنى عارفة بحكايات الهنود الحمر وقصصهم.

Twitter: @ketab_n

والرخيصة(١) التي كنّا نتناقلها، إنّما كانت انعكاسات مبتذلة موقّتة لتلك القوّة السوداء التي تمكث أو تقيم هناك، شرّيرة، وتهكّميّة إلى حدّ ما، مثل وحش قاتم بلا اسم يهجع متكاسلاً في سبات خفيف بفكّين داميين ــ هذا ربّما بسبب حقيقة أنّ بقايا القبيلة التي كانت قويّة في ما مضى وهي قبيلة التشيكسو كانت مستمرّة في العيش هناك تحت حماية الحكومة(٢). الآن أصبح لهم أسماء أميركيّة ويعيشون مثل البيض الكثيرين المحيطين بهم.

لكنّنا لا نراهم البتّة، لأنّهم لا يأتون قطّ إلى البلدة، ما دامت لهم مستوطنتهم الخاصّة ومتاجرهم. حين كبرنا اكتشفنا أنّهم ليسوا بأكثر ضراوة أو جهل من البيض، وأنّه على الأرجح أكبر انحراف لهم عن النموذج العامّ ــ وهذا في بلدنا ليس بالانحراف الخاصّ ــ هو حقيقة أنّهم أفضل بقليل ممّا يُتوقّع بحيث يصنّعون ويسكي «مونشاين» هناك في المستنقعات. لكن بالنسبة إلينا، نحن الأطفال،

---

(١) القصص الرخيصة Dime Novels كتب شعبيّة رخيصة كانت شائعة في أميركا في القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين وتدور غالبًا حول الوسترن والهنود الحمر.

(٢) في العام ١٨٣٠ وقّع الرئيس الأميركي «قانون نقل الهنود الحمر» الذي يقضي بنقل مجموعات الهنود الحمر الكبيرة من الولايات الجنوبيّة إلى أمكنة أخرى، وعلى الرّغم من أنّ هذا الانتقال يُفترض أن يتمّ طوعيًا لكنّه كان غالبًا يتمّ قسرًا. وفي أيّ حال كانت المجموعات المنتقلة تُمنح حقّ العيش في أماكن معيّنة تحت حماية الحكومة الأميركيّة من دون أن يخوّلها ذلك حقّ امتلاك الأرض.

Twitter: @ketab_n

كانوا رائعين إلى حدّ ما، حيواتهم السرّيّة في المستنقعات لا تنفصل عن حياة الربوة السوداء، التي لم يرها بعضنا، ولكن التي سمعنا جميعًا بها، كأنّما القوى السوداء عيّنتهم لحراستها.

مثلما ذكرت فإنّ بعضنا لم يرَ الربوة إطلاقًا، لكنّنا جميعًا سمعنا بها، وكنّا نتكلّم عنها مثل سائر الفتيان. كانت جزءًا مهمًّا من حياتنا ومن خلفيّة عيشنا كالأرض نفسها، كالحرب الأهليّة التي خسرناها مع حملة شيرمان[1]، أو مثل وجود زنوج بين ظهرانينا يتنافسون اقتصاديًّا ويحملون أسماء عائلاتنا؛ لكنّ الجزء المتعلّق بالهنود كان أكثر مباشرة وكان مفعمًا بالاحتمالات، نابضًا بالحياة. حين كنت في الخامسة عشرة، ذهبت في لحظة جرأة مع أحد الأصحاب إلى الربوة عند الغروب تمامًا. رأينا بعض أولئك الهنود الحمر للمرّة الأولى، فدلّونا على الدرب ووصلنا إلى قمّة الربوة تمامًا عند الغروب. كانت معنا عدّة تخييم، لكنّنا لم نشعل نارًا. ولم نفرش حتى فِراشَيْنا. فقط جلسنا جنبًا إلى جنب على تلك الربوة حتى بات هناك ما يكفي من الضوء الذي يمكّننا من تبيّن درب العودة. لم نتكلّم. حين تبادلنا النظرات في الفجر الرمادي، كان

---

(١) شيرمان (William Tecumesh Sherman) جنرال في جيش الاتّحاد خلال الحرب الأهليّة، أسقط أتلانتا وقاد عام ١٨٦٤هجومًا مدمّرًا باتّجاه سافانا عرف باسم «الزحف بحرًا» شقّ من خلاله القوّات الكونفدراليّة إلى نصفين.

Twitter: @ketab_n

وجهانا رماديّين أيضًا، هادئين ورزينين. وحين عدنا إلى البلدة، لم نتكلّم أيضًا. فقط افترقنا وذهب كلّ منّا إلى منزله ثم أوينا إلى النوم. هكذا كانت مشاعرنا، أو أفكارنا، حيال الربوة. صحيح أنّنا كنّا مجرّد أطفال، لكنّنا تحدّرنا من أناس يقرأون الكتب وكانوا ــ أو كان ينبغي أن يكونوا ــ منيعين ضدّ الخرافات والخوف غير العقلاني.

والآن ها هو راتليف يروي خبر لوشوس بروفاين وحازوقته.

سألني أوّل شخص قابلته حين عدتُ إلى البلدة: «ماذا حلّ بوجهك يا راتليف؟ أكان دي سباين يستعملك بدلاً من كلاب الصيد؟».

فأجبت: «كلاّ يا جماعة، لقد كان أسدَ الجبل».

وسألني أحدهم: «ما الذي كنت تحاول فعله به يا راتليف؟».

فقلت: «يا شباب، فلأكن كلبًا[1] لو كنت أعرف».

وكانت هذه الحقيقة. كان قد مرّ وقت على إبعادهم لوك بروفاين عنّي حين اكتشفت ذلك. لم أكن أعرف آش العجوز، أكثر

---

(١) تعبير يتكرّر في عدد من القصص: I'll be dogged وهو تلطيف لتعبير «فلأكن ملعونًا» I'll be damned.

Twitter: @ketab_n

ممّا يعرفه لوك. كلّ ما كنت أعرفه عنه أنّه خادم المايجور الزنجي، الذي يقوم على أعمال الخدمة في المخيّم. وكل ما عرفته حين بدأ الأمر برمّته هو نفس ما حسبتني أنوي فعله ـ ربّما مساعدة لوك، أو ربّما كحدّ أقصى ممازحته قليلاً من دون نيّة إلحاق الأذى به، أو ربّما حتى إسداء المايجور خدمة صغيرة بإبعاد لوك عن المخيّم لبعض الوقت. ثم في منتصف الليل تقريبًا يهجم لوك هذا مندفعًا من بين الأشجار مثل دبّ مذعور، ويهرع إلى طاولة البوكر. وأقول له: «حسنًا، ينبغي أن تكون مسرورًا. لقد خرجت من تحت أيديهم متخلّصًا من مشكلتك». ووقف هو متجمّدًا كالميّت، شاخصًا نحوي بذهول عارم، ولم يعرف حتى أنّهم توقّفوا عن اللعب، ثم انقضّ عليّ مثل حظيرة تنهار.

أوقف بكلّ تأكيد لعبة البوكر تلك. تطلّب الأمر ثلاثة أو أربعة منهم لكي يجرّوه بعيدًا عنّي، بينما المايجور يكيل الشتائم لأنّه كان يحمل بيده ثلاثات[١]. لكنّ العون الوحيد الذي قدّموه لي كان الدوس على وجهي ويديّ ورجليّ. لقد كان الأمر مثل الحريق ـ أولئك الذين يحملون خرطوم المياه تسبّبوا بالضرر الأكبر.

صاح المايجور: «ماذا يعني هذا بحقّ الجحيم؟»، بينما ثلاثة

---

(١) في البوكر أو Poker Draw اللاّعب الذي يحمل ثلاث أوراق رابحة يهزم الذي يحمل ورقتين.

Twitter: @ketab_n

أو أربعة يمسكون بلوك، وهو يصرخ مثل الطفل:

«لقد حرّضهم عليّ، هو من أرسلني إليهم هناك، وسوف أقتله!».

سأله المايجور: «حرّض مَنْ عليك؟».

«أولئك الهنود!»، أجاب لوك صارخًا. ثم حاول مجددًا الانقضاض عليّ، مؤرجحًا أولئك الذين يمسكون بذراعيه كالدمى، إلى أن شتمه المايجور وأخرسه كليًّا. لكنّه رجل قويّ الشكيمة. لا يخدعك ادّعاؤه عدم القدرة على العمل. ربّما لأنّه لم يجهد جسمه بحمل تلك الحقائب السوداء الصغيرة المليئة بحمّالات السراويل الزهريّة ومعاجين الحلاقة. ثم سألني المايجور عمّا حدث، فقلت له إنّني كنت أحاول مساعدة لوك على التخلّص من الحازوقة.

ولأكن كلبًا إن لم أشفق عليه. صودف أنّني كنتُ مارًّا في ذاك الطريق، وفكّرت أن أمرّ بهم وأرى حظّهم في اللعب، ووصلت عند الغروب، وكان لوك أوّل من رأيته. لم أفاجأ، لأنّ هذا المكان يفترض أن يكون أكبر تجمّع للرجال في المقاطعة، دعك من الطعام المجّاني والويسكي، وهكذا قلت له «يا للمفاجأة»، فكان جوابه:

«هيكا! هيكو! هيكو! هيكو! يا إلهي!».

لقد كان يعاني من الحازوقة منذ الساعة التاسعة من مساء الليلة السابقة؛ كان يشرب من جرّة الخمرة كلّما عرضها عليه

Twitter: @ketab_n

المايجور وكلّما استطاع الحصول عليها حين لا يكون العجوز آش منتبهًا؛ وقبل يومين اصطاد المايجور دبًّا وأظنّ أنّ لوك أكل الكثير من لحمه الدسم ــ ناهيك عن لحم الغزال، ربّما مع بعض السناجب والراكون التي قُدّمت بمثابة متبّلات ــ يعني أكل فوق طاقته بكثير. وها هو إذن يحزّق ثلاث مرّات في الدقيقة، مثل قنبلة موقوتة، لكنّها محشوّة بلحم الدبّ والويسكي بدلاً من الديناميت، لم يكن باستطاعته أن ينفجر ويريح نفسه من هذا العذاب.

وأخبروني أنّه حرم الجميع النوم معظم الليلة السابقة، وأنّ المايجور استيقظ وقد استشاط غضبًا على أيّ حال، وخرج ببندقيّته ومعه آش جارًّا كلبي الصيد، وتبعهما لوك ــ بسبب بؤسه الخالص، على ما أظنّ، لأنّه لم ينم أكثر من غيره، قائلاً: «هيكا! هيكو! هيكو! هيكو! يا إلهي»، حتى التفت المايجور نحوه وقال:

«اذهب بحقّ الجحيم وقف هناك مع الشباب في المراقب[1]. كيف تتوقّع منّي أن أباغت دبًّا أو حتى أن أسمع صوت الكلاب حين تنقضّ عليه؟ أشعر أنّني على ظهر درّاجة ناريّة».

---

(١) تسمّى Deer Stands وعادة تكون هذه المراقب مرتفعة عن الأرض مثل أبراج مراقبة صغيرة، والهدف منها رصد الفريسة والكمون لها، بيد أنّ المقصود هنا على الأرجح الحواجز المصنوعة من زنود الأشجار الضخمة التي يتوارى خلفها المراقبون المسلّحون، لا سيّما أنّ الهدف هو صيد الدببة.

Twitter: @ketab_n

فعاد لوك أدراجه إلى الحاجز الخشبي. وأظنّ أنّه لم يكن قد ابتعد كثيرًا أساسًا لأنّه كان سيموت من المسافة مثل تلك الدرّاجة الناريّة التي ذكرها المايجور. كفّ كليًّا عن محاولة وقف الحازوقة، ربّما إدراكًا منه أنّه لا فائدة من ذلك. ولم يحاول أيضًا البقاء في الخارج أيضًا. أظنّ أنّه فكّر أنّ أيّ مغفّل سيعرف من صوته أنّه ليس غزالاً. لا، أظنّه كان بائسًا جدًّا وقتذاك بحيث راوده الأمل بأن يطلق أحدهم النار عليه. ولم يفعل أحدٌ ذلك. ووصل إلى محطّة المراقبة الأولى حيث العمّ آيك ماك كزلن، وجلس على زند وراءه مستندًا بمنكبيه على ركبتيه، واضعًا رأسه بين يديه، مردّدًا: «هيكا! هيكا! هيكا!»، حتى التفت إليه العمّ آيك وقال له:

«خزاك الله يا ولد؛ اذهب من هنا. أوتحسب أنّ أيّ حيوان في العالم يمشي طوعًا إلى التبن؟ اذهب واشرب بعض المياه».

فأجابه لوك من دون أن يبارح مكانه: «لقد فعلت ذلك، إنّني أشرب الماء منذ الساعة التاسعة أمس. وقد شربت الكثير من المياه بحيث إنّني إذا وقعت فسأنفجر مثل بئر ارتوازيّة».

فقال له العمّ آيك: «بأيّ حال اذهب من هنا، اذهب من هنا».

فنهض لوك ومضى متهاديًا منهارًا وصارت حازوقته أشبه بفرقعة عوادم تلك المحرّكات اللعينة التي تعمل على البنزين، وإن كانت وتيرة حازوقته أعلى وأكثر انتظامًا. واصل سيره على طول

Twitter: @ketab_n

الحاجز إلى محطّة المراقبة التالية، وطردوه من هناك، إلى المحطّة الثالثة. أظنّ أنّه كان ما زال يأمل بأن يشفق عليه أحدهم ويطلق عليه الرصاص، لأنّه بدا مستسلمًا بعد ذلك. فقد قيل إنّ صوته، حين يصل إلى قول «يا إلهي» في نهاية كلّ نوبة، يبلغ المخيّم، وإنّ صدى صوته بات يرجع من أيكة القصب على الضفّة الأخرى من النهر مثل أحد مكبّرات الصوت تلك وقد ارتفع صوته من أعماق بئر. قالوا إنّه حتى كلاب الصيد كفّت عن النباح، فجاؤوا جميعًا وأجبروه على العودة إلى المخيّم. وكان هناك حين وصلت أنا. وكان آش العجوز هناك أيضًا، حيث عاد برفقة المايجور لأنّ الأخير أراد أخذ قيلولة. ولم نلاحظ أنا أو لوك حضوره هناك إلاّ كزنجي آخر في المكان.

هذا كلّ ما في الأمر. لم يكن أحدنا يعرف آش العجوز أو يفكّر به. ولأكن كلبًا إذا لم يكن الأمر شبيهًا برجل يقرّر أن يقوم بدعابة أو مزحة، لكنّه لا يمازح صديقًا له، بل قوّة كبيرة تكمن بصمت في مكان ما في العتمة ويقوم هو بممارسة مقلبه هذا عليها، من دون أن يعرف حتى بذلك، وتصبح المسألة برمّتها متوقّفة على ما إذا كانت هذه القوّة مستعدّة لتقبّل المقلب أم لا، إذا كانت ستنفجر في وجهه أم لا مثلما انفجرت هذه المسألة في وجهي. لأنّني قلت له: «هذه الحازوقة تلازمك منذ الساعة التاسعة أمس، أي منذ أربع وعشرين ساعة. أرى أنّ عليك أن تحاول وقفها بطريقة ما». وراح

Twitter: @ketab_n

يحملق بي كأنّه لا يستطيع أن يحزم أمره ما إذا كان ينقضّ على رأسي ويقتلعه أو يحاول أن يقتلع رأسه هو، وقال «هيكا! هيكا!»، ببطء وانتظام. ثم قال:

«لا أريد التخلّص منها. أحبّها. لكن إذا انتابتك أنت فإنّني أستطيع أن أخلّصك منها. أتريد أن تعرف كيف؟».

«كيف».

«أقتلع رأسك فحسب. ثم تختفي الحازوقة. لن تزعجك بعدها. سأكون سعيدًا بفعل ذلك لك».

قلت له: «اهدأ الآن»، وأنا أنظر إليه قاعدًا على درج المطبخ، كان ذلك بعد العشاء، لكنّه لم يأكل شيئًا، بعد أن تحوّل زلعومه إلى طريق أحادي الاتّجاه بالنسبة إليه، وهو يردّد «هيكا! هيكو! هيكو! هيكا!» لأنّني أظنّ أنّ المايجور أفهمه جيّدًا ماذا سيحدث له إذا صاحَ مجدّدًا. لم أقصد به أيّ أذيّة. كما أنّهم أخبروني أنّه حرم الجميع من النوم طوال الليلة الفائتة وأجفل جميع الحيوانات في تلك الناحية من النهر، علاوة على أنّ النزهة قد تساعده على تمرير الوقت. فقلت له: «أظنّ أنّني أعرف كيف يمكنك التخلّص منها...».

فقال «أتمنّى فقط أن يخبرني أحد كيف. سأدفع عشرة دولارات فقط لكي أقف هنا لدقيقة واحدة من دون أن أقول

Twitter: @ketab_n

«هيك...». وهذا كان كفيلاً بالتأكيد بإطلاق نوبة جديدة. كان الأمر كأنّ أحشاءه حتى تلك اللحظة كانت قانعة بأن تصدر «هيكا» بطريقة ثابتة، لكن هادئة، أمّا عندئذ، وقد ذكّر نفسه بها، فكأنّه نكأ جرحًا، لأنّه بدأ يصيح فورًا «هيكوه، يا إلهي» مثلما حصل عندما جعله الشباب في المرقب يعود إلى المخيّم، وسمعت وقع قدَمَي المايجور «بب، بب، بب» على الأرضيّة. حتى رجله بدت غاضبة، فأسرعت إلى القول:

«صه، لن تريد إغضاب المايجور مجدّدًا الآن». لذا كبح الحازوقة قليلاً، قاعدًا هناك على درج المطبخ، بينما العجوز آش والزنوج الآخرون يعملون داخل المطبخ، وقال: «سأجرّب أيّ شيء تقترحه. لقد جرّبت كلّ ما أعرفه وكلّ ما أخبرني به الجميع. حبست أنفاسي وشربت الماء حتى شعرت أنّني إحدى عجلات السيّارات الضخمة تلك التي يستعملونها للإعلانات، ووقفت رأسًا على عقب ربع ساعة وشربت باينت مياه كاملة، ونصحني أحدهم بابتلاع الخردق وفعلت ذلك. ولم تزل هذه الحازوقة. ما الذي تعرفه ويمكنني فعله؟».

فقلت: «حسنًا، لا أعرف ما الذي يمكنك فعله. لكن لو كنت مكانك، لكنتُ صعدت إلى الرّبوة وجعلت العجوز جون باسكيت يشفيني».

جمد في مكانه، ثم استدار ببطء ونظر إليّ. ولأكن كلبًا إن لم

Twitter: @ketab_n

تكن توقّفت حازوقته لحظة كاملة. ثم قال: «جون باسكيت؟».

«بالتأكيد، أولئك الهنود يعرفون شتّى أنواع الحيل التي لم يسمع بها الأطبّاء البيض بعد. سيكون مسرورًا بإسداء خدمة كهذه لرجل أبيض، لأنّ أولئك السكّان الأصليّين المساكين يفعلون ذلك لأنّ البيض عاملوهم جيّدًا جدًّا ـ فلم يسمحوا لهم فحسب بالاحتفاظ بتلك الربوة المهجورة تلك التي لا أحد يريدها على أيّ حال، لكن يسمحون لهم باتّخاذ أسماء مثل أسمائنا ويبيعونهم الطحين والسكّر وأدوات الزراعة بربح لا يزيد إلاّ قليلاً عن السعر الذي يبيعونها فيه للرجل الأبيض. وأؤكّد لك أنّهم عمّا قريب سيبدأون بالمجيء إلى البلدة مرّة في الأسبوع. سيكون العجوز باسكيت سعيدًا بأن يشفيك من هذه الحازوقة».

قال: «جون باسكيت، أولئك الهنود»، وهو يحوزق ببطء وهدوء وثبات. ثم قال فجأة «فلأكن كلبًا لو فعلت». ولأكن كلبًا لو أنّه لم يبدأ يبكي. قفز وراح يشتم وبدا أنّه يبكي «ليس من أحد هنا يرأف بحالي، أكان أبيض أم أسود. إنّني أعاني وأعاني منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة بلا طعام ولا نوم، ولا واحد من أولاد العاهرة أشفق عليّ».

«حسنًا، لقد حاولت مساعدتك فحسب، لست أنا المصاب بالحازوقة. خطرت لي هذه الفكرة فقط بعد أن رأيت كيف أنّك

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى مرحلة لم يعد يقدر فيها رجل أبيض على مساعدتك. لكن ليس هناك من قانون يجبرك على الذهاب إلى هناك والتخلّص من الحازوقة».

ثم هممت بالقيام. عدت إلى زاوية المطبخ ورأيته يعاود القعود على درج المطبخ، مردّدًا: «هيكا! هيكا»، ببطء وهدوء مجدّدًا؛ ثم رأيت، عبر نافذة المطبخ، العجوز آش واقفًا بباب المطبخ تمامًا، ساكنًا، حانيًا رأسه كأنّما يسترق السمع. ومع ذلك لم أشكّ بأيّ شيء. ولا شككت بشيء حتى عندما رأيت بعد فترة وجيزة لوك وهو يقف مجدّدًا، فجأة إنّما بهدوء، وينظر لبرهة ناحية النافذة حيث لعبة البوكر والشلّة، ثم ينطلق في العتمة إلى أسفل الدرب. ثم مضى إلى الكوخ وخرج بعد دقيقة وبيده قنديل مضاء وبندقيّة باليد الأخرى. لا أعرف بندقيّة من كانت ولا أظنّ أنّه هو كان يعرف أو يبالي. خرج فحسب هادئًا نوعًا ما ومصمّمًا، وهبط الطريق. وظللت أرى القنديل مدّة، لكن صوته ظلّ يبلغ مسامعي بعد فترة طويلة من اختفاء الضوء. عدت إلى المطبخ مصغيًا إلى صوت الحازوقة يتلاشى مع ابتعاده أكثر، حين سمعت آش العجوز يقول من ورائي:

«أهو صاعد إلى هناك؟».

سألته: «هناك أين؟».

Twitter: @ketab_n

«إلى الربوة».

قلت: «فلأكن كلبًا إذا كنت أعرف، آخر مرّة كلّمته فيها لم يَبْدُ على الإطلاق مزمعًا الذهاب إلى أيّ مكان. ربّما قرّر فحسب أن يتمشّى قليلاً. قد يفيده ذلك قليلاً، ويساعده على النوم الليلة وعلى استعادة شهيّته للإفطار ربّما. ما قولك؟».

لكن آش ظلّ صامتًا. كلّ ما فعله هو أنّه عاود الدخول إلى المطبخ. وأيضًا لم أشكّ بأيّ شيء. وكيف أشكّ؟ لم أكن قد رأيت جيفرسون حتى في تلك الأيّام. لم أكن رأيت زوج أحذية حتى، ناهيك عن متجرين في صفّ واحد أو ضوء مصباح كهربائي.

ثم دخلت إلى حيث يلعبون البوكر، وقلت لهم: «حسنًا أيّها السادة أظنّ أنّنا سنحظى ببعض النوم الليلة». وأخبرتهم بما حدث، فالأرجح أنّه سيبقى هناك حتى الفجر بدلاً من أن يعود مشيًا تلك الأميال الخمسة في العتمة، إذ إنّ أولئك الهنود قد لا ينزعجون من شيء صغير مثل حازوقة، مثلما يفعل البيض. ولأكن كلبًا لو لم يبتهج المايجور لسماع الخبر.

لكنّه قال: «تبًّا يا راتليف، ما كان يجدر بك أن تفعل ذلك».

«عجبًا، لقد اقترحت الفكرة عليه أيّها المايجور على سبيل المزاح، فقط أخبرته أنّ باسكيت العجوز هو طبيب نوعًا ما، ولم أتوقّع منه أن يأخذ كلامي على محمل الجدّ. قد لا يكون حتى

Twitter: @ketab_n

صاعدًا إلى هناك. ربّما يكون قد ذهب لصيد راكون ما».

لكن معظمهم شعروا تجاه الأمر مثلي «دعه يذهب»، قال مستر فرايزر، «أتمنّى أن يطوف الليل بطوله. تبًّا إذا كنت قد غفوت هنيهة بسببه ليلة البارحة بطولها... وزّع الورق يا عمّ آيك».

وقال العمّ آيك بينما يوزّع هو الورق: «لا يمكنك وقفه الآن على أيّ حال، وربّما جون باسكيت يمكنه أن يفعل شيئًا من أجل حازوقته. ذلك الأحمق يأكل ويشرب إلى حدّ لا يعود معه قادرًا على التكلّم ولا على الابتلاع حتى. جلس ورائي على جذع صباح اليوم، وبدا صوته تمامًا مثل آلة جمع التبن. فكّرت للحظة بأنّ عليّ أن أطلق عليه النار لكي أتخلّص منه... حامل الملكة يراهن بربع دولار أيّها السادة».

جلستُ هناك أتابع اللعب، متخيّلاً من وقت لآخر ذلك المغفّل يحمل بندقيّته ومصباحه ويمضي متعثّرًا بين الأشجار، ويقطع خمسة أميال في العتمة لكي يتخلّص من تلك الحازوقة، وكل هوام الأرض تراقبه وتتساءل أيّ نوع من الصيد هو هذا وأيّ هوام ذي قدمين يصدر ضجيجًا كهذا، ومن بينهم الهنود الحمر في الربوة حين يصل إليهم، ولا بدّ أنّني ضحكت إذ قال المايجور: «بحقّ الجحيم، ما الذي تتمتمه ويثير عندك القهقهة؟».

Twitter: @ketab_n

أجبته: «لا شيء، لقد تذكّرت شخصًا أعرفه فحسب».

وقال المايجور: «واللعنة إن لم يكن من المفروض أن تكون هناك في الخارج معه». ثم قرّر أنّه آن أوان الشراب فصرخ على آش. أخيرًا ذهبت إلى الباب وناديت على آش في المطبخ، لكنّ زنجيًّا آخر هو الذي ردّ عليّ. وحين أحضر الدمجانة واللوازم، نظر إليه المايجور وسأله: «أين آش؟».

فقال الزنجي: «لقد ذهب».

«ذهب؟ إلى أين؟».

أجاب الزنجي: «قال إنّه صاعد إلى الربوة». ومع ذلك لم أعرف، لم أشكّ البتّة. حدّثت نفسي فحسب «لقد أصبح هذا الزنجي العجوز رقيق القلب فجأة، وقد خاف على لوك بروفاين الذي يمشي وحده في العتمة. أو ربّما كان آش يحبّ سماع تلك الحازوقة».

قال المايجور: «صعد إلى الربوة، تبًّا، لكن إذا عاد إلى هنا متخمًا بويسكي جون باسكيت فسأسلخه حيًّا».

قال الزنجي: «لم يقل لأيّ غرض هو ذاهب، كل ما قاله لي حين غادر أنّه صاعد إلى الربوة وسيعود عند الفجر».

قال المايجور: «يستحسن به ذلك، ويستحسن ألاّ يكون مخمورًا أيضًا».

Twitter: @ketab_n

جلسنا هناك واستمرّوا في اللعب وأنا أتفرّج عليهم فحسب مثل المغفّل، من دون أن أشكّ بأيّ شيء، مفكّرًا فقط كيف أنّه من المؤسف أنّ ذاك الزنجي المغفّل العجوز سيتدخّل ويفسد رحلة لوك، ثم صارت الساعة الحادية عشرة وبدأوا يتكلّمون عن الخلود إلى النوم، لكي يكونوا جاهزين فجر الغد، حين سمعنا الصوت. بدا أنّ مجموعة من الجياد المتوحّشة تأتي مندفعة نحونا، ورحنا نتساءل ما الذي يمكن أن يكون هذا الصوت، واكتفى المايجور بالقول «ماذا بحق الـ...»، حين جاء الصوت عبر الشرفة مثل الإعصار وإلى الصالة، وانفتح الباب وإذا به لوك. لم يكن يحمل لا المصباح ولا البندقيّة عندها، وكان متجرّدًا من الثياب، وبدا وجهه مسعورًا مثل رجل في مصحّة جاكسون للمجانين. لكنّ الشيء الأساسي الذي لاحظته أنّه لم يعد يحزّق الآن. وهذه المرّة أيضًا كان يبكي.

قال: «كانوا ينوون قتلي، كانوا سيحرقونني حتى الموت! وقد قبضوا عليّ وأوثقوني فوق حزمة من الحطب، وتقدّم أحدهم يحمل شعلة حين تمكّنت من إفلات نفسي والفرار!».

قال المايجور: «عمّن تتحدّث؟ عمّن بحقّ الجحيم تتحدّث؟».

قال لوك: «عن الهنود، كانوا ينوون...».

«ماذا؟»، صرخ مايجور، «لعنة لعناء، ماذا؟».

وعندئذ حشرت نفسي في الأمر. ولم يكن لوك قد رآني حتى

Twitter: @ketab_n

تلك اللحظة. وقلت له: «على الأقلّ خلّصوك من الحازوقة».

عندئذ جمد في مكانه. لم يكن قد رآني بعد، لكنّه رآني الآن. وقف متجمّدًا ونظر إليّ بذلك الوجه المسعور الغريب الذي بدا هاربًا من مصحّة جاكسون وينبغي إرجاعه إلى هناك على وجه السرعة.

وقال: «ماذا؟».

وكرّرت: «على أيّ حال، لقد تخلّصت من تلك الحازوقة».

حسنًا يا سيّدي. وقف هناك دقيقة كاملة. وقد ابيضّت عيناه، ومال رأسه كأنّما يستمع إلى عقله. أظنّ أنّها كانت المرّة الأولى التي احتاج فيها وقتًا لكي يكتشف أنّه لم يعد لديه عقل. وقف هناك برهة كاملة بينما ذلك الذهول المصدوم يعلو وجهه. ثم انقضّ عليّ. كنتُ ما أزال جالسًا على الكرسي، ولأكن كلبًا لو لم أظنّ للحظة أنّ السقفَ قد انهار فوقي.

حسنًا، أبعدوه عنّي وهدّأوه، ثم رشّوني بالماء وأعطوني شرابًا وشعرت بحال أفضل. لكن حتى مع ذلك الشراب لم أشعر بأنّني في حال حسنة إلى هذا الحدّ، بل شعرت بأنّ واجبي تجاه شرفي يقضي عليّ بأن أدعوه إلى الخروج إلى الفناء، مثلما يفعل الرجال. لا يا سيّدي. أعرف متى أكون قد ارتكبت خطأ وأسأت التخمين؛ المايجور دي سباين لم يكن الوحيد الذي اصطاد دبًّا في

Twitter: @ketab_n

رحلة الصيد تلك؛ لا يا سيّدي، فلأكن كلبًا لو كان نهارًا لكنت حملت بندقيّتي الفورد وخرجت إلى هناك. لكن كان منتصف الليل وعلاوة على ذلك، فإنّ ذلك الزنجي آش كان يشغل تفكيري عندها. بدأت أشكّ أنّ ثمّة في الأمر أكثر ممّا هو ظاهر للعيان. لم يكن الوقت مناسبًا عندها لكي أعود إلى المطبخ وأسأله عن هذا، لأنّ لوك كان في المطبخ. مايجور أعطاه شرابًا أيضًا ووقف عاريًا هناك، يعوّض عمّا فاته من طعام خلال يومين، مردّدًا أنّه سيفعل هذا وذاك بابن القحبة هذا أو ذاك الذي يحاول أن يسخر منه، من دون ذكر الأسماء، لكن راميًا نفسه في سلسلة جديدة من الحازوقات، وإن لم أعد لأسمعها.

انتظرت حتى صبيحة اليوم التالي، ثم دخلتُ إلى المطبخ. ووجدت آش العجوز، يفعل ما يبدو أنّه يفعله دائمًا، يلمّع جزمة المايجور ويضعها وراء الموقد ثم يأخذ بندقيّة المايجور ويبدأ بتلقيمها. نظر مرّة فقط إلى وجهي حين دخلت، واستأنف تلقيم البندقيّة بالخرطوش.

قلت له: «إذن صعدتَ إلى الربوة ليلة أمس». فحانت منه نظرة سريعة إليّ ثم أطرق ثانية. لكنّه لم يقل شيئًا، وقد بدا مثل قرد لعين، «لا بدّ أنّك تعرف بعض الناس فوق».

قال، ملقمًا البندقيّة: «أعرف بعضهم».

Twitter: @ketab_n

«أتعرف باسكيت العجوز؟».

«أعرف بعضهم»، أجابني من دون أن يرفع رأسه.

«أرأيته ليلة أمس؟». ظلّ صامتًا. فغيّرت عندها نبرتي، مثلما ينبغي برجل أن يفعل لكي يجبر زنجيًّا على الاعتراف بأمر ما، وقلت له: «اسمعني جيّدًا، انظر إليّ». فنظر إليّ، «فقط قل لي ما الذي فعلته فوق ليلة أمس؟».

«أنا؟».

«هيّا، لقد انتهى الأمر الآن. لقد تخلّص مستر بروفاين من الحازوقة ونسينا كلّ ما حدث حين عاد ليلة أمس. أنت لم تصعد إلى هناك من أجل التسلية فقط ليلة البارحة. أو ربّما كان شيئًا أخبرتهم به فوق، أخبرتَ باسكيت العجوز. أهذا ما جرى». كان قد كفّ عن النظر إليّ، لكنّه لم يتوقّف عن حشو البندقيّة. نظر بسرعة في الاتّجاهين، «هيّا» قلت له، «أتريد أن تخبرني بما جرى فوق، أم تريدني أن أخبر مستر بروفاين أنّ لك علاقة ما بما جرى». لم يتوقّف عن حشو البندقيّة ولم ينظر إليّ البتّة، لكن فلأكن كلبًا إن لم أكد أرى عقله وهو يعمل. «هيّا، فقط ما الذي كنت تفعله فوق ليلة البارحة؟».

ثم أخبرني. أظنّ أنّه عرف أنّه لا جدوى من محاولة إخفاء الأمر؛ وأنّني إن لم أخبر لوك فبوسعي أن أخبر المايجور. قال:

Twitter: @ketab_n

«فقط راوغته ووصلت إلى هناك قبله وأخبرتهم أنّه عميل تحصيل جديد سيصعد إليهم الليلة، وأنّ كلّ ما عليهم فعله هـو أن يعطـوه بعض المال وسيذهب في حال سبيله، وفعلوا ما فعلوه».

قلت: «حسنًا، حسنًا لطالما حسبت نفسي جيّدًا في المقالـب، لكنّني مجرّد مبتدئ أمامك. ما الذي جـرى هنـاك؟ أرأيـتَ مـا جرى؟».

«لم يحدث الكثير، فقط كمنوا له على الدرب وبعد برهة جاء يتسكّع حاملاً المصباح والبندقيّة. أخذوهما منه واقتادوه إلى أعلـى الهضبة وراحوا يتشاورون في أمره بلغتهم لـبعض الوقـت. ثـم وضعوا بعض الحطب ودبّروا الأمر بحيث يـتمكّن مـن الفـرار بدقيقة، ثم جاء واحد منهم إلى الهضبة مع النار وتولّى بقيّة الأمر».

«حسنًا، حسنًا، فلأكن ملعونًا إلى الأبد». ثم فجـأة صـعقتني الفكرة. كنت قد هممت بالخروج حين صعقتني الفكـرة، وتوقّفـت وقلت «هناك أمر آخر أريد أن أعرفه. لماذا فعلت ذلك؟».

عندئذ قعد على الصندوق الخشبي، وأخذ يفرك البندقيّة بيـده، من دون أن يرفع رأسه نحوي مجـدّدًا، وقـال: «كنـت أحـاول مساعدتك فحسب لكي تخلّصه من الحازوقة اللعينة».

«دعك من هذا، هذا ليس السبب. ما كان السـبب؟ تـذكّر أنّ لديّ الحقّ بأن أخبر كِلا السيّدين بروفاين والمايجور. لا أعرف ما

Twitter: @ketab_n

الذي سيفعله المايجور، لكنّني أعرف ماذا سيفعل مستر بروفاين لو أخبرته».

وقعد هناك يفرك تلك البندقيّة، مطرقًا كأنّه مستغرق في التفكير. ليس كأنّه يحاول أن يقرّر ما إذا كان سيخبرني أم لا، لكن كأنّما يستحضر شيئًا من ماض بعيد. وهذا بالضبط ما كان يفعله، لأنّه قال:

«لست خائفًا منه لعلمك. ذات يوم ذهبنا في نزهة. كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل عشرين سنة كاملة. كان شابًّا عندها، وخلال النزهة، جاء هو وأخوه ورجل أبيض ثالث ـ نسيت اسمه ـ على صهوات جيادهم ملوّحين بمسدّساتهم وقبضوا علينا نحن الزنوج واحدًا واحدًا، وأحرقوا بلفافات سجائرهم ياقات قمصاننا. وكان هو من أحرق ياقتي».

«وقد انتظرت كلّ هذا الوقت وتكبّدت كل هذا العناء فقط لكي تنتقم منه؟».

قال، وهو ما زال يفرك البندقيّة: «لم يكن ذلك. كانت الياقة. في تلك الأيّام كان أفضل عامل زنجي يحصل على دولارين في الأسبوع. وقد دفعت أربعة دولارات ثمنًا لتلك الياقة. كانت زرقاء نقشت عليها صورة حمراء للسباق بين ناتشيز وروبرت لي[1]. وقد

---

١ سباق شهير بين سفينتين تعملان على البخار تحملان هذين الاسمين، وجرى

Twitter: @ketab_n

أحرقها. اليوم أجني عشرة دولارات في الأسبوع. وأتمنّى لو كنت أعرف من أين أشتري ياقة مثل تلك الياقة وأدفع نصف هذا المبلغ. فقط لو كنت أعرف».

السباق الذي استمرّ ثلاثة أيّام عام ١٨٧٠ من سانت لويس، ميزوري، إلى نيو أورلينز. وقد فاز فيه المركب المسمّى روبرت لي، على المركب ناتشيز السادس.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جنديّان(١)

كنتُ و«بيت»، ننزل إلى مزرعة العجوز كليغرو، لكي نستمع إلى مذياعه. ننتظر إلى ما بعد العشاء، حتى تظلم الدنيا، ونقف خارج ردهة منزل العجوز، ونستمع إلى مذياعه، لأنّ زوجته كانت صمّاء، فيضطرّ إلى رفع الصوت إلى أعلى درجة، وأظنّ أننا كنّا نسمع بالوضوح نفسه الذي تسمع به هي، حتى ونحن في الخارج وراء النافذة المغلقة.

وسألته ليلتها:

(١) جنديّان: نشرت للمرّة الأولى في صحيفة «ساترداي إيفننغ بوست» عام ١٩٤٢. وهي تحكي قصّة عائلة غراير، التي كان فوكنر عالج جانبًا منها في «سقف جديد للربّ»، حيث شخصيّة الأب العاجز والخاسر، وحيث الحياة الريفيّة الضيّقة والمحدودة، والتي تظهر في «جنديّان» بصورة أوضح، حيث تعيش العائلة في منطقة «فرنشمانز باند» النائية، وحيث بطلا القصّة، «بيت» (١٩) عامًا، وأخوه الأصغر (٩ سنوات) الذي يلعب دور الراوي، شأنهما شأن سكّان تلك المنطقة الفقراء، لا يعرفان شيئًا عن العالم إلاّ من خلال استراقهما السمع إلى مذياع جارهما. تقوم هذه القصّة على خلفيّة وطنيّة، وهي مكتوبة بمثل هذه الحماسة العاطفيّة أيضًا، أي تورّط أميركا في الحرب العالميّة الثانية، عندما يقرّر الأخ الأكبر الالتحاق بالجيش دفاعًا عن بلده بعد هجوم «بيرل هاربور الشهير»، بينما يقرّر الأخ الأصغر اللحاق به في اليوم التالي. تحولت هذه القصّة إلى فيلم سينمائي عام ٢٠٠٣ بالعنوان نفسه من إخراج «آرون شنايدر».

Twitter: @ketab_n

«أيّ يابانيين؟ وأيّ بيرل هاربور؟»[1].

فأجابني:

«صه».

وهكذا وقفنا هناك، في البرد، نستمع إلى المذيع، رغم أنّني لم أفهم شيئًا ممّا كان يقوله. ثم قال إنّ هذا كل شيء حاليًّا، فقفلنا عائدين إلى البيت، وأخبرني «بيت» بما كان يجري. لأنّه كان في نحو العشرين وقد أنهى دراسته في يونيو الفائت، وكان يعرف الكثير من الأشياء: أخبرني عن أولئك اليابانيّين الذين قصفوا بيرل هاربور بالقنابل، وقال لي إنّ بيرل هاربور تقع على الضفّة الأخرى.

«على الضفّة الأخرى؟ بعد البحيرة الحكوميّة[2] هناك في أوكسفورد؟».

---

(١) بيرل هاربور Pearl Harbor الهجوم المباغت الشهير الذي شنّه اليابانيّون صبيحة السابع من كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٤١ على قاعدة أميركيّة بحريّة في جزيرة واي مومي (أي ميناء اللؤلؤ) في هاواي، وقد سقط ضحيّة الهجوم ٢٤٠٣ أشخاص، وكان إيذانًا بدخول الولايات المتحدة الأميركيّة الحرب العالميّة الثانية.

(٢) في النص Government reservoy: والمقصود مشروع «بحيرة سارديس» الذي بدأ عام ١٩٣٦ على نهر «تالاهاتشي الصغير» ويتوزّع على ثلاث مناطق من شمال المسيسيبي، إحداها السدّ أو الخزّان إلى جنوب شرق بلدة سارديس.

Twitter: @ketab_n

«لا، في المياه الواسعة. في المحيط الهادئ».

حين عدنا إلى البيت وجدنا أبي وأمّي نائمَين، واضطجعت و«بيت» على الفراش، وأنا ما زلت لا أفهم أين تقع بيرل هاربور وقال لي «بيت» مجدّدًا إنّها في المحيط الهادئ، ثم قال:

«ما بالك؟ لقد بلغت التاسعة، وأنت في المدرسة منذ سبتمبر. ألم تتعلّم شيئًا بعد؟».

«أظنّ أننا لم نصل بعد إلى هذه المسافة».

كنّا منغمسين في زراعة الأرض وقتذاك، وكان يفترض أن ننتهي قبل الخامس عشر من نوفمبر، لأنّ أبي، كحاله دائمًا منذ وعينا به، تأخّر مجدّدًا على ذلك. وكان علينا أن نعدّ مؤونة الحطب أيضًا، لكنّنا كلّ مساء كنّا ننزل إلى مزرعة العجوز كليغرو ونقف في البرد خارج النافذة ونستمع إلى المذياع، ثم نعود إلى البيت ونستلقي في الفراش، ويخبرني «بيت» عمّا تتحدّث الأخبار. يحكي القليل، ثم يرفض المتابعة، كأنّه لم يعد راغبًا في الكلام. فيطلب منّي أن أصمت لأنّه يريد أن ينام، لكنّ تلك لم تكن رغبته البتّة.

فقط يستلقي هناك، ويبدو أشدّ سكونًا ممّا لو أنّه نائم حقًّا، وأحسّ شيئًا ما ينبعثُ منه كأنّه غاضب منّي، وإن كنتُ أعرف أنّني لستُ من يشغل باله، بل شيء آخر، ولا هذا حتى، فهو لم يكن من النوع الذي يقلق البتّة. فهو لا يتأخّر إطلاقًا مثل أبي، ناهيك عن أنّه

Twitter: @ketab_n

يراوح في التأخّر. أعطاه أبي عشرة فدادين حين أنهى الدراسة، وكنّا نعرف مدى سروره للتخلّص على الأقلّ من عشرة فدادين، فهذا يعني أرضًا أقلّ سيضطرّ إلى القيام بأعبائها. وقام «بيت» بتمهيد الفدادين العشرة وتجهيزها للشتاء، وبالتالي لم يكن هذا ما يشغل باله. لكنّه شيء ما. ومع ذلك ظللنا نذهب إلى مزرعة العجوز كليغرو كلّ ليلة ونستمع إلى مذياعه، وعرفت أنّهم وصلوا إلى الفلبّين، وأنّ الجنرال ماك آرثر[1] يعيق تقدّمهم. ثم نعود إلى البيت ونضطجع على فراشنا ولا يخبرني «بيت» شيئًا عمّا يجري ولا يتكلّم إطلاقًا. يتمدّد هناك فحسب، ساكنًا كأنّه في كمين وحين ألمسه أشعر بخاصرته أو برجله متصلّبة وجامدة كالحديد، ثم أستسلم بعد فترة للنوم.

تلك الليلة كانت المرّة الوحيدة التي قال لي فيها شيئًا باستثناء تقريعي، لأنّني لم أقم بتقطيع ما يكفي من الحطب، قال:

«يجب أن أذهب».

«تذهب إلى أين؟».

«إلى تلك الحرب».

«حتى قبل أن ننتهي من مؤونة الحطب؟».

---

(١) الجنرال دوغلاس ماك آرثر (١٨٨٠ ــ ١٩٦٤): جنرال أميركي اشتهر خلال الحرب العالميّة الثانية.

Twitter: @ketab_n

«فليذهب الحطب إلى الجحيم».

«حسنًا، متى ننطلق؟».

لكنّه لم يكن يصغي حتى. كان ممدّدًا هناك في العتمة، جامدًا وصامتًا كالحديد، ثم قال:

«يجب أن أذهب، لن أقبل أن يمزّق أحدهم الولايات المتّحدة هكذا».

وقلت:

«أجل، بحطب أم بلا حطب، أظنّ أنّه يجدر بنا الذهاب».

هذه المرّة سمعني. ظلّ صامتًا. لكنّه نوع آخر من الصمت. ثم قال:

«أنت؟ تذهب إلى الحرب؟».

«أنت تتولّى أمر الكبار منهم وأنا أتولّى أمر الصغار».

ثم قال إنّني لا أستطيع الذهاب. في البداية ظننتُ أنّه لا يريدني أن ألتصق به مثلما حدث حين ذهب لكي يتعرّف إلى بنات «تال». ثم قال لي إنّ الجيش لا يقبل بانضمامي إليه لأنّني صغير جدًّا، وعندها عرفت أنّه يعني ذلك حقًّا، وأنّني لا أستطيع الذهاب بأيّ حال من الأحوال. وعلى نحو ما لم أكن قد صدّقت بعد أنّه سيذهب هو نفسه، ولكن عندئذ عرفت أنّه ذاهب وأنّه لن يسمح لي

Twitter: @ketab_n

بمرافقته على الإطلاق. فقلتُ له:

«سأقطّع الحطب وأجمع المياه لك إذن، يجب أن تحصل على الحطب والمياه».

بدأ يصغي إليّ عندئذ. لم يعد جامدًا كالفولاذ.

استدار إلى جهتي من الفراش ووضع رأسه على صدري لأنّني كنتُ نائمًا بشكل مستقيم وصلب على ظهري. وقال لي:

«لا، عليك البقاء هنا لكي تساعد البابا».

«أساعده بماذا؟ لن يلحق بتاتًا، ولا يمكن أن يتأخّر أكثر من ذلك. يمكنه بالتأكيد الاهتمام بمزرعته الصغيرة تلك، بينما نقضي نحن على أولئك اليابانيّين. يجب أن أذهب أنا أيضًا. إذا كنتَ مضطرًا إلى الذهاب فأنا مضطرٌ كذلك».

«لا. اصمت الآن».

وكان يعني ذلك، وعرفتُ أنّه يعني ذلك. لكنّني تأكّدت من فمه هو. فسكتّ.

«لا أستطيع الذهاب إذن».

«لا، لا تستطيع الذهاب فحسب. أنت صغير جدًّا، أوّلاً، وثانيًا...».

«إذن، اصمت ودعني أنام».

Twitter: @ketab_n

فصمتَ عندها واستلقى على الفراش، واضطجعت هناك مدّعيًا النوم، وسرعان ما غفا وعرفت أنّ توقه للذهاب إلى الحرب كان هو ما يشغل باله ويؤرقه، أمّا الآن وقد قرّر الذهاب، فلم يعد قلقًا.

في الصباح التالي أخبرَ والدينا. تقبّلت أمّي الأمر جيّدًا. بكت. ثم قالت:

«لا، لا أريده أن يذهب. أفضّل الذهاب بدلاً منه لو استطعت. لا أريد إنقاذ البلاد. فليأخذها أولئك اليابانيّون وليحتفظوا بها ما داموا يتركونني وعائلتي وشأننا. لكنّني أذكر أخي مارش في تلك الحرب الأخرى[١]. اضطرّ إلى الذهاب إلى تلك الحرب ولم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة، ولم تفهم أمّي ذلك وقتذاك بقدر ما لا أفهمه الآن. لكنّها قالت لمارش إنّه إذا كان عليه الذهاب فليذهب. وهكذا، إذا كان يجب أن يذهب بيت إلى هذه الحرب، فليذهب. لكن كلّ ما أريده هو أن لا تطلبوا منّي أن أتفهّم السبب».

أمّا أبي فكان شديد الاستياء:

«تذهب إلى الحرب؟ لماذا، لا أرى أيّ فائدة في ذلك. لستَ كبيرًا كفاية على ذاك التجنيد، والبلاد لم تتعرّض للغزو. رئيسنا في واشنطن دي سي يتابع الأوضاع وسيعلمنا بالمستجدّات. ناهيك عن

(١) الحرب العالميّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

أنّه في تلك الحرب الأخرى التي ذكرتها أمك جُنّدت وأرسلتُ إلى تكساس وعلقتُ هناك ثمانية أشهر كاملة حتى أوقفوا القتال أخيرًا. يبدو لي أنّ تلك الحرب، وإصابة خالك مارش تلك الإصابة البالغة في معارك فرنسا، سببان كافيان لي في ما يخصّ حماية البلاد، على الأقلّ خلال حياتي. إضافة إلى ذلك، من سيساعدني في المزرعة في غيابك؟ أشعر أنّني سأتأخّر كثيرًا».

«أنت متأخّر منذ صرت أعي وأتذكّر، على أيّ حال أنا ذاهب، يجب أن أذهب».

قلت:

«بالطبع عليه أن يذهب... أولئك اليابانيّون...».

فصرخت بي أمّي وهي تنشج:

«أطبق فمك أنت، لا أحد يكلّمك! اذهب واجلب بعض الحطب. هذا ما يمكنك فعله».

جلبتُ الحطب. وطوالَ اليوم التالي، بينما انشغلتُ و«بيت» وأبي، بتقطيع أكبر كمّيّة ممكنة من الحطب لأنّ «بيت» قال إنّ فكرة أبي عن الحطب الوفير تعني آخر حطبة لم تضعها أمّي بعد في الموقد، انشغلت أمّي بتجهيز «بيت» للرحيل. فغسلتْ ثيابه ورتقتها وخبزت له الكثير من الخبز. تلك الليلة، ونحن مضطجعون في الفراش، سمعنا صوتها وهي توضّب أغراضه وتبكي، بعدها

Twitter: @ketab_n

بقليل نهض «بيت» بثياب النوم وذهب إليها، وسمعتهما يتكلّمان، إلى أن قالت له أمّي:

«عليك أن تذهب ولذا أريدك أن تذهب. لكنّني لا أفهم الأمر، ولن أفهمه قطّ، فلا تتوقّع منّي ذلك».

وعاد «بيت» واضطجع بجواري صامتًا مجدّدًا، وظهره صلب كالحديد، ثم قال، ولم يكن يكلّمني، ولا كان يكلّم أحدًا:

«يجب أن أذهب، يجب أن أفعل فحسب».

«بالتأكيد يجب أن تذهب... أولئك اليابانيّون...».

فاستدارَ نحوي وأخذ ينظر إليّ في العتمة، ثم قال:

«على أيّ حال لا بأس بك، توقّعتُ أن أواجه معك متاعب أكثر ممّا أواجه معهما».

«أظنّ أنّني لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك أيضًا، لكن ربّما بعد سنوات قليلة أستطيع الذهاب إلى هناك. ربّما يومًا ما تراني دخلتُ عليك فجأة».

«آمل ألاّ يحصل ذلك، الرجال لا يذهبون إلى الحرب للتسلية، الرجل لا يترك أمّه باكية فقط لكي يتسلّى».

«لماذا تذهب إذن؟».

Twitter: @ketab_n

«عليّ ذلك، عليّ ذلك فحسب. فلتنم الآن، يجب أن أوافي تلك الحافلة في الصباح الباكر».

«حسنًا، سمعتُ أنّ ممفيس مدينة كبيرة. كيف ستعثر على مركز الجيش؟».

«سأسأل أحدًا، هيّا نم الآن».

«أهذا ما ستسأل عنه؟ أين تنضمّ إلى الجيش؟».

«أجل»، قال «بيت». ثم استدار إلى الناحية الأخرى. «هيّا اسكت الآن واخلد إلى النوم».

نمنا، وصباح اليوم التالي تناولنا الإفطار على ضوء القنديل لأنّ الحافلة ستمرُّ عند السادسة. أمّي لم تعد تبكي. فقط بدت متجهّمة ومنشغلة في وضع الإفطار على الطاولة بينما نحن نأكل. ثم أنهتْ توضيب أغراض «بيت»، ورفض أن يأخذَ شيئًا إلى الحرب، لكن أمّي قالت إنّ الرجال المحترمين لا يذهبون إلى أيّ مكان، ولا حتى إلى الحرب، من دون ملابسهم الداخليّة وما يقيتهم. وضبّت له الدجاج المقلي والبسكويت والإنجيل أيضًا، ثم حان وقت الذهاب. لم نعرف حتى تلك اللحظة أنّ أمّي لم تكن تنوي مرافقتنا إلى الحافلة. فقط جاءت بقبّعة «بيت» ومعطفه، غير باكية، ووقفت هناك واضعة يديها على كتفيه، من دون أن تُحرّك ساكنًا، لكن بطريقة ما، وهي تمسك كتفيه بدت بمثل جدّيّة «بيت» حين التفتَ

Twitter: @ketab_n

إليّ اللّيلة الفائتة في الفراش وقال إنّني على أيّ حال لا بأس بي.

قالت: «يمكنهم أن يأخذوا البلد ويحتفظوا بـه مـا دامـوا لا يزعجونني أنا وعائلتي، لا تنسَ إطلاقًا من أنت. لست بـالثريّ، وبقيّة الناس في الخارج من الفرنسيّين لم يسمعوا بك قطّ. لكن دمك جيّد مثل أيّ دم في أيّ مكان، وإيّاك أن تنسى هذا».

ثم قبّلته، وخرجنا من البيت. حمل أبي صرّة «بيـت» رغـم رفض الأخير ذلك. لم يكن قد حلّ الفجر بعد، ولا حتـى بعـد أن وقفنا لفترة على الطريق السريع قرب صندوق البريد. ثـم رأينـا أضواء الحافلة وظللتُ أراقبها حتى اقتربت ولوّحَ لها «بيت»، ثـم انتشر ضوء الصباح. كانت الشمس بدأت بالبزوغ بينما لـم أكـن منتبهًا. وفي الأثناء توقّعت و«بيت» أن يتفوّه أبـي بشـيء آخـر أحمق، على غرار ما قاله عن إصابة الخال مارش في فرنسا، وتلك الرحلة التي قام بها إلى تكساس عام ١٩١٨ وكيف أنّ هـذا كـان كافيًا لإنقاذ أميركا في العام ١٩٤٢، لكنّه لم يقل شيئًا. كان لا بأس به أيضًا. قال فقط:

«وداعًا يا بنيّ، تذكّر دائمًا ما قالته أمّك وراسلها كلّما سنحت لك الفرصة».

ثم صافحه، ونظر «بيت» إليّ لبرهة ووضع يده على رأسي وداعبَ شعري وقفزَ إلى الحافلة، وأقفل السائق الباب، ثم انطلقـت

Twitter: @ketab_n

الحافلة مدمدمة، وازدادت سرعتها فارتفعت جلبتها أكثر، أمّا ضوآها الخلفيّان فلم يصغرا، بل بدا أنّهما سيتابعان الجري معًا حتى يتلامسا ويصيرا في النهاية ضوءًا واحدًا. لكنّهما لم يفعلا، ومضت الحافلة، ورغم هدوء الوداع، فقد وجدتني على حافّة الانفجار بالبكاء، رغم أنّني في التاسعة تقريبًا وما إلى ذلك.

عدتُ وأبي إلى البيت، وعملنا طوال اليوم في تقطيع الحطب، لذا لم تُتح لي فرصة جيّدة حتى منتصف العصر. ثم أخذتُ نقّافتي وكنتُ أودّ أن آخذ مجموعتي كلّها من بيوض الطيور أيضًا، لأنّ «بيت» أعطاني مجموعته وساعدني على جمع مجموعتي، وكان يحبّ أن يُخرج الصندوق ويتفرّج على البيوض بقدر ما أحبّ ذلك، وإن كان في العشرين. لكن الصندوق كان كبيرًا بحيث يصعب حمله مسافة طويلة والقلق بشأنه، لذا أخذتُ فقط بيضة مالك الحزين، لأنها الأفضل ووضعتها في علبة كبريت وخبّأتها والنقّافة في ركن من الحظيرة. ثم تناولنا طعام العشاء وأوينا إلى الفراش، ورحت أتخيّل كيف سيكون الأمر لو اضطررت إلى البقاء في تلك الغرفة وذلك الفراش ولو لليلة واحدة أخرى. كلّ ما في الأمر أنّني ما كنتُ لأتحمّل ذلك. ثم سمعت أبي يشخر، أمّا أمّي فلم تُصدر أيّ صوت، سواء أكانت نائمة أم لا، ولا أحسبها كانت نائمة. لذا أخذت زوج حذائي وألقيته من النافذة، ثم تسلّقت إلى الخارج مثلما اعتدتُ على رؤية «بيت» يفعل حين كان ما يزال في السابعة عشرة وكان

Twitter: @ketab_n

أبي يقول إنّه أصغر من أن يخرج ليلاً، ولم يكن يسمح له بالسهر في الخارج، وانتعلت حذائي وذهبت إلى الحظيرة وأخرجت النقّافة وبيضة مالك الحزين واتّجهتُ إلى الطريق العامّ.

لم يكن الطقس باردًا، ولكنّها العتمة الشديدة فحسب، وذلك الطريق العامّ انبسط أمامي فارغًا تمامًا مثل رجل مضطجع بحيث شعرت للحظة أنّ الشمس ستشرق كاملة قبل أن أنهي العشرين ميلاً إلى جيفرسون، لكنّ هذا لم يحدث، إذ بدأت بصعود الهضبة إلى البلدة مع أوّل شعاع الشمس. شممتُ رائحة طعام الإفطار تنبعثُ من الأكواخ وتمنّيتُ لو أنّني فكّرت في أن أحضر معي بسكويتة باردة، لكنّ الأوان كان قد فات. وكان «بيت» قد أخبرني أنّ ممفيس تقع قريبًا جدًّا بعد جيفرسون، لكنّني لم أعرف أنّها تبعد ثمانين ميلاً. لذا وقفت هناك في تلك الساحة الفارغة، وضوء النهار يزداد سطوعًا، وأعمدة الإنارة ما زالت مضاءة و«الشريف» يرمقني، وما زلتُ على بعد ثمانين ميلاً من ممفيس، وقد استغرقني الليل بطوله كي أمشي اثنين وعشرين ميلاً فقط، وهكذا عندما أصل إلى ممفيس بهذا المعدّل سيكون «بيت» في طريقه إلى بيرل هاربور. سألني «الشريف»:

«من أين أنت؟».

وأخبرته مجدّدًا: «يجب أن أصل إلى ممفيس لأنّ أخي هناك».

Twitter: @ketab_n

«أتعني أنّه ليس لك أيّ أهل هنا؟ لا أحد سوى ذلك الأخ؟ ما الذي تفعله بعيدًا هنا، وأخوك في ممفيس؟».

وأخبرته مجدّدًا: «يجب أن أصل إلى ممفيس، ليس لديّ أيّ وقت أضيّعه في الحديث عن الأمر، ولا لأقطع المسافة سيرًا على الأقدام، يجب أن أصلَ إلى هناك اليوم».

فقال «الشريف»: «تعالَ معي».

سلكنا شارعًا آخر، ووجدتني أمام حافلة، تمامًا مثل التي استقلّها «بيت» صباح أمس، إلاّ أنّ أضواءها لم تكن منارة وكانت فارغة. ثم دخلنا إلى محطّة حافلات اعتياديّة فيها شبّاك تذاكر يقف فيه موظّف، وقال «الشريف»: «اجلس هناك». جلستُ على المقعد فقال «الشريف»: «أريد أن أستعمل هاتفك». وتكلّم دقيقة على الهاتف ثم وضع السمّاعة وقال للرجل وراء الشبّاك: «انتبه له، سأعود قريبًا حالما تنهض مسز هابرشام وترتدي ملابسها». وخرج. فنهضتُ واتّجهتُ إلى شبّاك التذاكر.

«أريدُ الذهاب إلى ممفيس».

قال الرجل: «بكلّ تأكيد، اجلس الآن على المقعد وسيعود مستر فوتي بعد دقائق».

قلت: «لا أعرف أيّ مستر فوتي، أريد أن أستقلّ الحافلة إلى ممفيس».

Twitter: @ketab_n

سألني: «أتحمل مالاً؟ ستكلّفك الرحلة اثنين وسبعين سنتًا».

أخرجتُ بيضة مالك الحزين من علبة الثقاب. وقلت له: «سأبادلك هذه بتذكرة إلى ممفيس».

«ما هذه؟».

«إنّها بيضة مالك الحزين، لم ترَ مثلها من قبل، إنّها تساوي دولارًا. سآخذ اثنين وسبعين فلسًا منك لقاءها».

فقال: «لا، أصحاب هذه الحافلة يصرّون على الدفع نقدًا. إذا بدأت بمقايضة التذاكر ببيض الطيور والماشية وما إلى ذلك فسيطردونني من عملي. اذهب واجلس على المقعد الآن مثلما قال مستر...».

فهرعت نحو الباب، لكنّه أمسك بي، وضع يده على النضد وقفز فوقه ولحق بي ومدّ يده لكي يمسكني من قميصي، فاستللت سكّين الجيب الخاصّة بي ولوّحت بها في وجهه.

«إذا لمستني فسأقطع يدك».

حاولت مراوغته والهرب، لكنّه عدا أسرع من أيّ رجل بالغ رأيته في حياتي، بسرعة «بيت» تقريبًا. قطع عليّ الطريق ووقف مديرًا ظهره للباب وإحدى رجليه مرفوعة قليلاً ولم يكن من طريق آخر للخروج. «عد إلى ذاك المقعد وابق هناك»، قال لي.

Twitter: @ketab_n

ولم تكن هناك طريقة أخرى للخروج. وظلّ واقفًا هناك عند الباب. فعدتُ إلى المقعد. وبدا لي عندئذ أنّ المحطّة امتلأت بالناس. جاء «الشريف»، ومعه سيّدتان، شابّة وعجوز، ترتدي كلٌّ منهما معطف فرو ووجهها مكسوّ بالماكياج، من دون أن يخفي ذلك أنّها نهضت من سريرها على عجل وأنّ ذلك لا يعجبها. وجعلتا تحملقان بي.

قالت العجوز: «إنّه لا يرتدي معطفًا! كيف وصل إلى هنا وحده؟».

قال الشريف: «علمي علمك، كلّ ما عرفته منه أنّ أخاه في ممفيس وأنّه يريد الالتحاق به هناك».

قلت: «هذا صحيح، عليّ الوصول إلى ممفيس اليوم».

قالت العجوز: «بالطبع عليك ذلك، ألنت واثق من أنّك تستطيع العثور على أخيك حين تصل إلى ممفيس؟».

«أظنّ أنّني أستطيع، ليس لديّ سوى أخ واحد وقد عرفته طوال حياتي. أظنّ أنّني سأعرفه مجدّدًا حين أراه».

نظرت العجوز إليّ: «على نحوٍ ما لا يبدو لي أنّه من سكّان ممفيس».

قال الشريف: «على الأرجح لا، لكن لا يمكننا الجزم. قد يكون من أيّ مكان، سواء كان يلبس الأوفرول أم لا. هذه الأيّام

Twitter: @ketab_n

ينتشرون فجأة أملاً بالحصول على إفطار، فتيان وفتيات أيضًا، تقريبًا قبل أن يتمكّنوا من السّير جيّدًا. ربّما كان أمس في ميزوري أو تكساس، لا نعرف. لكن يبدو متيقّنًا من أنّ أخاه في ممفيس. كلّ ما أعرف أنّه يجدر بي فعله أن أرسله إلى هناك وأتركه يبحث».

قالت العجوز: «أجل».

جلست الشابّة على المقعد قربي وفتحت حقيبة يدها وأخرجت قلم حبر وبعض الأوراق.

وقالت العجوز: «الآن حبيبي، سنحرص على أن تعثر على أخيك، لكن يجب أن نسجّل بياناتك من أجل ملفّاتنا أوّلاً. نريد أن نعرف اسمك واسم أخيك وأين ولدت وأين مات والداك».

قلت: «لا أحتاج إلى بيانات بحالتي، كلّ ما أريده هو الوصول إلى ممفيس. يجب أن أصل إلى هناك اليوم».

قال الشريف: «أترين؟» وكأنّه يستمتع بقول ذلك، «مثلما قلت لك».

قال قاطع التذاكر: «أنت محظوظة في ذلك يا مسز هابرشام، لا أعتقد أنّه يحمل سلاحًا، لكنّه يستطيع استلال تلك السكّين... أعني بسرعة أيّ رجل».

لكنّ العجوز وقفت بتأمّلني فحسب. ثم قالت:

Twitter: @ketab_n

«حسنًا، حسنًا، لا أعرف حقًّا ما ينبغي عمله».

قال قاطع التذاكر: «أنا أعرف، سأعطيه تذكرة على حسابي، كإجراء لحماية الشركة من الفوضى وسفك الدماء. وحين يخبر مستر فوتي مجلس البلديّة بذلك ستكون مسألة مدنيّة، ولن يعوّضوا عليّ فحسب، بل سيمنحونني ميداليّة أيضًا. أليس كذلك مستر فوتي؟».

لكن أحدًا لم يعره اهتمامًا. ظلّت العجوز ترمقني. ثم قالت: «حسنًا» مجدّدًا. ثم أخرجت دولارًا من حقيبتها وناولته لقاطع التذاكر، «أظنّ أنّه سيسافر على مقعد الأطفال، أليس كذلك؟».

قال قاطع التذاكر: «حسنًا يا سيّدتي، لا أعرف ماذا تقول اللوائح في هذه الحالة. الأغلب أنّني سأُطرد لعدم وضعه في قفص خشبي عليه كلمة «سمّ». لكنّني سأخاطر في الأمر».

ثم ذهبوا. بعد ذلك عاد الشريف يحمل شطيرة لي.

«أأنت متأكّد من أنّه يمكنك العثور على أخيك هذا؟».

«لستُ مقتنعًا بعد لمَ لا يمكنني ذلك، إذا لم أرَ بيت أوّلاً فسيراني هو، فهو يعرفني أيضًا».

ثم ذهب الشريف لتناول الإفطار أيضًا، وتناولتُ الشطيرة. وجاء المزيد من الناس واشتروا التذاكر ثم قال قاطع التذاكر، لقد آن أوان الذهاب وصعدت إلى الحافلة مثلما فعل «بيت» وانطلقنا.

Twitter: @ketab_n

رأيتُ جميع البلدات. رأيتها جميعًا. حين انطلقت الحافلة اكتشفت أنّني كنتُ في حاجة إلى النوم. لكن كان هناك الكثير ممّا لم أره من قبل. خرجنا من جيفرسون ومررنا بحقول وغابات، ثم دخلنا إلى بلدة أخرى ثم خرجنا منها ومررنا مجدّدًا بحقول وغابات، ثم إلى بلدة أخرى فيها متاجر ومحالج وخزّانات مياه، وسرنا بمحاذاة السكّة الحديد مدّة، ورأيت ذراع الإشارة يتحرّك، ثم رأيت القطار ثم المزيد من البلدات، وكنتُ سأغطّ في النوم، لكنّني لم أكن قادرًا على المجازفة بذلك. ثم دخلنا في ممفيس. بدا لي أنّ المشهد استمرّ أميالاً طويلة. مررنا بحفنة من المتاجر وفكّرتُ أنّ الحافلة ستتوقّف هنا بالتأكيد. لكنّنا لم نكن قد وصلنا بعد إلى ممفيس ومررنا مجدّدًا ببحيرات وحزم تبغ فوق الطواحين، وإذا كانت محالج وطواحين حقًّا فإنّني لم أعرف أبدًا أنّ هناك هذا العدد منها، وبهذه الضخامة، ومن أين لهم بما يكفي من القطن وزنود الخشب لكي يشغّلوها.

ثم رأيتُ ممفيس. عرفتها هذه المرّة. كانت ترتفع عاليًا في الهواء. بدت أشبه بدزّينة مجتمعة من بلدات أكبر من جيفرسون تقف على طرف حقل، وترتفع أعلى من أيّ هضبة في مقاطعة يوكناباتوفا كلّها. ثم دخلنا إليها، وشعرت أنّ الحافلة تتوقّف كلّ بضعة أقدام، وراحت السيّارات تمرّ مسرعة من كلا الجانبين، واكتظّ الشارع ببشر آتين من كلّ أنحاء المدينة في ذلك اليوم، حتى

Twitter: @ketab_n

لم أعد قادرًا على تصوّر كيف يمكن أن يكون قد بقي في مسيسيبي من يبيعني حتى تذكرة حافلة. ثم وصلنا إلى محطّة أخرى، وكانت أكبر من تلك التي في جيفرسون. وسألتُ: «حسنًا، أين يذهب الأشخاص الذين سيلتحقون بالجيش هنا؟».

قال قاطع التذاكر: «ماذا؟».

كرّرت: «أين ينضمّ الشباب إلى الجيش هنا؟».

قال: «أوه». ثم دلّني على الطريق. خفت في البداية من ألاّ أعرف كيف أتدبّر أمري في بلدة كبيرة مثل ممفيس. لكنّني تدبّرت أمري جيّدًا. لم أضطرّ إلى السؤال إلاّ مرّتين أخريين. ثم وصلت إلى هناك، وشعرت بحبور بالغ حين خرجت من الشوارع المكتظّة بالسيّارات المسرعة، وبالمارّة، والممتلئة صخبًا، وفكّرت بأنّني سرعان ما سأصل وفكّرت بأنّه إذا كان ثمّة حشد هناك من الملتحقين بالجيش، أيضًا، فسيراني «بيت» قبل أن أراه. فدخلت إلى الغرفة. ولم أجد «بيت» هناك.

ولا وجدته في الغرفة الأخرى. ورأيت جنديًّا يحمل قلمًا كبيرًا وقد وقف أمامه شابّان، وكان هناك المزيد من الناس أيضًا كما أتذكّر. أشعر أنّني أتذكّر وجود المزيد من الناس هناك.

اتّجهت إلى الطاولة التي يكتب عليها الجندي وسألته «أين هو بيت؟». نظر إليّ فتابعت «أخي بيت، بيت غراير أين هو؟».

Twitter: @ketab_n

قال الجندي: «ماذا؟ من؟».

وأخبرته مجدّدًا: «لقد التحق بالجيش أمس. سوف يذهب إلى بيرل هاربور. وأنا أيضًا. أريد اللحاق به. أين وضعتموه أنتم جميعًا؟». عندئذ شخصت أنظارهم جميعًا نحوي، لكنّني لم أكترث بهم البتّة. وصرخت: «هيّا أين هو؟».

توقّف الجندي عن الكتابة. ووضع كلتا يديه على الطاولة، قائلاً: «أوه، أنت ذاهب أيضًا، ها؟».

«أجل، يجب أن يحصلوا على الحطب والمياه. وأنا أستطيع تقطيع الخشب وجلب المياه. هيّا أين هو بيت؟».

عندئذ وقف الجندي: «من سمح لك بالدخول إلى هنا؟ هيّا اذهب من هنا. هيّا اخرج».

«اللعنة على هذا. أنت قل لي أين هو بيت...».

فلأكن كلبًا لو لم يتحرّك أسرع من الشابّ في المحطّة حتى. فمع أنّه لم يقفز من فوق الطاولة بل مرّ حولها، فقد وجدته فوقي قبل أن أحسّ بذلك تقريبًا، بحيث لم يتسنّ لي الوقت إلاّ لكي أقفز إلى الوراء وأستلّ سكّيني وأضرب ضربة واحدة، وصرخ الشابّ وقفز إلى الخلف ووضع يدًا فوق الأخرى ووقف هناك يصيح ويشتم.

أمسكني أحد الشبّان من الخلف، حاولت طعنه لكنّني لم أستطع الوصول إليه.

Twitter: @ketab_n

ثم أمسكني الشابّان كلاهما من الخلف، وخرج جنديّ آخر من باب في الخلف. وكان يتدلّى من أحد كتفيه حزام سرج[١].

قال: «ماذا يجري بحقّ الجحيم؟».

«هذا الولد اللّعين جرحني بالسكّين»، صاح الجندي الأوّل. حين قال هذا حاولت أن أنقضّ عليه مجدّدًا لكنّ الشابّين منعاني؛ اثنان ضدّ واحد. قال الجندي صاحب الحزام «اسمع، اسمع ضع السكّين من يدك. لا أحد منّا مسلّح. ولا يقاتل الرجل رجالاً غير مسلّحين». بدأت أصغي إليه عندئذ. بدا كلامه مثل «بيت» عندما يكلّمني. أمرَ الشابّين: «أفلتاه». فأفلتاني. «والآن ما المشكلة؟». أخبرته، فقال: «فهمت، وقد جئتَ لكي تتأكّد من أنّه بخير قبل أن يغادر».

«لا، لقد جئت لكي...».

لكنّه كان قد استدار نحو الجنديّ الأوّل الذي كان يلفّ يده بمنديل.

سأله: «هل وجدته؟»، عاد الجندي الأوّل إلى الطاولة وأخذ يبحث في بعض الأوراق.

ثم قال: «ها هو، لقد تسجّل أمس. وسوف يغادر هذا الصباح

---

(١) بالنسبة إلى الطفل بدا الحزام العسكري الذي يعرف باسم حزام سام براوني أشبه بالحزام الذي يربط به سرج الفرس.

Twitter: @ketab_n

إلى ليتل روك». نظر إلى ساعة يده ثم إليّ: «القطار يغادر بعد نحو خمسين دقيقة. إذا كنتُ أعرفُ شباب الأرياف جيّدًا فسيكونون جميعًا على الأرجح في المحطّة الآن».

فقال صاحب الحزام: «أحضروه إلى هنا، اتّصلوا بالمحطّة وقولوا للحارس أن يؤمّن له سيّارة أجرة. وأنت تعال معي».

دخلنا إلى مكتب آخر وراء الأول لا يضمّ إلاّ طاولة وبضعة كراسٍ. جلسنا هناك بينما راح الجندي يدخّن، ولم يمرّ وقت طويل حتى تناهى إلى سمعي وقع قدمي «بيت». ثم فتح الجندي الأول الباب ودخل «بيت». لم يكن يرتدي ملابس الجنود. بدا كما كان حين استقلّ الحافلة صباح أمس، غير أنّني شعرت أنّه مرّ أسبوع على الأقلّ، فقد حدث الكثير، وقد فعلتُ ما كان عليّ فعله وتنقّلت كثيرًا. دخل ووجدته أمامي ينظرُ إليّ كأنّما لم يغادر البيت قطّ، إلاّ أنّنا كنّا في ممفيس، في طريقنا إلى بيرل هاربور.

قال: «ما الذي تفعله هنا؟».

قلت: «يجب أن تحصل على المياه والحطب للطهو. يمكنني تأمينهما من أجلكم جميعًا».

قال: «لا، سوف تعود إلى البيت».

«لا يا بيت، يجب أن أذهب أيضًا. هذا يجرح قلبي يا بيت».

«لا»، قال «بيت». ونظر إلى الجندي، «لا أعرف ماذا

Twitter: @ketab_n

أصابه أيّها الملازم، فهو لم يستلّ قطّ سكّينًا على أحد مـن قبـل».
ونظر إليّ: «لماذا فعلت ذلك؟».

«لا أعرف، كان عليّ ذلك. كان عليّ المجيء إلى هنا. كـان عليّ العثور عليك».

قال «بيت»: «حسنًا، إيّاك أن تفعل هذا ثانية أتسمعني؟ ضـع تلك السكّين في جيبك وأبقها هناك، إذا سمعت أنّك سـحبت سـكّينًا على أحد مرّة ثانية فسآتي من حيـث أكـون وأبرّحـك ضـربًا. أتسمعني؟».

«قد أقطع عنق أحدهم إذا كان ذلك يرجعك لتبقى»، قلت «يا بيت».

«لا» قال «بيت». والآن لم يكن صوته حادًّا وسريعًا بل كان هادئًا تقريبًا، وعرفت أنّني لن أغيّرَ رأيه إطلاقًا «عليك الذهاب إلى البيت، عليك الاعتناء بأمّنا، وأنا أعتمد عليك لكي تعتني بفـداديني العشرة. أريدك أن تعود إلى البيت الآن. اليوم. أتسمعني؟».

أجبته: «أسمعك».

سأل «بيت»: «أيستطيع العودة بمفرده إلى البيت؟».

«أستطيع ذلك على ما أظنّ، لا أعيش سوى في مكان واحد. ولا أحسبه انتقل من مكانه».

Twitter: @ketab_n

أخرج «بيت» دولارًا من جيبه وأعطاني إيّاه، قائلاً: «هذا سيشتري لك تذكرة حافلة حتى صندوقنا البريدي، أريدك أن تبقى مع الملازم، سيرسلك إلى الحافلة. عد إلى البيت واعتنِ بأمّنا واعتنِ بفداديني العشرة وأبقِ تلك السكّين اللعينة في جيبك. أتسمعني؟».

«أجل يا بيت».

«حسنًا»، قال «بيت»، «الآن عليّ الذهاب». وربّتَ رأسي مجدّدًا. لكنّه هذه المرّة لم يشدّ على عنقي. فقط وضع يده على رأسي برهة. ولأكن كلبًا لو لم ينحن ويقبّلني، ثم سمعتُ وقع قدميه ثم صوت الباب، ولم أرفع رأسي وهذا كان كل شيء، وقفت هناك، متلمّسًا حيث قبّلني «بيت»، وعاد الجندي إلى كرسيّه، وجعل ينظر من النافذة ويسعل. مدّ يده إلى جيبه وناولني شيئًا من دون أن ينظر حوله. كانت قطعة لبان.

«ممنون»، قلت له، «حسنًا أظنّ أنّه عليّ أعود. أمامي مسافة طويلة».

«انتظر»، قال الجندي. ثم اتّصل بالهاتف ثانية وكرّرت أنّه يستحسن أن أنطلق، وقال مجدّدًا: «انتظر، تذكّر ما قاله لك بيت».

فانتظرت، ثم جاءت سيّدة أخرى، عجوز أيضًا، ترتدي معطف فرو أيضًا لكنّ رائحتها كانت حسنة، ولم تكن تحمل أيّ قلم حبر ولا استمارات. دخلت ووقف الجندي ونظرت حولها حتى

Twitter: @ketab_n

رأتني وتقدّمت منّي. وضعت يدها على كتفي برقّة وسرعة وسلاسة، مثلما يمكن أن تفعل أمّي تمامًا.

قالت العجوز: «هيّا بنا، لنذهب إلى البيت ونتناول الغداء».

«لا، عليّ أن ألحق الحافلة إلى جيفرسون».

«أعرف. هناك متّسع من الوقت. سنذهب إلى البيت ونتناول الغداء أوّلاً».

كانت تملك سيّارة، وبتنا إذن وسط كلّ تلك السيّارات الأخرى. كنّا تقريبًا أسفل الحافلات وكل تلك الحشود في الشوارع، قريبين كفاية بحيث يمكنني التكلّم معهم لو كنتُ أعرفهم. بعد فترة أوقفت السيّارة وقالت: «ها قد وصلنا». نظرتُ إلى المنزل: لو كان هذا كلّه منزلها فإنّ عائلتها كبيرة بكلّ تأكيد. لكن لم يكن الأمر كذلك. عبرنا ردهة تنمو فيها الأشجار ودخلنا إلى غرفة صغيرة[1] ليس فيها أيّ شيء سوى زنجي يرتدي بزّة أكثر لمعانًا من أولئك الجنود، ثم صحتُ «انتبه»، وتمسّكتُ لكي لا أقع، وكان كلّ شيء على ما يرام؛ تلك الغرفة الصغيرة كلّها ارتفعت بنا وتوقّفت وانفتح الباب وإذا بنا في قاعة أخرى. فتحت السيّدة بابًا ودخلنا وكان ثمّة جنديّ آخر، طويل، يضع حزامًا أيضًا وثمّة طائر فضّي على كلّ من كتفيه.

قالت السيّدة: «ها قد وصلنا، هذا الكولونيل ماك كيلوغ».

---

(١) المصعد.

Twitter: @ketab_n

والآن ماذا تودّ أن تأكل على الغداء؟».

«أظنّ أنّني سأكتفي ببعض اللّحم والبيض والقهوة».

همّت بحمل سمّاعة الهاتف، لكنّها توقّفت: «قهوة؟ متى بدأت بشرب القهوة؟».

«لا أعرف، أظنّ أنّ ذلك كان قبل أن أتذكّر».

«أنت في الثامنة تقريبًا، أليس كذلك؟».

«لا، إنّني في الثامنة وعشرة أشهر وسأدخل في الشهر الحادي عشر».

اتّصلت عندها. ثم جعلت أخبرهم كيف غادر «بيت» صباحًا إلى بيرل هاربور وكنتُ أنوي الذهاب معه، لكن عليّ العودة إلى البيت لكي أعتني بأمّي وبأرض «بيت». أخبرتني أنّ لديهما صبيًّا صغيرًا بطولي تقريبًا، في مدرسة في الشرق. ثم دخل زنجي آخر يرتدي معطفًا قصيرًا ذا ذيل، يجرّ عربة. تناولتُ طعامي وكوب حليب وقطعة فطيرة أيضًا، وكنتُ أحسبُ نفسي ما زلتُ جائعًا، لكن حين قضمت أول قضمة اكتشفتُ أنّني لا أستطيع بلعها، ونهضت سريعًا.

«يجب أن أذهب».

قالت: «انتظر».

«يجب أن أذهب».

Twitter: @ketab_n

«دقيقة واحدة، لقد طلبت السيّارة. ستصل خلال دقيقة واحدة. ألا تستطيع أن تشرب الحليب حتى؟ أو ربّما بعض القهوة؟».

«لا، لستُ جائعًا. سآكلُ حين أصل إلى البيت». ثم رنّ الهاتف. ولم تجب عليه حتى.

قالت: «ها قد وصلت السيّارة». وهبطنا ثانية في تلك الغرفة الصغيرة المتحرّكة مع الزنجي المتأنّق. وهذه المرّة كانت سيّارة كبيرة يقودها جندي. جلست على المقعد الأمامي قربه. أعطت الجندي دولارًا، وقالت له: «ربّما جاع. حاول أن تجد له مكانًا لائقًا».

قال الجندي: «حاضر سيّدة ماك كيلوغ».

ثم انطلقنا مجدّدًا. والآن بتّ قادرًا على رؤية ممفيس جيّدًا وقد غمرها نور الشمس، بينما ندور حولها. وسرعان ما صرنا على الطريق السريعة نفسها التي مرّت بها الحافلة صباحًا — المتاجر وتلك المطاحن والمحالج الكبيرة وممفيس الممتدّة لأميال، قبل أن تبدأ بالتواري خلفنا. ثم مررنا ثانية بين الأشجار والحقول، بسرعة، ولولا وجودي مع ذلك الجندي، لكان الأمر كأنّني لم أذهب إلى ممفيس على الإطلاق. بعدئذ انطلقنا أسرع. وبمثل هذه السرعة سأكون في البيت في طرفة عين، وفكّرت في ذهابي إلى «فرنشمانز بند» في هذه السيّارة الكبيرة التي يقودها جندي، وفجأة بدأت أبكي. لم أعرف البتّة أنّني كنتُ بصدد ذلك، ولم أستطع التوقّف. جلست هناك قرب الجندي، باكيًا. كنّا نمضي بسرعة.

Twitter: @ketab_n

لن نفنى[1]

حين وصلت الرسالة بشأن «بيت» كنتُ وأبي في الحقل. أخرجتها أمّي من صندوق البريد بعد رحيلنا، ثم جاءت بها إلى السياج، وكانت تعرف مسبقًا مضمونها، لأنّها لم تعتمر حتى قبعتها الواقية من الشمس، فلا بدّ إذن من أنّها كانت تنظر من نافذة المطبخ حين جاء ساعي البريد وأودعَ الرسالة. وأنا أيضًا عرفتُ محتواها مسبقًا. لأنّ أمّي لم تقل شيئًا. فقط وقفت عند السياج وفي يدها المغلّف الصغير الباهت الذي لم يحتج حتى إلى طابع بريدي، فناديت على أبي، وكنتُ على مسافة من السياج أبعد منه، فوصل إليها قبلي، مع أنّني رحتُ أركض. وقالت أمّي: «أعرف ما فيها، لكنّني لا أستطيع فتحها. افتحها أنت».

---

(١) **لن نفنى:** يعود هذا التعبير إلى خطاب شهير للرئيس الأميركي لنكولن عام ١٨٦٣ في تخليد ذكرى ضحايا الحرب الأهليّة الأميركيّة، حيث قال: «... إنّ الحكومة التي تمثّل الشعب، المنتخبة من الشعب، والتي تعمل لصالح الشعب لن تفنى عن هذه الأرض». تتمّة لقصّة «جنديّان» وتدور أيضًا حول عائلة غراير، والراوي فيها هو الصبي نفسه البالغ تسع سنوات. لكن على عكس «جنديّان» التي قبلت صحيفة «ساترداي إيفننغ بوست» نشرها فورًا لقاء ألف دولار، فقد رفضت ثماني مجلّات هذه القصّة، حتى نشرتها مجلّة «ستوري» أخيرًا لقاء ٢٥ دولارًا وذلك في صيف ١٩٤٣.

Twitter: @ketab_n

وجعلتُ أعدو وأصرخ: «لا، هـذا غير صـحيح، غيـر صحيح». ثم صرختُ «لا، بيت! لا، بيت!»، ثم صرختُ: «اللعنـة على اليابانيّين! اللعنة على اليابانيّين!». واضـطرّ أبـي إلـى أن يمسكني أوّلاً، مصارعًا إيّاي كأنّني رجل، لا فتى في التاسعة.

وكان هذا كلّ شيء. ذات يوم حدث «بيرل هاربور». وفـي الأسبوع التالي ذهب «بيت» إلى ممفيس لكـي يلتحـق بـالجيش، ويذهب إلى هناك ويساعدهم؛ وذاتَ صباح وقفت أمّي عند سـياج الحقل حاملة ورقة صغيرة لا تكفي حتى لكي نشعل نارًا بها، ولـم تكن بحاجة حتى إلى طابع بريدي. وكانت الرسالة تقول: «كانـت سفينة. والآن لم تعد. كان ولدكم واحدًا منهم»[1]. وسمحنا لأنفسـنا بيوم من الحزن، وكان هذا كل شيء. فهذا شهر أبريل، أشقّ شهور الزرع، وهناك الأرض، السبعون فدّانًا التي كانت خبزنـا ونارنـا ومأوانا، والتي عاشت أكثر من أسلافنا لأنّهم استعملوها بالطريقـة الفضلى، وأكثر من «بيت» فإذ كان هنا قام بدوره حيالها، وستعيش أكثر من أمّي وأبي ومنّي إذا فعلنا الصواب أيضًا.

ثم حصل ذلك مجدّدًا. وربّما كنّا قد نسينا أنّ هـذا يمكـن أن

---

(١) يقول مؤلّفا «مسرد وليم فوكنر» تريزا تاونر وجايمس كاروثرز إنّه بعـد الاطلاع على نماذج الرسائل التي كانت ترسلها الحكومة الأميركيّة في ذلك الوقت إلى أهل الجنود المقتولين في الحرب، فإنّ فوكنر لم يبالغ البتّة فـي وصفه للرسالة، سواء من ناحية نوعيّتها أو مضمونها المقتضب.

Twitter: @ketab_n

يحصل ثانية وأنّه سيحصل ثالثة، ورابعة، مع أناس يحبّون أبناءهم وأشقّاءهم مثلما أحببنا «بيت»، حتى يأتي يوم تكون فيه ثمّة نهاية لهذا الحبّ. بعد ذلك اليوم الذي رأينا فيه اسم «بيت» وصورته في صحيفة ممفيس، صار أبي يجلب معه عددًا كلّما ذهب إلى المدينة، وصرنا نرى صور الجنود والبحّارة من بلدات أخرى ومدن في المسيسيبي وأركنساس وتنيسي، ولكن لم يكن هناك صور أخرى من بلدتنا لذا بعد فترة شعرنا أنّ «بيت» سيكون الوحيد.

ثم تكرّر الأمر. وكان ذلك في آخر يوليو، في يوم جمعة. ذهب أبي إلى المدينة مبكرًا على ظهر شاحنة المواشي التي يملكها هومر بوكرايت وعاد قُبيل الغروب. وكنتُ قد رجعت لتوّي من الحقل مع غياب الضوء، وربطت البغل في الحظيرة وحين خرجت رأيت شاحنة هومر تقف عند صندوق البريد وترجّل منها أبي وسار نحو البيت حاملاً كيس طحين على كتفيه ورزمة تحت ذراعه وصحيفة مطويّة في يده. ألقيتُ نظرة واحدة على الصحيفة ثم لم أنظر أكثر. لأنّني عرفت ذلك أيضًا، حتى وإن كان دائمًا يجلب معه صحيفة كلّما عاد من المدينة. لأنّه كان محتومًا، آجلاً أم عاجلاً؛ أنّنا لن نكون الوحيدين في مقاطعة يوكناباتوفا كلّها، الذين أحبّوا كثيرًا بحيث يكون لهم الحقّ الحصري في الحزن. لاقيت والدي وساعدته في الحمل، ودخلنا معًا إلى المطبخ حيث ينتظرنا عشاؤنا البارد على الطاولة، وجلست أمّي في آخر شعاع الشمس عند الباب المفتوح، محركة مخيض اللّبن.

Twitter: @ketab_n

حين جاءت الرسالة التي تخصّ «بيت» لم يلمس أبي أمّي. ولا لمسها الآن. بل أسند الطحين إلى الطاولة وجلس على الكرسي ونشر أمامه الصحيفة المطويّة. وقال: «إنّه ابن المايجور دي سباين. في المدينة. الطيّار. الذي رأيناه في المدينة في الشتاء الفائت ببزّة الضابط. اصطدم بطائرته بسفينة حربيّة يابانيّة وفجّرها. لذا عرفوا ماذا كان يفعل». ولم تتوقّف أمّي عن تحريك المجداح، فحتى أنا أعرف أنّ المخيض يوشك أن يصير زبدة. ثم نهضت ومضت إلى المغسلة وغسلت يديها وعادت وجلست مجدّدًا.

وقالت: «اقرأها».

إذن، علمنا أنا وأبي أنّ أمّي لم تكن تعرف طوال الوقت أنّ ذلك سيحدث ثانية فحسب، بل كانت تعرف مسبقًا ماذا ستفعل حيال الأمر حين يحدث، ليس هذه المرّة فحسب، بل في المرّة التي تليها، والتي تليها، حتى يأتي اليوم الذي يسع فيه جميع المحزونين في الأرض، والفقير والغني أيضًا، ومن لديه عشرة خدم من الزنوج ويعيش في منزل كبير جميل ومطلي في المدينة، ومن يتدبّرون أمرهم يومًا بيوم في سبعين فدّانًا من أرض ضعيفة الخصوبة مثل أرضنا، ومن ليس لديهم سوى الحقّ بأن يعرقوا في نهارهم لكي يؤمّنوا قوتهم مساء، حتى يسعهم جميعًا القول: «على الأقلّ كان ثمّة سبب وجيه لحزننا».

أطعمنا البقرة وحلبناها، وعدنا وتناولنا العشاء البارد،

Twitter: @ketab_n

وأضرمتُ نار الموقد، ثم وضعت أمّي الإناء لتسخين الماء لشخصين، وأحضرتُ طشت الاستحمام من الشرفة الخلفيّة، وبينما أمّي تغسل الأطباق وتنظّف المطبخ، جلستُ وأبي على الدرج الأمامي. كان ذلك الوقت من اليوم الذي اعتدنا أنا و«بيت» فيه على أن نمشي فيه ذينك الميلين إلى منزل العجوز كليغرو في ديسمبر الفائت، لكي نصغي إلى أخبار بيرل هاربور ومانيلا في المذياع. لكن منذ ذلك الوقت حدث ما هو أكبر من بيرل هاربور ومانيلا، و«بيت» ما عاد يقوم بتلك النزهة لكي يسمع أخباره، ولا أنا عدت أقوم بها؛ كان الأمر بالنسبة إليّ كالتالي: بما أنّ أحدًا لا يستطيع أن يخبرنا بالضبط أين كان حين كفّ عن أن يكون، بدلاً من أن يصبح مجرّد «كان» في رقعة من الأرض حيث يستطيع الناس الذين أحبّوه أن ينزلوه إلى الأرض بحجر، فإنّ «بيت» ما زال في كلّ مكان في الأرض، واحدًا من المقاتلين الأبديّين، سواء «كان» أم «يكون». لذا، لا نحتاج، لا أنا ولا أمّي وأبي إلى صندوق خشبي صغير لكي نسمع أصوات أولئك الذين شهدوا البسالة والتضحية. ثم نادتني أمّي من المطبخ. وجدت المياه دافئة في الطشت، وبجانبه الصابونة وقميص النوم النظيف والمنشفة التي صنعتها أمّي من أكياس القطن البالية التي لدينا، واستحممتُ وأفرغتُ الحوض وتركته جاهزًا لها، وأوينا إلى النوم.

ثم جاء الصباح ونهضنا. واستيقظت أمّي كعادتها قبلنا. كان

Twitter: @ketab_n

سروال وقميص الأحد الأبيض ينتظرانني بجانب الحذاء والجوربين، ولم أكن قد رأيت الحذاءين ولا الجوربين منذ ذوبان الثلوج عن الأرض. لكنّني، مرتديًا «أوفرول» البارحة، حملت الحذاء إلى المطبخ حيث تقف أمّي أيضًا بفستان البارحة عند الموقد حيث لا تقوم بتحضير إفطارنا فحسب ولكن زوّادة أبي أيضًا، وأسندت حذائي بجوار حذاء الأحد الخاص بها إلى الجدار ومضيت إلى الحظيرة، وقمت وأبي بإطعام البقرة وحلبها وعدنا وجلسنا، بينما راحت أمّي تتحرّك جيئة وذهابًا بين الطاولة والموقد حتى فرغنا من تناول الطعام، ثم جلست. أخرجتُ علبة الطلاء الأسود فجاء أبي وأخذها منّي ـ الملمّع وخرقة التلميع والفرشاة والأحذية الأربعة على التوالي. قال: «دي سباين ثرين ولديه قرد زنجي في معطف أبيض يرفع له المبصقة كلّما أراد أن يبصق. تلمّع هذه الأحذية مثلما تنوي أن تنتعلها: تلمّع فقط النواحي التي يمكنك أن تراها حين تنظر إلى قدميك».

لبسنا ثيابنا؛ لبست قميص الأحد والسروال المتيبّسين من كثرة الغسيل بالنشاء بحيث يمكنهما الوقوف وحدهما، وحملت جوربيّ وعدت بهما إلى المطبخ تمامًا مع دخول أمّي إليه، حاملة جوربيها، ولابسة أيضًا، وحتى معتمرة قبّعتها، وأخذت جوربيّ منّي ووضعتهما مع جوربيها على الطاولة قرب الأحذية الملمّعة، وأنزلت الحقيبة عن رفّ الخزانة. كانت ما تزال في العلبة الكرتون

Twitter: @ketab_n

التي جاءت بها، مع العلامة الملوّنة لمتجر سان فرانسيسكو الذي اشتراها «بيت» منه، حقيبة مدوّرة ذات سحّاب، مربّعة الزوايا، مضادّة للمياه، مع مقبض لحملها، بحيث إنّه بالتأكيد ما إن رآها «بيت» في المتجر حتى عرف أنّها صُنعت بالضبط للغرض الذي سنستعملها لأجله، وبالتأكيد لم تر أمّي مثلها من قبل ولا أبي. وكنّا ثلاثتنا في المتجر في جيفرسون لكنّني وحدي شعرت بالفضول كفاية لأستكشف كيف يعمل سحّابًا، وإن لم أكن حلمتُ البتّة بأنّنا سنمتلك واحدة. فكنتُ من جَرّ السحّاب وفتح الحقيبة، وكان في داخلها غليون وعلبة تبغ لأبي، وقبّعة صيد وضوء رأس لي، ولأمّي الحقيبة نفسها. أقفلتها أمّي ثم فتحتها ثم راح أبي يجرّب السحّاب، جارًّا إيّاه إلى أعلى وأسفل حتى سألته أمّي أن يتوقّف عن ذلك قبل أن يخرّبه. وأعادت الحقيبة التي ما زالت مفتوحة إلى العلبة وجئت لها من الحظيرة بزجاجة ربع الرطل الفارغة التي كانت تحتوي على دواء للمواشي، فغلت الزجاجة والفلّينة بالمياه الحارّة ووضعتها مع المنشفة النظيفة في الحقيبة ووضعت العلبة على رفّ الخزانة، وتركت السحّاب مفتوحًا لأنّنا حين سنحتاج إلى الحقيبة سنحتاج إلى أن نفتحها أوّلاً، وهكذا نقلّل من استعمال السحّاب أيضًا. أخذت الحقيبة من الرفّ والقنّينة من الحقيبة وملأت القنّينة بالمياه النظيفة وسدّتها بالفلّينة وأعادتها إلى الحقيبة مع الفوطة النظيفة ووضعت أحذيتنا وجواربنا فيها، وأقفلت الحقيبة

Twitter: @ketab_n

بالسحّاب، وسرنا إلى الطريق العامّ ووقفنا في الصباح الحارّ المنير بجانب صندوق البريد حتى جاءت الحافلة.

كانت حافلة المدرسة، تلك التي اعتدتُ ركوبها ذهابًا وإيابًا من المدرسة إلى «فرنشمانز بند» في الشتاء الماضي، والتي استقلّها «بيت» صباح ومساء كلّ يوم حتى تخرّجه، لكنّها صارت تسير في الخطّ المعاكس الآن، إلى جيفرسون، وفقط أيّام السبت، تُرى لوقت طويل على الطريق الممتدّة نزولاً إلى الوادي، حيث أناس آخرون ينتظرون أمام صناديق بريد أخرى لكي يستقلّوها. ثم حان دورنا. أعطت أمّي نصف دولار إلى سولون كويك، سائق هذه الشاحنة التي حولّها إلى حافلة، وصعدنا ومضت الشاحنة، وسرعان ما لم يعد هناك مساحة كافية للأشخاص الواقفين على جانب الطريق قرب صناديق البريد مؤشّرين بأيديهم، ثم مضت الشاحنة مسرعة، عشرين ميلاً، ثم عشرة، ثم خمسة، ثم ميلاً واحدًا، صعودًا نحو الهضبة الأخيرة حيث تبدأ الشوارع الإسفلتيّة. خرجنا وجلسنا على الرصيف وفتحت أمّي الحقيبة وأخرجت منها أحذيتنا وقنّينة المياه والمنشفة. غسلنا أرجلنا ولبسنا الجوارب وانتعلنا الأحذية وأعادت أمّي القنّينة والفوطة إلى الحقيبة وأقفلتها.

مشينا بمحاذاة السياج الحديدي طويلاً حتى صرنا قبالة حقل قطن صغير؛ ثم انعطفنا نحو فناء منزل أكبر من جميع المزارع التي رأيتها في حياتي، واتخذنا الممشى الأوسع والأملس من

Twitter: @ketab_n

طرقات «فرنشمانز بند»، نحو المنزل الذي بدا أكبر من دار المحكمة. صعدنا الدرج الذي يتوسّط الأعمدة الحجريّة وعبرنا الرواق الذي بحجم منزلنا كلّه، بما فيه الشرفات الخارجيّة وما شابه، وطرقنا على الباب. عندها لم يكن مهمًّا إطلاقًا ما إذا كانت أحذيتنا ملمّعة أم لا: فلم يطالعنا بياض عينيْ الزنجي الذي فتح لنا الباب سوى لحظة واحدة، وكذلك بياض سترته عند نهاية الردهة قبل أن يمضي أيضًا، وقدماه لا تصدران صوتًا أكثر من ذاك الذي يصدره هرّ، تاركًا إيّانا نعثر على الباب الصحيح بأنفسنا؛ وفعلنا. كانت قاعة استقبال هذا الثريّ من النوع الذي يمكن أن تصفه أيّ امرأة في «فرنشمانز بند» بل أظنّ في المقاطعة كلّها، حتى آخر إنش منها، لكن التي حتى الرجال الذين يأتون إلى منزل المايجور دي سباين بعد ساعات العمل في المصرف أو أيّام الأحد لكي يطلبوا تأجيل تسديد كمبيالة ما، لم يروا مثلها في حياتهم، ففيها ثريّا تتدلّى من وسط السقف بحجم طشت استحمامنا حين يكون ممتلئًا بقطع الثلج، وقيثارة مذهّبة يمكن أن تسدّ باب حظيرتنا، ومرآة يستطيع أن يرى رجل فيها نفسه مع بغله، وطاولة طويلة تشبه النعش وسط الأرضيّة رُفع عليها علم الكونفدراليّة، جنبًا إلى جنب صورة ابن المايجور دي سباين الفوتوغرافيّة وعلبة مفتوحة فيها ميداليّة ومسدّس أوتوماتيكي كبير أزرق يثقّل العلم، والمايجور دي سباين يقف عند طرف الطاولة ولم ينزع قبّعته حتى بدا أنّه سمع

Twitter: @ketab_n

الاسم الذي نطقته أمّي وعرفه؛ ليس بمايجور (رائد) حقيقي لكنّه سُمّي كذلك فقط لأنّ أباه كان رائدًا فعليًا في الحرب الكونفدراليّة القديمة، لكنّه مصرفي قوي بالمال والسياسة أيضًا. قال أبي إنّه صنع حكّامًا وأعضاء في مجلس الشيوخ في المسيسيبي؛ رجل عجوز، بل كهل إلى حدّ يجعلك تستغرب أن يكون له ابن في الثالثة والعشرين فقط. كهل جدًّا، على أيّ حال، على كلّ ذلك الحزن الذي يعلو وجهه.

قال: «ها، الآن تذكّرت. أنتم أيضًا أُبلغتم بأنّ ابنكم أهرَق دمه على مذبح انعدام الإعداد الجيّد والفعاليّة. ماذا تريدون؟».

ردّت أمّي: «لا شيء».

لم تقف حتى عند الباب. تقدّمت إلى الطاولة: «ليس لدينا ما نقدّمه لك ولا أظنّ أنّه ثمّة هنا ما نرغب في أخذه معنا».

قال: «أنت مخطئة، لا يزال لديك ابن. خذي معك ما كانوا ينصحونني به: عودي إلى منزلك وصلّي. ليس للذي مات، بل للذي تركوه لك حتى الآن، صلّي أنّ شيئًا ما في مكان ما بطريقة ما سينقذه!». لم تكن أمّي تنظر إليه حتى. لم تنظر إليه ثانية. فقط مضت عبر الغرفة الواسعة بحجم حظيرة، على نحو ما تفعل حين تأتي وتضع صرّة الطعام لي ولأبي عند زاوية السياج حين لا يكون ثمّة وقت لوقف الحراثة والذهاب إلى البيت، وتقفل عائدة.

Twitter: @ketab_n

قالت: «أستطيعُ أن أنصحك بشيء أبسط من هذا. انتحب»، ثم وصلت إلى الطاولة. لكنّ جسدها وحده هو الذي توقّف، أمّا يدها فقد امتدّت بسلاسة وخفّة شديدين بحيث لم تمسك يده إلاّ معصمها، وباتت يداهما معًا على المسدس الكبير الأزرق، بين الصورة الفوتوغرافيّة وقطعة الميداليّة المعدنيّة على الشريط الملوّن، على العلم القديم ذاك الذي يبدو أنّ حفنة من الناس الذين أعرفهم لم يروه في حياتهم وحتى أنّ كثيرين منهم لن يعرفوه ولو رأوه، وفوق ذلك كلّه صوت العجوز الذي لم يكن يجدر أن يبدو كذلك أيضًا.

«مات في سبيل بلده! ليس لديه أيّ بلد: هذا أيضًا أتبرّأ منه[1]. بلده وبلدي كلاهما تمّ تخريبهما وتدنيسهما وتدميرهما قبل ثمانين عامًا، قبل أن أولد حتى. لقد قاتل أجداده وماتوا من أجله وقتذاك، حتى وإن كان ما قاتلوا من أجله وخسروه كان حلمًا. لم يكن لديه حلم حتى. مات في سبيل وهم. لصالح الربا، بسبب غباء السياسيّين وجشعهم، لمجد وسموّ العمالة المنظّمة!».

قالت أمّي: «أجل، انتحب».

«خوف المستخدَمين المنتخبين على مناصبهم! امتهان العمّال

---

(١) يعود المايجور دي سباين إلى الحرب الأهليّة وهزيمة الكونفدراليّين فيها، وهذا المشار إليه كذلك بوضعه العلم الكونفدرالي على الطاولة. بالنسبة إلى دي سباين تتمثّل نهاية الحلم الأميركي في خسارة الكونفدراليّين الحرب الأهليّة.

Twitter: @ketab_n

المضلّلين للديماغوجيّين الذين ضلّلوهم! العار؟ الحزن؟ كيف يمكن للجُبن والجشع والعبوديّة الاختياريّة أن تعرف الخزي أو الحزن؟».

قالت أمّي: «كلّ البشر يمكنهم الإحساس بالخزي، تمامًا مثلما كلّ البشر يمكنهم الحزن أيضًا. سيتطلّب الأمر وقتًا لكنّهم سيتعلّمون ذلك. سيتطلّب الأمر حزنًا أكبر من حزنك وحزني، وسيكون هنالك المزيد. لكنّه سيكون كافيًا».

«متى؟ حين يقضي جميع الشبّان نحبهم؟ ماذا سيكون قد بقي ممّا يستحقّ أن يبقى؟».

قالت أمّي: «أعرف. ولدنا بيت كان أصغر من أن يموت». ثم انتبهت أنّ يديهما لم تعودا متلازمتين فوق المسدس، وأنّه وقفَ منتصبًا مجدّدًا وأنّ المسدس كان يتدلّى بارتخاء من يد أمي، ولبرهة فكّرت أنّها ستفتح الحقيبة وتخرج منها الفوطة. لكنّها أعادت المسدّس فحسب إلى الطاولة وتقدّمت منه وأخذت المنديل من جيب صديريّته العلوي ودسّته في يده وتراجعت إلى الخلف. وقالت: «هذا صحيح، ابكِ. ليس من أجله: من أجلنا، نحن العجائز، الذين لا يعرفون السبب. ما اسم خادمك الزنجي؟».

لكنّه لم يُجب. ولم يرفع حتى المنديل إلى وجهه. بل وقف هناك حاملاً إيّاه فحسب، كأنّه لم يكتشف بعد أنّه يحمله، أو غير عالم ما هذا الذي وضعته أمّي في يده. قال: «من أجلنا، نحن

Twitter: @ketab_n

العجائز. إنّك تصدّقين. كان أمامك ثلاثة أشهر لكي تتعلّمي ثانيـــة، لكي تعرفي السبب؛ أمّا أنا فمات ولدي البارحة. فقولي لي».

«لا أعرف. ربّما لا يفترض بالنساء أن يعرفن لماذا ينبغـــي أن يموت أولادهنّ في المعارك؛ ربّما كلّ ما يفترض بهنّ فعله هو أن ينتحبن عليهم. لكنّ ابني عرف السبب، وأخي ذهب إلى الحرب حين كنتُ فتاة، وأمّي لم تعرف السبب أيضًا، لكنّه كـــان يعــرف. وجدّي شارك في تلك الحرب القديمة أيضًا، وأظنّ أنّ أمّه لم تعرف لماذا أيضًا، لكنّني أظنّ أنّه كان يعرف. وابني عرف لمـــاذا عليـــه الذهاب إلى هذه الحرب، وعرف أنّني عرفتُ أنّه عرف وإن لم أكن قد عرفت، تمامًا مثلما عرف أنّ هذا الطفل هنا وأنّ كلينا عرفنا أنّه لن يرجع. لكنّه عرف السبب، وإن لم أعرف، وإن لم أفهـــم، ولـــن أفهم البتّة. لذا لا بدّ من أن تكون الأمور على ما يـــرام، وإن لـــم أستطع فهمها، إذ ليس ثمّة شيء في ابننا لم نضعه أنا وأبوه فيه. ما اسم خادمك الزنجي؟».

نادى الاسم عندها. ولم يكن الزنجي بالبعيد عنه، مع أنّه حين دخل كان المايجور دي سباين موليًا ظهره للباب. ولم يلتفت إليـــه. بل أشار فحسب إلى الطاولة باليد التي وضعت أمّي المنديل فيهـــا، واتّجه الزنجي إلى الطاولة من دون أن ينظر إلى أحد، ومـــن دون أن تصدر قدماه على الأرض صوتًا أعلى من صوت هـــرّ، ولـــم يتوقّف البتّة؛ بدا لي أنّه استدار وبدأ بالعودة قبل أن يصل حتى إلى

Twitter: @ketab_n

الطاولة: حركة واحدة من اليد السوداء والكمّ الأبيض واختفى المسدّس عن الطاولة من دون أن أراه يلمسه. وحين مرّ بي مجدّدًا في طريقه إلى الخارج، لم أستطع أن أرى أين وضعه. واضطرّت أمّي إلى أن تتكلّم مرّتين قبل أن أعرف أنّها كانت تكلّمني.

قالت: «تعال».

قال المايجور دي سباين، وقد استدار ثانية وبات في مواجهتنا: «مهلاً، ما الذي وضعته فيه أنت وأبوه. لا بدّ من أنّك تعرفين ما هو هذا الشيء».

قالت أمّي: «أعرف أنّه جاء من طريق طويلة، فلا بدّ من أنّه كان قويًّا جدًّا بحيث استمرّ عبرنا جميعًا. ولا بدّ من أنّه كان مستعدًّا للموت من أجله بعد كل هذا الوقت الطويل، وبعد أن قطع كلّ هذه المسافة. تعال». قالت مجدّدًا.

قال: «انتظري، انتظري، من أين أنتم؟».

توقّفت أمّي: «قلت لك: من فرانشمانز بند».

«أعرف. كيف جئتم، بالعربة؟ أليس لديكم سيّارة؟».

أجابته أمّي: «أوه، جئنا بحافلة مستر كويك. هو يأتي كلّ يوم سبت».

«وينتظر حتى الليل لكي يعود. سأعيدكم بسيّارتي».

Twitter: @ketab_n

نادى على الزنجي مجدّدًا. لكن أمّي أوقفته قائلة: «شكرًا لك، لكنّنا دفعنا سلفًا لمستر كويك. وهو مدين لنا بإعادتنا إلى البيت».

كان هنالك سيّدة عجوز وُلدت ونشأت في جيفرسون، ماتت ثريّة في مكان ما في الشمال، وتركت بعض المال للبلدة لكي يبنوا بها متحفًا. كان منزلاً أشبه بكنيسة، الهدف الوحيد منه عرض الصور التي اختارت وضعها فيه ـــ صور من كافّة أنحاء الولايات المتّحدة الأميركيّة، رسمها أناس أحبّوا أمكنة رأوها أو ولدوا فيها وعاشوا بما فيه الكفاية ليرغبوا برسمها، حتى يستطيع الآخرون رؤيتها أيضًا. صور رجال ونساء وأطفال، وتلك المنازل والشوارع والمدن والغابات والحقول والأنهر التي عملوا أو عاشوا أو استمتعوا فيها، بحيث إنّ جميع الذين يرغبون في ذلك، أناس مثلنا من «فرنشمانز بند» أو من أماكن أصغر حتى في مقاطعتنا أو أبعد، يمكنهم أن يدخلوا مجّانًا إلى البيت الهادئ ويتفرّجوا على صور الرجال والنساء والأطفال الذين هم مثلنا وإن اختلفت منازلهم وحظائرهم، وإن عملوا في حقولهم بطرق مختلفة، وزرعوا فيها أشياء مختلفة. لذا كان الوقت متأخّرًا أصلاً حين غادرنا المتحف. وبعدها حين عدنا إلى حيث تنتظرنا الحافلة كان الوقت متأخّرًا أكثر، مع أنّه على الأقلّ تسنّى لنا الوقت لخلع أحذيتنا وجواربنا مجدّدًا. لأنّ مسز كويك لم تكن قد عادت بعد واضطرّ سولون إلى أن ينتظرها، ليس لأنّها زوجته لكن لأنّه جعلها تدفع ربع دولار من

Twitter: @ketab_n

ثمن البَيض الخاصّ بها لكي تذهب إلى المدينة وترجع يوم السبت، ولن يمضي ويترك شخصًا دفع الأجرة له. وهكذا، مع أنّ الحافلة جرت بسرعة مجدّدًا، حين استقام الطريق أخيرًا في الامتداد العظيم في الوادي، لم يكن قد بقي سوى شعاع الشمس الأخير وقد بدأ يبهت في السماء، وامتدّت كلّ الطريق عبر أميركا من المحيط الهادئ، مثل عجلة ناعمة كبيرة، لامسة كلّ الأمكنة التي أحبّها كلّ الرجال والنساء الذين لا نعرف أسماءهم في المتحف بما فيه الكفاية لكي يرسموا صورًا لها.

وتذكّرتُ كيف كان أبي يبرهن عن أيّ فكرة يريد إثباتها لي ولـ «بيت»، من خلال جدّنا. لا يهمّ إذا كان شيئًا يظنّ أنّه يفترض بنا أن نفعله ولم نفعله، أو شيئًا يريدنا أن نتوقّف عن فعله إذا اكتشف أمره في حينه. «الآن خذوا جدّكم مثلاً»، كان يقول. أتذكّره هو أيضًا: جدّ أبي حتى، عجوز، عجوز إلى درجة لا تصدّق، عجوز إلى درجة أنّني كنتُ أشعر أنّه يتحدّر من الأجداد القدامى في سِفري التكوين والخروج، الذين تكلّموا مع الله وجهًا لوجه، وأنّه عاش أكثر منهم جميعًا، باستثناء الله. كنتُ أشعر أنّه كهل إلى درجة أن يكون قد قاتل فعلاً في الحرب الكونفدراليّة القديمة، وكان هذا كلّ ما يتكلّم عنه، ليس فقط حين كنّا نحسبه مستيقظًا، لكن حتى حين نعلم أنّه نائم فعلاً، حتى نضطر بعد فترة إلى الاعتراف أنّنا لم نعرف قطّ ما إذا كان نائمًا أم لا. كان يجلس على الكرسي تحت

Twitter: @ketab_n

شجرة التوت في الفناء، أو على الطرف المشمس من الشرفة الداخليّة الأماميّة، أو في الركن قرب الموقد. كان ينهض عن السرير ولا نعرف أيّ واحد هو، النائم أم الصاحي، سواء كان غير غاف بالمرّة أو أنّه لم يصحُ البتّة حتى حين يقفز صارخًا: «احذروا! احذروا! إنّهم قادمون!». لم يكن حتى دائمًا يصيح بالأسماء نفسها؛ ما كانوا يتواجدون دائمًا على الجانب نفسه حتى، ولا حتى جنودًا: فورست أو مورغان أو آيب لنكولن، أو فان دورن، أو غرانت أو كولونيل سارتوريس نفسه، الذي ما تزال جماعته تعيش في مقاطعتنا، أو مسز روزا ميلارد، حماة الكولونيل سارتوريس[1] التي صدّت اليانكيز[2] واللصوص[3] أيضًا طوال

---

(١) يعدّد الجدّ هنا أسماء شخصيّات بعضها تاريخي حقيقي مثل جرانت ولنكولن وفان دورن، وشخصيّات من قصص فوكنر نفسها مثل الكولونيل سارتوريس وروزا ميلارد...

(٢) اليانكي: أحد أبناء ولايات الشمال الأميركيّة التي وقفت إلى جانب الاتّحاد في الحرب الأهليّة الأميركيّة. ويعود استعمال الكلمة، بصرف النظر عن أصل منشئها، إلى العام ١٧٦٥ حيث كانت تطلق على مستوطني «نيو إنغلند»، ثم باتت تستعمل ككلمة ازدرائيّة يقصد بها شتم الموالين لقوّات الاتّحاد، وإن استعملت من قبل الأخيرين أنفسهم كعنصر فخر واعتزاز، بيد أنّ الكلمة (التي ما يزال بعض المعلّقين العرب يستعملها على سبيل الازدراء أيضًا) لم تعد رائجة في أميركا، إلاّ بين مشجّعي فريق «يانكي» للبايسبول.

(٣) يستعمل فوكنر كلمة Carpetbaggers: المقصود بهم المستفيدون من الحرب = من أبناء الشمال الذين بعد انتهاء الحرب الأهليّة وفوزهم بها كانوا يأتون

Twitter: @ketab_n

السنوات الأربع من الحرب حتى بات بوسع الكولونيل سارتوريس العودة إلى دياره. وكان «بيت» يرى في كلام جدّي هذا شيئًا مسليًا فحسب. أمّا أنا وأبي فكنّا نستحي منه. ولم نعرف رأي أمّي، حتى أصيل ذلك اليوم في السينما.

كان فيلم وسترن متسلسلاً[1]؛ كنتُ أشعر أنّه يعرض منذ سنوات كلّ يوم سبت. أنا وأبي و«بيت» كنّا نذهب إلى المدينة كلّ يوم سبت لكي نشاهده، وأحيانًا ترافقنا أمّي أيضًا، وتجلس هناك في العتمة بينما المسدّسات تلعلع والجياد تعدو، وكلّ مرّة يبدو أنّهم سيقبضون على البطل، لكنّك تعرف أنّهم لن يتمكّنوا كليًّا من ذلك، وأنّه سيكون هناك المزيد من هذا الأسبوع التالي، أمّا الأيّام الفاصلة بين الأسبوعين فنمضيها أنا و«بيت» متحدّثين عن مسدّس الشرّير ذي الزند المطعّم باللؤلؤ الذي كان «بيت» يحلم بمثله، وعن حصان البطل المبقّع الذي كنتُ أحلم بمثله. ثم ذات يوم سبت قرّرت أمّي أن تصحب جدّي معنا. جلس بينها وبيني، وهو غاف سلفًا، فقد بات بالغ الكهولة إلى حدّ أنّه لم يكن مضطرًّا حتى إلى أن يشخر، حتى جاء المشهد الذي بات يمكنك أن تضبط ساعتك عليه عصريّة كلّ

إلى الجنوب حاملين حقيبة واحدة يضعون فيها كل ممتلكاتهم ومن هنا التسمية بالإنجليزيّة.

(١) A Continued Picture: فيلم يُعرض بالتسلسل أسبوعيًّا كوسيلة لتشجيع الناس على ارتياد السينما باستمرار.

Twitter: @ketab_n

يوم سبت، حين تندفع الجياد جميعها هابطة الجرف ومدوّمة في الأنحاء، متقدّمة من الوادي باتّجاهك حتى تشعر أنّها ما هي إلاّ قفزة إضافيّة وستخرج من الشاشة مباشرة وتروح تعدو بين الوجوه الصغيرة الشاخصة نحوها مثل رؤوس الذرة في الحقل. ثم استيقظ جدّي. لنحو خمس ثوان جلس مستقيمًا تمامًا. حتى أنّه أمكنني أن أحسّ به يجلس مستقيمًا، مستقيمًا ومشدودًا للغاية. ثم قال «الخيّالة»، ثم هبّ واقفًا وقال: «فورست، بدفورد فورست! اخرج من هنا! ابتعد عن الطريق!»، وهو يمدّ يديه من مقعد إلى آخر باحثًا عمّا إذا كان عليه من مشاهدين أم لا، ثم خرج إلى الممرّ ونحن نحاول أن نتبعه ونمسك به، ومنه إلى الباب وهو ما زال يصيح: «فورست! فورست! ها هو يأتي! ابتعدوا عن الطريق!». وفي الخارج أخيرًا، وقد أصبح نصف العرض وراءنا، وَعَيْنا جدّي تطرفان بسرعة من الضوء وجسده يرتعش، و«بيت» يستند بذراعيه إلى الحائط كأنّه مريض، ويضحك، وأبي يهزّ ذراع جدّي قائلاً: «أيّها الأحمق العجوز! أيّها الأحمق العجوز!»، حتى جعلته أمّي يتوقّف. حملناه عبر الزقاق إلى حيث العربة وساعدناه على الصعود. صعدت أمّي وجلست قربه، وأمسكت يده حتى هدأت الرعشة. «اذهب واجلب له قنّينة جعة!»، قالت أمّي «سيجلس هنا في عربته هو ويشربها. هيّا اذهب!». امتثل أبي، وأمسكت له أمّي القنّينة حتى بات في وسعه إمساكها جيّدًا، وجلست ممسكة يده حتى أخذ جرعة كبيرة. ثم بدأ

Twitter: @ketab_n

يكفّ عن الارتعاش. قال «آاااه» وأخذ جرعة أخرى وقال «آاااه» مجدّدًا، وبعدها سحب يده من يد أمّي ولم يعد يرتجف إلاّ قليلاً، عابًّا جرعة صغيرة من القنّينة قائلاً «هاه!»، ومتناولاً جرعة أخرى قائلاً «هاه»، مجدّدًا، ولم يعد الآن ينظر إلى القنّينة وحدها بل حوله، وعيناه تومضان قليلاً حين ترمشان. «أيّها الحمقى أنتم!» صرخت أمّي بنا، «لم يكن يهرب من أحد! كان يركض أمامهم، صارخًا بجميع البلداء لكي ينتبهوا لأنّ في الطريق مقاتلين أفضل منهم، حتى بعد خمسة وسبعين عامًا، ما زالوا أقوياء، ما زالوا خطرين، ما زالوا قادمين!».

عرفتهم أيضًا، ورأيتهم أيضًا، أولئك الذين لم يذهبوا أبعد من «فرنشمانز بند» مسافة أبعد مما أستطيع سيرها على قدميّ لأعود ليلاً إلى البيت وأنام. كانوا يشبهون العجلة، والغروب نفسه، متمركزين في هذا المكان الصغير الذي لا يظهر حتى على الخريطة، والذي ليس هناك أكثر من مئتي شخص في العالم كلّه يعرفون أنّ اسمه «فرنشمانز بند» أو أنّ له حتى مجرّد اسم، وينطلق في كل الأرجاء ويلمسهم جميعًا وليس من واحد منهم أكبر من أن يُلمس، ولا واحد أصغر من أن يُذكر: الأماكن التي عاش فيها رجال ونساء وأحبّوها وأسماؤها قبل أن تصبح صامتة كفاية، وأسماء أعمالهم وما جعلهم صامتين كفاية وأسماء الرجال والنساء الذين فعلوا هذه الأعمال، الذين صمدوا وعاشوا وخاضوا المعارك

Twitter: @ketab_n

وخسروها وقاتلوا ثانية، لأنّهم لا يعرفون لمـــاذا هُزمــوا حتـــى، وروّضوا القفر وعبروا الجبال والصحارى ومـــاتوا، ومـــع ذلـــك استمرّوا مع نموّ الولايات المتّحدة الأميركيّة واستمرارها. عـــرفتهم أيضًا: الرجال والنساء الذين ما زالوا أقوياء بعد خمســـة وســـبعين عامًا، وضعف ذلك، وضعف ذلك مجدّدًا، ما زالوا أقوياء وما زالوا خطرين وما زالوا آتين . شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، حتى يصبح اسم ما فعلوه وما ماتوا من أجله كلمة واحدة، أعلى من أيّ رعـــد. وهذه الكلمة هي أميركا، وهي تغطّي جميع أرض الغرب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القرية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وردة لإميلي[1]

١

حين ماتت مسّ إميلي غريرسون شيّعنا جميعًا جنازتها: الرجال تدفعهم عاطفة ما ممزوجة بالاحترام تجاه هذا المعلَم التذكاري الذي هوى، والنساء يدفعهنّ في الغالب الفضول لرؤية داخل منزلها، الذي لم يَرَه أحد ــ باستثناء خادم عجوز يجمع بين الطبّاخ والبستانيّ ــ منذ ما لا يقلّ عن عشر سنوات خلت.

كان منزلاً خشبيًّا كبيرًا، فَقَدَ رونق لونه الأبيض السابق، تزيّنه القباب والأبراج والشرفات الدائريّة، على النمط الباذخ للسبعينيّات[2]، ويقع في ما كان ذات يوم واحدًا من أرقى شوارعنا.

---

(١) **وردة لإميلي**: أشهر قصّة قصيرة لفوكنر وأكثرها نشرًا وترجمة. كتبها في نهاية العشرينيّات من القرن العشرين، وهي أوّل قصّة تُنشر له في مجلّة كبرى هي «فوروم» عام ١٩٣٠. في رسالة إلى ناشره وقتذاك يقول فوكنر: «إنّني أعمل على رواية ومجموعة قصص قصيرة عن أبناء بلدتي» وهذه المجموعة هي «وردة لإميلي وقصص أخرى»، التي تغيّر عنوانها إلى «١٣ قصّة قصيرة». بعض النقّاد يعتبرها أفضل قصّة قصيرة لفوكنر، وبعضهم الآخر يجدها الأكثر شعبيّة لكن ليس الأفضل بالضرورة.

(٢) سبعينيّات القرن التاسع عشر.

Twitter: @ketab_n

لكن ورش العمل ومحالج القطن انتهكت حتى الأسماء الجليلة في ذلك الحيّ وطمستها، ولم يبق سوى منزل مسّ إميلي، شامخًا في تحلّله العنيد والمغناج[1] فوق عربات القطن ومضخّات البنزين — قباحة بين قباحات. وها قد انضمّت مسّ إميلي إلى أصحاب تلك الأسماء المهيبة في المقبرة المحتشدة بأشجار السّدر، بين أضرحة جنود الاتّحاد والكونفدراليّة المجهولين الذين سقطوا في معركة جيفرسون.

في حياتها مثّلت لنا إميلي إرثًا وواجبًا وعُهدة، نوعًا من الواجب المتوارث المفروض على البلدة، منذ ذلك اليوم في العام ١٨٩٤ حين أعفاها الكولونيل سارتوريس — وهو العمدة صاحب المرسوم الذي رسم ألاّ تظهر امرأة زنجيّة في الشوارع من دون مئزر[2] — من دفع الضرائب، ابتداء من يوم وفاة والدها وإلى ما لا نهاية. وهذا لا يعني أنّ مسّ إميلي كانت لتقبل الصدقة، لكنّ الكولونيل سارتوريس اختلق حكاية مفادها أنّ والدها قد أقرض

---

(١) «العنيد والمغناج» تحويل البيت إلى مجاز يعبّر عن صورة صاحبته، مسّ إميلي كما سنرى لاحقًا.

(٢) من المعروف أنّ «التعديل الثالث عشر» في الدستور الأميركي الذي يمنع العبوديّة يعود إلى العام ١٨٦٥، لكنّ تطبيقه الفعلي ظلّ موضع سجال وأخذ وردّ. المرسوم المذكور هنا هو من قبيل التمييز ضدّ السود وقتذاك. والجدير ذكره أنّ السود الذين عملوا في البيوت في تلك الحقبة كانوا غالبًا يتحدّرون من العبيد الذين عملوا في البيوت نفسها.

Twitter: @ketab_n

البلدة مالاً، وقد آثرت البلدة هذه الطريقة لكي تردّ المال. وحده رجل ينتمي إلى جيل الكولونيل سارتوريس وله حكمته يمكن أن يختلق حكاية كهذه، ووحدها امرأة يمكن أن تصدقها.

حين أصبح أبناء الجيل التالي ممّن يحملون أفكارًا أكثر عصريّة، عُمُدًا وأعضاء بلديّة، شعروا ببعض الاستياء من هذا الإجراء. فأرسلوا لها بالبريد في مطلع العام مذكّرة بالضرائب المتوجّبة عليها. وجاء فبراير ولم يصلهم ردّ منها. فدبّجوا لها خطابًا رسميًّا يطالبونها فيه بأن تمرّ بمكتب الشريف في أقرب فرصة. بعد أسبوع راسلها العمدة نفسه عارضًا عليها زيارتها أو أن يرسل لها سيّارته، وتلقّى منها ردًّا دُبّج على ورقة قديمة بخطّ رقيق وبحبر باهت، تقول فيه إنّها ما عادت تغادر المنزل إطلاقًا. وتضمّن المظروف أيضًا المذكّرة الضريبيّة خالية من أيّ تعليق.

تداعى أعضاء المجلس البلديّ إلى اجتماع خاصّ، وقرّروا إرسال وفد منهم، قصد منزلها وراح يطرق على الباب الذي لم يدخله أحد منذ توقّفت عن إعطاء دروس الرسم الصيني قبل ثماني سنوات أو عشر. أدخلهم الخادم الزنجي العجوز إلى صالة معتمة يصعد منها درج نحو مزيد من العتمة، وتفوح بالغبار والهجران في رائحة كثيفة رطبة. قادهم الخادم إلى ردهة الاستقبال المؤثّثة بكنبات جلديّة ثقيلة. وحين فَتح ستارة إحدى النوافذ رأوا تشقّق الجلد، وحين جلسوا ارتفع ببطء غبار باهت إلى أفخاذهم وبرزت

Twitter: @ketab_n

ذراته البطيئة في شعاع الشمس الوحيد. وكان ثمّة على مسند لوحات مذهّب باهت أمام المدفأة رسم بطبشور الكربون يمثّل والد مسّ إميلي.

وقفوا حين دخلت الغرفة امرأةٌ قصيرة سمينة مجلّلة بالسواد، يتدلّى عند خاصرتها سلسال ذهبي رفيع ثم يختفي داخل حزامها، وتستند إلى عكّاز من الأبنوس طُعّم مقبضه بالذهب. كان جسدها فائض الحجم على ضآلته، ولهذا فربّما كان ما يراه الآخرون امتلاء في سواها يبدو سمنة فيها. بدت منتفخة، مثل جسد غُمر طويلاً في مياه راكدة، ومن هنا شحوب وجهها. أمّا عيناها الغائرتان في تغضّنات وجهها السمينة، فقد بدتا أشبه بقطعتين صغيرتين من الفحم، مضغوطتين داخل قطعة عجين، وهما تتنقلان بين وجوه الزوّار وهم يبلغونها برسالتهم الشفهيّة.

لم تدعُهم إلى الجلوس. فقط وقفت عند الباب وأصغت بصمت حتى أنهى محدّثها كلامه بارتباك. ثم ساد صمت لم تتردّد خلاله سوى تكّات الساعة الخفيّة عند طرف السلسلة الذهبيّة.

جاء صوتها جافًّا وباردًا: «ليس من ضرائب متوجّبة عليّ في جيفرسون. الكولونيل سارتوريس شرح لي الأمر. ربّما يستطيع أحد منكم الوصول إلى سجلّات المدينة والتأكّد بأنفسكم».

«لكنّنا قمنا بذلك. فنحن سلطات البلدة يا مسّ إميلي. ألم تصلك مذكّرة موقّعة من الشريف؟».

Twitter: @ketab_n

«بلى وصلتني ورقة، ربّما يحسب نفسه الشريف... لكـن لا ضرائب متوجّبة عليّ في جيفرسون».

«لكن ليس ثمّة في السجلاّت ما يثبت ذلك، أترين، علينـا أن نمتثل للـ...».

«فلتقابلوا الكولونيل سـارتوريس. لا ضـرائب علـيّ فـي جيفرسون».

«لكن يا مسّ إميلي».

«راجعوا الكولونيل سارتوريس» (كان الكولونيل سارتوريس قد توفّي منذ عشر سنوات تقريبًا) «لا ضرائب عليّ في جيفرسون. توبي!»، ظهر الزنجي، «رافق هؤلاء السادة إلى الخارج».

٢

هكذا سحقتهم جميعًا وردّتهم على أعقابهم خائبين، مثلما سحقت قبل ثلاثين سنة آباءهم[١] في مسألة الرائحة. حدث ذلك بعد سـنتين

---

(١) عبارة فوكنر الحرفيّة هي: «سحقتهم، فرسانًا وراجلين...»، ويجد بعـض النقّاد في هذه العبارة صدى للحرب الأهليّة الأميركيّة، حيث كانت تجـري حملات الغزو بين طرفي القتال. وقد آثرت عـدم اسـتعمال «فرسـانًا - وراجلين» واستبدلتها بـ «وردّتهم على أعقابهم» بما ينسـجم أكثـر مـع

Twitter: @ketab_n

من وفاة أبيها، وبعد فترة قصيرة من هجر حبيبها ــ ذاك الذي يُعتقد بأنّه كان سيتزوّجها ــ لها. بعد وفاة أبيها لم تعد تخرج من المنزل إلاّ في ما ندر، وبعد رحيل حبيبها لم يعد يراها الناس إلاّ لمامًا. قلّة من السّيدات كنّ متهوّرات فزرنها لكنّها لم تستقبلهنّ، وكان الخادم الزنجي ــ الذي كان بعدُ شابًّا ــ هو العلامة الوحيدة على أنّ ثمّة حياة في البيت. وكان هذا الخادم أيضًا هو من يتبضّع حاجيّات البيت.

قالت السّيدات: «كأنّ الرجل ــ أيّ رجل ــ يستطيع القيام جيّدًا بأعمال المطبخ»؛ لذا لم يفاجأن حين نشأت الرائحة على اعتبارها صلة أخرى بين العالم الخارجي المحتشد وآل غريرسون في علاهم.

اشتكت إحدى الجارات إلى عمدة المدينة، القاضي ستيفنز، الذي كان شيخًا في الثمانين.

«لكن ما الذي تريدينني أن أفعله حيال الأمر يا سيّدتي؟».

«اطلب منها أن توقف الأمر، أليس هناك قانون؟».

«أنا واثق من أنّ هذا لن يكون ضروريًّا، ربّما يكون أفعوانًا أو جرذًا قتله ذلك الزنجي عندها في الفناء. سأكلّمه في الأمر».

في اليوم التالي تلقّى شكويين أخريين، واحدة من رجل قصده

المعنى المزدوج لكلمة Vanquish أي الغزو والهزم أو السحق.

Twitter: @ketab_n

قائلاً في استحياء: «علينا أن نفعل شيئًا حيال الأمر أيّها القاضـــي. أنا آخر شخص في العالم يمكن أن يزعج مسّ إميلي، لكـــن علينـــا فعل شيء ما». تلك الليلة اجتمع مجلس المدينة، ثلاثة من الكهـــول ورابع شابّ، من الجيل الصاعد. قال الأخير:

«الأمر في غاية البساطة، أرسلوا لها عريضة، طالبين منها أن تنظّف منزلها. امنحوها بعض الوقت، وإذا لم تستجب...».

فردّ عليه القاضي ستيفنز:

«اللعنة يا سيّدي، أويُعقل أن نتّهم لايدي[1] في وجههـــا بـــأنّ منزلها تفوح منه رائحة سيّئة؟».

إذن، بعد منتصف الليلة التالية، عَبَرَ أربعـــة رجـــال مرجـــة منزل مسّ إميلي وانسلّوا خفية مثل اللصوص وراحـــوا يتشـــمّمون أسفل الجدران وفتحات القبو بينما راح أحدهم يرشّ شيئًا مـــا مـــن كيس وضعه على كتفه. خلعوا باب القبو ورشّـــوا الجيـــر هنـــاك، وحول المنزل كلّه. وأثناء انسحابهم على المرجة أضـــيئت نافـــذة ورأوا مسّ إميلي تقف خلفها جامدة كتمثال. انسلّوا بهـــدوء تحـــت ظلال أشجار الخرنوب المصطفّة في الشارع. وبعد أسبوع أو اثنين اختفت الرائحة.

---

(١) سيدة Lady هنا لا تعني امرأة أو ربّة بيت بقدر ما تعني، في الاســـتعمال الجنوبي لها في تلك الحقبة، السيّدة، البيضاء تحديدًا، ذات الحسب والنسب، والتي تقضي الأعراف بخدمتها ورعايتها واحترامها.

Twitter: @ketab_n

وقتذاك بدأ الناس يرثون فعلاً لحالها. أبناء بلدتنا الذين ما زالوا يتذكّرون عمّتها الكبرى اللايدي ويات التي فقدت عقلها كليًّا في النهاية، كانوا يعتقدون أنّ آل غريرسون يمنحون أنفسهم مكانة أعلى ممّا يستحقّون. ومن قبيل ذلك أنّ مسّ إميلي رفضت جميع شبّان البلدة الذين تقدّموا لخطبتها. ولطالما نظرنا إليهما كتابلو[1]، مسّ إميلي تقف متدثّرة بالبياض بقوامها الهزيل في الخلفيّة، ووالدها ظلّ عريض في المقدّمة، يقف في إطار الباب مباعدًا قدميه، مديرًا ظهره لها، ممسكًا سوط حصان. لذا حين بلغت الثلاثين وظلّت عزباء لم نغتبط بالضبط، بل التمسنا لها العذر. فحتّى بوجود الجنون في عائلتها ما كانت لترفض كل فرص الزواج لو أنّها تجسدّت حقًّا في الواقع.

حين توفي والدها قيل إنّه لم يورثها سوى المنزل، وعلى نحو ما اغتبط الناس لذلك. إذ صار يمكنهم أخيرًا أن يشفقوا على مسّ إميلي بعد أن باتت وحيدة ومعوزة، فصاروا ينظرون إليها بتعاطف، معتبرين أنها ستختبر الآن، مثلهم، الإحساس بالفرح أو القنوط حين يزيد فلس أو ينقص.

في اليوم التالي لوفاة والدها زارتها جميع السيّدات في منزلها

---

(١) Tableau تحديدًا بمعنى المشهد المسرحي الدراماتيكي حيث يقف الممثّلون متجهّمين صامتين على الخشبة.

Twitter: @ketab_n

لتقديم واجب العزاء والمؤاساة، مثلما تقتضي عاداتنا. فقابلتهم مسّ إميلي عند الباب، وهي ترتدي ملابسها كالعادة ولا يظهر على وجهها أيّ أثر للحزن. وقالت لهنّ إنّ أباها لم يمت. وأصرّت على ذلك لثلاثة أيّام، بينما راح الكهنة والأطبّاء يحاولون إقناعها بدفن الجثمان. وعندما لوّحوا باللجوء إلى القانون والقوّة أذعنت، فقاموا بالدفن على وجه السرعة.

لم نعتبرها مختلّة التفكير وقتذاك. بل إنّها اضطرّت إلى فعل ذلك. تذكّرنا جميع الشبّان الذين رفضهم والدها، وأدركنا أنّها مضطرّة، بعد افتقارها لكلّ شيء، إلى أن تتشبّث بذاك الذي كان سبب حرمانها، مثلما يفعل سائر الناس.

٣

مرضت طويلاً. فحين رأيناها ثانية، وجدنا شعرها قصيرًا[١] مثل فتاة صغيرة تشبه، بصورة مبهمة، رسوم الملائكة على فسيفساء الكنيسة، التي يعلو وجهها مزيج من المأساويّة والسكينة. كانت البلديّة قد وقّعت عقودًا لتعبيد الأرصفة، وفي الصيف الذي تلا وفاة والدها بُوشر بالعمل. جاءت شركة الإنشاءات مع زنوج

(١) يرجّح مؤلّفا «مسرد فوكنر» أن تكون أصيبت بالحمّى.

Twitter: @ketab_n

وبغال وآلات، ومشرف عمّال يدعى هومر بارون، وهو يـانكي[١] داكن البشرة أجشّ الصوت عيناه أقلّ قتامة من عينيه. وكان الصبية يتبعونه في مجموعات لكي يسمعوه وهو يشـتمُ الزنـوج، بينمـا الأخيرون يغنّون على وقع معاولهم. وسرعان مـا بـات يعـرفُ الجميع في البلدة. أينما سمعت صوت ضحك جماعي في أيّ ركـن في الساحة تجد هومر بارون وسط المجموعة. حينذاك صرنا نراه برفقة مسّ إميلي في أصيل كلّ يوم أحد، راكبين العربة المستأجرة ذات العجلات الصفر التي يجرّها جوادان كستنائيّان متناسقان[٢].

في البداية سُررنا باهتمام مسّ إميلي به، وقالـت السـيّدات: «بالطبع فتاة من سلالة غريرسون لن تفكّر بالارتباط جدّيًّا بعامـل مياوم من الشمال». أمّا السيّدات الأكبر سنًّا فقد قلن إنّه حتى الحزن لا يجب أن يجعل لايدي حقيقيّة تهمل عراقة أصلها وشرفها، مـن دون أن يسمّينه كذلك بالتحديد. كنّ يقلن فقط: «المسـكينة إميلـي ينبغي أن يأتي أقرباؤها إليها». كان لديها أقرباء في ألاباما، لكـن قبل سنوات اختلف والدها معهم حول أملاك اللايدي العجوز ويات، وانقطع التواصل في ما بينهم. فلم يحضروا حتى جنازته.

ما إن قالت العجائز «مسكينة إميلي»، حتى بدأ الهمس حولها،

---

(١) من أهل الشمال.

(٢) العربة التي تعادل وقتذاك السيّارة الرياضيّة مكشوفة السقف فـي أيّامنـا هذه.

Twitter: @ketab_n

فتقول واحدة «مسكينة إميلي، أوتحسبْنَ أنّ الأمر كـذلك حقًّا؟»، وتجيبها الثانية، «بالطبع هو كذلك. ماذا تراه يكون سوى ذلك...». كنّ يقلن ذلك ساترات أفواههنّ بأيديهنّ التـي تخشـخش بـالحرير والساتان وراء الستائر المغلقة على شمس الأصيل، بينمـا يُسـمع، خفيفًا وسريعًا، صوت مرور العربة: «مسكينة إميلي».

ظلّت شامخة برأسها، حتى حينما اعتقدنا أنّهـا سـقطت[١]. كانت كأنّها تطالب، أكثر من أيّ وقت مضى، بالاعتراف بكرامتها بوصفها آخر من تبقّى من سلالة غريرسون، وكأنّ ذلـك السـقوط يعاود تأكيد مناعتها. مثلما حدث حين ابتاعت سمّ الفئران، الزرنيخ. كان هذا بعد سنة من بدئهنّ بالقول «المسكينة إميلي» وخلال زيارة ابنتَيْ عمّها لها.

قالت للصيدلاني: «أريد بعض السمّ». كانت قـد تجـاوزت الثلاثين وقتذاك، وظلّت على نحولها، بل أكثر نحولاً من السـابق، مع عينين سوداوين باردتين متغطرستين في وجـه مشـدود عنـد الصدغين وعند محجري العينين، مثلما يتخيّل المرء أنّه يفترض أن يبدو وجه حارس منارة. قالت للصيدلاني: «أريد بعض السمّ».

«حاضر يا مسّ إميلي، من أيّ نوع؟ للفئـران ومـا شـابه؟ أنصـ...».

---

(١) فقدت عذريّتها وبالتالي أهليّتها لأن تكـون لايـدي لا بمعنـى الانحـلال الأخلاقي فحسب.

Twitter: @ketab_n

«أعطني أفضل ما عندك. لا يهمّني النوع».

سمّى الصيدلاني لها أنواعًا عدّة «تقتل كلّ شيء حتى الفيل. لكن ما تريدينه هو...».

قاطعته: «الزرنيخ، أهو جيّد؟».

«هل... الزرنيخ؟ أجل سيّدتي. لكن ما تريدينه هو...».

«أريد الزرنيخ».

نظر إليها الصيدلاني وبادلته النظر، منتصبة القامة، رافعة الرأس مثل راية مشدودة. ثم قال لها: «بكلّ تأكيد، إذا كان هذا ما تريدينه. لكنّ القانون يلزمك بأن تصرّحي لأيّ غرض ستستعملين الزرنيخ».

حملقت الآنسة إميلي به فحسب، رافعة رأسها لكي تحدّق به في عينيه، حتى أشاح نظره وذهب إلى الداخل وأرسل لها الكيس مع عامله الزنجي؛ وحين فتحت الكيس في البيت كان مكتوبًا على العلبة تحت رسم الجمجمة والعظام: «للفئران».

٤

إذن في اليوم التالي قلنا جميعًا «سوف تقتل نفسها»، وقلنا إنّ

Twitter: @ketab_n

هذا سيكون أفضل الحلول. حين بدأنا نراها مع هومر بارون قلنا «ستتزوّجه». ثم قلنا «لم تقنعه بعد» لأنّ هومر نفسه اعترف بأنّه يحبّ الرجال، وكان معروفًا بأنه يعاقر الخمرة مع شبّان أصغر سنًّا منه في حانة إلك، وقال إنّه ليس من النوع الذي يحبّ الزواج. لاحقًا صرنا نقول «المسكينة إميلي» من خلف النافذة كلّما مرّا في أصائل الآحاد في العربة المبهرجة، الآنسة إميلي برأسها الشامخ وهومر بارون بقبّعته المعقوفة والسيجار بين أسنانه، ممسكًا الرسن والسوط بقفّازه الأصفر.

ثم بدأت بعض السيّدات تقول إنّه عار على المدينة ومثال سيّئ للشباب. لم يرد الرجال التدخّل، لكن أخيرًا أجبرت السيّدات الكاهن المعمداني ـ كانت مسّ إميلي أسقفيّة بروتستانتيّة[١] ـ أن ينذرها. لم يَبُحْ أبدًا بما حدث في تلك المقابلة، لكنّه رفض العودة إليها مجدّدًا. الأحد التالي رأيناهما معًا مجدّدًا في الشوارع، وفي اليوم التالي بعثت زوجة الكاهن برسالة إلى أقرباء مسّ إميلي في ألاباما.

إذن صار هناك أناس من لحمها ودمها يعيشون تحت سقف بيتها مجدّدًا، وجلسنا نترقّب التطوّرات. في البداية لم يحدث أيّ شيء. ثم بتنا متأكّدين أنّهما سيتزوّجان. علمنا أنّ مسّ إميلي ذهبت إلى الصائغ وطلبت عدّة حلاقة رجاليّة فضيّة نُقش على كلّ قطعة

(١) Episcopal: تنتمي إلى الكنيسة الأسقفيّة البروتستانتيّة.

Twitter: @ketab_n

منها حرفا (هـ. ب.) وبعد يومين علمنا أنّها اشترت جهازًا كاملاً من الملابس الرجّاليّة بما فيها البيجاما وقلنا «لقد تزوّجا». وكنّا في غاية السرور. كنّا كذلك لأنّ ابنتي العمّ تصرّفتا بإخلاص تجاه سلالة غريرسون أكثر ممّا تصرّفت مسّ إميلي طوال حياتها.

لذا لم نتفاجأ، بعد مدّة من الانتهاء من أعمال الأرصفة، برحيل هومر بارون. خاب أملنا قليلاً من أنّه لم يتمّ الإعلان عن زواجهما، لكنّنا ظننّا أنّه ذهب لكي يستعدّ لالتحاق مسّ إميلي به، أو ليعطيها فرصة لتتخلّص من ابنتي عمّها (بتنا عصبة وقتذاك وتحالفنا جميعًا مع مسّ إميلي ضدّ ابنتي العمّ). وبعد نحو أسبوع رحلتا. ومثلما توقّعنا منذ البداية عاد هومر بارون مجدّدًا إلى البلدة. وقد رأت إحدى الجارات الخادم الزنجي يُدخله من باب المطبخ عند الغسق ذات مساء.

وكانت هذه آخر مرّة نرى فيها هومر بارون. كما لم نر مسّ إميلي لبعض الوقت. صار الزنجي يخرج ويدخل حاملاً سلّة التبضّع، لكنّ الباب الأمامي ظلّ مقفلاً. ومن وقت لآخر كنّا نراها عند النافذة لبرهة قصيرة، مثلما رآها أولئك الرجال تلك الليلة حين رشّوا الكلس، لكنّها طوال ستّة أشهر لم تظهر في الشوارع. ثم أدركنا أنّ هذا كان متوقّعًا أيضًا، كأنّ تلك الخصائص التي ميّزت والدها والتي وقفت مرّات كثيرة في طريق حياتها كامرأة كانت أقوى وأشدّ من أن تموت.

Twitter: @ketab_n

حين رأينا مسّ إميلي ثانية كانت قد سمنت وصار شعرها رماديًا قاتمًا. خلال السنوات القليلة التالية صار شعرها يزداد رماديّة حتى صار أقرب إلى لون البهار الممزوج بالملح، ثم اختفت تمامًا. وحتى يوم مماتها في الرابعة والسبعين كان لون لشعرها ما يزال مثل شعر رجل حيوي.

منذ ذلك الوقت ظلّ بابها مقفلاً، باستثناء فترة، منذ ستّ أو سبع سنوات، أعطت خلالها دروسًا في الرسم الصيني على الخزف. جهّزت مشغلاً في إحدى غرف الطابق السفلي، حيث كان يتمّ إرسال بنات وحفيدات معاصري الكولونيل سارتوريس إلى بيتها بالاعتياديّة والروحية نفسيهما اللّتين يرسلن بهما إلى الكنيسة يوم الأحد، مع قطعة من خمسة سنتات لطبق التبرّعات. وفي تلك الأثناء أعفيت من ضرائبها.

ثم أصبح الجيل الجديد عماد البلدة وروحها، وكبرت تلميذات الرسم وما عدن يأتين إلى منزلها ولا يرسلن أطفالهنّ مع علب الألوان والفراشي الرتيبة والصور المقتطعة من المجلاّت النسائيّة. أُقفل الباب بعد خروج آخر واحدة منهنّ، وظلّ موصدًا مذ ذاك. حين وصلت إلى البلدة خدمة البريد المجّاني رفضت مسّ إميلي السماح لهم بوضع الأحرف المعدنيّة على بابها وتعليق علبة بريديّة عليه. رفضت الإصغاء إليهم.

يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وسنة بعد سنة، كنّا نرى

Twitter: @ketab_n

الزنجي يزداد شيبًا وتحدّبًا، وهو يحمل سلّة التسوّق من البيت وإليه. وطيلة شهر ديسمبر كنّا نرسل لها مذكّرة ضرائبيّة فيعيدها البريد بعد أسبوع، إذ لم يستلمها أحد. من وقت لآخر كنّا نلمحها من إحدى نوافذ الطابق السفلي، ومن الواضح أنّها أقفلت الطابق العلوي من البيت ــ مثل تمثال في محراب، لا ندري إن كانت تنظر نحونا أم لا. وهكذا عبرت من جيل إلى جيل ــ عزيزة، مميّزة، منيعة، رقيقة وعنيدة.

وهكذا ماتت. سقطت في المنزل المسكون بالغبار والظلال، مع زنجي متهالك يقوم على خدمتها. لم نعرف حتى أنّها كانت مريضة؛ كنّا قد يئسنا منذ زمن طويل من محاولة استقاء أيّ معلومات عنها من الزنجي. لم يكن يكلّم أحدًا، والأرجح أنه لم يكن يكلّمها هي أيضًا، لأنّ صوته صار خشنًا وصدئًا، كأنّما من قلّة الاستعمال.

ماتت في إحدى غرف الطابق السفلي، في سرير ثقيل من خشب الجوز له ستارة، سقط رأسها الرمادي على مخدّة مصفرّة ومتعفّنة بفعل الزمن وغياب الشمس.

٥

قابل الزنجي أوائل السيّدات، عند الباب الأمامي، وسمح لهنّ

Twitter: @ketab_n

بالدخول، بأصواتهنّ الهامسة المصفرّة ونظراتهنّ الفضوليّة السريعة، ثم توارى. خرج من الباب الخلفي للبيت ولم يره أحد بعدها.

حضرت ابنتا العمّ فورًا. أقامتا الجنازة في اليوم التالي، وجاءت البلدة برمّتها لتلقي نظرة الوداع على وجه مسّ إميلي المحاط بالورود، بينما رسم والدها يتأمّل بعمق فوق النعش، والسيّدات يتهامسن برهبة؛ والرجال الذين بلغ العمر بهم مبلغًا ــ بعضهم ببزّاتهم الكونفدراليّة التي أُخرجت من الخزائن ونُظّفت بالفراشي ــ وقفوا على الشرفة وفي الحديقة، يتكلّمون عن مسّ إميلي كأنّها كانت مجايلة لهم، معتقدين أنّهم راقصوها وربّما رافقوها، خالطين بين الأزمنة مثلما يفعل العجائز، الذين ليس الماضي، بالنسبة إليهم، طريقًا زائلاً بل مرجًا أخضر هائلاً لا يمسّه شتاء، ولا تفصلهم عنه سوى السنوات القليلة الفائتة.

كنّا نعرف سلفًا أنّ هناك غرفة في الطابق الأعلى من البيت لم يرها أحد منذ أربعين عامًا، ولا يمكن دخولها إلاّ بعد خلع بابها. انتظروا حتى ووريت مسّ إميلي الثرى بكلّ وقار قبل أن يقتحموا الغرفة.

بدا أنّ العنف المتأتّي من اقتحام الباب ملأ الغرفة بغيمة من الغبار. غلالة حادّة الرائحة وسميكة ككفن بدت جاثمة فوق الغرفة المؤثّثة كأنّما لعروس: فوق الستائر القصيرة التي بهُتَ لونها

Twitter: @ketab_n

الزهري، فوق المصابيح ذات الأغطية الزهريّة، فوق نضد الزينة، فوق مجموعة الكريستال الأنيقة وعدّة الحلاقة الرجّاليّة المطليّة بفضّة زال بريقها إلى حدّ أنّ الحروف المنقوشة ما عادت ظاهرة. وبين هذه الأشياء كان ثمّة ياقة وربطة عنق، كأنّهما لم تُحرّكا البتّة من موضعهما، فإذا ما رُفعتا تركتا رسمًا يشبه هلالاً باهتًا من غبار. وفوق كرسيّ كان ثمّة بزّة معلّقة؛ وعلى الأرض الحذاء الأبكم والجوربان المرميّان.

وكان الرجل نفسه ممدّدًا على السرير.

لوقت طويل وقفنا هناك فحسب، نتأمّل الوجه العميق الخالي من اللحم. وكان من الواضح أنّ الجسد كان في وضعيّة العناق، أمّا الآن فإنّ النوم الطويل الذي يدوم أكثر من الحبّ، الذي يغزو حتى تعابير الحبّ، قد خانه. ما تبقّى من الرجل كان متحلّلاً تحت بقايا بيجامته، حتى بات جزءًا من السرير الذي سجِّي عليه؛ وفوقه وفوق الوسادة التي بجانبه انتشرت تلك الغلالة من الغبار العنيد.

ثم لاحظنا أنّ على الوسادة الثانية فجوة أحدثها رأس. أحدنا رفع شيئًا عن الوسادة، وإذ ملنا نحوه، في ذلك الغبار الباهت السرّي الذي اخترقت رائحته الحرّيفة أنوفنا، رأينا خصلة طويلة من الشعر الرمادي القاتم.

Twitter: @ketab_n

شَعر(١)

I

هذه الفتاة سوزان ريد، كانت يتيمة، وكانت تعيش مع عائلة تدعى بورشيت، تعيل إضافة إليها طفلين أو ثلاثة. بعضهم يقول إنّ ثمّة قرابة ما كانت تربطهم بها. وبعضهم الآخر يطلق لسانه في النميمة المعتادة على شخصيّة بورشيت أو حتى على مسز بورشيت: تعرفون ما أقصد. ومعظم هذه النميمة كان مصدرها النساء.

كانت في الخامسة تقريبًا حين جاء هوكشو للمرّة الأولى إلى البلدة. كان أوّل صيف يعملُ فيه حلاّقًا في صالون ماكسي الذي جاءت مسز بورشيت بسوزان إليه للمرّة الأولى. أخبرني ماكسي أنّه والحلاّقين الآخرين رأوا مسز بورشيت وهي تحاول عبثًا دفع سوزان طوال أيّام ثلاثة (كانت سوزان فتاة هزيلة صغيرة وقتذاك ذات عينين كبيرتين مذعورتين، وشعر ناعم منسدل ليس بالأشقر ولا بالأسود) لدخول الصالون. وروى لي ماكسي أنّ هوكشو خرج

---

(١) **شعر** Hair: نشرتها «أميركان ميركوري» عام ١٩٣١، بعد رفض مجلّتين أخريين لها.

Twitter: @ketab_n

في النهاية إلى الشارع وظلّ ربع ساعة يتحايل على الفتاة حتى أدخلها إلى الصالون وأقعدها على كرسيّ الحلاقة – هو الذي لم يسمعه أحد يتلفّظ بأكثر من نعم أو لا أمام أيّ رجل أو امرأة في البلدة. وقال لي ماكسي: «عليّ اللعنةُ إذا لم يبد كأنّ هوكشو كان ينتظر مجيئها».

كانت تلك أول قَصّة شعر لها. حلق لها هوكشو، وهي قابعة تحت مريلة الحلاقة مثل أرنب صغير مذعور. لكن بعد ستّة أشهر صارت تأتي بمفردها إلى الصالون وتسمح لهوكشو بأن يقصّ لها شعرها، من دون أن يفارقها مظهر الأرنب الصغير، بوجهها الخائف وعينيها المذعورتين، وذلك الشعر الذي ليس له صفة خاصّة، والذي يبرز من المريلة. قال ماكسي إنّه حين يكون هوكشو مشغولاً مع زبون آخر، كانت تدخل وتجلس على مقعد الانتظار بالقرب من كرسيّه، مادّة رجليها أمامها حتى ينتهي هوكشو. وقال ماكسي إنّهم كانوا يعتبرونها زبونة هوكشو كأنّما هي واحدة من زبائن السبت المداومين، وإنّه ذات مرّة عرض الحلاّق الآخر، مات فوكس، أن يقصّ لها شعرها، بما أنّ هوكشو كان مشغولاً، قائلاً: «أنا سأحلق لها»، وقال لي ماكسي إنّ هوكشو كان يعمل لديه منذ سنة تقريبًا وقتذاك، لكنّها كانت المرّة الأولى التي يسمعه يتكلّم بكلّ حسم حول أمر ما.

في تلك الشتويّة بدأت الفتاة بالذهاب إلى المدرسة. صارت

Twitter: @ketab_n

تمرّ بصالون الحلاقة صباح وعصر كل يوم. كانت ما تزال على خجلها، تمشي هرولة كغيرها من الفتيات الصغيرات، ويمرّ رأسها الأصفر البنّي بالواجهة بسرعة خاطفة كأنّها تمشي على مزلاجين. في البداية كانت دائمًا تمشي وحدها، وسرعان ما صار رأسها واحدًا بين مجموعة رؤوس تثرثر كلّها، من دون أن تنظر إطلاقًا إلى الواجهة، وهوكشو واقف هناك شاخصًا إلى الخارج. قال ماكسي إنّه ومات لم يكونا يضطرّان إلى النظر إلى الساعة لكي يعرفا متى تصبح الساعة الثامنة إلاّ خمس دقائق صباحًا أو الثالثة عصرًا، لأنّهم كانوا يعرفون من هوكشو. كان كأنّه ينجذب دون وعي إلى الواجهة، ويروحُ ينظر إلى الخارج مع اقتراب موعد مرور الأطفال. وحين تأتي إلى الصالون للحلاقة، يعطيها هوكشو حبّتين أو ثلاثًا من النعناع بينما يعطي الأولاد الآخرين حبّة واحدة فقط، مثلما أخبرني ماكسي.

لا، لقد كان مات فوكس، الحلاّق الآخر، هو من أخبرني بذلك. وهو أيضًا أخبرني عن الدمية التي أهداها لها هوكشو في عيد الميلاد. لا أعرف كيف عرفَ بذلك. فهوكشو لم يخبره قطّ. لكنّه عرف بطريقة ما؛ كان يعرف عن هوكشو أكثر ممّا يعرف ماكسي. كان مات متزوّجًا، رجلاً سمينًا مترهّلاً ممتلئ الوجه، يلوح التعب أو الحزن من عينيه. شخص غريب بمثل براعة هوكشو في الحلاقة تقريبًا. ولم يكن كثير الكلام أيضًا، ولا أعرف كيف يعرف

Twitter: @ketab_n

هذا القدر عن هوكشو في حين أنّ رجلاً كثير الكلام لا يعرف. أحسب أنّ رجلاً كثير الكلام لا يملك فائضًا من الوقت ليعلم الكثير عن أيّ شيء ما عدا الكلمات.

على أيّ حال، أخبرني مات أنّ هوكشو كان يقدّم لها هديّة كلّ عيد ميلاد، حتى بعد أن أصبحت صبيّة. ظلّت تأتي إليه، وتجلس على مقعده، وهو يراقبها كل صباح وعصر في أثناء ذهابها وإيابها من المدرسة. أصبحت صبيّة، ولم تعد خجولة أيضًا.

يكاد المرء يحسب أنّها ليست الفتاة نفسها. كبرت بسرعة. بسرعة شديدة. وكانت هذه هي المشكلة الحقيقيّة. بعضهم قال إنّ يتمها هو السبب. لكنّه لم يكن كذلك. فالفتيات مختلفات عن الفتية. الفتيات يولدن مفطومات والفتية لا يُفطمون قطّ. ترى رجلاً في الحادية والستّين. وعليّ اللّعنة إذا لم يكن يقفز إلى عربة الأطفال في طرفة عين.

ليس أنّها كانت سيّئة. ليس من شيء اسمه امرأة تولد سيّئة، لأنّهنّ جميعًا يولدن سيّئات، يولدن والسوء فيهنّ. المهمّ هو تزويجهنّ قبل أن يصبح السوء طبيعة فيهنّ. لكنّنا نحاول جعلهنّ يخضعن لنظام يقول إنّ الفتاة لا تستطيع أن تتزوّج قبل أن تبلغ سنًّا معيّنة، والطبيعة لا تعير انتباهًا للأنظمة، ناهيك عن اكتراث أيّ امرأة بها، أو بأيّ شيء. لقد كبرت بسرعة شديدة فحسب. وصلت إلى المرحلة التي صار فيها السوء في الرأس قبل أن يقول النظام

Twitter: @ketab_n

إنّه آن الأوان لذلك. أعتقد أنّهنّ لا يستطعن فعل شيء حيال ذلك. لديّ ابنة وأعرف جيّدًا ما أقول.

ها هي إذن. أخبرني مات أنّهم قاموا ببعض الحسابات واستنتجوا أنّ عمرها لا يمكن أن يكون قد تجاوز الثالثة عشرة، حين قرّعتها يومًا مسز بورشيت لاستعمالها أحمر الشفاه ومساحيق التجميل، وقال لي إنّهم خلال تلك السنة صاروا يرونها تسير في الشارع مع فتاتين أو ثلاث، يقهقهن ويضحكن، في حين ينبغي أن يكنّ في المدرسة؛ ظلّت نحيفة، وظلّ شعرها حائرًا بين السواد والشقرة، وصار وجهها يبدو معجونًا عجنًا بمساحيق التجميل حتى لتحسب إذا رأيتَها أنّ هذه المساحيق ستتشقّق مثل وحل جافّ لحظة تضحك. أمّا الفساتين القطنيّة البسيطة وما شابه، والتي يفترض أن تلبسها فتاة في الثالثة عشرة، فتبدو مرفوعة ومشدودة على جسدها بحيث تكشف ما لا يفترض بها كشفه بعد، مثلما تفعل الفتيات الأكبر بأثواب الحرير و«الكريب» وما شابه.

حكى مات أنّه رآها تمرّ ذات يوم، ولاحظ فجأة أنّها لا ترتدي جوربين طويلين. وحين فكّر في الأمر قليلاً لم يستطع أن يتذكّر لبسها الجوارب خلال الصيف، حتى أدرك أنّ ما رآه لم يكن تجرّد ساقيها من الجوربين، بل إنّهما كانا أشبه بساقي امرأة: أنثى. وهي ما زالت في الثالثة عشرة.

أرى أنّها لم تستطع منع نفسها. لم تكن غلطتها. ولا كانت

Twitter: @ketab_n

غلطة بورشيت أيضًا. فمن أكثر من الرجال يمكن أن يكون لطيفًا معهنّ، أولئك الفتيات السيّئات اللواتي يشاء حظّهنّ العاثر أن يصلن إلى أوج بلوغهنّ سريعًا. أنظر إلى الطريقة التي يعامل بها رجال البلدة هوكشو. حتى بعد أن علموا، وحتى بعد أن بدأت النميمة، فلم يكن من رجل منهم يتكلّم أمام هوكشو. أظنّ أنّهم حسبوه يعرف أيضًا، وأنه سمع بعض الكلام، لكنّهم ما كانوا يأتون على ذكرها في الصالون، إلاّ في غيابه. وأظنّ أنّ الرّجال الآخرين كانوا على الحال نفسها، إذ لم يكن بينهم من لم يرَ هوكشو وراء الواجهة، ناظرًا إليها أثناء مرورها من أمام الصالون، أو في الشارع، مارًّا صدفة أمام صالة السينما عند نهاية العرض، ويراها خارجة من هناك مع أحد الشبّان، بعد أن بدأت بمواعدة الشبّان قبل أن تبلغ الرابعة عشرة. ويحكي بعض الشبّان أنّها كانت تتسلّ من البيت للقائهم وتعود إلى البيت خِفيةً، بينما تحسبها مسز بورشيت في منزل إحدى رفيقاتها.

ما كانوا يأتون البتّة على ذكرها أمامه. كانوا ينتظرون ذهابه، لتناول الغداء، أو في خلال أسبوعي الإجازة اللذين يغادر خلالهما البلدة في شهر أبريل من كلّ عام، ولا يعرف أحد أين يمضيهما. كان يرحل. وكانوا يرون الفتاة هنا وهناك، متجنّبة الوقوع في متاعب كانت محكومة بأن تقع فيها آجلاً أم عاجلاً، حتى لو لم يعلم بها بورشيت أوّلاً. كانت قد تركت المدرسة قبل سنة. وطوال سنة

Twitter: @ketab_n

كان آل بورشيت يحسبونها تذهب يوميًّا إلى المدرسة، في حين أنّ قدميها لم تطأ أرض المبنى. أحدهم، ربّما أحد الفتيان من الثانويّة، لأنّها لم تكن تميّز في مواعيدها بين التلاميذ والمتزوّجين، وأيًّا كان ـ كان يُحضر لها التقرير الشهري فتملأه بنفسها وتأخذه إلى مسز بورشيت لكي توقّع عليه. الشيطان نفسه يحتار كيف يسمح الرجال بأن تتلاعب بهم امرأة يحبّونها.

تركت المدرسة إذن وبدأت العمل في متجر «العشرة سنتات»(١). كانت تأتي إلى الصالون لتقصّ شعرها، ووجهها مليء بمساحيق التجميل، لابسة ثيابًا شفّافة تكشف مفاتنها، مترقّبة وجريئة وكتومة في آن معًا، وشعرها مرفوع بمثبّت الشعر ومتشابك حول وجهها. ولكن حتى مصفّف الشعر لم يغيّر البتّة ذلك اللون البنّي الأصفر. لم يتغيّر شعرها البتّة. لم تعد تذهب دائمًا إلى مقعد هوكشو. حتى حين يكون مقعده شاغرًا، كانت أحيانًا تختار واحدًا من الآخرين، وتروح تحادث الحلاّقين، وتملأ الصالون كلّه صخبًا وعطرًا، كاشفة عن ساقيها من تحت مئزر الحلاقة. لم يكن هوكشو ينظر إليها عندها. حتى حين لا يكون مشغولاً كانت لديه طريقة بأن يبدو طبيعيًّا، منكبًّا على أمر ما، مدّعيًا الانشغال، مختبئًا وراء هذا القناع.

هكذا كان الحال حين غادر قبل أسبوعين في إجازة أبريل

---

(١) مخزن تنويعي يبيع بضائع رخيصة.

Twitter: @ketab_n

الخاصّة به، تلك الرحلة السرّيّة التي يئس الشباب من محاولة معرفة أين يمضيها منذ عشر سنوات. وقد قصدت جيفرسون بعد يومين من مغادرته، وعرجت على الصالون. وراحوا يتكلّمون عنه وعنها.

سألتهم:

«أما زال يشتري لها الهدايا في الكريسماس؟».

أجابني مات فوكس:

«أهداها ساعة يد قبل عامين، دفع ثمنها ستّين دولارًا».

كان ماكسي يحلق ذقن أحدهم، وحين سمع ذلك توقّف، وبقيت يده معلّقة أمام وجه الزبون، وشفرته مكسوّة برغوة معجون الحلاقة. وقال:

«حسنًا، اللعنة... ثم لا بدّ له من أن... أتظنّون أنّه كان أول رجل... الرجل الذي...».

لم ينظر مات حوله، وقال:

«لم يعطها الساعة بعد».

وقال ماكسي:

«اللعنة على هذا الزمن، أيّ رجل مسنّ يخدع فتاة صغيرة يكون سيّئًا جدًّا. لكنّ شابًّا يستغلّ فتاة ثم لا يدفع لها شيئًا حتى...».

Twitter: @ketab_n

نظر مات حوله هذه المرّة؛ كان يحلق لزبون أيضًا:

«وما رأيك إذا عرفت أنّ سبب عدم إعطائه الهديّة لها هو أنّها بحسبانه أصغر من أن تتلقّى المجوهرات من شخص لا تربطه قرابة بها؟».

«أتعني أنّه لا يعرف؟ لا يعرف ما يعرفه كل من في هذه البلدة منذ ثلاث سنوات ما عدا ربّما آل بورشيت؟».

استأنف مات عمله، محرّكًا ذراعه بثبات في ضربات دقيقة صغيرة:

«كيف يعرف؟ لن تخبره إلاّ امرأة بذلك. وهو لا يعرف أيّ امرأة ما عدا مسز كوان. وأظنّ أنّها تعتقد أنّه سمع بالأمر».

«هذا صحيح».

هكذا كانت الحال عندما ذهب في عطلته. أنهيت عملي في جيفرسون بعد يوم ونصف اليوم ثم استأنفت طريقي. وفي منتصف الأسبوع التالي وصلت إلى بلدة «ديفيشن». لم أكن مستعجلاً. أردت أن أعطيه الوقت[1]. كان ذلك صبيحة الأربعاء.

---

(١) يعطي هوكشو الوقت لكي ينهي تنظيف البيت، كما سنرى لاحقًا، فإنّ راتليف البائع الجوّال يعرف إلى أين يذهب هوكشو في عطلة الأسبوعين وماذا يفعل خلالها.

Twitter: @ketab_n

II

حتى لو ربطه بها حبّ في الماضي، لحسب المرء أنّه قد نسيها. أعني الحبّ بالطبع. حين رأيته أوّل مرّة قبل ثلاثة عشر عامًا (كنتُ قد بدأتُ العمل كبائع جوّال بين نورث مسيسيبي وألاباما لأبيع ماركة قمصان وبزّات العمل) كان واقفًا وراء كرسيّ في صالون الحلاقة في «بورترفيلد»، وقلت لنفسي: «هذا عازب أصلي. هذا رجل وُلد عازبًا وفي الأربعين».

رجل ضئيل رملي اللّون، ذو وجه يصعب أن تتذكّره إذا رأيته بعد عشر دقائق، يرتدي بزّة زرقاء وربطة عنق سوداء على هيئة فراشة من تلك التي تشتريها معقودة جاهزة. وأخبرني ماكسي أنّه كان يرتدي تلك البزّة الزرقاء وربطة العنق حين ترجّل من قطار الجنوب في جيفرسون بعد عام، حاملاً إحدى حقائبه الجلديّة المقلّدة. وحين رأيته ثانية في جيفرسون في العام التالي، وراء كرسي الحلاقة في صالون ماكسي، لم أكن لأعرفه لولا الكرسي. الوجه نفسه، ربطة العنق نفسها؛ ولأكن ملعونًا، لو لم يكن الأمر أشبه بأنّه تمّ حمله، هو والكرسي والزبون وكل شيء ووُضع على بعد ستّين ميلاً من دون أن يفقد شيئًا من سماته، حتى أنّني ألقيت نظرة إلى الساحة من واجهة الصالون لكي أتأكّد من أنّني لست في «بورترفيلد» في أيّ وقت قبل عام من الآن. وتلك كانت المرّة

Twitter: @ketab_n

الأولى التي أدركتُ فيها حين عدت إلى «بورترفيلد» بعد ستّة أسابيع، أنه لم يكن هناك.

مرّت ثلاث سنوات قبل أن أعرف قصّته. كنتُ أمرّ ببلدة «ديفيشن» خمس مرّات في العامّ، أمرّ على متجر وأربعة أو خمسة منازل وطاحونة على الخطّ بين مسيسيبي والاباما. لاحظت بيتًا هناك. كان بيتًا جميلاً، أحد أجمل البيوت، وكان دائمًا مقفلاً. حين كنتُ أذهب إلى «ديفيشن» في نهاية الربيع أو بداية الصيف كنتُ أرى أمام هذا البيت إشارات تفيد بأنّ ثمّة ورشة عمل جارية هناك. وأرى الفناء منظّفًا من العشب الضاري، وأحواض الزهور معتنى بها، والسياج والسقف مرمريّين. ثم حين أعود إلى «ديفيشن» في الخريف أو الشتاء، تكون الأعشاب الضارية قد نبتت مجدّدًا في الفناء، وبعض الألواح اختفت من السياج إذ يكون أحدٌ ما قد اقتلعها لإصلاح سياجه الخاصّ أو ربّما لاستعماله كحطب، لا أعرف. وأجد البيت مقفلاً، لا يتصاعد أيّ دخان من مطبخه. فسألتُ يومًا صاحب المتجر عن قصّة هذا البيت وأخبرني.

كان يملكه رجل يدعى ستارنز، لكن جميع أفراد العائلة توفّوا. وكانوا يُعتبرون من أرقى الناس، لأنّهم كانوا يمتلكون أرضًا، وإن مرهونة. فقد كان ستارنز واحدًا من أولئك الرجال الكسالى الذين يكفيهم أن يكونوا مُلاّك أراض ما دام لديهم كفايتهم من الطعام والتبغ. كانَ لديهم ابنة واحدة خُطبت إلى ابن أحد مالكي

Twitter: @ketab_n

المزارع. ولم تحبّذ الأمّ الفكرة، لكن ستارنز لم يعارض، ربّما لأنّ الشابّ (كان اسمه ستربلنغ) كان عاملاً مجتهدًا، وربّما لأنّــه كــان أكسل من أن يعارض. على أيّ حال تمّت الخطوبة وادّخر ستربلنغ بعض المال وذهب إلى برمنغهام لكي يتعلّم الحلاقة. قطــع بعــض الطريق راكبًا ومشى بقيّة الطريق، وكان يعود كل صيف لكي يرى خطيبته.

وذات يوم فارق ستارنز الحياة، بينما كان جالسًا على كرسيّه على شرفة منزله؛ قالوا إنّه كان أكســل مــن أن يتــابع التــنفّس، فأرسلت الأمّ وابنتها في طلب ستربلنغ، الذي كان قد أسّس صالون حلاقة ناجحًا في برمنغهام، وادّخر المال واختار شقّة ودفــع ثمــن الأثاث وكلّ شيء، على اعتبار أنّه سيتزوّج في ذلك الصيف. ثــم عاد. كانت كلّ أملاك ستارنز ومدّخراته مرهونة، فتولّى ســتربلنغ كلفة الدفن الباهظة، التي تفوق على الأقلّ ما يستحقّه ستارنز، لكن كان ينبغي إرضاء مسز ستارنز. فاضطرّ إلى البدء بالادّخار ثانية.

لكنّه كان قد استأجر الشقّة ودفع ثمن الأثاث والخاتم ورخصة الزواج حين أرسلتا مجدّدًا في طلبه على عجالة. كانت الفتاة هــذه المرّة. كانت تعاني نوعًا ما من الحمّى. أولئك المتخلّفون: تعــرف كيف هم. لا يلجأون حين يمرضون إلى الأطبّــاء ولا حتــى إلــى البيطريّين. يمكنك أن تجرحهم وأن تطلق عليهم الرصاص: لا بأس بذلك. لكن إذا أصيب أحدهم بزكام شديد فربّما يُشفى وربّما يمــوت

Twitter: @ketab_n

بعد يومين بسبب الكوليرا. كانت تهذي حين وصل إليها. اضطرّوا إلى أن يقصّوا شعرها. ستربلنغ فعل هذا، بوصفه حرفيّ العائلة إذا جاز التعبير. أخبروني أنّها كانت واحدة من أولئك الفتيات المرموضات على أيّ حال، ولها شعر طويل ناعم لا أشقر ولا أسود.

لم تتعرّف إليه، ولم تعرف من قصّ شعرها. وقد ماتت من دون أن تعرف شيئًا عن الأمر، ربّما من دون أن تعرف أنّها ماتت حتى. فقط ظلّت تردّد «اعتنِ بأمّي. الرهن. أبي ما كان ليحبّ أن يتركه هكذا. أرسلوا بطلب هنري (أي هو: هنري ستربلنغ؛ هوكشو: رأيته العام التالي في جيفرسون. وخاطبته قائلاً: «إذن أنت هنري ستربلنغ»). الرهن. اعتنِ بأمّي. أرسلوا بطلب هاري. الرهن. أرسلوا وراء هاري». ثم ماتت. كان ثمّة صورة وحيدة لها. فأرسلها هوكشو مع خصلة من شعرها، إلى عنوان مجلّة مختصّة بالمزارع، لكي يجعل من الشعر إطارًا للصورة. لكن بطريقة ما ضاع كلاهما، الشعر والصورة، في البريد. على أيّ حال لم يسترجعهما هوكشو ثانية.

دفن الفتاة أيضًا، وفي العام التالي (اضطرّ إلى العودة إلى برمنغهام والتخلّص من الشقّة التي يحجزها ومن الأثاث بحيث يتمكّن من البدء بالادّخار مجدّدًا) ووضع شاهدة فوق القبر. ثم رحل ثانية وسمعوا كيف اضطرّ إلى ترك صالون برمنغهام. استقال

Twitter: @ketab_n

فحسب واختفى، ويحكي الجميع كيف أنّه مع الوقت كان يمكن أن يمتلك الصالون. لكنّه استقال، وفي شهر أبريل التالي، قبل الذكرى السنويّة لموت الفتاة، ظهر مجدّدًا. جاء ليقابل مسز ستارنز ورحل مجدّدًا بعد أسبوعين.

بعد رحيله اكتشفوا أنّه مرّ بالمصرف ومجلس المقاطعة ودفع فائدة الرهن. وبقي هناك طوال ذلك العام حتى توفّيت مسز ستارنز. كان يمضي أسبوعين منظّفًا البيت ومرمّمًا إيّاه بحيث يبقى مريحًا طوال عام، وهي تتركه يفعل ذلك، بما أنّها من أصل نبيل، وبما أنّه واحد من محدثي النعمة أولئك. ثم ماتت أيضًا، لكن ليس قبل أن تقول له: «تعرف ما أوصتك صوفي بفعله، سداد ذلك الرهن. مستر ستارنز سيكون قلقًا حين أراه».

دفنها أيضًا. اشترى شاهد قبر آخر، لكي يرضيها. ثم راحَ يسدّد أصل الرهن. وكان لدى ستارنز أحد الأنسباء في ألاباما. وقد توقّع الناس في «ديفيشن» أن يأتي هذا النسيب ويطالب بالبيت. لكن لعلّه انتظر ريثما ينهي هوكشو سداد الرهن. صار يسدّد الدفعة السنويّة ويرجع وينظّف المكان. قالوا إنّه كان ينظّف البيت مثل امرأة، فيغسله وينظّف أرضيّاته، وكان يستغرقه الأمر أسبوعين من كلّ أبريل. ثم يرحل مجدّدًا، لا أحد يعرف إلى أين، ويعود في أبريل التالي لكي يسدّد المبلغ المستحقّ للمصرف وينظّف ذلك المنزل الفارغ الذي ليس ملكه البتّة.

Twitter: @ketab_n

كان قد مضى على فعله ذلك نحو خمس سنوات حين رأيته في صالون ماكسي في جيفرسون، في العام التالي لرؤيتي له في «بورترفيلد»، مرتديًا البزّة الزرقاء وربطة العنق السوداء. وأخبرني ماكسي أنّه كان يرتديهما حين نزل من قطار الجنوب ذلك اليوم في جيفرسون، حاملاً تلك الحقيبة الكرتونيّة. ماكسي قال إنّهم ظلّوا يرونه ليومين في الساحة، وبدا أنّه لا يعرف أحدًا وليس لديه أيّ عمل يقوم به، وليس مستعجلاً البتّة، كان يتجوّل في الساحة كأنّه يستطلعها فحسب.

كان الشبّان، أولئك المتبطّلون الذين ينفقون الدولارات طوال اليوم في فناء النادي، منتظرين مرور الصبايا عصرًا، ضاحكات في طريقهنّ إلى مكتب البريد والمقاهي، مهزهزات أوراكهنّ تحت فساتينهنّ، مخلّفات روائح العطور في إثرهنّ، هم من أطلقوا عليه ذلك الاسم. اعتبروه تحرّيًا، ربّما لأنّ هذا آخر عمل يمكن أن يشكّ أحد بقيامه به. فأسموه هوكشو[1]، وظلّ يحمل هذا الاسم طوال الاثني عشر عامًا التي أمضاها في جيفرسون، واقفًا وراء ذلك الكرسي في صالون ماكسي. وقد أخبر الأخير أنّه من ألاباما.

فسأله ماكسي:

«من أين تحديدًا، ألاباما مكان كبير. من برمنغهام مثلاً؟».

---

(١) هوكشو (Hawkshaw): أي التحرّي.

Twitter: @ketab_n

وقال ماكسي إنّ هوكشو كان يبدو آتيًا من أيّ مكان في ألاباما إلاّ برمنغهام.

لكن هوكشو أجابه:

«أجل، من برمنغهام».

وهذا كلّ ما استطاعوا استحصاله منه من معلومات عنه حتى صودف ولاحظته وراء الكرسي وتذكّرت رؤيته في بورترفيلد في السابق.

وعلّق ماكسي:

«في بورتفيلد؟ أخو زوجتي يمتلك ذلك الصالون. أتقول إنّك عملت في بورتفيلد في العام الفائت؟».

«أجل، لقد كنتُ هناك».

وأخبرني ماكسي بأمر الإجازة السنويّة، وكيف رفض هوكشو أن يأخذها قائلاً إنّه يريد عطلة أسبوعين في أبريل بدلاً منها. ولم يخبره بالسبب. وقال له ماكسي إنّ الإجازة في شهر أبريل مزعجة لأنّه شهر مزدحم، فعرضَ عليه هوكشو أن يعمل لديه حتى ذلك الشهر ثم يستقيل.

«أتريد الاستقالة عندها؟».

قال ماكسي إنّ ذلك حدث في الصيف، بعد أن أحضرت مسز

Twitter: @ketab_n

بورشيت سوزان ريد إلى الصالون للمرّة الأولى.

«لا، أحبّ العمل هنا. كلّ ما أطلبه إجازة أسبوعين في أبريل».

«في عمل ما؟».

«في عمل ما».

وحين أخذ ماكسي إجازته ذهب لزيارة نسيبه في بورترفيلد؛ ربّما كانت الحلاقة في صالون نسيبه بالنسبة إليه أشبه بالإجازة التي يمضيها بحّار على قارب في بحيرة اصطناعيّة. وأخبره نسيبه أنّ هوكشو عمل في صالونه، ولم يأخذ إجازة حتى شهر أبريل، ثم رحل ولم يعد ثانية، وأنذره:

«سيتركك بالطريقة نفسها، لقد عمل في صالون في بوليفار وآخر في تنيسي وثالث في فلورنس، ألاباما، مدّة عام وتَرَكَ بالطريقة نفسها. لن يعود. انتظر وسترى».

وقال ماكسي إنّه عاد إلى بلدته واستطاع أخيرًا أن يعرف من هوكشو أنّه عمل مدّة سنة في ستّ أو ثماني بلدات مختلفة في ألاباما وتنيسي ومسيسيبي، ثم سأله:

«لماذا تتركهم؟ أنت حلاّق جيّد، أحد أفضل حلاّقي الأطفال الذين رأيتهم في حياتي. فلمَ ترحل؟».

Twitter: @ketab_n

«كنتُ أبحثُ في الأرجاء».

ثم جاء أبريل وأخذ إجازة الأسبوعين. حلق ذقنه ووضّب حقيبته الكرتونيّة واستقلّ قطار الشمال.

قال له ماكسي:

«ذاهب في زيارة على ما أظنّ».

«إلى مكان قريب».

رحل بتلك البزّة الزرقاء وربطة العنق السوداء. وأخبرني ماكسي أنّه بعد يومين اتّضح أنّ هوكشو سحب من المصرف مدّخرات العام. كان يقيم لدى مسز كوان وكان قد انضمّ إلى الكنيسة ولم يكن ينفق أيّ مال على الإطلاق. لم يكن يدخّن حتى. لذا ظنّ ماكسي ومات، وأظنّ جميع سكّان جيفرسون، أنّ ما يفعله هو أنّه يدّخر لمدّة عام ثم يذهب لإمضاء إجازة استجماميّة بين ملاهي ممفيس. وقد أخبر ميتش أوينغ، عامل المحطّة، وكان يعيش لدى مسز كوان أيضًا، أنّ هوكشو اشترى تذكرة إلى محطّة وسيطة فحسب، «ومن هناك يستطيع الذهاب إمّا إلى ممفيس أو برمنغهام أو نيو أورلينز».

فقال ماكسي:

«حسنًا لقد رحل على أيّ حال، ولكم أن تطالبوني بما أقول، هذه آخر مرّة ترونه فيها في البلدة».

Twitter: @ketab_n

وهذا ما اعتقده الجميع حتى بعد أسبوعين، في اليوم الخامس عشر من الشهر، دخل هوكشو إلى الصالون في موعد عمله المعتاد، كأنّه لم يغادر البلدة قطّ، وخلع معطفه وبدأ يشحذ أمواسه. لم يخبر أحدًا إلى أين ذهب. فقط قال: «هنا، إلى مكان قريب».

فكّرتُ أحيانًا في أن أخبرهم. كنتُ أذهب إلى جيفرسون وأراه وراء ذلك الكرسي. لم يطرأ عليه أيّ تغيير، ولا بدا على مُحيّاه التقدّم في السنّ، أكثر ممّا تغيّر شعر فتاة ريد تلك، بسبب كلّ تلك المساحيق التي وضعتها عليه. لكنّني أجده هناك، وقد عاد من عطلته، «هنا في مكان قريب». موفّرًا ماله لعام آخر، ذاهبًا إلى الكنيسة يوم الأحد، محتفظًا بكيس حبوب النعناع ذاك للأطفال الذين يقصّ لهم شعورهم، حتى يأتي الوقت الذي يحمل فيه حقيبته الكرتونيّة ومدّخراته السنويّة ويعود إلى «ديفيشن» لكي يسدّد الدفعة المستحقّة للرهن ويقوم بصيانة البيت.

أحيانًا كنتُ آتي إلى جيفرسون فأجدهُ قد رحل، ويخبرني ماكسي كيف يقصّ شعر فتاة ريد تلك، وكيف يعمل طويلاً عليه ثم يحمل لها المرآة لكي تراه كأنّها ممثّلة ما. وأضاف مات:

«وهو لا يأخذ منها أجرًا، يدفع الربع دولار من ماله الخاصّ».

«حسنًا هذا أمر يخصّه، كلّ ما أريده هو الربع دولار. سواء أكان منه أم منها».

Twitter: @ketab_n

بعد خمس سنوات ربّما كنتُ لأقول «ربّما كان هذا ثمنها». لأنّها أخيرًا وقعت في المتاعب. أو هذا ما قيل، لا أعرف، بيدَ أنّ معظم الأقاويل عن الفتيات، وعن النساء، ما هو إلاّ حسد من قبل اللواتي لا يجرؤن على ذلك، أو اللواتي أخفقن فيه. لكن خلال غيابه ذات أبريل راحوا يتهامسون حول تورّطها في المتاعب أخيرًا، وأنّها حاولت إجهاض نفسها بالتوربنتين ومرضت بشدّة.

أيًّا يكن الأمر فلم يرها أحد لثلاثة أشهر، وقال بعضهم إنّها في مستشفى في ممفيس، وحين جاءت إلى الصالون مجدّدًا جلست على كرسي مات، مع أنّ مقعد هوكشو كان شاغرًا، مثلما سبق لها أن فعلت لكي تغيظه ربّما. قال ماكسي إنّها بدت مثل شبح ملوّن، نحيلة وحادّة الملامح، رغم فستانها الزاهي وبهرجتها، وجلست هناك على كرسي مات، مالئة الصالون برمّته بثرثرتها وضحكها وعطرها وساقيها الطويلتين العاريتين، وهوكشو يدّعي الانشغال وراء كرسيّه الفارغ.

فكّرتُ أحيانًا في أن أخبرهم. لكنّني لم أخبر أحدًا سوى غافن ستيفنز، مدّعي عام المقاطعة، وهو رجل ألمعي خرّيج جامعة هارفرد، ليس مثل المحامين البيداغوجيّين والموظّفين المكتبيّين، وحين مرضتُ (كنتُ أعملُ محاسبًا في مصرف في غوردنفيل وتدهورت صحّتي والتقيت ستيفنز على متن القطار الذاهب إلى ممفيس في طريق عودتي من المستشفى) وهو من اقترح عليّ أن

Twitter: @ketab_n

أحاول العمل بائعًا جوّالاً وأمّن لي العمل في شركته. أخبرته عن قصّة هوكشو قبل عامين، قائلاً له:

«والآن تعامله الفتاة معاملة سيئة، وقد باتَ أكبر سنًّا من أن يبحث عن أخرى ويربّيها، وذات يوم سينتهي من سداد رهن البيت وعندها سيأتي نسيب ستارنز من ألاباما ويأخذه، ويكون قد فرغ من موضوع البيت. ثم ماذا ستحسبه فاعلاً؟».

«لا أعرف».

«ربّما سيذهب ويموت فحسب».

«ربّما سيفعل».

«حسنًا، لن يكون أوّل رجل يحصل له ذلك».

«لن يكون أوّل رجل يموت أيضًا».

III

إذن الأسبوع الفائت ذهبت إلى «ديفيشن». وصلت يوم الأربعاء. حين رأيت البيت كان مطليًا حديثًا. وأخبرني صاحب المتجر أنّ هوكشو سدّد الدفعة الأخيرة من دين ستارنز. وأضاف:

«والآن صار في وسع ستارنز ألاباما أن يأتي ويأخذ البيت».

Twitter: @ketab_n

«على أيّ حال، لقد وفى هوكشو بوعده لمسز ستارنز».

«هوكشو؟ أهذا ما ينادونه به؟ حسنًا، اللعنة. هوكشو. حسنًا، اللعنة».

مرّت ثلاثة أشهر قبل أن أذهب إلى جيفرسون مجدّدًا. حين مررت بصالون الحلاقة نظرت إلى داخله من دون أن أتوقّف. وكان هناك رجل آخر وراء مقعد هوكشو، أصغر سنًّا منه. فحدّثتُ نفسي: «أتساءل إذا كان هوك قد تركَ كيس حبوب النعنع». لكنّني لم أتوقّف. فقط فكّرت «حسنًا، لقد رحلَ أخيرًا»، متسائلاً فحسب عن مصيره حين يصير كهلاً ولا يعود قادرًا على الحراك؛ إذا كان سيموت على الأرجح وراء كرسي حلاقة في مكان ما في صالون صغير في الريف، لابسًا مئزره وربطة العنق السوداء تلك وذلك السروال.

ذهبتُ وقابلتُ زبائني وتناولت الغداء، وعند العصر زرت ستيفنز في مكتبه. قلت له:

«أرى أنّه أصبح لديكم حلاّق جديد في البلدة».

«أجل».

ثم نظر إليّ للحظة، وقال:

«ألم تسمع بما جرى؟».

Twitter: @ketab_n

«ما الذي جرى؟».

أشاح نظره عنّي، وقال:

«وصلتني رسالتك التي تقول فيها إنّ هوكشو سدّد الرهن وقام بطلاء البيت. أخبرني عن ذلك».

فأخبرته كيف ذهبت إلى «ديفيشن» في اليوم التالي لمغادرة هوكشو، ووجدتهم يتكلّمون عنه على شرفة المتجر، متسائلين متى سيأتي نسيب ستارنز من ألاباما. كان قد طلى البيت بنفسه، وقام بتنظيف الضريحين. لا أظنّ أنّه أراد أن يزعج ستارنز بتنظيف ضريحه. ذهبتُ لرؤيته. كان قد نظّف الشاهدين جيّدًا، ووضع برعم تفّاح على ضريح الفتاة. وكان مزهرًا، وماذا عن الرجل الذي يتكلّمون جميعهم عنه، فشعرت بالفضول أيضًا لكي أرى داخل المنزل. كان المفتاح بحوزة صاحب المتجر وقال إنّه يظنّ أنّ هوكشو لن يمانع دخولي إليه.

كان نظيفًا كمشفى. كان الموقد ملمّعًا وصندوق الحطب ممتلئًا. أخبرني صاحب المتجر أنّ هوكشو كان دائبًا على ملء صندوق الحطب كلّ عام قبل مغادرته، فقلت: «ذلك النسيب من ألاباما سيقدّر له ذلك».

عدنا إلى الردهة، في الزاوية كان هناك ميداليّة ومصباح وإنجيل على طاولة. كان المصباح نظيفًا، وطبقه فارغًا ونظيفًا

Twitter: @ketab_n

أيضًا؛ لم تكن لتشمّ حتى رائحة النفط فيه. وقد علّقت رخصة الزواج تلك في إطار فوق رفّ الموقد. وكانت تحمل تاريخ ٤ أبريل ١٩٠٥.

قال أمين المستودع (اسمه بدويل):

«هنا يُحتفظ بسجلّ الرهن».

ذهب إلى الطاولة وفتح الإنجيل. على الصفحة الأولى سُجّل في خانتين منفصلتين الولادات والوفيّات. كان اسم الفتاة صوفي. وجدت اسمها في خانة الولادات، وضمن خانة الوفيّات كان يَرِد اسمها قبل الاسم الأخير. كانت مسز ستارنز قد كتبت الاسم. بدا كأنّها استغرقت عشر دقائق في ذلك. وكان مدوّنًا كالتالي:

صوفي ستارنز، توفّيت في ١٦ أبريل ١٩٠٥.

وقد سجّل هوكشو الاسم الأخير بنفسه بخطّ أنيق ودقيق مثل خطّ محاسب:

مسز ويل ستارنز، ٢٣ أبريل ١٩١٦.

وقال بدويل: «السجلّ في الخلف».

قلّبنا الدفتر. فوجدنا السجل هناك ضمن خانة خاصّة، بخطّ هوكشو. يبدأ بـ ١٦ أبريل ١٩١٧، ٢٠٠ دولار، والتالي كان حين سدّد الدفعة التالية في المصرف: ١٦ أبريل ١٩١٨، ٢٠٠ دولار؛

Twitter: @ketab_n

و١٦ أبريل ١٩١٩، ٢٠٠ دورلار؛ و١٦ أبريل ١٩٢٠، ٢٠٠ دولار، وحتى القسط الأخير: ١٦ أبريل ١٩٣٠، ٢٠٠ دولار. ثم جمع المبلغ وكتب تحته:

سُدّد بالكامل، ١٦ أبريل ١٩٣٠.

بدت جملة مدوّنة في أحد دفاتر كلّيّات التجارة القديمة، كأنّ القلم مارس الزخرفة رغمًا عنه. لم يبدُ أنّه كتب بتفاخر، بل بنوع من الزخرفة، أمّا نهاية الجملة، فبدا أنّ الحبر نفد من القلم قبل أن ينهيها.

فقال ستيفنز:

«لقد وفى بوعده إذن».

«هذا ما قلته لبدويل».

مضى ستيفنز متكلّمًا كأنّه لم يسمعني كثيرًا:

«إذن تستطيع السيّدة العجوز أن ترقد مطمئنّة. أظنّ أنّ هذا ما كان يحاول القلم قوله حين نفد الحبر منه: إنّها الآن تستطيع أن ترقد بسلام. ولم يتجاوز الخامسة والأربعين بكثير. ليس كثيرًا على أيّ حال. ليس كثيرًا لكن ــ حين كتب «سُدّد بالكامل» في تلك الخانة، كم من الوقت واليأس مرّا ببطء وقتامة من تحته، كما تحت

Twitter: @ketab_n

أيّ شابّ مكلّل أو فتاة غير مكلّلة»[1].

«لكنّ الفتاة صارت تسيء معاملته، والخامسة والأربعون سنّ متأخّرة للعثور على أخرى. سيكون قد بلغ الخامسة والخمسين على الأقلّ عندها».

عندئذ نظر إليّ ستيفنز وقال: «لا أحسبك قد سمعتَ بالخبر؟».

«أجل، لقد مررت بالصالون لكنّني عرفت أنّه سيكون قد رحل. كنتُ أعرف طوال الوقت أنّه سيرحل، ما إن يسدّد ذلك الرهن. ربّما لم يعرف البتّة بشأن الفتاة على أيّ حال. أو الأغلب أنّه عرف ولم يكترث».

«أتظنّ أنّه لم يعرف بشأنها؟».

«لا أرى طريقة كان يمكن أن يساعدها فيها. لكنّني لا أعرف. ما رأيك؟».

«لا أعرف. لا أظنّ أنّني أريد أن أعرف. لأنّني أعرف ما هو أفضل من هذا بكثير».

«ما هو؟».

---

(١) كان فوكنر يحفظ عن ظهر قلب أشعار ألفرد إدوارد هاوسمن (١٨٥٩ ـ ١٩٣٦)، وفي هذه العبارة يستلهم قصيدته «إلى شابّ رياضي يُحتضر» التي يمجّد فيها الموت في عزّ الشباب.

Twitter: @ketab_n

ظلّ شاخصًا نحوي فسألته ثانية:

«لم تكفّ عن القول لي إنّني لم أسمع بما جرى. أيّ خبر هذا الذي لم أسمعه؟».

«خبر الفتاة».

وظلّ شاخصًا نحوي. ثم قال:

«ليلة عودة هوكشو من آخر إجازة، تزوّجا. أخذها معه هــذه المرّة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قنطور من نحاس[١]

I

أصبح لفلم (Flem) سنوبس نصب تذكاري في بلدتنا، نصب من النحاس، ومع ذلك، ومع أنّه نصبه هو[٢]، فقد كتبت له الحياة والديمومة لأنّه، رغم أنّه دائمًا على مرأى جميع مَنْ في البلدة، وتمكن رؤيته من ثلاث أو أربع نقاط تبعد أميالاً في الريف، فإنّ أربعة أشخاص فقط، وهم زنجيان وأبيضان، يعرفون أنّه نصبه هو، أو أنّه بالأساس نصب تذكاري.

جاء سنوبس إلى جيفرسون آتيًا من الأرياف، ترافقه زوجته

---

(١) قنطور من نحاس: في الميثولوجيا الإغريقيّة القنطور أو المينطور هو كائن أسطوري له جسد حصان وجذع ورأس إنسان ويعيش في الغابات. يصفها إدوارد فولبي في «دليل القارئ إلى قصص فوكنر القصيرة» بأنّها «كوميديا أخلاقيّة». كتبت عام ١٩٣١ ونشرت للمرّة الأولى في «أميركان ميركوري». كانت هذه القصّة بداية علاقة فوكنر بشخصيّة فلم سنوبس التي أنشأ لاحقًا حولها ثلاثيّة «سنوبس». على الرّغم من الصورة القميئة التي يظهره فيها في هذه القصّة فإنّه قال بعد سنوات طويلة، خصوصًا بعد الثلاثيّة، إنّه صار أكثر تفهّمًا لها وأكثر تعاطفًا معها.

(٢) للأسباب التي سنتعرّف عليها في سياق القصّة حيث يقدّم فوكنر فلم سنوبس كشخص وضيع ونصّاب دخيل على جيفرسون.

Twitter: @ketab_n

وابنته الصغيرة وتسبقه سمعة سيّئة حول قيامه بأعمال مخادعة ومشبوهة. وكان يعيش في مقاطعتنا بائع ماكينات خياطة جوّال يدعى سورات[١]، كان يملك نصف حصّة من مطعم يقع في أحد أزقّة البلدة الخلفيّة ـ ولم تكن تنقصه تقنيًا هو الآخر تلك الانتهازيّة غير المؤنية التي تميّز رجال الريف ـ ورجال المدينة أيضًا ـ في ممارسة الدهاء النزيه[٢].

كان دائم التجوال في أرجاء المقاطعة، وكان هو من أخبرنا لأوّل مرّة بأفعال سنوبس: كيف أنّه بدأ حاجبًا في متجر في الأرياف، ثم ذات يوم، ووسط ذهول الجميع، تزوّج ابنة صاحب المتجر، التي كانت أجمل بنات الريف. وقد تزوّجا فجأة، في اليوم نفسه الذي غادر فيه ثلاثة من طلاّب يد الفتاة السابقين المقاطعة، ولم يرهم أحد بعدها.

سرعان ما انتقل سنوبس وزوجته إلى تكساس، وعادت الزوجة بعده بسنة تحمل طفلاً وافر الصحّة. وبعد شهر تبعها سنوبس يرافقه رجل غريب صار لاحقًا محطّ كراهية الجميع، وقطيع من ستّة أفراس موستانغ[٣] نصف بريّة، باعها الغريب

---

(١) قبل أن يتحوّل إلى راتليف في قصص أخرى، وفي ثلاثيّة سنوبس الروائيّة.

(٢) الدهاء النزيه: تمييزًا له عن فلم سنوبس.

(٣) موستانغ Mustang: فرس أميركي ينحدر من دم مكسيكي إسباني وهو أصغر حجمًا من الفرس العربي.

Twitter: @ketab_n

بالمزاد وأخذ المال ورحل. ثم اكتشف الشارون أنّ أيًا من الجياد لم يكن مروّضًا البتّة. لكنّهم لم يعرفوا البتّة ما إذا كان سنوبس ضالعًا بالأمر، أو ما إذا كان قد أخذ حصّة من المال.

والمرّة الثانية التي سمعنا به كانت حين ظهر ذات يوم على عربة تحمل عائلته وأثاث منزله، وعقد بيع لنصف حصّة سوارت من المطعم. كيف حصل على عقد البيع هذا، لم يقل لنا سورات، ونحن لم نعرف أكثر من أنّه قد تورّط في شراء قطعة أرض عديمة القيمة كانت جزءًا من دوطة مسز سنوبس. أمّا حقيقة الصفقة فحتى سوارت، وهو شخص بشوش ضحوك جاهز دائمًا للسخرية من نفسه قبل أيّ شخص آخر، لم يخبرنا بها. لكن حين صار يأتي على ذكر اسم سنوبس بعد ذلك، فذلك بنبرة ملؤها الغضب والتهكّم وإن لم تخل من الإعجاب، قائلاً:

«بكلّ تأكيد، لقد فاقني فلم سنوبس ذكاء، والرجل الذي يستطيع ذلك أتمنّى لو كنتُ مكانه لكنتُ جعلتُ ولاية مسيسيبي هذه كلّها مرعى لي».

ويبدو أنّ سنوبس أصابَ نجاحًا في مجال المطاعم. إذ سرعان ما تخلّص من شريكه وخرج من المطعم هو الآخر، ووظّف شخصًا لكي يديره، وبدأنا في البلدة نعتقد أنّنا عرفنا سرّ ارتقائه وحظّه. اعتقدنا أنّها زوجته؛ قبلنا بلا تحفّظ الشرّ الذي يبدو أنّ بلدات صغيرة ضائعة مثل بلدتنا تُكره الناس على ارتكابه رغمًا

Twitter: @ketab_n

عنهم، بمن فيهم أصحاب النوايا الطيّبة. راحت تساعده في أعمال المطعم أوّلاً. كنّا نراها خلف النضد الخشبي الذي بات ناعمًا كالزجاج من كثرة ما حفّت به الأيدي من مختلف الأجيال: صبيّة يصطبغ وجهها بلون روزنامة متوهّج[1]؛ وجه ناعم لا تعكّر صفوه أيّ فكرة أو أيّ شيء آخر: تستحسنها العين فورًا دونما تفكير أو وجل، مع (بسبب صفائها لا حجمها) شيء من ذلك الجمال الشاسع الجليل لسفح جبلي بِكر، مكلّل بالثلوج، تصغي من دون تبسّم، بينما المايجور هوكسي، عازب البلدة الأربعيني الثري، خرّيج يال الذي سيصبح عمدة البلدة عمّا قريب، يجلس هناك بالتنافر مع العمّال والمزارعين والوجوه الريفيّة المتجهّمة التي تتناول الطعام، يحتسي قهوته ويتحدّث إليها.

ليست فوق النقد: بل منيعة إزاءه. لهذا لم يحتج الأمر إلى أيّ نميمة حين رأينا حياة سنوبس المهنية تزدهر خارج حدود المطعم وتصبح مكمّلة لأعمال المايجور هوكسي في شؤون البلدة، حتى بعد أقلّ من ستّة أشهر على تنصيبه عمدة. أصبح سنوبس الذي لم يكن في حياته قريبًا من أيّ آلة باستثناء حجر الرحى قبل انتقاله إلى البلدة، المشرف العامّ على محطّة توليد الكهرباء المحلّيّة. وقد وُلدت مسز سنوبس واحدة من أولئك النسوة اللواتي تشكّل أفعال أزواجهنّ

(١) روزنامة: المقصود هنا الصور بالأبيض والأسود التي كان يتمّ تلوينها يدويًا.

Twitter: @ketab_n

وثرواتهم وحدها مقياس سمعتهنّ الحسنة؛ ولكي ننصف المرأة، لم يكن هناك أيّ باب للنميمة حولها ما عدا صعود زوجها في إدارة هوكسي.

لكن ظلّ هناك ذلك الشيء المجرّد: العائد جزئيًّا إلى شيء ما في روحها، في هيئتها؛ وجزئيًّا إلى ما سمعناه أصلاً عن أساليب فلم سنوبس الملتوية. أو ربّما اقتصرت المسألة على ما عرفناه وصدّقناه عن سنوبس؛ ربّما ما حسبناه ظلّها لم يكن إلاّ ظلّه الذي يغمرها. لكن على أيّ حال، حين رأينا سنوبس وهوكسي معًا كنّا نفكّر بهما وبالزنى في آن معًا، ونتخيّلهما يمشيان معًا ويتكلّمان بديّوثيّة مسالمة. ربّما، مثلما قلت، كان هذا خطأ البلدة. بالتأكيد كان خطأ البلدة أنّ فكرة كونهما في وضع وديّ وسلمي أغضبتنا أكثر من مجرّد فكرة الزنى. بدا شيئًا غريبًا وفاسدًا ومنحرفًا: كنّا قبلنا الزنى إن لم نغفره لو كانا طبيعيّين ومنطقيّين وتصرّفا كعدوّين.

لكنّهما لم يكونا كذلك. ولا كان يمكن اعتبارهما صديقَين أيضًا. فسنوبس ليس له أصدقاء؛ ليس من رجل أو امرأة بيننا، ولا حتى هوكسي ولا مسز سنوبس، يستطيع أن يقول: «أنا أعرف تفكيره»، وخصوصًا ليس أولئك منّا الذين يرونه بين حين وآخر، جالسًا قرب الموقد، في بقالة من الدرجة الثالثة تفوح منها رائحة عطنة، مصغيًا دون أن يتكلّم، لساعة أو ساعتين، ليلتين أو ثلاث ليال في الأسبوع. ولذا اعتقدنا أنّه مهما كان من أمر زوجته، فإنّها

Twitter: @ketab_n

لم تكن تخونه. كانت امرأة أخرى التي خانته حقًّا: امرأة زنجيّـــة، زوجة توم توم الجديدة، الوقّاد[1] النهاري في محطّة الكهرباء.

كان توم توم زنجيًّا: ضخم كالثور يزن مائتي باونـــد وفـــي الستّين، لكنّه يبدو في الأربعين. كان يعيش منذ سنة مـــع زوجتــه الثالثة، وهي صبيّة أبقاها بصرامة تركي[2] في كوخ يبعد ميلين عن البلدة وعن محطّة الكهرباء حيث يمضي اثنتي عشرة ســـاعة فـــي اليوم مع مجرفة وعقب حديدي.

ذات عصر كان قد أنهى عمله في تنظيف المرجل، وجلـــس في عنبر الفحم يستريح ويدخّن غليونه، حـــين دخـــل ربّ عملــه والمشرف عليه سنوبس. كان الموقد نظيفًا والبخار يتصاعد ثانيـــة وصمّام الأمان في المرجل الأوسط ينفث البخار.

دخل سنوبس: رجل ضئيل بلا سنّ محدّدة، عريض وبـــدين، يلبس قميصًا أبيضَ نظيفًا، وإن بلا ياقة وقبّعة من النسيج المـــنقّش. كان وجهه مدوّرًا وناعمًا، إمّا مقفلاً بالكامل وإمّا فارغًا بالكامـــل. وكانت عيناه بلون المياه الآسنة، أمّا فمه فكناية عن شقّ ضيّق بـــلا شفتين. راح يمضغ التبغ بدأب وهو يتأمّل صمّام الأمان الصـــافر، وسأل بعد قليل:

---

(١) العامل الذي يضع الفحم في الأتّون أو المرجل.
(٢) إشارة إلى الحريم العثماني.

Twitter: @ketab_n

«كم تزنُ هذه الصافرة؟».

أجابه توم توم: «لا بدّ أنّها تزن عشرة باوندات على الأقلّ».

«أهي من النحاس الصلب؟».

«إذا لم تكن كذلك فأنا لمَ أرَ نحاسًا صلبًا في حياتي».

لم ينظر سنوبس ولو مرّة إلى توم توم. بل ظلّ شاخصًا إلى الأعلى نحو صفير الصمّام الرفيع الصارخ الذي يصمّ الآذان. ثم بصقَ وغادر.

II

أقام نصبه التذكاري ببطء. لكن في نهاية المطاف، ما أغرب الأساليب المعقّدة التي قد يلجأ إليها المرء لكي يسرق شيئًا ما. يبدو أنّ ikh; قوّة اجتماعيّة خفيّة ومجرّدة عملت ضدّه، مربكة دهاءه باحتياله، مشوّهة في تفكيره قيمة موضوع جشعه نفسه، الذي في كافّة الاحتمالات، لو لم يختره ويسرقه لما انتبه إليه أحد أو اكترث به. لكن هذا ما كان ليناسب سنوبس، إذ إنّه لا يملك لا رؤية المؤمن السامية، ولا شجاعة قاطع الطرق الصلبة.

رؤياه أوّلاً، أو هدفه، لم تكن عالية حتى إلى هذا الحدّ، إذ لا

Twitter: @ketab_n

تتجاوز رؤية متشرّد عابر يقف ليسرق ثلاث بيضات من تحت دجاجة راقدة. أو ربّما لم يكن بمتيقّن حتى من وجود سوق يمكنه أن يبيع فيه النحاس. لأنّ خطوته التالية كانت بعد خمسة أشهر حين جاء، ذات مساء، هاركر، المهندس الليلي، ووجد صافرات الأمان الثلاث قد اختفت وسُدّ منفس كلّ واحدة منها ببرغي فولاذي بعرض إنش قادر على تحمّل قوّة ضغط تصل إلى ألف باوند. وقال هاركر:

«ورؤوس المراجل الثلاثة تلك يمكنك أن تثقبها بقشّة عصير! وذلك الوقّاد الليلي الأسود ، تورل، الذي لا يستطيع حتى قراءة مؤشّرات الساعة، لا يزال يلقّم المراجل بالفحم! حين نظرت إلى درجة حرارة المرجل الأوّل لم أحسب أنّني سأصل إلى المرجل الأخير في الوقت المناسب حتى أصل إلى المحقنة. لذا حين تمكّنتُ أخيرًا من إفهام تورل أنّ الرقم مئة هذا على تلك الساعة لا يعني فقط أنّه يمكن أن يخسر عمله، بل يمكن أن يخسر الوظيفة نفسها بحيث لا يتمكّنون من إيجاد الوظيفة لمنحها لابن السفاح التالي الذي يظنّ أنّ البخار الحيّ هو شيء تنفخه على زجاج النافذة في الطقس البارد، ثم هدأت كفاية لأسأله أين اختفت صمّامات الأمان الثلاثة. فأجابني:

«لقد انتزعها مستر سنوبس».

«لماذا بحقّ الجحيم؟».

Twitter: @ketab_n

«لا أعرف. إنّني أخبرك فحسب بما أخبرني به تـوم تـوم. أخبرني أنّ مستر سنوبس قال له إنّ طوّافة خزّان المياه ليست ثقيلة كفاية، ممّا يمكن أن يجعل المياه تتسرّب من الخزّان يومًا ما، ولذلك فسيثبّت هذه الصمّامات الثلاث إلى الطوّافة فتصير أثقل».

فقلت له:

«يعني...».

وهذا كلّ ما استطعت قوله: يعني...

وقال تورل:

«هذا ما أخبرني به توم توم. لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر».

«لكنّها اختفت. قبل تلك الليلة كنتُ وتـورل نـرى أربعـين ومضة أو ما شابه من وقت لآخر حين ننجز العمـل فـي الوقـت المناسب وتكون الأمور مستقرّة. لكن يمكنك أن تراهن أنّنا لم نـذق طعم النوم في تلك الليلة. أمضينا الليلة كلّها عنـد مرجـل الفحـم الحجري لكي نراقب الفتحات الثلاث. ومنذ منتصف الليل، بعـد أن فرّغت حمولة، لم يعد لدينا في المراجل الثلاثة ما يكفي من البخار لتشغيل محمصة فول سوداني. وحتى حين أويت إلى السرير فـي البيت لم أستطع النوم. ما إن أغمض عينيّ حتى أبدأ برؤية فتحـة بخار بحجم طشت، مع عقرب ساعة أحمر بحجم رفش يصعد حتى الرقم مئة فأستيقظ مذعورًا متعرّقًا.

Twitter: @ketab_n

لكن حتى هذا انتهى بعد مدّة، وعندها عاد تـورل وهـاركر يريان الأربعين ومضة أو نحوها مجدّدًا. ربّما قرّرا أنّ سنوبس قد سرق بيضاته الثلاث وانتهى الأمر. ربّما استنتجا أنّه قد أفزع نفسه بالسهولة التي حصل فيها على البيض. فقد مرّت خمسة أشهر قبـل قيامه بالخطوة التالية.

ثم عصر ذات يوم، بعد تنظيف المرجل وصعود البخار ثانية، فإنّ توم توم الذي جلس يدخّن غليونه على كومة الفحم الحجـري، رأى سنوبس داخلاً، يحمل بيده شيئًا قال توم توم لاحقًا إنّه حسبـه حدوة بغل. رأى سنوبس وهو يلوذ في زاوية معتمة وراء المراجل حيث تراكمت كومة متنوّعة من الخردة المعدنيّـة المغطّـاة كلّهـا بالقذارة: قطع وصل، صمّامات، قضبان ومسامير مصـوملة ومـا شابه، وجاثمًا هناك على ركبتيه، راح يصنّف القطع، فاحصًا إيّاهـا واحدة واحدة بحدوة البغل، ساحبًا من وقت لآخر قطعة منهـا إلـى خلفه، إلى الممرّ. رآه توم توم يستعين بمغناطيس للعثور على كـلّ قطعة معدنيّة شاردة في حجرة المراجل، مفرّقًا الحديد عن النحاس: ثم أمرَ سنوبس توم توم بأن يقوم بجمع القطع النحاسيّة التي انتهـى من فرزها والإتيان بها إلى مكتبه.

جمع توم توم القطع في صندوق، بينما سنوبس ينتظره فـي مكتبه. ألقى نظرة على الصندوق، ثم بصق وسأله:

«كيف الحال بينك وبين تورل؟».

Twitter: @ketab_n

وتورل هذا، للتذكير، هو الوقّاد الليلي الآخر، وهو زنجي أيضًا، مع أنّه كان بنّي اللون بينما كان توم توم أسود اللون، ومقابل المائتي باوند، وهو وزن توم توم، لم يكن وزن تورل وهو يحمل الرفش مليئًا بالفحم ليساوي أكثر من مائة وخمسين باوندًا.

أجابه توم توم:

«أنا أهتمّ بشؤوني، وما يفعله تورل بشؤونه لا يعنيني».

قال سنوبس: «ليس هذا ما يظنّه تورل». وراح يمضغ التبغ ويحملق بتوم توم، الذي حملق به في المقابل:

«طلب منّي تورل أن أعطيه نوبتك النهاريّة. قال إنّه تعب من العمل الليلي».

«فليعمل هنا مثل المدّة التي عملتها وليحصل عليها».

أجابه: «تورل لا يريد الانتظار كلّ هذه المدّة». وظلّ يمضغ ويحملق بتوم توم. ثم أخبره أنّ تورل يخطّط لسرقة بعض الحديد من المعمل ووضعه على بابه ممّا سيؤدّي إلى طرده. ووقف توم توم يصغي، بجثّته الضخمة، ورأسه الصغير الدائري الصلب، وأضاف سنوبس:

«هذا ما ينوي فعله، لذا أريدك أن تأخذ هذه الأشياء إلى منزلك وتخبّئها بحيث لا يستطيع تورل العثور عليها. وحين أحصل على دليل كافٍ ضدّه فسأقوم بطرده».

Twitter: @ketab_n

انتظر توم توم حتى أنهى سنوبس كلامه، وعيناه تطرفان ببطء. ثم قال مباشرة:

«أعرف طريقة أنجع من هذه».

«ما هي؟».

لم يجب توم توم. بل وقف، ضخمًا، متجهّمًا، فظًّا قليلاً، صامتًا، أكثر بقليل من غاضب، وإن كان باردًا. فقال له سنوبس:

«لا، لا، هذا لن يجدي. افعل ما أقوله لك، إلاّ إذا كنتَ متعبًا من عملك وتريد أن يحصل تورل عليه. أتعبت منه؟».

فأجابه توم توم مقطّبًا:

«لم يتذمّر أحدٌ من عملي بعد».

«إذن افعل ما أقوله لك. خذ هذه الأشياء معك إلى البيت الليلة. ولا تدع أحدًا يراك، ولا حتى زوجتك. وإذا لم تكن تريد فعل ذلك، فقل لا فقط. أظنّ أنّني أستطيع العثور على شخص آخر».

وهذا ما فعله توم توم. واحتفظ بخطّته أيضًا، حتى حين بعد ذلك، تراكمت الخردة مجدّدًا، رأى سنوبس وهو يفحصها واحدة بعد الأخرى بالمغناطيس وجمع له مجموعة أخرى من النحاس لكي يأخذها معه إلى البيت ويخبّئها. لأنّه كان يلقّم هذه المراجل منذ أربعين عامًا، منذ يفاعته. في ذلك الوقت لم يكن هناك سوى مرجل

Twitter: @ketab_n

واحد، وكان يحصل على ١٢ دولارًا شهريًا لوقده، لكن الآن أصبح هناك ثلاثة مراجل، وهو يحصل على ستّين دولارًا شهريًّا، وقد بلغ الستّين وبات يملك كوخه الصغير وقطعة أرض صغيرة مزروعة بالذرة، وبغلاً وعربة تقلّه إلى كنيسة البلدة مرتّين كلّ يوم أحد، مع زوجته الجديدة وساعة ذهبيّة وسلسال.

وهاركر لم يعرف عندئذ، أيضًا، مع أنّه رأى الخردة المعدنيّة تتراكم في الزاوية ثم تختفي بين ليلة وضحاها حتى باتت مزحته الليليّة أن يدخل بهيئته المنشغلة المستعجلة ويقول لتورل:

«حسنًا يا تورل أرى أنّ ذاك المحرّك الصغير ما زال يعمل. هناك قدر وافر من النحاس في البطانات ومسامير الرسغ، لكنّني أظنّ أنّها تتحرّك بسرعة لا تتيح لذلك المغناطيس التقاطها».

ثم صار يقول بجدّيّة أكبر، بل بجدّيّة تامّة، بلا أيّ مزاح أو تهكّم، إذ كان ثمّة شيء من سوارت في هاركر أيضًا:

«يا له من لعين! أظنّ أنّه سيبيع المراجل أيضًا، لو ظنّ أنّك أنت وتوم توم يمكنكما توليد البخار من دونها».

ولم يكن تورل يجيبه. لأنّه كان قد توصّل إلى تكوين وساوس وهواجس تخصّه، تشبه وساوس توم توم وهواجسه، والتي لا يعرف هاركر شيئًا عنها أيضًا.

Twitter: @ketab_n

في غضون نلك جاءت السنة الجديدة وتمّ التدقيق في حسابات البلدة. وقال هاركر:

«لقد حضر إلى المحطّة مدقّقا حسابات يضـــعان النظّـــارات. دقّقا في دفاتر الحسابات ونقّبا في كلّ شيء، وقاما بجرد كلّ ما وقع عليه نظرهما وسجّلاه. ثم عادا إلى المكتب ووجدتهما مـــا يـــزالان هناك حين وصلتُ عند الساعة السادسة. يبدو أنّهما عثرا على خطأ ما. يبدو أنّ بعض قطع النحاس القديمة المسجّلة في الدفاتر لم تعـــد موجودة. كانت في الدفاتر فعلاً، والصمّامات الجديدة والأشياء التي استُبدلت بها كانت هناك. لكنّهما لم يعثرا على أيّ من القطع القديمة ما عدا فوطة قديمة وصلت عن طريق الخطأ إلى تحـــت منضـــدة العمل. كان الأمر غريبًا جدًّا. لذا عدتُ معهما حاملاً المصباح بينما راحا يبحثان مجدّدًا في كافّة الزوايا، متلطّخَين بالشـــحم والســـخام، لكنّهما لم يجدا أثرًا لذاك النحاس. فرحلا. وعادا في اليـــوم التـــالي ومعهما محاسب البلديّة هذه المرّة ووصلا قبـــل مســـتر ســـنوبس واضطرّا إلى انتظاره حتى جاء معتمرًا قبّعته وماضغًا تبغه، وراح يحملق فيهما بينما هما يخبرانه بالأمر معبّرَين عن أسفهما الشـــديد، قائلين إنّه ما كان بمقدورهما فعل شيء آخر سوى أن يقصداه، مـــا دام المشرف العامّ، وهل يؤيّد اعتقالنا أنا وتورل وتـــوم تـــوم الآن فورًا أم أنّ الغد يفي بالغرض؟ أمّا هو، فقد وقف هنـــاك، يمضـــغ التبغ، وعيناه أشبه بكتلتين من الدهن على قطعتين من الكعك، وهما

Twitter: @ketab_n

لا يكفّان عن التعبير له عن مدى أسفهما، ثم سألهما:

«كم هو المبلغ الناقص؟».

«ثلاثمائة وأربعة دولارات واثنان وخمسون سنتًا يا مستر سنوبس».

«حسنًا».

ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج المال ودفع لهما نقدًا وطالبهما بإيصال.

III

ثم جاء الصيف التالي وهاركر ما زال يضحك ويستمتع بما يراه، وكان ما يراه القليل جدًّا، ظانًّا أنّهم جميعًا يخادعون بعضهم بعضًا، وهو يتفرّج عليهم، بينما كان هو من يتعرّض للخداع. ذلك أنّه في ذلك الصيف اتّخذت القضيّة منعطفًا بارزًا، أو ربّما قرّر سنوبس فحسب أن يجزّ أوّل محصول تبن له، وأن ينظّف الأرض ويعيد زرعها، إذ إنّه ما كان ليصدّق إطلاقًا أنّه في اليوم الذي أرسل فيه في طلب تورل إلى مكتبه، كان قد وضع رأسمال بناء نصبه التذكاري وبدأ ينزل السقالات في آن معًا.

Twitter: @ketab_n

حدث ذلك في المساء؛ عاد إلى المعمل بعد العشاء وأرسل بطلب تورل؛ مجدّدًا، وقف الرجلان، الأبيض والأسود، متقابلين في المكتب:

«ما المشكلة بينك وبين توم توم؟».

فأجابه تورل:

«بيني وبين من؟ إذا كان توم توم يعتمد عليّ للدخول في مشكلة معه فلا بدّ من أنّه لم يعد وقّادًا وأصبح نادلاً. فالمشكلات تتطلّب شخصين، وتوم توم يظلّ واحدًا رغم ضخامته».

حملق سنوبس بتورل، قائلاً:

«توم توم يظنّ أنّك تريد أن تسلبه النوبة النهاريّة».

أطرقَ تورل، ثم نظر سريعًا إلى وجه سنوبس، إلى العينين الثابتتين، والفكّ البطيء، ثم أطرق ثانية:

«يمكنني تولّي كميّة الفحم نفسها التي يتولاّها توم توم».

ظلّ سنوبس شاخصًا نحوه، الوجه البنّيّ الناعم المائل جانبيًّا، ثم قال له:

«توم توم يعرف ذلك أيضًا. يعرف أنّه يتقدّم في السنّ. لكنّه يعرف أنّ أحدًا غيرك لا يستطيع مزاحمته».

ثم، محملقًا به، أخبره سنوبس أنّ توم توم يسرق النحاس من

Twitter: @ketab_n

المحطّة منذ سنتين، لكي ينصب فخًا لتورل يؤدّي إلى طرده، وأنّه قبل أيّام أخبره توم توم أنّ تورل هو اللّص.

رفع تورل وجهه، وقال:

«هذا كذب، لا يستطيع أيّ زنجي اتّهامي زورًا بالسرقة، مهما بلغ حجمه».

«بالتأكيد، الحلّ إذن في استعادة ذلك النحاس».

«إذا كان بحوزة توم توم فإنّ مستر باك كونر هو من يستطيع استعادته».

كان باك كونر مارشال المدينة.

«في هذه الحالة ستذهب إلى السجن بالتأكيد، فسيزعم توم توم أنّه لم يكن يعرف بوجوده هناك. ستكون الوحيد الذي يعرف بوجوده هناك. فماذا برأيك سيظنّ باك؟ سيعتبرك الشخص الذي يعرف بمكان النحاس، ويعرف باك كونر أنّه حتى المغفّل لديه عقل يمنعه من سرقة شيء وتخبئته في معلف الذرة الخاصّ به. الحلّ الوحيد أمامك هو استعادة ذلك النحاس. اذهب إلى هناك نهارًا بينما توم توم في العمل، وأحضره لي وسأخبّئه في مكان ما لكي نستعمله كدليل ضدّ توم توم. إلاّ إذا لم تكن تريد النوبة النهاريّة. فقط قل ذلك إذا لم تكن تريد. أظنّ أنّني أستطيع إيجاد شخص آخر».

وافق تورل، فهو لم يوقد المراجل طوال أربعين عامًا، ولا

Twitter: @ketab_n

فعل أيّ شيء لمدّة أربعين عامًا، فقد كان في الثلاثين فقط. لكن حتى لو كان عمره مائة عام، فليس ثمّة من يمكنه أن يتّهمه بشيء يساوي أربعين سنة سجن صافية «إلاّ إذا كان طواف تورل الليلي يمكن أن يصل إلى هذا الحدّ»، قال هاركر، «إذا ما تزوّج تورل، فلن يحتاج إلى باب أمامي على الإطلاق. لن يعرف ما الغرض منه. إذا لم يدخل متسلّلاً من النافذة الخلفيّة، فلن يعرف لماذا جاء. أليس كذلك يا تورل؟».

إذن من هنا فصاعدًا تصبح القصّة بسيطة جدًّا، ما دامت أخطاء الرجل مثل نجاحاته، عادة ما تكون بسيطة. ولا سيّما النجاحات. ربّما لهذا السبب يتمّ هدرها دومًا، إذ لا يراها المرء.

فقال هاركر:

«كانت غلطته اختيار تورل للقيام بهذه المهمّة، لكن حتى هذه الغلطة لم تكن بفداحة الغلطة الثانية التي ارتكبها في الوقت نفسه من دون أن يدري. وهي عندما نسي أمر تلك الزوجة الشهوانيّة المثيرة، زوجة توم توم. وحين اكتشفتُ أنّه اختار تورل من بين جميع الزنوج في جيفرسون، الذين حاموا مرّة على الأقلّ (أو حاولوا ذلك) وراء كل فتاة ضمن عشرة أميال من البلدة، لكي يرسله إلى منزل توم توم، عالمًا أنّ الأخير سيكون في المحطّة حتى السابعة مساء، ثم يكون أمامه ميلان يمشيهما إلى البيت، ويتوقّع أن يمضي تورل وقته هناك بحثًا عن أيّ شيء آخر ليس

Twitter: @ketab_n

على سرير توم توم، وحين أفكّر في هذا الأخير هنا يصارع تلك المراحل بالديوثيّة نفسها التي تحدّث عنها الرجل بين مستر سنوبس والمايجور هوكسي، سارقًا النحاس لكي يحمي عمله من أن يستولي عليه تورل، أمّا تورل فيذهب إلى منزل توم توم في الوقت نفسه، حين أفكّر بهذا كلّه أشعر أحيانًا أنّني سأموت من الضحك».

«وكان محتّمًا ألاّ يستمرّ الأمر. كان السؤال ما الذي سيحدث قبل الآخر: هل توم توم سيمسك تورل، أو سيمسك مستر سنوبس تورل، أو إذا كنتُ سأنفجر من الضحك ذات ليلة. حسنًا، لقد كان تورل. يبدو أنّه عانى مشكلة كبيرة في تحديد موضع ذاك النحاس؛ لقد ظلّ يبحث عنه طوال ثلاثة أسابيع، وصار يأتي إلى العمل متأخّرًا كلّ ليلة تقريبًا، فيضطرّ توم توم إلى أن ينتظر مجيئه قبل أن يمضي إلى بيته. ربّما كان هذا هو الأمر. أو ربّما مستر سنوبس كان هناك ذات يوم، واختبأ بين الأجمات، وانتظر حلول الظلام (كان أبريل وقتذاك) هو بجانب بيت توم توم وتورل يزحف في رقعة الذرة في الطرف الآخر. على أيّ حال عاد إلى المحطّة ذات ليلة وراح ينتظر حين جاء تورل متأخّرًا نحو نصف ساعة، كالعادة، وتوم توم يتهيّأ للعودة إلى البيت. ما إن وصل تورل إلى هناك. أرسل مستر سنوبس بطلب تورل وسأله إذا عثر على النحاس. فأجابه:

«متى أعثر عليه؟».

Twitter: @ketab_n

«بينما كنتَ هناك تبحثُ عنه عند الغروب».

وها هو تورل يتساءل عن مدى ما يعرفه مستر سنوبس، وإذا كان يستطيع أن يجازف بالقول إنّه كان في منزله في السرير منذ السادسة والنصف هذا الصباح، أو ربّما ذهب إلى موتستاون في عمل. وقال له مستر سنوبس، وهو ينظر إليه من دون أن يبادله النظر إلاّ لمامًا:

«ربّما ما زلتَ تبحثُ عنه في المكان الخطأ. إذا كان توم توم قد خبّأ هذا النحاس في سريره، فكان ينبغي أن تعثر عليه منذ أسابيع، لذا أفترض أنّك بحثت في رقعة الذرة حيث طلبت منك أن تبحث».

فذهب تورل لكي يبحث مرّة أخرى. لكن يبدو أنّه لم يعثر على النحاس في رقعة الذرة أيضًا. في أيّ حال هذا ما قاله لمستر سنوبس حين لاقاه هناك عند التاسعة ليلاً. ويمكنك القول إنّ تورل كان يعيش نوعًا من المأزق. كان عليه أن ينتظر حتى الظلام لكي يذهب إلى البيت، وتوم توم قد بدأ يتذمّر قليلاً من تأخّر تورل أكثر فأكثر كل ليلة. حتى إذا ما عثر على هذا النحاس كان عليه أن يبدأ بالذهاب إلى العمل عند الساعة السابعة والأيّام تطول أكثر فأكثر».

إذن عاد تورل للبحث مجدّدًا عن ذلك النحاس. لكنّه لم يعثر عليه أيضًا. لا بدّ من أنّه بحث تحت كل خيط في سرير توم توم،

Twitter: @ketab_n

لكنّه لم يصب نجاحًا أكثر من الذي أصابه المفتّشان. بدا أنّه لا يعثر على الدليل بأيّ طريقة كانت. وعندها قال مستر سنوبس إنّه سيعطي تورل فرصة واحدة إضافيّة، وإذا لم يعثر على الدليل فسيخبر توم توم بأنّ هناك غريبًا يتسلّل إلى بيته من وراء ظهره. وحين يسمع زوج زنجي في جيفرسون ذلك، فإنّه سيكتشف أين هو تورل قبل أن يشحذ شفرته: «أليس الأمر كذلك يا تورل؟».

«فذهب تورل مساء اليوم التالي للبحث مجدّدًا. هذه المرّة باتت مسألة حياة أو موت. خرج زاحفًا من الغابة عند الغروب، أفضل وقت للبحث عن النحاس، خصوصًا بوجود ضوء القمر تلك الليلة. وها هو يأتي إذن، زاحفًا عبر رقعة الذرة إلى الشرفة الخلفيّة، حيث الكوخ، وسرعان ما تبيّن هيئة أحدهم في لباس نوم أبيض مضطجعًا داخل الكوخ. لكنّ تورل لم ينهض ويمشي حتى عندئذ؛ هذه ليست طريقة تورل. فهو يلعب وفق القواعد. زحف في عتمة الغسق تحت ضوء القمر الذي بدأ يشعّ قليلاً، بصمت وحذر، وانسلّ إلى الشرفة الخلفيّة وتلصّص إلى داخل الكوخ وقال: حبيبتي، ها قد جاء البابا».

IV

حين سمعت بهدوء شديد ما جرى شعرت للحظة أنّني أعيش

Twitter: @ketab_n

صدمة تورل الرهيبة. لأنّه وجد توم توم داخل الكوخ، بينما كان يحسبه في تلك اللحظات على بعد ميلين، ينتظر مجيئه لكي يستلم مكانه في محطّة الكهرباء.

الليلة السابقة، عند عودته إلى البيت جلب توم توم معه بطّيخة حمراء من قطاف العام الفائت، وكان الجزّار المحلّي احتفظ بها طوال الشتاء في الثلاّجة، ثم أعطاها له، خشية من أن يأكلها بنفسه. كما جلب معه توم توم ربعيّة ويسكي. تناول وزوجته البطّيخ والويسكي وأويا إلى السرير، وإذا به يستيقظ بعد ساعة على صراخها. كانت مريضة بشدّة، وحسبت نفسها تُحتضر. كانت خائفة جدًّا من أن تترك توم توم يذهب ويأتي بالمساعدة، وبينما راح يهدّئها بقدر ما يستطيع اعترفت له بقصّتها مع تورل. وما إن اعترفت حتى تحسّنت حالها وأوت إلى النوم، إمّا قبل أن يتسنّى لها الوقت لتدرك فداحة ما فعلته، وإمّا بسبب انشغالها بكونها ما زالت على قيد الحياة فلم تكترث.

لكن توم توم لم يكن كذلك. في الصباح التالي بعد أن أقنع نفسه بأنّها على ما يرام، ذكّرها بما قالته. فبكت قليلاً، وحاولت إنكار أقوالها؛ أرسلت دموعها الغاضبة، وراحت تنكر وتداهن ثم عادت إلى الدموع ثانية. لكنّ وجه توم توم كان ماثلاً أمامها طوال الوقت، وبعد فترة هدأت وجلست بصمت، ناظرة إلى توم توم وهو يعدّ الإفطار له ولها بطريقة منهجيّة، من دون أن ينطق بكلمة، ومن

Twitter: @ketab_n

الواضح، بل غافلاً حتى عن وجودها. ثم أطعمها، أجبرها على أن تأكل، بالفتور العاطفي والصلابة والبرود نفسهما. أخذت تنتظر خروجه إلى العمل؛ لم تشعر بالشكّ عندئذ وظلّت طوال الوقت تخترع الذرائع العمليّة وتستبعدها، وكانت منشغلة جدًّا بذلك إلى درجة أنّها لم تدرك إلاّ قبيل الظهر أنّه لا ينوي الذهاب إلى العمل، وأنّه رتّب الأمور عند السابعة صباحًا لكي يعلموا في المحطّة بأنّه سيأخذ اليوم إجازة.

اضطجعا هناك في السرير، صامتَين تمامًا، عيناها متّسعتان قليلاً وساكنتان كحيوان، بينما حضّر لها الغداء وأطعمها مجدّدًا بذلك الاهتمام الأخرق والجامد. وتمامًا قبيل الغروب أقفل عليها باب المخدع، وهي على حالها من الصمت، لم تسأله عمّا ينوي فعله، بل شاهدت فحسب بعينيها الصامتتين الساكنتين الباب وهو يُقفل، وصوت المفتاح وهو يدور في القفل. ثم ارتدى توم توم أحد قمصان نومها ووضع أمامه سكّين جزّار واستلقى على السرير النقّال على الشرفة الخلفيّة. وظلّ ماكثًا بلا حراك لنحو ساعة، حين زحف تورل على الشرفة ولمسه.

أمام انتفاضة تورل العفويّة وهو يحاول الهرب، نهض توم توم، شاهرًا السكّين، وانقضّ على تورل. قفز على عنق الأخير فوقع عن الشرفة وهو يحمله، وهمّ بالركض ما إن لامست قدماه الأرض، رائيًا في عين خوفه القمر يومض لبرهة خاطفة على

Twitter: @ketab_n

نصل السكّين المسلولة، وهو يجتاز الفناء الخلفي، وتوم توم على ظهره، ثم دخل بين الأشجار ـ ليشكّلا كلاهما حيوانًا غريبًا حانقًا برأسين وقدمين غريبتين مثل قنطور يركض بالمقلوب كالشبح تحت ذيل قميص توم توم، ولمعان سكّينه الفضّي، وعبر غابات أبريل المغمورة بضوء القمر.

وقال تورل:

«توم توم رجلٌ ضخم، يساوي ثلاثة منّي، لكنّني بالتأكيد راوغته، وكلّما رأيت القمر يومض على سكّين الجزّار تلك، كنتُ أضاعف سرعتي من دون توقّف».

قال إنّه في البداية ركض، وإنّه فقط حين وجد نفسه بين الأشجار خطرَ له أنّ أمله الوحيد هو أن يجعل توم توم يصطدم بشجرة:

«كأنّه كان ملتصقًا بي بحيث لو أردت أن أجعله يرتطم بشجرة فسأرتطم بها أيضًا. وعندها نظرت خلفي ولمحتُ شعاع القمر على تلك السكّين، وشعرت أنّ بوسعي مسابقة اثنين من أمثال توم توم. عندها بدأ يزعق بي وهو متشبّث بي، فعلمت أنّه أوقع السكّين بطريقة ما، لكنّني انطلقت بأقصى سرعتي عندها، ولم تبال رجلاي البتّة بصراخ توم توم لي بأن أتوقّف. ثم أمسكَ رأسي بكلتا يديه وراح يهزّه كأنّني بغل، ثم رأيتُ تلك القناة. بدت بعمق نحو أربعين قدمًا وعرض ميل كامل، لكنّ الأوان كان قد فات. لم تبطئ

Twitter: @ketab_n

قدماي أبدًا. ركضتا مسرعتين من هنا حتى ذلك الباب إلى الهـواء الفارغ قبل أن نبدأ حتى بالسقوط. وكانتا ما زالتا تصارعان شـعاع القمر ذاك حين حططت وتوم توم في القاع».

كان أوّل ما أردت معرفته ماذا استعمل توم توم بـدلاً مـن سكّين الجزار التي أوقعها. لم يستعمل شيئًا. هو وتورل جلسا هناك فحسب في القناة وتكلّما. فثمّة حرمة تتجاوز اليأس لكلّ وحش تجرّأ على الجميع، يبجّلها حتى عدوّه الأبدي. أو ربّما كانت طبيعة زنجيّة فحسب. على أيّ حال صار واضحًا تمامًا لهما وهما جالسان هناك، ربّما يلهثان قليلاً أثناء حديثهما، أنّ من انتهك بيت توم تـوم لـيس تورل بل فلم سنوبس؛ وأنّ حياة تورل كانت بخطر، ليس بسبب توم توم، بل بسبب فلم سنوبس.

باتَ هذا شديد الوضوح لهما بحيث جلسا هناك في الخنـدق بصمت، مستعيدَين أنفاسهما، متكلّمَين قليلاً بلا انفعال مثل شخصين متعارفين التقيا صدفة في الشارع؛ باتَ الأمـر شـديد الوضـوح بالنسبة لهما بحيث وضعا خطّتهما المتناسقة من دون اللجوء إلـى كلمات محدّدة حول الموضوع. بالكاد قارنا بين ملاحظاتهما، وربّما ضحكا قليلاً من نفسيهما. ثم تسلّقا القناة وعادا إلى كوخ توم تـوم، حيث فتح باب مخدعه، وجلس هو وتورل أمام الموقد بينما أعـدّت المرأة وجبة لهما، تناولاها بهدوء لكن مـن دون مضـيعة وقـت: انحنى الوجهان المشطّبان الجادّان فـوق المصـباح نفسـه، فـوق

Twitter: @ketab_n

الأطباق نفسها، والمرأة وراءهما تراقبهما، صامتة ومتجهّمة وخفيّة.

أخذها توم توم إلى الحظيرة معهما لكي تساعد على تحميل النحاس في العربة، حيث تحدّث تورل للمرّة الأولى مع توم توم منذ صعدا معًا من القناة بالديوثيّة الوديّة التي تحدّث عنها هاركر:

«يا إلهي يا رجل، كم استغرقك الأمر لكي تنقل كلّ هذا إلى هنا؟».

«ليس طويلاً، إنّني أفعل ذلك منذ نحو عامين».

تطلّب الأمر أربع رحلات بالعربة، وقد حلّ الفجر حين تمّ تنزيل آخر حمولة، وكانت الشمس تشرق حين دخل تورل إلى محطّة الطاقة، متأخّرًا إحدى عشرة ساعة. فسأله هاركر:

«أين كنتَ بحقّ الجحيم؟».

نظر تورل إلى فتحات الصمّامات الثلاثة، وعلى وجهه المخدوش تعبير شبه قردي، ثم قال:

«كنتُ أساعد صديقًا لي».

«أيّ صديق هذا؟».

فأجابه تورل، وهو ينظر شزرًا إلى الفتحات:

«فتى يدعى تورل».

Twitter: @ketab_n

V

قال هاركر:

«وكان هذا كلّ ما قاله، وأنا أنظر إلى وجهه المشطّب، وإلى توأم ذلك الوجه الذي جاء به توم توم عند السادسة. لكن تورل لم يخبرني عندئذ. ولم أكن الوحيد الذي لم يخبره شيئًا ذاك الصباح. لأنّ مستر سنوبس وصل إلى هناك قبل الساعة السادسة، قبل أن يذهب تورل. أرسل في طلبه وسأله إذا كان قد عثر على النحاس وأجابه تورل لا.

«لماذا لم تعثر عليه؟».

هذه المرّة لم يقف تورل مطرقًا، وأجابه:

«ما من نحاس هناك. وهذا هو السبب الرئيسي».

«كيف تعرف أنّه لا يوجد؟».

وحدّق تورل مباشرة في عينيه وقال له:

«لأنّ توم توم يقول ذلك».

وقال هاركر:

«ربّما كان على سنوبس أن يعرف وقتذاك. لكنّ المرء يمضي إلى أبعد حدّ في خداع نفسه؛ يروي لنفسه أشياء ويصدّقها

Twitter: @ketab_n

بحيث يشتاط غضبًا من الشخص الذي ينتقده على تصديقها. فأرسل عندئذ بطلب توم توم، الذي أجابه:

«ليس لديّ أيّ نحاس».

«أين هو إذن؟».

«حيث قلتَ إنّك تريده أن يكون».

«أين أردته أن يكون متى؟».

«حين نزعت الصافرات من الصمّامات».

وروى هاركر:

«وهذا ما عذّبه. لم يجرؤ على طرد أيّ منهما كما ترى. وهكذا بات مضطرًّا أن يرى أحدهما طوال النهار كلّ يوم، وهو يعلم أنّ الآخر سيكون موجودًا طوال الليل كلّ يوم؛ أي أن يعلم أنّه طوال أربع وعشرين ساعة واحدٌ منهما سيكون موجودًا، يدفع لهما، يدفع بالساعة، لكي يعيشا نصف حياتهما هناك تحت ذلك الصهريج ومعهما أربع حمولات من النحاس الذي بات ينتمي له، لأنّه حصل عليه لا يستطيع المطالبة به لأنّه انتظر أكثر من اللازم.

«كان الوقت قد تأخّر بكلّ تأكيد. لكن مطلع السنة التالية كان قد تأخّر أكثر. فعند رأس السنة جرى تدقيق جديد في الحسابات؛ ومرّة جديدة عاد المفتّشان اللذان يضعان نظّارات طبّيّة إلى المحطّة

Twitter: @ketab_n

ودقّقا في السجلاّت وذهبا وعادا، ليس فقط مع كاتب البلديّة، بل أيضًا مع باك كونور، مع مذكّرة جلب ضدّ تورل وتوم توم. وها هما أمام سنوبس يهمهمان معتذرين مجدّدًا، يدفع واحدهما الآخر لكي يبادر إلى الكلام. قالا له إنّهما ارتكبا خطأً قبل عامين وبدلاً من ثلاثمائة دولار وأربعة دولارات واثنين وخمسين سنتًا كان المبلغ الناقص من النحاس هو خمسمائة وتسعة وعشرون دولارًا، ممّا يبقي مبلغًا صافيًا يفوق المائتين وعشرين دولارًا. وهناك كان باك كونور مع المذكّرة، جاهزًا لاعتقال تورل وتوم توم، حين علم أنّ كليهما الآن في غرفة المراجل يبدّلان نوبة العمل.

«إذن سنوبس دفع لهما. أخرج المال ودفع لهما مائتين وعشرين دولارًا وأخذ الإيصال. وبعد ساعتين صودف أن مررت بمكتبه. في البداية لم أرَ أحدًا، لأنّ الضوء كان مطفأً. فظننت أنّ اللمبة احترقت مثلما يحدث دائمًا. لكنّها لم تكن كذلك، بل كانت مطفأة. فقط قبل أن أشعلها رأيته جالسًا هناك. لذا لم أشعل الضوء. فقط خرجت وتركته جالسًا هناك، جالسًا بلا أيّ حراك.

VI

في ذلك الوقت كان سنوبس يعيش في منزل من طابق واحد

Twitter: @ketab_n

على طرف البلدة، وبعد ذلك بفترة قصيرة من رأس السنة تلك استقال من محطّة الكهرباء، ومع دفء الطقس وحلول الربيع صاروا يرونه غالبًا في فناء منزله الخالي من العشب والأشجار. كانت منطقة تضمّ منازل أخرى بائسة وصغيرة يسكن نصفها الزنوج. ولم يكن هذا بالوضع السارّ بالنسبة إليه. لكنّه مع ذلك صار يمضي الكثير من وقته هناك، جالسًا على الدرج، من دون أن يفعل شيئًا. وهكذا تساءلوا ما الذي يمكن أن يكون ينظر إليه هناك، ما دام ليس هناك من شيء يمكن أن يراه وراء الأشجار الكثيفة التي تظلّل المدينة، ما عدا الدخان المنخفض المنبعث من محطّة الكهرباء، وخزّان المياه. كانت اللّعنة قد حلّت عليه الآن أيضًا، إذ أصبحت المياه آسنة منذ نحو سنتين وأصبح للبلدة الآن خزّان جديد تحت الأرض. لكنّ الخزّان كان متينًا وكانت المياه ما تزال جيّدة لغسل الشوارع بها، فتركته البلديّة في مكانه، رافضة في إحدى المرّات عرضًا سخيًّا وإن غامضًا بشرائه وإزالته.

راحوا يتساءلون إذن ما الذي كان ينظر إليه سنوبس. لم يعرفوا أنّه كان يتأمّل نصبه التذكاري: ذلك الخزّان الأطول من أيّ شيء على مدّ النظر والمليء بالسائل الرمزي والزائل الذي لم يعد نافعًا حتى للشرب، لكنّ الذي، للسبب نفسه من العرضيّة، كان دائمًا عبر تدفّقه وتجدّده الأعمى أكثر ديمومة من النحاس الذي سمّمه، من أعمدة البازلت أو الرّصاص.

Twitter: @ketab_n

سبتمبر جافّ[1]

I

خلال الشفق الدامي في ذلك اليوم من سبتمبر، في اليوم الثاني والستّين من انحسار المطر، اشتعلت الشائعة، أو الحكاية، أو أيًّا يكن اسمها، مثل نار في الهشيم. كان بطلاها مسّ ميني كوبر ورجل زنجي. كلّ ما كانوا يعرفونه أنّه حصل اعتداء وإهانة وترهيب، لكن لم يكن هناك بين الرجال المجتمعين مساء ذلك اليوم في صالون الحلاقة الذي لا تبدّل مروحة السقف فيه الهواء الآسن، بقدر ما تعيد إليهم، في موجات مرتدّة من مراهم الشعر العطريّة والمستحضرات القديمة، أنفاسهم وروائحهم العفنة، من يعرف على وجه اليقين ما الذي جرى حقًّا.

وقالَ أحد الحلاّقين، وهو أربعينيّ نحيل، رمليّ الجلد، دمث الهيئة، كان يحلق لزبون:

---

(١) سبتمبر جافّ: يعتبر إدوار فولبي أن «هذه القصّة ترقى إلى الشعر بقدر ما ترقى الأرض الخراب لإليوت إلى السرد». رُفضت من ثلاث مجلاّت قبل أن تنشرها «سكريبنرز» عام ١٩٣١. وقد حوّل فوكنر عنوانها من «جفاف» إلى «سبتمبر جافّ». يضعها هانز سكي بين أفضل ١٢ قصة قصيرة لفوكنر.

Twitter: @ketab_n

«لكنّه ليس ويل مايز. أعرف ويل مايز حقّ المعرفة. إنّه زنجي طيّب. وأعرف مسّ ميني كوبر أيضًا».

سأله حلّاق ثانٍ: «ما الذي تعرفه عنها؟».

قال الزبون: «من هي؟ أهي يافعة؟».

«لا، إنّها في نحو الأربعين على ما أظنّ. ليست متزوّجة. لهذا لا أصدّق...».

عندئذ تدخّل شابّ ضخم يرتدي قميصًا حريريًّا مبقّعًا بالعرق:

«تصدّق ماذا... ألا تصدّق كلمة امرأة بيضاء أكثر من كلمة زنجي؟».

«لا أصدّق أنّ ويل مايز فعلَ ذلك، أنا أعرف الرجل جيّدًا».

«ربّما تعرف من الفاعل إذن. ربّما ساعدته على الفرار من البلدة، يا محبّ الزنوج اللعين».

«لا أصدّق أنّ أحدًا فعلَ أيّ شيء. لا أصدّق أنّ شيئًا قد حصل. فلتفكّروا في الأمر يا جماعة، أنتم تعرفون أنّ السيّدات اللواتي يتقدّم بهنّ السنّ ويبقين عوانس تتكوّن لديهنّ خيالات لا يستطيع الرجل...».

تململ الزبون تحت المئزر، ثم قال:

«أيّ رجل أبيض أنت!».

Twitter: @ketab_n

ثم اقترب منه الشابّ:

«وأنت؟ أتتّهم امرأة بيضاء بالكذب؟».

أبقى الحلاّق الموسى ثابتة فوق رأس الزبون الذي أخذ يهمّ بالقيام. لم ينظر حوله. واندفع شخص آخر من الحاضرين قائلاً:

«إنّه هذا الطقس اللعين، إنّه كافٍ لدفع الرجل لفعل أيّ شيء، حتى بعانس مثلها».

لم يضحك أحد. وقال الحلاّق بصوته الدمث العنيد:

«لستُ أتّهم أحدًا بأيّ شيء. لكنّني أعرف، وأنتم يا جماعة تعرفون، كيف أنّ امرأة لم تعرف قطّ...».

قاطعه الشابّ صارخًا:

«يا محبّ الزنوج اللعين».

وقال آخر: «صه يا باتش، سوف نعرف الحقيقة وسيكون أمامنا الكثير من الوقت لنتصرّف».

«من؟ من سيأتينا بالحقيقة؟ الحقائق اللعينة! أنا...».

تكلّم الزبون الذي بدا بلحيته الخفيفة أشبه بجرذ صحراوي في الصور المتحركة[1]، مخاطبًا الشابّ:

---

(١) شخصيّة رثّة من الشخصيّات التي كانت تظهر في بدايات الأفلام السينمائيّة.

Twitter: @ketab_n

«أنت شابّ أبيض جيّد، أليس كذلك؟ فلتقل لهم، وإذا لم يكن من رجال بيض في هذه البلدة فيمكنك الاعتماد عليّ، حتى وإن كنتُ مجرّد غريب وبائع جوّال...».

وقال الحلاّق:

«هذا صحيح يا جماعة، تبيّنوا الحقيقة أوّلاً. فأنا أعرف ويل مايز جيّدًا».

«ولكن بحقّ الله، كيف تحسب أنّ رجلاً أبيض في البلدة يمكن أن...».

وكرّر الآخر:

«صه يا باتش، أمامنا وقت كثير».

نهض الزبون في مقعده، ناظرًا إليه:

«أوتزعم أنّ هناك ما يبرّر لزنجي الاعتداء على امرأة بيضاء؟ ألَنت رجل أبيض وتقول مثل هذا الكلام؟ الأفضل لك أن تعود إلى الشمال من حيث جئت. الجنوب لا يرغب في أمثالك».

«عن أيّ شمال تتكلّم؟ لقد وُلدت ونشأت هنا».

راح الشابّ يتلفّت حوله بتوتّر وارتباك كأنّه يحاول أن يتذكّر ما الذي يريد قوله أو فعله. مسح العرق عن وجهه بكمّ قميصه، قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«يا إلهي... تبًّا إذا كنتُ سأسمح بأن تتعرّض امرأة بيضاء...».

وقال البائع الجوّال: «قل لهم يا جاك، وحقّ الله إذا هم...».

فُتح الباب الشبكي بعنف. ثم دخل أحدهم ووقف مباعدًا بين رجليه، موازنًا بسهولة جسده الضخم. كان قميصه الأبيض مفتوحًا عند الصدر، وتعلو رأسه قبّعة من اللبّاد. ومسح بنظرة حادّة جسورة وجوه الحاضرين. كان هذا ماك لندن. كان قائد فرقة عسكريّة على الجبهة الفرنسيّة وحصل على أوسمة البسالة. قال:

«إذن، هل ستكتفون بالجلوس هنا وتسمحون لولد أسود بأن يغتصب امرأة بيضاء في شوارع جيفرسون؟».

انتفض باتش واقفًا مجدّدًا، فضاق قميصه بمنكبيه العريضين. وكان ثمّة بقعتا عرق تحت إبطيه تشبه كلّ منهما نصف قمر معتم:

«هذا ما كنتُ أقوله لهم! هذا ما كنتُ...».

وتساءل ثالث:

«هل اغتُصبت حقًّا؟ فهذه ليست أوّل مرّة تفزع فيها من رجل مثلما يقول هوكشو. ألم تكن هناك قبل نحو سنة قصّة ما عن رجل رآها وهي تتعرّى في المطبخ؟».

انتفض الزبون في مقعده وهمّ ثانية بالوقوف:

Twitter: @ketab_n

«ماذا؟ ما هذا الكلام؟».

راح الحلاّق يعيده على مهل إلى الكرسي؛ جمّد نفسه في وضعيّة العودة إلى الكرسي، رافعًا رأسه، بينما راح الحلاّق يدفعه إلى الجلوس.

صرخ ماك لندن في المتكلّم الثالث:

«ما حدث؟ ما الفرق بحقّ الجحيم؟ هل سندع أولاد السود ينجون بفعلتهم حتى يحدث شيء كهذا حقًّا؟».

«هذا ما كنتُ أقوله لهم!»، صاح باتش. واسترسل في وابل من الشتائم غير المفهومة.

وقال رابع: «مهلاً مهلاً. ليس بهذا الصوت المرتفع. لا تتكلّم بصوت مرتفع».

وقال ماك لندن، وهو يقف متوازنًا على رجليه المتباعدتين، راصدًا الحاضرين بعينيه:

«بكلّ تأكيد، لا حاجة إلى الكلام على الإطلاق. لقد أنهيتُ كلامي. من منكم معي؟».

أبقى الحلاّق وجه البائع الجوّال إلى أسفل، والموسى معلّقة فوق رأسه:

«تبيّنوا حقيقة الأمر أوّلاً يا جماعة. أنا أعرف ويلي مايز

Twitter: @ketab_n

جيّدًا. ليس هو. فلنأتِ بالشريف ونقم بهذا بالشكل الصحيح».

واجهه ماك لندن بوجهه القاسي المحتدّ. لكنّ الحلاّق لم يشح بنظره. بَدَوا من عِرقين مختلفين. توقّف الحلاّقون الآخرون عن العمل. ثم خاطبه ماك لندن:

«أتقصد أنك تصدّق زنجيًّا وتكذّب امرأة بيضاء؟ يا لك من محبّ زنوج لعين...».

نهض المتكلّم الثالث، وكان مجنّدًا سابقًا هو الآخر، وأمسك ذراع ماك لندن، قائلاً:

«حسنًا، حسنًا. لنجد حلاًّ لهذا الأمر. من يعرف أيّ شيء عمّا حدث حقًّا؟».

أجابه ماك لندن وهو يحرّر ذراعيه:

«تبًّا للحلول، من هو معي فلينهض. أمّا من...». ورصدهم بنظراته، ماسحًا عرقه بكمّ قميصه.

وقف ثلاثة. انتصب البائع الجوّال في الكرسي وراح يحاول فكّ المئزر عن رقبته، قبل أن يصيح بالحلاّق:

«خلّصني من هذه الخرقة. أنا معه. لست من سكّان هذه البلدة. لكن بحقّ الله، إذا كانت زوجاتكم وأمّهاتكم وأخواتكم...».

رفع المئزر فوق رأسه ورماه أرضًا. ظلّ ماك لندن واقفًا

Twitter: @ketab_n

وشتم الآخرين. تقدّم آخر منه. أمّا الباقون فظلّوا في أماكنهم وقد اعتراهم شيء من الاضطراب، من دون أن يتبادلوا النظر، ثم نهضوا تباعًا وانضمّوا إليه.

رفع الحلاّق المئزر عن الأرض، وراح يطويه بعناية:

«لا تفعلوا هذا يا جماعة. ويل مايز لم يفعل هذا البتّة. أعرف ذلك».

«هيّا بنا»، قال ماك لندن، ثم استدار ناحية الباب، وقد برز من جيب وركه عقب مسدّس أوتوماتيكي ثقيل. خرجوا جميعًا، صافقين الباب الشبكي بعنف تردّد صداه في الهواء الجافّ.

مسح الحلاّق الموسى بعناية وسرعة، ووضعها جانبًا، وهرع إلى داخل الصالون، وجاء بقبّعته عن الجدار، قائلاً للحلاّقَين الآخرَين:

«لن أتأخّر، لا أستطيع أن أسمح...».

وخرج راكضًا. وتبعه الحلاّقان وأمسكا الباب قبل أن يُقفل، ومدّا رأسيهما إلى الخارج مستطلعَين الشارع في إثره. كان الهواء جامدًا وميتًا يترك في الحلق مذاقًا مرًّا.

قال الأوّل:

«ما الذي يستطيع فعله؟».

Twitter: @ketab_n

وقال الآخر بصوت مكتوم:

«يا إلهي، أيّها الربّ العزيز، سرعان ما سيكون مصير هوكشو مشابهًا لمصير ويل مايز لو أغضب ماك لندن».

تمتم الآخر: «يا إلهي، يا إلهي».

«أتظنّ أنّه فعل ذلك بها حقًّا؟».

II

كانت في الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين. تعيش في بيت خشبيّ صغير مع أمّ مقعدة، وخالة هزيلة وشاحبة وصعبة المراس. في صبيحة كلّ يوم، بين العاشرة والحادية عشرة، تخرج إلى الشرفة معتمرة قبّعتها الدانتيل، وتجلس على الكرسي الهزّاز حتى الظهر. بعد الغداء تستريح لبعض الوقت، حتى يبرد الطقس عصرًا. ثم ترتدي واحدًا من فساتينها الصيفيّة الجديدة التي تشتري ثلاثًا أو أربعًا منها كلّ عام، وتذهب إلى البلدة حيث تمضي الوقت متنقّلة بين المتاجر مع السيّدات الأخريات، متفرّجات على البضائع ومساومات حول الأسعار بأصوات باردة لحوحة، من دون أيّ نيّة في الشراء.

Twitter: @ketab_n

تنتمي إلى أسرة مرتاحة ماديًّا، ليست من أرقى أسر جيفرسون، لكن لا بأس بها؛ تحتفظ بقدر معقول من الجمال، وبمظهر وسلوك حياة نضرين إلى حدّ ما. في صباها كان جسدها نحيفًا مشدودًا وكانت تتمتع بقدر من الحيوية التي مكّنتها لفترة من الصعود إلى ذروة الحياة الاجتماعيّة في البلدة، من خلال الحفلات الثانويّة والمناسبات الاجتماعيّة التي تنظّمها الكنيسة مع أترابها اللواتي كنّ ما زلن صغيرات كفاية بحيث لا يدركن موقعهنّ الطبقي.

كانت آخر من يدرك أنّها بدأت تخسر؛ أنّها تقدّمت في السنّ وأنّ أولئك الذين مثّلت بينهم شعلة أكثر بروزًا وأعلى بقليل، بدأ الذكور منهم يتعلّمون متعة أن يكونوا أكثر انتقائيّة، والإناث أكثر أنيّة. عندها بدأ وجهها يكتسي ذلك المظهر الشرس الذي صارت تحمله إلى الحفلات التي تُقام على شرفات معتمة وحدائق صيفيّة، وترفعه مثل قناع أو راية، وبدأ يلوح في عينيها ذلك الذهول النابع من إنكار الحقيقة. وذات مساء سمعت في إحدى الحفلات شابًّا وصبيّة، كانا زميليها في الصفّ، يتكلّمان عنها. فما عادت تلبّي أيّ دعوات إلى الحفلات.

رأت الفتيات اللواتي كبرت معهنّ يتزوّجن ويصرن أمّهات وربّات منازل، ولم يتقدّم لخطبتها أحد، حتى صار أطفال الأخريات ينادونها «خالة» لسنوات عدّة، بينما تحكي لهم أمّهاتهم كم كانت الخالة ميني شعبيّة في صباها. ثم صارت البلدة تراها تقود سيّارتها

Twitter: @ketab_n

في عصريّات الأحد مع موظّف الصندوق في المصرف. كان أرمل في الأربعين تقريبًا ـــ رجل داكن البشرة تفوح منه دائمًا رائحة صالون الحلاقة أو الويسكي. كان أول من اقتنى سيّارة في البلدة، سيّارة رياضيّة. واعتمرت ميني أول قبّعة ذات ستارة خاصّة بالسيّارات رأتها البلدة. ثم بدأت النسوة في البلدة يقلن: «المسكينة ميني»، «لكنّها كبيرة بما فيه الكفاية لتعتني بنفسها»، قالت أخريات. وعندئذ بدأت تطلب من زميلاتها القديمات أن يناديها أطفالهنّ «ابنة العمّ» بدلاً من «الخالة».

انقضى اثنا عشر عامًا منذ أسقطتها عيون أهل البلدة إلى مرتبة الزنى، وثماني سنوات منذ انتقل عامل الصندوق إلى مصرف في ممفيس، حيث صار يعود ليوم واحد فقط كل كريسماس، يمضيه في حفلة عزّاب سنويّة في نادي صيد على ضفّة النهر. كانت جاراتها يشاهدن الحفلة من وراء ستائرهنّ، ويخبرنها عنها خلال زيارات نهار الكريسماس، وكم أنّه يبدو بحال جيّدة، وأنّهنّ سمعن عن ازدهاره الماديّ في المدينة، مراقبات خلسة وجهها المتورّد النحيف. عادة في تلك الساعة تفوح منها رائحة الويسكي التي كان يؤمّنها لها شابّ يعمل في محلّ المشروبات، وكان يجيب حين يُسأل عن ذلك:

«بالطبع أؤمّنها للفتاة العانس. أظنّ أنّه يحقّ لها ببعض المرح».

Twitter: @ketab_n

لم تعد أمّها تبرح غرفتها، أمّا شؤون البيت فباتـت تتولاّهـا الخالة الهزيلة. وهكذا كانت أيّام ميني الفارغة المتبطّلة وفساتينها الزاهية تتّخذ مسحة من اللاواقعيّة الحادّة. صـارت تخـرج فـي الأماسي مع نساء فقط، جارات لها، إلى السينما. عصر كل يـوم، تلبس واحدًا من فساتينها الجديدة وتذهب وحدها إلى وسـط البلـد، حيث «بنات عمّها» الشابّات يتمشّين عند الغروب برؤوسهنّ الأنيقة المكتسية بالحرير وأذرعهنّ الغريبة الرفيعة وأردافهـنّ الواعيـة، وهنّ يمشين في مجموعات أو يتصايحن ويقهقهن مع الشـبّان فـي متجر المشروبات حين تمرّ بواجهات المتاجر، أمام أبواب لم يعـد الرجال الجالسين عندها يلاحقونها بنظراتهم حتى.

III

هرع الحلاّق إلى آخر الشارع حيث الأضواء الخافتـة التـي احتشدت حولها الحشرات تومض بصورة خاطفة وبعنف في الهواء الجافّ، وقد دفن النهار تحت حجاب من الغبـار؛ فـوق السـاحة المظلمة المكفّنة بالغبار كانت السماء أشبه بقلب جـرس نحاسـي. ووراء خطّ الأفق كان ثمّة إحساس بأنّ القمر تضاعف حجمه.

حين وصل إليهم كان ماك لندن والثلاثة الآخـرون يهمّـون

Twitter: @ketab_n

بركوب سيّارة مركونة في زقاق. مدّ ماك لندن رأسه الضخم من نافذة السيّارة وقال:

«أغيّرت رأيك؟ عظيم، يا إلهي غدًا حين تسمع البلدة ما قلتَه اليوم...».

قال المجنّد السابق: «مهلاً، مهلاً، هوكشو لا بأس به، هيّا يا هوك اركب معنا».

فقال الحلاّق: «ويل مايز لم يفعل هذا البتّة يا جماعة، تعرفون جميعًا أنّه ليس من زنوج أفضل من زنوج بلدتنا. وتعرفون كيف يمكن أن تتوهّم سيّدة ما أمورًا عن الرجال حين لا يكون من سبب لذلك، ومسّ ميني على أيّ حال...».

أجابه المجنّد: «بالتأكيد بالتأكيد، سوف نتكلّم معه قليلاً. هذا كلّ ما في الأمر».

قال باتش: «ما هذا الكلام! حين ننتهي من هذا الـ...».

قاطعه المجنّد: «اخرس بحقّ الله، أتريد جميع من في البلدة أن...».

قال ماك لندن: «قل لهم بحقّ الربّ، قل لجميع الملاعين الذين يسمحون أن تتعرّض امرأة بيضاء...».

«فلنذهب، فلنذهب، ها هي السيّارة الأخرى».

Twitter: @ketab_n

خرجت السيّارة الثانية من غيمة غبار عند مدخل الزقاق. شغّل ماك لندن سيّارته وتقدّم المسير. كان الغبار يملأ الشوارع كالضباب ويلتفّ هالات حول مصابيح الشارع كما على صفحة ماء. اتّجهوا إلى خارج البلدة.

انعطفوا عند زاوية حادّة إلى مجاز يغمره الغبار أيضًا، مثلما يغمر الأرض كلّها. وقفوا قبالة المبنى المظلم لمعمل الجليد حيث يعمل الزنجي مايز حارسًا ليليًّا.

قال المجنّد: «يستحسن أن نركن هنا. أليس كذلك؟».

لم يردّ ماك لندن. بل أسرع بالسيّارة صعودًا وتوقّف فجأة، بينما المصباحان الأماميّان يشعّان على جدار.

قال الحلاّق: «اسمعوني يا جماعة، إذا وجدتموه هنا، أوليس هذا برهانًا على هذا أنّه ليس من فعلها؟ أليس كذلك؟ لو كان هو لكان هرب. ألا ترون أنّه كان ليهرب؟».

انطلقت السيّارة الثانية وتوقّفت وترجّل منها ماك لندن وتبعه باتش ووقف بجانبه.

قال الحلاّق: «اسمعوني يا جماعة».

قال ماك لندن: «أطفئوا الأضواء!».

كانت الظلمة تهبط بسرعة شديدة. لم يكن ثمّة صوت سوى

Twitter: @ketab_n

أصوات رئاتهم الباحثة عن الهواء في الغبار الجافّ الذي يعيشون فيه منذ شهرين؛ ثم الوقع القوي لأقدام ماك لندن وباتش، ثم بعد برهة صوت ماك لندن، مناديًا:

«ويل... ويل».

وراء خطّ الأفق استمرّ نزيف القمر. ارتفع فوق التلال، مسبغًا لونًا فضيًّا على الهواء المغبرّ بحيث بدوا يتنفّسون، أحياء، في حوض من الرصاص المصهور. اختفت أصوات الحشرات والطيور الليليّة، ولم يعد هناك سوى صوت تنفّسهم وصرير خافت سببه انكماش حديد السيّارات. وحين تلامست أجسادهم بدت تتعرّق دون عرق إذ لم يكن ثمّة أيّ رطوبة.

قال أحدهم: «يا إلهي، فلنذهب من هنا».

لكنّهم لم يتحرّكوا حتى بدأت أصوات غامضة تنبثق من العتمة أمامهم. ثم ترجّلوا من السيّارتين وشخصوا بتوتّر نحو العتمة المتفاقمة. كان ثمّة صوت آخر: صوت ضربة، أنفاس تتسارع مدمدمة وماك لندن يشتم بصوت مكتوم. وقفوا برهة أطول ثم ركضوا إلى الأمام. ركضوا بخطوات متعثّرة كما لو أنّهم يفرّون من شيء ما، «اقتلوه، اقتلوا اللّعين»، تمتم صوت، لكن ردّهم عنه ماك لندن، قائلاً:

«ليس هنا، ضعوه في السيّارة».

Twitter: @ketab_n

«اقتلوه، اقتلوا الزنجي اللّعين».

جرّوا الزنجي إلى السيّارة حيث يقف الحلاّق. شعر الأخير بنفسه يتعرّق وعرف بأنّه سيصاب بالغثيان.

قال الزنجي:

«ما الأمر يا سادة؟ أنا لم أفعل شيئًا، بحقّ الله يا مستر جون».

أخرج أحدهم أصفادًا. راحوا يتحرّكون بصورة محمومة حول الزنجي كأنه سارية علم، مرتطمين بعضهم ببعض. استسلم للأصفاد، وهو ينقل عينيه بسرعة من وجه إلى آخر، ثم اقترب منهم محاولاً أن يتبيّن وجوههم حتى أحسّوا بأنفاسه ورائحة عرقه:

«من أنتم أيّها السادة؟».

لفظ اسمًا أو اثنين:

«بمَ تتّهمونني يا مستر جون؟».

فتح ماك لندن باب السيّارة «اركب!». فلم يحرك الزنجي ساكنًا، «ما الذي ستفعلونه بي يا مستر جون؟ أنا لم أفعل شيئًا. أيّها الرفاق البيض، أيّها السادة، أنا لم أفعل شيئًا: أقسم بالربّ»، ونادى اسمًا آخر.

«اركب!»، قال ماك لندن. حُشر الزنجي داخل السيّارة.

Twitter: @ketab_n

وراح الآخرون يتنفّسون لهاثًا جافًا ويلكمونه عشوائيًا وهو يحاول تفادي ضرباتهم ويشتمهم ويضربهم بيديه المقيّدتين. وتلقّى الحلاّق لكمة على فمه، فساعد الآخرين على تثبيته، «أحضروه إلى هنا»، قال ماك لندن. وراحوا يدفعونه. كفّ أخيرًا عن المقاومة وركب السيّارة وجلس بصمت بينما اتّخذ الآخرون أماكنهم. جلس في الخلف بين الحلاّق والجندي، مكوّرًا جسده لكي لا يلمسهم، وعيناه تتنقلان بسرعة وثبات من وجه إلى آخر. أمّا باتش فتعلّق بعتبة السيّارة. وتحركوا. جفّف الحلاّق الدم عن فمه بمنديله.

سأله المجنّد: «ما الأمر يا هوك؟».

«لا شيء».

عادوا إلى الطريق السريع إلى خارج البلدة التي برزت لهم من الغبار. مضوا، يزيدون سرعتهم، بينما المنازل تختفي خلفهم.

قال المجنّد: «تبًّا، إنّه مقرف!».

قال البائع الجوّال الجالس في المقعد الأمامي قرب ماك لندن:

«حسنًا أصلح الأمر».

واقفًا على عتبة السيّارة، راح باتش يتشمّم الهواء الحارّ الذي يلفح وجهه. انحنى الحلاّق فجأة إلى الأمام ملامسًا ذراع ماك لندن:

«أنزلني يا جون».

Twitter: @ketab_n

أجابه الأخير من دون أن يلتفت نحوه:

«فلتقفز يا محبّ الزنوج».

مضى مسرعًا تشعّ خلفه من الغبار أنوار السيّارة الثانية. انعطف ماك لندن فجأة إلى مجاز ضيّق. كان وعرًا من قلّة الاستعمال يفضي إلى تنّور حجري مهجور؛ كناية عن سلسلة من الأخاديد الحمراء التي لا يبين عمقها وقد احتشدت بالعلّيق والنبات الشائك. وقد كانت تلك الرقعة من الأرض تستعمل للرعي في السابق حتى فقد مالكها فيها يومًا أحد بغاله. ومع أنّه بحث في الأخاديد بقضيب طويل فإنّه لم يستطع بلوغ عمقها.

قال الحلاّق: «جون».

أجابه ماك لندن وهو يمضي مسرعًا بالسيّارة فوق الأخاديد:

«فلتقفز إذن».

ثم تكلّم الزنجي الجالس بجانب الحلاّق: «مستر هنري».

مال الحلاّق إلى الأمام. كان المجاز الضيّق يمضي صعودًا، وكانت حركة السيّارة أشبه بانفجار أتّون خامد: أكثر برودًا، لكنّه ميّت كليًّا. راحت السيّارة تقفز من أخدود إلى آخر. كرّر الزنجي:

«مستر هنري».

Twitter: @ketab_n

راح الحلاّق يحاول بقوّة فتح الباب «انتبه هناك!»، صاح الزنجي، لكنّ الحلاّق كان قد فتح الباب وتعلّق بعتبة السيّارة. مال الجندي من فوق الزنجي وحاول الإمساك بالحلاّق، لكنّه كان قد قفز. مضت السيّارة من دون أن تخفّف سرعتها.

قفز على أكمة من الأشواك المغبرّة ومنها إلى قناة. غمره الغبار، ووسط طقطقة العشب الجافّ تمدّد هناك مختنقًا بالغبار، آخذًا في السعال، حتى مرّت السيّارة الثانية ثم اختفى صوتها. ثم نهض وراح يعرج حتى وصل إلى الشارع العامّ وعاد أعقابه إلى البلدة، نافضًا الغبار عن ثيابه. كان القمر قد صار أكثر ارتفاعًا، وتخلّص أخيرًا من الغبار. مضى، يعرج. ثم سمع أصوات سيّارات ورأى ومضها في الغبار يزداد وضوحًا وراءه فحادَ عن الطريق وجثم بين الأعشاب الضارية حتى مرّت السيّارات. سيّارة ماك لندن كانت الثانية هذه المرّة. كان ثمّة أربعة في داخلها ولم يكن باتش واقفًا على عتبة السيّارة.

ابتعدوا: ابتلعهم الغبار. وظلّت غيمة الغبار التي أثاروها خلفهم معلّقة لفترة في الهواء، لكن سرعان ما امتصّها الغبار الأبدي مجدّدًا. عاد الحلاّق مجدّدًا إلى الطريق، وعاد يعرج إلى البلدة.

Twitter: @ketab_n

IV

بينما ارتدت ملابسها للعشاء مساء يوم السبت ذاك، شعرت بجلدها حارًا كأنّها مصابة بالحمّى. أخذت يداها ترتعشان بين العرى والأبازيم، واحمرّت عيناها، وراح شعرها الأجعد يطقطق تحت المشط. زارتها صديقاتها وجلسن معها بينما هي ترتدي ملابسها وتعتمر قبّعتها الحريريّة. سألنها، وعيونهنّ تلتمع أيضًا بوميض قاتم:

«أتشعرين بقوّة كافية للخروج؟ بعد أن تتجاوزي الصدمة، يجب أن تخبرينا ما الذي حدث معك، ما الذي قاله وفعله، كلّ شيء».

في العتمة الدامسة، في طريقهنّ إلى ساحة البلدة، بدأت تتنفّس بعمق، مثل سبّاح يتحضّر للغطس، حتى كفّت عن الارتعاش، ورحن، الأربع، يمشين ببطء بسبب القيظ الرهيب والحرص الشديد عليها. لكن مع اقترابهنّ من ساحة البلدة عاودتها الرعشة. مشت رافعة رأسها، شادّة يديها على جانبيها، وأصوات رفيقاتها المدمدمة تشبه الوميض المحموم في عيونهنّ.

دخلن إلى الساحة، وهي في وسطهنّ، رقيقة في فستانها الجديد. ازداد ارتعاشها. أبطأت مشيتها أكثر فأكثر مثلما يتناول

Twitter: @ketab_n

الأطفال الآيس كريم، رأسها مرفوع، وعيناها متوهّجتان، وهي تمرّ بالفندق وبالباعة الجوّالين المنتشرين بلا معاطف على طول الرصيف: «هذه هي: أرأيت؟ صاحبة الفستان الزهري في الوسط»، «أهذه هي؟ ماذا فعلوا بالزنجي؟ هل...». «بالتأكيد. إنّه على ما يرام». «أهو على ما يرام؟ حقًّا؟»، «بالتأكيد. لقد أخذوه في نزهة قصيرة». ثم مرّت بالصيدليّة، فسارع الشبّان الواقفون بالباب إلى رفع قبّعاتهم في التحيّة متتبّعين حركة ردفيها وساقيها.

مضين في طريقهنّ، بينما السادة يرفعون قبّعاتهم، ويتوقّفون عن التكلّم فجأة بنوع من الحماية والمراعاة. «أترين؟»، قالت الصديقات. بدت أصواتهنّ تنهّدات طويلة وهي تتمتم:

«ليس من زنجي واحد في الساحة. ولا واحد».

وصلن إلى صالة السينما. كانت أشبه ببلد خرافات مصغّر ببهوها المشعّ وملصقات الأفلام الملوّنة التي تمثّل الحياة في محاكاتها الرهيبة والرائعة. بدأت تستشعر وخزًا في شفتيها. في العتمة، حين يبدأ الفيلم، ستكون على ما يرام، وستتمكّن من كتم ضحكها حتى لا يفلت منها فجأة. فسبقت رفيقاتها المتلفّتات الهاذرات بأصواتهنّ الخفيضة المذهولة، واتّخذت مقعدها المعتاد حيث يمكنها رؤية الممرّ قبالة الومض الفضّي والشبّان والشابّات الذين يدخلون أزواجًا.

Twitter: @ketab_n

خفتت الأضواء. لمعت الشاشة باللّون الفضّي، وسرعان ما بدأت الحياة تتكشّف، رائعة وشغوفة وحزينة، بينما استمرّ الشبّان والشابّات بالدخول معطّرين وهامسين في العتمة الخفيفة، ظلال ظهورهم المزدوجة رقيقة وصقيلة، أجسادهم النحيلة والسريعة تبدو غريبة، متسامية في شبابها بينما وراءها يتراكم متدفقًا وحتميًا حلم الشاشة الفضّي. بدأت تضحك، وإذ حاولت كبت ضحكتها أثارت جلبة أكبر بكثير؛ بدأت الرؤوس بالتلفّت. واصلت الضحك، فساعدتها صديقاتها على النهوض وقدنها إلى الخارج. وقفت على الرصيف وهي تضحك بصوت عال متقطّع، حتى وصلت سيّارة الأجرة وساعدنها على الركوب.

نضين عنها الفستان الزهر والملابس الداخليّة والجوربين، ووضعنها في السرير، وكسرن الثلج ووضعنه على صدغيها، وأرسلن بطلب الطبيب، لكنّه لم يكن موجودًا فرحن يعتنين بها بكلمات مسكّنة، مجدّدات الثلج من حين لآخر. تحت الثلج البارد المنعش توقّفت عن الضحك وتمدّدت ساكنة لمدّة، متأوّهة قليلاً فقط. لكن سرعان ما علا الضحك مجدّدًا واستحال صوتها صراخًا.

«هش! هش»، رحن يقلن لها، مجدّدات الثلج، ممسّدات على شعرها، فاحصات إيّاه بحثًا عن الشعر الأبيض، «المسكينة». ثم قالت واحدة لأخرى: «أتحسبين أنّ شيئًا ما قد حدث فعلاً؟»، وعيونهنّ تومض قاتمة، سرّيّة وشغوفة «هش! يا للمسكينة! يا للمسكينة ميني».

Twitter: @ketab_n

V

منتصف اللّيل عاد ماك لندن بسـيّارته إلـى منزلـه الجديـد الجميل. كان منزلاً صغيرًا جديدًا مثل قفـص عصـفور، بطلائـه النظيف الأخضر والأبيض. أقفل السيّارة وصعد إلى الشرفة ودخل إلى المنزل. نهضت زوجته عن كرسيّها قرب مصـباح القـراءة. وقف ماك لندن يحملق بها حتى أخفضت نظرها. ثم قال وهو يرفع ذراعه مؤشّرًا:

«انظري كم الساعة».

وقفت قبالته، خافضة وجهها، تحمل مجلّة. كان وجهها شاحبًا مجهدًا، ويعلوه شيء من الغرابة:

«ألم أحذّرك من البقاء مستيقظة هكذا بانتظار عودتي؟».

«جون».

وضعت المجلّة من يدها. واقفًا على أطراف أصابعه، حـدّق بها بعينيه الثاقبتين ووجهه المتعرّق.

«ألم أحذّرك؟».

واتّجه إليها. نظرت إليه عندها. أمسكها من كتفيهـا. وقفـت منفعلة، تنظر إليه.

Twitter: @ketab_n

«لا تفعل يا جون. لم أستطع النوم... إنّه القيظ... أرجوك يا جون إنك تؤلمني».

«ألم أحذرك؟».

رماها فانطرحت جزئيًّا على السرير ومكثت هناك تنظر إليه بصمت بينما غادر الغرفة.

مشى في البيت، خالعًا قميصه، وفي الشرفة الخلفيّة المعتمة وقف ومسح رأسه وكتفيه بالقميص ورماه بعيدًا. سحب المسدّس من خاصرته ووضعه على نضد السرير، ثم جلس على الفراش وخلع حذاءيه، ثم نهض وخلع سرواله. كان قد تعرّق ثانية، فانحنى بحثًا عن القميص. أخيرًا عثر عليه ومسح جسده مجددًا، ثم ضغط بجسده على باب الشرفة المغبرّ، ووقف يلهث. لم يكن هناك حركة، ولا صوت، ولا حتى صوت حشرة. بدا العالم المعتم ممدّدًا تحت القمر البارد المنهك والنجوم المتلألئة.

Twitter: @ketab_n

لعبةُ الموت[1]

I

ظهرَت في سماء بلدتنا بفجائيّة شبح تقريبًا. كانت تحلّق بسرعة؛ وما كدنا نراها حتى كانت قد بلغت ذروة تحليقها الدائري في الهواء وهي لا تزال بعد فوق ساحة بلدتنا، منتهكة القوانين المحلِّيَّة والفدراليّة معًا. ولم يكن بالتحليق الدائري المتقن حتى، فقد نُفّذ برداءة ورثاثة وبسرعة قصوى، كأنّ الطيّار كان مضطربًا جدًّا أو مستعجلاً جدًّا، أو (وهذا غريب: ثمّة في بلدتنا طيّار حربي سابق، كان خارجًا من مكتب البريد حين ظهرت الطائرة متّجهة جنوبًا، فرأى الدوران العجول والرديء وكان تعليقه كالآتي) كأنّما الطيّار يحاول القيام بمناورة بالحدّ الأدنى توفيرًا للوقود. فقد ظلّ

(١) لعبة الموت Death Drag: يكتب فوكنر في مراجعته لقصّة «طيّار الاختبار» عام ١٩٥٣ أنّ هناك شيئًا غير طبيعي، بل غير بشريّ، في الطيّارين الذين يقومون بالسباقات، ولذلك فإنّهم أقرب إلى عرق جديد من البشر سوف يولّدون فولكلورهم الشعبي الخاصّ. يمكن اعتبار هذه القصّة وغيرها من قصص فوكنر حول الطيّارين مساهمة فوكنر في صناعة هذا الفولكلور. كتبها عام ١٩٣٠ ورُفضت من قبل ستّ مجلّات حتى نشرتها «سكريبنر» عام ١٩٣٢. ينتقد فوكنر من قبل البعض في هذه القصّة على تصويره اليهودي كشخص جشع محبّ للمال.

Twitter: @ketab_n

أحد جناحي الطائرة مائلاً إلى الأسفل عند ذروة الالتفاف كأنّها بصدد القيام بـ «مناورة إيملمان»[1]. ثم انعطفت بصورة نصفيّة، وأتمّت ثلاثة أرباع الدائرة، ومن دون أيّ توقّف، وبأقصى سرعة، وبالفجائيّة الشبحيّة نفسها، اختفت شرقًا باتّجاه مدرج مطارنا.

حين وصل أول الصبية إلى الحقل، وجد الطائرة مركونة في ركن سياج عند طرف الحقل. لم يكن ثمّة أحد فيها أو حولها ولا صوت يصدر منها. كانت جاثمة هناك، فارغة وصامتة، مرقّعة ورثّة تكسوها طبقة هزيلة من الطلاء الأسود. فتولّد لدى الناظر إليها على حالها هذه الإحساس مجدّدًا بالشبحيّة، كأنّها ارتفعت في كبد السماء وحلّقت دائريًّا ثم حطّت بمفردها.

ما زال حقلنا في حال بدائيّة. وإذ تقع بلدتنا فوق التلال، فقد قمنا بتسوية الحقل المليء بالتعرّجات والأثلام، والذي تبلغ مساحته أربعين فدّانًا كانت في ما مضى مزروعة بالقطن، وقمنا بتمهيده وسدّ الفجوات فيه، وبنينا فوقه مدرجًا يتّخذ شكل حرف «إكس» يمتدّ بمواجهة الرّياح العاتية. المدرج بحدّ ذاته طويل بما فيه الكفاية، أمّا الحقل، مثل بلدتنا، فيسيطر عليه رجال كانوا في

---

[1] مناورة إيملمان Immelmann Turn: على اسم الطيّار الألماني الحربي ماكس إيملمان الذي اشتهر خلال الحرب العالميّة الأولى بابتداعها. وهي تقوم على القيام بنصف دوران بالطائرة ثم التحليق بها بصورة مستقيمة بحيث تصبح في الاتّجاه المعاكس تمامًا لاتّجاهها الأول.

Twitter: @ketab_n

الأربعين حين بدأ الشبّان بالطيران، لذا فالفسحة المخصّصة للهبوط ليست بالجيّدة دومًا. فيحيط بها من جانب أيكة رفض صاحبها إزالتها، ومن الجانب الآخر مزرعة وأكواخ وبيوت وحظيرة طويلة مهترئة السقف، وكومة تبن كبيرة. كانت الطائرة جاثمة عند زاوية السياج في جوار الحظيرة. ترجّل بضعة فتيان وزنجي أو اثنان ورجل أبيض من السيّارة التي توقّفت على الطريق، ووقفوا يتأمّلون الطائرة بوجوم حين برزَ فجأة، من زاوية الحظيرة، رجلان يعتمر كلٌّ منهما خوذة ونظّارات رُفعت إلى جبينه. كان الأول طويلاً في بزّة قذرة، والثاني شديد القصر، يلبس سروالاً قصيرًا مزموم الساقين برفادتين، ومعطفًا قذرًا ضاقَ على جسمه حتى كأنّه تبلّل وهو يرتديه فانكمش عليه. وكان ذا عرجة واضحة.

وقفا عند زاوية الحظيرة. ومن دون أن يبدو أنّهما التفتا بالكامل بدا أنّهما استوعبا المشهد برمّته في لمح النظر. ثم بادرهم الرجل الطويل:

«ما اسم هذه البلدة؟».

فأخبره أحد الصبية بالاسم.

«ومن يعيش هنا؟».

كرّر الصبيّ: «من يعيش هنا؟».

«من يملك هذا الحقل؟ أهو ملكيّة خاصّة؟».

Twitter: @ketab_n

«أوه. إنّه ملك رجال البلدة. هم المسؤولون عنه».

«أيعيشون جميعًا هنا؟ أولئك المسؤولون عنه؟».

وقف الرجل الأبيض والزنجيان والصبية شاخصين نحو الرجل الطويل، حتى قال:

«أعني هل ثمّة في هذه البلدة من يمارس الطيران؟ من يملك طائرة؟ أمن غرباء يمارسون الطيران هنا؟».

أجابه الصبيّ: «أجل، ثمّة رجل يعيش هنا كان طيّارًا مع الجيش الإنجليزي خلال الحرب».

وأضاف صبيّ آخر: «الكابتن وارن كان في كتيبة الطيران الملكي».

قال الصبيّ الأول: «هذا ما قلته».

فأجابه الثاني: «أنت قلتَ الجيش الإنجليزي».

عندها تكلّم الرجل الثاني، القصير الأعرج، مخاطبًا الرجل الطويل، بصوت منخفض وفاتر على طريقة وبر وفيلدز[1] في المسرح الهزلي، لافظًا الواو فاء، والذال دالاً: «مادا يعني هادا؟».

قال له الطويل: «لا عليك». ومشى إلى الأمام. «أظنّ أنني

---

(١) وبر وفيلدز Weber and Fields أو مايك وماير مثلما تعرف شخصيّاتهما التمثيليّتان: ممثّلان هزليان عرفا شهرة واسعة في نهاية القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

Twitter: @ketab_n

أعرفه». تبعه الرجل القصير، يعرج بصورة رهيبة تجعله أشبه بالسلطعون. كان وجه الرجل الطويل ناتئ العظام، تكسوه لحية لا تتجاوز اليومين طولاً. بدت مقلتا عينيه قذرتين أيضًا تنمّان عن التوتّر والإجهاد. وكان يعتمر خوذة متّسخة من القماش الرثّ المهلهل، رغم أنّنا كنّا في يناير. وكانت نظّارتاه قديمتين لكن حتى نحن عرفنا أنهما من النوع الجيّد. لاحقًا تحولت أنظارنا نحو القصير؛ حين رأيناه، نحن الأكبر سنًّا، قلنا في أنفسنا إنّه صاحب الوجه الأشدّ مأساويّة الذي نراه في حياتنا؛ فهو ينضح يأسًا غاضبًا وقاطعًا ونهائيًّا، كأنّه وجه رجل يحمل، بملء اختياره، قنبلة قابلة، في ساعة محدّدة من كلّ يوم، لأن تنفجر أو لئلاّ تنفجر. أمّا أنفه فغير متناسب في ضخامته مع رجل لا يتجاوز طوله ستّة أقدام. فالجزء الأعلى من رأسه، مثلما يبدو في الخوذة الضيّقة، وصولاً إلى طرف أنفه، يناسب جسمًا من ستّة أقدام. أمّا تحت ذلك، تحت خطّ عرضي يشطر رأسه من نهاية أنفه إلى قفا جمجمته، وفكّه، وبقيّة وجهه، فلم يكن يتجاوز الإنشين عمقًا. كان فكّه كناية عن خطّ طويل مسطّح أشبه بفكّ حوت، بحيث يكاد رأس أنفه يلامس طرف فكّه. أمّا نظّارتاه فليستا أكثر من زجاج نافذة وضع في إطار. وكانت خوذته من الجلد. ومن الخلف، ممتدًّا من أعلى حاشية القبّعة، كان ثمّة مزق طويل، رُفي بالطول بلصوق لزج أسوَدّ من الأوساخ والدهون.

Twitter: @ketab_n

ثم برزَ من زاوية الحظيرة رجل ثالث، كان مفاجئًا كذلك في مثوله أمامنا، كأنّه تجسّد هناك من الهواء الرفيع، وإن كان قد بدأ يتحرّك باتّجاهنا حين رأيناه. كان يرتدي معطفًا فوق بزّة مدنيّة أنيقة، ويعتمر قبّعة. كان أطول بقليل من الأعرج، وعريضًا، ضخم البنية. وكان وسيمًا على نحو أبكم أبله. ويبدو من سيمائه أنّه ليس بكثير الكلام. وحين اقترب أدرك الواقفون هناك أنّه، على غرار الأعرج، يهودي. ذلك أنّهم علموا فورًا أنّ هذين الرجلين ينتميان إلى عِرق يختلف عن عِرقهم. وقد كشف الفتى الذي تكلّم أوّلاً في ما قاله تاليًا ما حسبوه الفرق بين العرقين. هو، كالفتية الآخرين، كان شاخصًا نحو ذي العرجة، وسأله:

«أكنتَ في الحرب؟ في الحرب الجويّة؟».

لم يجبه الأعرج. هو والطويل كانا شاخصين نحو البوّابة. نظر الآخرون أيضًا ورأوا سيّارة تعبر البوّابة. ترجّل منها ثلاثة رجال اقتربوا منهم. مجدّدًا خاطب الأعرج، بصوت منخفض، الرجل الطويل: «أهذا هو؟».

أجابه الطويل: «لا»، من دون أن يلتفت نحوه. جعل ينقّل نظره بين وجوههم. ثم خاطب الأكبر بينهم:

«عمت صباحًا، ألنت المسؤول عن هذا الحقل؟».

«لا، من تطلبه هو سكرتير جمعيّة المزارعين. إنّه في البلدة».

Twitter: @ketab_n

«أهناك من رسمٍ ما ينبغي دفعه لقاء استعماله؟».

«لا أعرف. أظنّ أنّهم سيكونون مسرورين باستعمالك له».

فقال له الأعرج:

«اذهب وادفع لهم».

نظر الثلاثة إلى الطائرة وقد علت وجوههم مسحة من الجهل الممزوج بالرهبة. كانت جاثمة إلى الخلف على عجلاتها الموحلة، ومروحتها جامدة ثابتة توحي بالديناميكيّة والتوازن. أمّا مقدّمها حيث المحرّك فهو ضخم، والجناحان مهلهلان، وبدنها ملطّخ بخيوط من الوقود خلف العوادم الصدئة. سألهما الأكبر:

«أتنويان العمل هنا؟».

فأجابه الطويل:

«سنقدّم لكم عرضًا».

«أيّ عرض؟».

«كلّ ما ترغبون به. السير على الجناح، لعبة الموت».

«وما هي لعبة الموت هذه؟».

«هي كناية عن رمي رجل من الطائرة على سطح سيّارة ثم رفعه ثانية. وكلّما كثر الجمهور شاهدتم المزيد من المجازفات».

Twitter: @ketab_n

وأضاف الأعرج: «ستحصلون على مقابل جيّد لأموالكم».

كان الصبية ما زالوا شاخصين نحوه، وسأله الأول: «هل شاركتَ في الحرب؟».

لم يكن الغريب الثالث قد تكلّم حتى اللحظة. فقال: «لنذهب إلى البلدة».

«صحيح»، قال الطويل بشكل اعتيادي بصوته المسطّح الفاتر، الصوت نفسه الذي بدا أنّ الغرباء الثلاثة يتكلّمون به، كأنّه لغتهم المشتركة:

«أين نستطيع استئجار سيّارة؟ ألديكم واحدة في البلدة؟».

«سنقلّكم إلى البلدة».

قال ذو العرجة: «سندفع الأجرة».

قال سائق السيّارة: «يسرّني إيصالكم، لن أتقاضى منكم أجرة. أتودّون الذهاب الآن؟».

أجاب الطويل: «بكلّ تأكيد».

صعد الغرباء الثلاثة إلى المقعد الخلفي، وجلس الثلاثة الآخرون في المقعد الأمامي. وتبعهم ثلاثة من الفتيان إلى السيّارة. قال أحدهم: «أتسمح لي بأن أتشبّث بالسيّارة إلى البلدة يا مستر بلاك؟».

Twitter: @ketab_n

أجاب السائق: «حسنًا».

وقف الفتيان الثلاثة على عتبتي السيّارة. الرجال الثلاثة الجالسون في المقعد الأمامي كانوا يسمعون الغرباء الثلاثة يتكلّمون خلفهم بأصوات خفيضة باردة وعلى نحو ما هادئة وملحاحة في آن، مناقشين أمرًا ما، وقد تولّى الطويل والوسيم معظم الحديث. أمّا الأعرج فلم يسمعوا منه سوى عبارة واحدة: «لن أقبل بأقلّ من ذلك...».

أجابه الطويل: «بكلّ تأكيد». ومال إلى الأمام رافعًا صوته قليلاً: «أين يمكنني أن أجد جونز هذا، هذا السكرتير؟».

أخبره السائق.

«هل المطبعة أو الصحيفة قريبة؟ أريد طباعة بعض المنشورات».

«سأدلّك عليها، سأساعدك على تدبير المسائل».

«حسن، تعال عصر اليوم وسأمنحك نزهة بالطائرة إذا تسنّى لي الوقت».

توقّفت السيّارة أمام مكتب الصحيفة، فقال له السائق: «يمكنك طباعة منشوراتك هنا».

«جيّد، أيقع مكتب جونز في هذا الشارع؟».

«سآخذكم إليه أيضًا».

قال الطويل: «اذهب أنت وقابل المحرّر وأظنّ أنّني أستطيع العثور على جونز».

ترجّلوا من السيّارة. قال الطويل: «سأعود إلى هنا»، وانطلق مسرعًا في الشارع، ببزّته وخوذته القذرتين. كان رجلان آخران قد انضمّا إلى المجموعة قبل الدخول إلى مكتب الصحيفة. فدخلوا جميعًا، وفي طليعتهم الرجل الأعرج، يتبعه الصبية الثلاثة. قال الأعرج مخاطبًا المحرّر:

«أريد بعض المنشورات، مثل هذه».

وأخرج من جيبه ورقة مطويّة زهريّة اللون وفتحها. مال المحرّر والفتية والرجال الخمسة فوقها. كانت الأحرف عريضة بالبنط الأسود:

ديمون دانكن

أسد السماوات

عرض يتحدّى الموت سيقدّم برعاية...

اليوم عند الساعة الثانية بعد الظهر

تعالوا فرادى ووحدانًا لرؤية دانكن يتحدّى الموت في لعبة سقطة الموت

Twitter: @ketab_n

ثم قال الأعرج: «أريد هذ المنشورات جاهزة في غضون ساعة».

فسأله المحرّر: «ماذا تريد أن تضع في هذه المساحة الفارغة، بعد كلمة برعاية...».

«ماذا لديكم في هذه البلدة؟».

«ماذا لدينا؟».

«أيّ مؤسّسات راعية؟ الرابطة الأميركيّة؟ روتاري؟ غرفة التجارة؟».

«كلّها هنا».

«سأخبرك إذن أيًّا منها تضع في المساحة الفارغة بعد قليل إذن، حين يعود شريكي».

«يجب أن تحصل على ضمانة قبل أن تقدّم العرض».

«بكلّ تأكيد. أتظنّ أنّني أقدّم عرضًا جهنّميًّا كهذا من دون رعاة؟ أتحسب أنّني قد أقفز من الطائرة لقاء نيكل؟».

«من الذي سيقوم بالقفزة؟»، سأل أحد الملتحقين بالجمع؛ كان سائق سيّارة الأجرة.

حدجه الأعرج: «لا تشغل بالك بهذا، مهمّتكم أن تدفعوا

Twitter: @ketab_n

الأجرة فحسب. ونحن نقوم بالقفز الـذي تريدونـه إذا مـا دفعـتم كفاية».

«كلّ ما سألته هو من منكم سيقوم بالقفزة».

«وهل سألتك إذا كنتم ستدفعون لـي بالفضّـة أم بـالأوراق الخضراء؟ هل سألتكم ذلك؟».

«لا».

قال المحرّر: «بخصوص هذه المنشورات، قلت إنّك تريـدها في غضون ساعة».

«ألا يمكنك المباشرة بطباعتها وترك تلك المسـاحة فارغـة حتى يأتي شريكي؟».

«وافترض أنّه لم يصل قبل انتهائها؟».

«حسنًا، لن يكون هذا خطأي، أليس كذلك؟».

«على كلّ حال ستدفع كلفتها».

«أتعني أنّه يجدر بي أن أدفع كلفتها من دون وجـود رعـاة عليها».

«لا أقوم بهذا العمل بهدف التسلية».

قال الأعرج: «سننتظر إذن».

Twitter: @ketab_n

وانتظروا.

سأله الصبيّ: «أكنتَ طيّارًا خلال الحرب أيّها السيّد؟».

التفت الأعرج بوجهه المأساوي نحو الفتى: «الحرب؟ ولماذا أكون قد طرتُ خلال الحرب؟».

«ظننت أنّه ربّما بسبب رجلك. الكابتن وارن يعرج وهو كان طيّارًا خلال الحرب. لكن أحسب أنّك قمت بذلك فقط في سبيل المرح؟».

«في سبيل المرح؟ أطير؟ بارك الربّ فيك. أنا أكره الطائرات. لو كان الرجل الذي اخترعها حاضرًا هنا، لكنتُ أدخلته في هذه الآلة وطبعت على ظهره: لا تفعلها، ألف مرّة».

فسأله الرجل الذي دخل مع السائق: «لماذا تقوم بذلك إذن؟».

«بسبب ذلك الجمهوري كوليدج[1]. كانت الأعمال على ما يرام وأفسدها كوليدج. هذا هو السبب. المرح؟ بارك الربّ فيك».

راحوا يحملقون به، وسأله آخر: «أحسبُ أنّك تملك رخصة؟».

---

(١) كالفن كوليدج Calvin Coolidg: الرئيس الثلاثون للولايات المتّحدة الأميركيّة. رغم أنّه رفض الترشح لفترة رئاسيّة ثانية عام ١٩٢٨ فإنّ كثرًا - يحمّلون سياسته الاقتصاديّة المسؤوليّة عن «الكساد الكبير» الذي وقعت فيه البلاد في العام ١٩٢٩.

Twitter: @ketab_n

تفرّس به الأعرج: «رخصة؟».

«أوَلا تحتاج إلى رخصة لممارسة الطيران؟».

«أوه، رخصة. لكي تحلّق الطائرة، بالتأكيد فهمت عليك. بالتأكيد لدينا رخصة. أترغب في رؤيتها؟».

«أين هي؟».

«حيث ينبغي أن تكون. إنّها ملصقة بالطائرة حيث وضعتها الحكومة. أوَتَظنّها ملصقة بي ربّما؟ أتظنّ أنّ ثمّة محرّكًا فيّ، وربّما جناحين؟ إنّها على الطائرة. اطلب سيّارة أجرة واذهب إلى الطائرة وتأكّد منها».

قال السائق: «أنا لديّ سيّارة أجرة».

«حسنًا خذ هذا السيّد إذن إلى ذلك الحقل حيث يمكنه رؤية الرخصة على الطائرة».

قال السائق: «سيكلّف ذلك ربع دولار».

لكنّ الأعرج لم يكن ينظر إليه. كان منحنيًا فوق النضد. ظلّوا شاخصين نحوه وهو يخرج من جيبه قطعة لبان ويقشّر غلافها، ثم يضعها في فمه. وقال السائق:

«قلتُ إنّ الأجرة هي ربع دولار أيّها السيّد».

«أكنتَ تكلّمني؟».

Twitter: @ketab_n

«حسبتك تريد سيّارة توصلك إلى المدرج».

«أنا؟ لأيّ غرض؟ ولماذا قد أرغب في الذهاب إلى المدرّج. لستُ من يريد رؤية تلك الرخصة. لقد رأيتها سلفًا. كنتُ هناك حين دمغتها الحكومة على الطائرة».

II

كان الكابتن وارن، الطيّار الحربي السابق، خارجًا من المتجر، حين التقى الرجل الطويل ذا البزّة المتّسخة. وقد حكى لنا الكابتن وارن قصّة هذا اللقاء عند الحلاّق ذلك المساء، بعد رحيل الطائرة:

«كانت آخر مرّة رأيته فيها قبل أربعة عشر عامًا، منذ غادرت إنجلترا إلى الجبهة عام ١٩١٧، فبادرته: إذًا كنتَ أنت من قمت بذلك التحليق الدائري مع راكبين آخرين بمحرّك الهيسو موديل ١٩٢٠؟[١]».

---

(١) تجري أحداث القصّة كما يتّضح من العبارة السابقة عام ١٩٣١، أي بعد نحو أحد عشر عامًا على خروج الطائرة الحربيّة الأميركيّة المسمّاة «جيني» المشار إليها أعلاه من أسطول الطيران الحربي. لكنّها تحوّلت إلى الطائرة الأساسيّة للقيام بالمجازفات وكانت وراء ازدهار شعبيّة الطيران في أميركا.

Twitter: @ketab_n

«فسألني: من غيرك رآني؟ ثم أخبرني عن الأمر، واقفًا هناك، متلفتًا خلفه من حين لآخر. كان يبدو عليه الاعتلال؛ وقف رجل وراءه لكي يسمح لسيّدتين بالمرور، فالتفت جوك بعنف كأنّه بصدد إطلاق الرصاص على الرجل لو كان يحمل سلاحًا، وبينما كنّا في المقهى صفق أحدهم الباب في الخلف، وحسبت أنّه سيخرج من ثيابه الرثّة من شدّة فزعه، وقال لي: إنّها مشكلة أعصاب صغيرة أعاني منها، لكنّني على ما يرام. حاولتُ دعوته إلى بيتي لتناول الغداء، لكنّه رفض. قال إنّ عليه أن يأكل فورًا. كنّا قد انطلقنا في الشارع ومررنا بالمطعم وإذا به يهتف: سأدخل لآكل، وهرع إلى المطعم بسرعة أرنب وجلس موليًا ظهره للجدار وطلب من فيرنون أن يجلب له أسرع وجبة ممكنة. شرب ثلاثة أكواب من المياه ثم جلب له فيرنون زجاجة حليب كاملة شرب معظمها قبل أن يَحضر الطعام من المطبخ. حين خلع خوذته، رأيت أنّ شعره قد غزاه الشيب بالكامل مع أنّه يصغرني سنًّا. أو كان كذلك، عندما كنّا معًا في كندا في الدورة التدريبيّة. ثم أخبرني باسم مشكلته العصبيّة. كان اسم هذه المشكلة: غينسفارب، أي ذلك الرجل القصير؛ الذي يقفز عن السلّم».

سألنا الكابتن وارن: «ما المشكلة؟ ممَّ يخافان؟».

«من المفتّشين، ليس معهما أيّ رخصة على الإطلاق».

«لكن ثمّة رخصة على الطائرة».

Twitter: @ketab_n

«أجل لكنّها لا تخصّ تلك الطائرة. تلك وضعها أحد المفتّشين حين اشتراها غينسفارب. كانت الرخصة لطائرة أخرى تحطّمت، وساعد أحدهم غينسفارب على ارتكاب جنحة أخرى ببيعه الرخصة. كان جوك قد فقد رخصته قبل سنتين حين تسبّب بارتطام طائرة كبيرة كان يقودها وبداخلها مجموعة من المحتفلين بعيد الاستقلال. تعطّل أحد المحرّكين واضطرّ إلى الهبوط بالطائرة. فارتطمت بالأرض وتحطّم أحد أنابيب الوقود فيها، ومع ذلك كان يمكن أن ينجوا لو لم يرتعب أحد المسافرين (وكان الوقت غسقًا) ويشعل عود ثقاب. لم يكن اللّوم يقع على جوك كثيرًا، لكنّ جميع الركّاب قضوا احتراقًا والحكومة صارمة في هذا الشأن. لذا لم يستطع الحصول على ترخيص، ولم يستطع أن يجعل حتى غينسفارب يدفع كلفة استخراج رخصة منطاد. لذا لم يكن بحوزتهما أيّ رخصة، وإذا ما قُبض عليهما، فسيكون مصيرهما السجن.

علّق أحدهم: «لا عجب إذن في أنّ الشيب قد غزا رأسه».

«ليس هذا سبب الشيب، سأخبركم عن هذا. صارا إذن يذهبان إلى البلدات الصغيرة كهذه البلدة، ويتحرّيان إذا كان ثمّة من يمكن أن يقبض عليهما، وإذا لم يكن ثمّة أحد يقومان بالعرض ثم ينطلقان إلى بلدة أخرى، متجنّبين المدن الكبيرة. يقومون بطباعة المنشورات بينما يحاول جوك والآخر الحصول على رعاية من منظّمة محلّيّة ما. ولا يسمحان لغينسفارب بالقيام بهذا الدور لأنّه كان يتشبّث

Twitter: @ketab_n

طويلاً بسعر معيّن، وكانا يخشيان المجازفة فيقومان بذلك بدلاً منه ويحصلان على ما يستطيعانه، وإذا لم يستطيعا الحصول على ما طلبه غينسفارب، يحصلان على أفضل سعر ممكن ويبقيان ولا يُعلمان غينسفارب بالأمر حتى يكون قد فات الأوان. لكن هذه المرّة تنبّه غينسفارب للأمر، من كثرة ما مارسوا هذه الحيلة عليه».

«وإذن رأيت جوك صدفة في الشارع. بدا بحالة سيّئة. دعوته إلى شراب، لكنّه قال إنّه لم يعد قادرًا على التدخين حتى. كلّ ما يستطيع فعله هو شرب الماء. قال إنّه عادة يشرب غالونًا خلال الليل، وينهض من النوم لأجل ذلك».

فقلتُ له: «يبدو أنّ حاجتك إلى النوم لا تقلّ عن حاجتك إلى الطعام».

«لا، إنّني أنام جيّدًا. لكنّ المشكلة أنّ الليالي ليست طويلة بما فيه الكفاية، أودّ العيش في القطب الشمالي من سبتمبر حتى أبريل، وفي القطب الجنوبي من أبريل حتى سبتمبر. هذا يناسبني تمامًا».

«لن تصمد كفاية حتى تصل إلى هناك».

«أظنّ ذلك. إنّه محرّك جيّد. أحرص على صيانته».

«أعني ستكون في السجن».

«أتعتقد ذلك؟ أتظنّ أنّني يمكن أن أُسجن؟».

Twitter: @ketab_n

ثم ذهبنا إلى المقهى، وأخبرني عن العرض وأراني واحدًا من تلك المنشورات الخاصّة بديمون دانكن، فقلت له مستغربًا:

«ديمون دانكن؟».

«لمَ لا؟ من سيدفع مالاً ليشاهد رجلاً يُدعى غينسفارب يقفز من طائرة؟».

«أنا شخصيًّا أدفع مالاً أكثر لمشاهدة شخص يدعى غينسفارب يفعل ذلك».

لم يكن قد فكّر في ذلك. ثم بدأ بشرب المياه وأخبرني أنّ غينسفارب يريد مئة دولار للقيام بهذه المجازفة، لكن هو والشخص الآخر حصلا على ستّين فقط.

«ما الذي ستفعله بهذا الخصوص؟».

«أحاول أن أبقيه مخدوعًا وأنتهي من هذا الأمر وأغادر المكان».

«أيّهما هو غينسفارب؟ أهو ذلك القصير الذي يشبه الحوت؟».

«ثم راح يتجرّع الماء. أفرغ كأسي أيضًا دفعة واحدة وخبطها على الطاولة». أحضرَ له فيرنون كأسًا أخرى، وقال له: «لا بدّ أنك ظمآن».

Twitter: @ketab_n

«ألديك إبريق منه؟».

«يمكن أن أملأ لك قنّينة حليب».

«إليّ بها، وأحضر لي كوبًا آخر من الماء في الأثناء».

ثم أخبرني عن غينسفارب ولماذا شاب شعره.

سألته: «منذ متى تقوم بذلك؟».

«منذ السادس والعشرين من أغسطس».

«لكنّنا في يناير».

«ماذا في ذلك؟».

«السادس والعشرون من أغسطس لا يبعد ستّة أشهر عنّا».

نظر إليّ. جلب فيرنون قنّينة المياه. سكب جوك كوبًا وشربه. بدأ يرتجف، وهو جالس في مكانه، يرتجف ويتعرّق، محاولاً ملء الكأس ثانية. ثم أخبرني عن الأمر، متكلّمًا بسرعة، مالئًا الكوب، وشاربًا.

قال لي إنّ جايك (اسم الرجل الثالث، الوسيم)، يقودُ السيّارة المستأجرة. ويقوم غينسفارب بالهبوط من الطائرة إلى سطح السيّارة مستعينًا بسلّم. جوك قال إنّه عليه أن يقود الطائرة فوق سيّارة فورد أو شيفروليه ثلاثيّة الأسطوانات، محاولاً منع غينسفارب من القفز قبل نحو عشرين أو ثلاثين قدمًا لكي يوفّر الوقود في الطائرة وفي

Twitter: @ketab_n

السيّارة المستأجرة. يهبط غينسفارب إلى الجناح الأسفل مع السلّم ويربط السلّم إلى دعامة، ويوثق نفسه بالطرف الآخر من السلّم ويقفز، جميع من على الأرض يظنّ أنّه فعل ما جاؤوا لمشاهدته يفعله: يسقط ويقتل نفسه. هذا ما يسمّيه السقطة القاتلة. ثم يقفز من السلّم إلى سطح السيّارة، وتهبط الطائرة وتمسك السلّم وترفعه ثانية. وهذه هي انجرارة الموت التي يتكلّم عنها.

«حسنًا، حتى ذلك اليوم الذي بدأ فيه الشيب يغزو شعر جوك، كان غينسفارب، بدافع التوفير، يقوم بالأمر كلّه دفعة واحدة؛ يتّخذ موضعه فوق السيّارة ويتدلّى من السلّم ثم يهبط إلى السيّارة، بحيث إنّ العمليّة برمّتها لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق. بيد أنّه في ذلك اليوم كانت السيّارة المستأجرة أشبه بالخردة، واضطرّ جوك أن يلتفّ حول الحقل أربع أو خمس مرّات حتى تصبح في الوضعيّة الصحيحة، وغينسفارب الذي رأى أمواله تتبخّر من عادم السيّارة، نفد صبره أخيرًا بانتظار إشارة جوك فقرّر أن يقفز على أيّ حال. كان كلّ شيء يجري بسلاسة، إلاّ أنّ المسافة بين الطائرة والسيّارة كانت أطول من السلّم، فارتطم غينسفارب بالسيّارة وكان الوضع مربكًا للغاية بالنسبة إلى جوك فهبط بالطائرة وحمل غينسفارب، الذي كان ما زال معلّقًا بالسلّم، وارتفع به فوق خطّ كهرباء عالي التوتر، وثبّت الطائرة في الهواء نحو عشرين دقيقة بينما يتسلّق غينسفارب السلّم برجله المكسورة ويعود إلى الطائرة. أبقى جوك

Twitter: @ketab_n

الطائرة في وضعيّة ثابتة مستعينًا بركبتيه، فاتحًا الصمّام الخانق على وسعه، والمحرّك يدورُ بسرعة أحد عشر ألفًا، بينما مدّ يده إلى الخلف وفتح تلك الخزانة وأخرجَ منها حقيبة أسندَ بها المقود بحيث يستطيع أن يخرج إلى جناح الطائرة ويرفع غينسفارب إلى الطائرة. وأخيرًا تمكّن من جذبه ثم هبط بالطائرة وغينسفارب يسأله: «إلى أيّ حدّ وصلنا؟»، وقال له جوك إنّهما حلّقا بأقصى سرعة لثلاثين دقيقة وغينسفارب يقول: هل تريد التسبّب بإفلاسي؟».

III

بقيّة القصّة معقّدة. إنّها ما شهدناه نحن (الجهلة الذين يعيشون في بلدة صغيرة وعلى أطرافها، نسخة مكرّرة من عشرة آلاف حياة صغيرة ميتة)، واستوضحنا كنهه من العارف بيننا، ذلك الذي رأى ظلّه الوحيد يجري فوق وجه الأرض البعيدة والمنمنمة.

وصلَ الغرباء الثلاثة إلى الحقل بالسيّارة المستأجرة. حين ترجّلوا منها كانوا يتجادلون بأصوات فاترة مشوبة بالتوتّر، الطيّار والوسيم من جهة ومن الجهة الأخرى الرجل الأعرج. قال الكابتن وارن إنّهم كانوا يتجادلون حول المال.

وقال غينسفارب: «أريد أن أرى المال».

Twitter: @ketab_n

وقفوا شبه متلاصقين، وأخرج الوسيمُ شيئًا من جيبه، وقال له: «هاك.. ها هو أتراه؟».

«دعني أعدّه بنفسي».

فردّ الطيار متمتمًا بصوته البارد المتوتّر:

«بالله عليك يا رجل، قلنا لك إنّنا حصلنا على المال! أتريد أن يأتي مفتّش ما ويأخذ المال والطائرة أيضًا، ويزجّ بنا جميعًا في السجن؟ انظر إلى الحشود المنتظرة».

فقال غينسفارب: «لقد خدعتماني من قبل».

قال الطيّار: «حسنًا، أعطه المال، وأعطه الطائرة أيضًا. ويمكنه أن يُسدّد أجرة السيّارة حين يعود إلى البلدة. نحن نستطيع الحصول على توصيلة، هناك قطار ينطلق من هنا بعد ربع ساعة».

«لقد خدعتماني من قبل».

«لكنّنا لا نخدعك الآن. لا عليك. انظر إلى هذا الحشد الكبير».

مشوا صوب الطائرة، غينسفارب يعرج كلّيًّا، متخشّبَ الظهر، ووجهه مأساويّ، غاضب، وجافّ. كان الحشدُ ضخمًا نوعًا ما: ريفيّون ببزّات العمل؛ الرجال كتلة سوداء على خلفيّة أثواب النساء

Twitter: @ketab_n

المبهرجة، ولا سيّما الصبايا منهنّ. بينما احتشدت مجموعة من الصبية والرجال حول الطائرة. شاهدنا الأعرج يُخرج منها مظلّة هبوط وسلّمًا حبليًّا. صعد الوسيم إلى مروحة الطائرة. وصعد الطيّار إلى المقعد الخلفيّ. وصاح فجأة:

«لننطلق! تنحّوا إلى الوراء أيّها القوم فسنلوي الآن عنق هذا الطائر القديم».

حاولوا ثلاث مرّات تشغيل المحرّك. فقال أحد الواقفين: «لديّ بغل أيّها السيّد، كم تدفع لقاء جذبه للطائرة؟».

لم يضحك الغرباء الثلاثة. كان الأعرج منشغلاً بتعليق السلّم الحبلي بأحد الجناحين. وعلّق ريفي آخر: «لا تقل لي، حتى البغل ليس بمثل هذه الحماقة».

دارَ المحرك عندها. بدأت الطائرة ترفع معها فتى كان واقفًا خلفها وتذروه كورقة شجر. شاهدناها تلتفّ وتمضي عبر الحقل.

وقال ريفيّ: «لا تقولوا لي إنّ هذا الشيء يحلّق حقًّا، أظنّ أنّ الله وهبني عينين، وأرى أنّها لا تحلّق، لقد تعرّضتم للخداع يا جماعة».

ردّ آخر: «انتظر، عليها أن تأخذ اتّجاه الرّيح».

وقالت امرأة: «أليس من ريح هنالك بقدر ما يوجد هنا».

Twitter: @ketab_n

لكنّها حلّقت. وعادت باتّجاهنا، هادرة على نحو يَصمّ الآذان. وحين صارت قبالتنا مباشرة شعرنا أنّها لا تمضي بسرعة كبيرة، وإن رأينا نور النهار بين العجلات والأرض. لكنّها لم تكن تمضي مسرعة، بدت معلّقة فوق مستوى الأرض بقليل حتى رأينا أنّ الأرض والأشجار فوقها وخلفها تنسحب إلى الخلف في مشهد بانورامي بسرعة مدوّخة. ثم انحرفت ومالت إلى الأعلى هادرة كمنشار دائريّ يقطع جذع شجرة بلّوط. وقال الريفي: «لا أحد في داخلها، لا تقولوا لي».

الرجل الثالث، صاحب القبّعة الوسيم، ركب السيّارة المستأجرة. كنّا جميعًا نعرف ذلك: كانت سيّارته خردة يقبل أن يؤجّرها صاحبها لأيّ شخص يدفع عشرة دولارات مسبقًا. مضى بها إلى طرف الحقل، في مواجهة المدرج، ثم توقّف. نظرنا ثانية إلى الطائرة. كانت مرتفعة، وعائدة نحونا؛ صرخ أحدهم فجأة، بصوت واهن ورفيع: «هناك! على الجناح! أترون؟».

وقال الريفيّ: «هذا غير صحيح، لا أصدّق ذلك».

وقال آخر: «لقد رأيتهم يصعدون إليها».

وقالت المرأة: «لا أصدّق ذلك».

ثم تنهّدنا جميعًا: «آآآآآآآه»، ورأينا تحت جناح الطائرة لطخة تهوي. وعرفنا أنّها رجل. بطريقة ما عرفنا أنّ هذا الشكل

Twitter: @ketab_n

الضئيل الذي يهوي هو لرجل حيّ مثلنا. هوى. وشعرنا أنّه ظلّ يهوي لسنوات، غير أنّه حين بدا ينتصب فجأة من دون حبل مرئي، كان أقرب إلى الطائرة من طرف الجناح.

صرخت المرأة: «هذا ليس رجلاً».

«تعرفين أفضل من ذلك، لقد رأيته يركب الطائرة».

صرخت: «لا يهمّني، هذا ليس رجلاً! أعدني فورًا إلى البيت».

الباقي يصعب إخباره. ليس لأنّ ما رأيناه كان قليلاً جدًّا؛ لقد رأينا كلّ ما حدث، لكن لأنّ خبرتنا قليلة جدًّا فلم نفهم شيئًا ممّا حدث. رأينا تلك السيّارة المتهالكة تمضي أسرع فأسرع في الحقل، خائضة في طين يناير الجافّ، ثم الطائرة وهي تحطّ فوقها وتكاد تشلّ حركتها؛ ثم رأينا السلّم يتدلّى، والرجل الذي يشبه الحوت يتأرجح عليه تحت الطائرة. جرّ طرف الحبل على سطح السيّارة مباشرة، من أوّله إلى آخره، والرجل الأعرج على السلّم وذلك الوسيم يمدّ رأسه من السيّارة. وكان طرف الحقل يقترب شيئًا فشيئًا، والطائرة تمضي أسرع من السيّارة، وتتجاوزها. ولم يحدث أيّ شيء. ثم صرخ أحدهم: «اسمعوا، إنّهما يتحادثان».

أخبرنا الكابتن وارن عمّا كان يتحادث اليهوديّان اللذان كانا يتبادلان الصراخ: الرجل ذو وجه الحوت على السلّم المتدلّي والذي

Twitter: @ketab_n

يشبه نسيج بيت العنكبوت، والثاني في السيّارة؛ وصلت الطائرة إلى السياج عند نهاية الحقل.

صاح الذي في السيّارة: «هيّا اقفز!».

«كم دفعوا؟».

«اقفز!».

«إذا لم يدفعوا تلك المائة دولار فلن أقفز».

ثم اقتربت الطائرة، هادرة، اللطخة المتدلّية تتأرجح تحتها. التفتّ حول الحقل مرّتين بينما أعاد الرجل السيّارة إلى الوضعيّة المطلوبة وانطلق مجدّدًا في الحقل، ثم هبطت الطائرة بهديرها الوحشي الشبيه بالمنشار الدائري، وتحتها يتأرجح السلّم والرجل الذي يرتقيه فوق سطح السيّارة من الخلف؛ مجدّدًا سمعنا صراخ الصوتين الهزيلين والذي كان في آن رهيبًا وسخيفًا: الرجل الخارج من صلب الهواء نفسه يصرخ حول أمرٍ ما لا قيمة له في أيّ مكان آخر: «كم قلت؟».

«اقفز!».

«ماذا؟ كم دفعوا؟».

«لا شيء! اقفز!».

«لا شيء؟ لا شيء؟».

Twitter: @ketab_n

مرّة أخرى كانت الطائرة تجرّ السلّم وتتجاوز السيّارة، نحو نهاية الحقل، نحو السياج، والحظيرة الطويلة متداعية السقف. فجأة رأينا الكابتن وارن بجانبنا، وقال كلامًا لم نسمع مثله من قبل: «لقد وضع المقود بين ركبتيه، يا ربّ الكون المجيد، يا رمز الراحة الأبديّة العذبة والمقدّسة».

كنّا نسينا أمر الطيّار، الرجل الذي ما زال في الطائرة. رأينا الطائرة تنحرف إلى الأعلى، والطيّار يقفُ منتصبًا في المقعد الخلفي، مائلاً جانبًا وهو يهزّ بيديه الرجل المعلّق على الحبل. وسمعناه يصرخُ الآن بينما يجرّ مجدّدًا الرجل المعلّق بالحبل فوق السيّارة، ويتجاوزها، صارخًا: «لن أفعل ذلك! لن أفعل ذلك!».

كان ما يزال يصرخ حين اقتربت الطائرة؛ رأيناه بقعة تتقلّص وتختفي في السماء فوق سقف الحظيرة الطويل: «لن أفعلها! لن أفعلها!». قبل أن تغادر اللطخة الصغيرة الطائرة، وتصير معلّقة بالحبل، علمنا أنّها لكائن بشري؛ مجدّدًا حين غادرت اللطخة السلّم، هاوية، علمنا أنّها تخصّ كائنًا بشريًّا، وعلمنا أنّه لن يكون ثمّة سلّم يرفعه الآن. رأيناه يسقط من سماء يناير الباردة الفارغة حتى امتصّه ظلّ الحظيرة؛ حتى من المسافة التي تفصلنا عنه، بدا يشبه الضفدع، وهو يهوي غاضبًا، متخشّبًا. وصرخت امرأة من الحشد، وإن طغى هدير الطائرة على صوتها. ثم انتصبت الطائرة عموديًّا

Twitter: @ketab_n

بهديرها الصاخب، والسلّم الفارغ ينجرّ خلفها. كان صوت المحرّك أشبه بالأنين، أنين ارتياح ويأس.

IV

سألنا الكابتن وارن في صالون الحلاقة مساء يوم السبت ذاك:

«هل قفز حقًّا فوق الحظيرة؟».

«أجل، لقد قفز. لم يكن يفكّر بأنّه سيُقتل، أو حتى أنّه سيتعرّض للأذيّة. ولهذا السبب لم يصب بالأذى. كان مسعورًا جدًّا ومستعجلاً جدًّا لنيل جزائه. لم يستطع أن ينتظر هبوط الطائرة. العناية الإلهيّة كانت تعرف أنّه مشغول جدًّا وأنّه يستحقّ الجزاء، لذا وضعت العناية الإلهيّة سقف الحظيرة المهترئ ذاك. لم يكن يفكّر حتى بالارتطام بالحظيرة، لو أنّه حاول الهبوط بشكل سليم، بصرف النظر عن إيمانه بالتوازن الكوني بحيث يُعنى بأمر الهبوط، لكانت فاتته الحظيرة وقُتل!

باستثناء جرح طويل على وجهه نزف كثيرًا، لم يتأذّ الرجل إطلاقًا. وقد تمزّق ظهر معطفه، كأنّما المزق في الخوذة من الخلف قد امتدّ نزولاً إلى المعطف. خرج من الحظيرة راكضًا قبل أن

Twitter: @ketab_n

نصل إليها. مشى بيننا، بوجهه الدامي، ملوّحًا بذراعيه، ومعطفه يتدلّى من كتفه.

وسألنا: «أين ذاك السكرتير؟».

«أيّ سكرتير؟».

«سكرتير الرابطة الأميركيّة».

ومضى يحثّ خطاه العرجاء إلى حيث يقف حشد حول ثلاث نساء أغمي عليهنّ:

«قلتم إنّكم ستدفعون مائة دولار لكي تشاهدوني أهبط فوق تلك السيّارة. دفعنا أجرة تلك السيّارة وكلّ شيء والآن عليكم...».

فأجابه أحدهم:

«لقد حصلت على ستّين دولارًا».

نظر الرجل إليه: «ستون؟ لقد قلتم مائة. ثم جعلتموني أصدّق أنّ المبلغ هو مائة وكان ستّين فحسب، تحبّون رؤيتي أخاطر بحياتي مقابل ستّين دولارًا...».

كانت الطائرة قد حطّت؛ لم يكن أحد منّا واعيًا لذلك حتى ظهر الطيّار فجأة ووقف قبالة الأعرج. راح يلكمه بكلتا يديه ثم أوقعه أرضًا قبل أن نتمكّن من ردّه عنه.

أمسكنا بالطيّار الذي كان يحاول التخلّص منّا باكيًا والدموع

Twitter: @ketab_n

تملأ وجهه القذر غير الحليق. فجأة برز الكابتن وارن وأمسك بالطيّار، صارخًا به: «كفّ عن هذا، كفّ عن هذا».

هدأ الطيّار. حملق في الكابتن وارن، ثم ارتمى أرضًا بثيابه المهلهلة القذرة، بوجهه غير الحليق، النحيف، الوسخ، ذي العينين المريضتين، باكيًا. قال الكابتن وارن: «انفضّوا عنه، دعوه وشأنه لبعض الوقت».

فاتّجهنا إلى الرجل الآخر، صاحب العرجة. كانوا قد ساعدوه على الوقوف وحمل هو معطفه المشقوق يتأمّله، ثم قال: «أُريدُ لبانًا».

أعطاه أحدهم قطعة لُبان. وقدّم له آخر لفافة سجائر. فرفضها قائلاً: «شكرًا لكنّني لا أحرق المال. ليس لديّ بعد ما يكفي منه».

وضع العلكة في فمه: «تريدون استغلالي. إذا ظننتم أنّني قد أخاطر بحياتي مقابل ستّين دولارًا فأنتم مخطئون».

فقال أحدهم: «أعطوه بقيّة المبلغ، ها هي حصّتي».

لم ينظر الأعرج حوله: «اجعلوه مائة وسأقفز إلى السيّارة مثلما رأيتم في الإعلان».

في مكان ما وراءه، صرخت امرأة وهي تبكي وتضحك في آن: «لا تفعل، لا تسمحوا له...».

Twitter: @ketab_n

أبعدوها من هناك، وظلّ الأعرج واقفًا مكانه يمسح يده بكمّ قميصه، ناظرًا إلى الدم حين جاء الكابتن وارن، وسأل: «كم المبلغ الذي ينقصه؟». فأخبروه. أخرج بعض المال من جيبه وأعطاه للأعرج.

«أتريدني أن أقفز فوق السيّارة؟».

«لا، بل غادر هذا المكان في أسرع وقت ممكن».

«حسنًا هذا شأنك، لديّ شهود بأنّني عرضت تقديم القفزة».

تحرّك. أفسحنا له الطريق وشاهدناه، بالمعطف المشقوق المهلهل، يقترب من المدرج إلى الطائرة التي ما زال محرّكها دائرًا. وكان الرجل الثالث في المقعد الأمامي. شاهدنا الأعرج يزحف ويجلس بجانبه. وراح كلاهما يحدّقان أمامهما.

قال الطيّار: «أحسب أنّه يُفترض بنا أن نمضي». لم ينظر إلى وارن. ثم مدّ يده، قائلاً: «حسنًا...».

لم يمدّ وارن يده. وقال له: «أنت، تعال إلى البيت معي».

«ومن سيعتني بهذا الوغد؟».

«ومن يرغب في ذلك؟».

«سأصوّب أموره ذات يوم. سأضربه ضربًا مبرحًا».

«جوك».

Twitter: @ketab_n

«لا».

«ألديك معطف؟».

«بالتأكيد لديّ».

«كذّاب».

بدأ وارن يُخلِعه معطفَه.

«لا» قال جوك، «لا أحتاج إليه. اتّجه صوب الطائرة» أراكَ يومًا ما، قال ناظرًا إلى الخلف. رأيناه يصعد، سمعنا الطائرة تهدر، تستيقظ فيها الحياة. ثم ارتفعت عن الأرض وحلّقت فوقنا مبتعـدة. لوّح الطيّار مرّة بسرعة. لم يلتفت الرأسان في المقدّمة أو يتحرّكا. ثم اختفت الطائرة، ومعها الصوت.

التفتَ وارن: «ماذا بشأن السيّارة التي استأجروها؟».

أجاب أحد الصبية: «لقد أعطاني ربع دولار لكي أعيدها إلى البلدة».

«أتستطيع قيادتها؟».

«أجل يا سيّدي. لقد قدتها هناك. دللته من أين يستأجرها».

«ذلك الذي قفز؟».

«أجل يا سيّدي».

نظر الصبي نظرة جانبيّة بزاوية ضيّقة:

Twitter: @ketab_n

«لكنّني أخشى إعادتها. لا أحسب أنّك يمكن أن ترافقني؟».

«ما الذي تخشاه؟».

«ذلك الرجل لم يدفع أيّ عربون لاستئجارها مثلما طلب مستر هاريس. قال له إنّه قد لا يستعملها، لكن لو أنّه استعملها في عرضه فسيدفع له عشرين دولارًا بدلاً من العشرة التي طلبها مستر هاريس. قال لي أن أُرجعها وأن أُخبر مستر هاريس أنّه لم يستعمل السيّارة قطّ. ولا أعرف إذا كان مستر هاريس سيعجبه الأمر. ربّما سيجنّ جنونه».

Twitter: @ketab_n

إلّي[1] Ellie

كان الحاجز الخشبي الذي يحدّ الجرف أقرب إلى لعبة أطفال. وبدا لها من السيّارة أشبه بخيط هشّ، يعبر أمامها كغشاوة رقيقة، كشريط مشدود قُصّ بالمقصّ.

ثم عبرا اللافتة الأولى، ميلز سيتي[2]، ٦ أميال. وفكّرت إلّي، في ذهول تامّ: «كدنا نصل. لقد تأخّر الوقت كثيرًا»، ناظرة إلى بول الجالس قربها، واضعًا يديه على المقود، وقد لاح وجهه جانبيًّا بينما عيناه على الطريق المنسحب تحتهما.

قالت له: «حسنًا، ما الذي يمكن أن أفعله لأقنعك بالزواج بي يا بول؟»، محدّثة نفسها في الوقت عينه: كان ثمّة رجل يحرث في ذلك الحقل، ورآنا ونحن نخرج من تلك الأشجار وبول يحمل المرتبة ونعود إلى السيّارة، مفكّرة بصمت، بنوع من الشرود والسهو، إذ كان ثمّة أمر آخر ينبغي طمسه، شيء رهيب كنتُ قد نسيت أمره، فكّرت ناظرة إلى لافتات الطرق التي تمرّ سريعًا والتي تقرّبها أكثر فأكثر من ميلز سيتي. شيء رهيب عليّ أن

---

(١) إلّي Elly: غيّر الكاتب عنوانها من «تخوم» إلى هذا العنوان بعد رفض عدد من المجلاّت نشرها. وخلال مراجعته للقصّة بدّل اسم البطلة من كورينثيا إلى إلّي. نُشرت القصّة في «ستوري» عام ١٩٣٤.

(٢) بلدة متخيّلة.

Twitter: @ketab_n

أتذكّره بعد قليل، مخاطبة بول بصوت مرتفع ولكن بهدوء: «لم يَعدْ بيدي حيلة، أليس كذلك؟».

لم ينظر إليها بول هذه المرّة أيضًا، وقال: «لا، ليس من شيء آخر يمكنك فعله».

ثم تذكّرت موضوع سهوها: جدّتها. متذكّرة العجوز ذات الأذنين الصمّاوين والعينين الباردتين الثاقبتين، التي تنتظرها في ميلز سيتي، بيأس ذاهل وصامت: كيف أمكنني أن أنسى أمرها؟ كيف أمكن ذلك؟ كيف؟

كانت في الثامنة عشرة. تعيشُ في جيفرسون، التي تبعد مائتي ميل عن ميلز سيتي، مع أبيها وأمّها وجدّتها، في بيت كبير. كانت له شرفة معتمة تحجبها عن النظر عريشة بعيدة عن الضوء. وفي كنف هذه الظلمة كانت تضطجع كلّ ليلة تقريبًا مع رجل مختلف ـ شبّان ورجال من البلدة أوّلاً، ثم لاحقًا الجميع تقريبًا، أيّ عابر في البلدة الصغيرة يمكن أن تكون التقته عمدًا أو مصادفة، شريطة أن يكون لائق المظهر. لم تكن تقبل قطّ أن تستقلّ معهم سيّاراتهم ليلاً، وسرعان ما يعرفون جميعًا السبب، مع أنّهم ما كانوا يفقدون الأمل فورًا ـ حين تدقّ ساعة مبنى المحكمة معلنة الساعة الحادية عشرة. ثم ربّما لخمس دقائق أخرى يتكلّم الواحد منهم (بعد قرابة ساعة من الصمت) بهمس ملحاح.

Twitter: @ketab_n

تقول له: «عليك الذهاب الآن».

«لا ليس الآن».

«بلى الآن».

«لماذا؟».

«لأنّني متعبة. أريد أن أنام».

«فهمت. وصلت إلى هذه السنّ، وليس من أمّ تخبرك ماذا يجدر بك أن تفعلي. أهذا هو السبب؟».

«ربّما».

في العتمة الآن تصبح متيقّظة، باردة المشاعر، هاربة سلفًا، وراء خزين سرّيّ ما من الضحك، من دون أن تبارح مكانها. ثم يغادر جليسها، فتدخل إلى البيت المعتم وتنظر إلى مربّع الضوء الوحيد الذي يسقط على الرواق العلوي، وتتغيّر كلّيًّا. بسأم، بمشية امرأة عجوز تقريبًا، ترتقي السلّم وتمرّ بالباب المفتوح للغرفة المضاءة، حيث تجلس جدّتها، مستقيمة الظهر، تحمل كتابًا مفتوحًا بين يديها، قبالة الرواق. عادة لا تنظر إلى الغرفة في أثناء مرورها. لكنّها تفعل من وقت لآخر. وحينئذ تتبادلُ وجدّتها نظرة كاملة: العجوز باردة، ثاقبة النظرات؛ الفتاة سئمة، منهكة، عيناها الواسعتان السوداوان، كما وجهها كلّه، تنضحان بكراهية عقيمة. ثم تمضي وتدخل إلى غرفتها وتصيخ السمع لبرهة عند الباب، حتى

Twitter: @ketab_n

تسمع طقّة الزرّ التي تتبئها بانطفاء النور في غرفة الجدّة بعد فترة وجيزة. أحيانًا تبكي بصمت ويأس، هامسة: العاهرة العجوز، العاهرة العجوز. ثم ينقضي هذا الإحساس. تتجرّد من ملابسها وتروح تتأمّل وجهها في المرآة، مدقّقة في فمها الذي بهت أحمر الشفاه عليه، وباتَ مسطّحًا (مثلما تعتقد) ومنهكًا ومتبلّدًا من كثرة التقبيل، مفكّرة: يا إلهي. لماذا أفعل هذا؟ ما مشكلتي؟ وأنّها ستضطرّ في الغد إلى مواجهة العجوز ثانية وقد انطبعت علامات الليلة الفائتة على فمها كالكدمات، شاعرة بلا جدوى العيش وفراغه، على نحو أعمق من شعورها بالغضب أو الذنب.

ثم ذات عصريّة، في منزل إحدى صديقاتها، تعرّفت إلى بول دي مونتيني. وبعد مغادرته بقيت الفتاتان وحدهما. جلستا متقابلتين صامتتين مثل مسافرين ملثّمي العيون. ثم قالت الصديقة: «يعجبك إذن. إنّ لديك ذوقًا غريبًا، أليس كذلك؟».

أجابت إلّي: «من الذي يعجبني؟ لا أعرف عمّن تتحدّثين».

«أحقًّا؟ لم تلاحظي إذن شعره الذي يشبه القبّعة المفتولة، وشفتيه الغليظتين».

نظرت إلي إليها: «عمّ تتحدّثين؟».

«لا شيء»، قالت الأخرى. ألقت نظرة خاطفة نحو الصالة، ثم أخرجت سيجارة من تحت فستانها وأشعلتها. «لا أعرف شيئًا

Twitter: @ketab_n

عن الأمر. فقط سمعت أنّ عمّه قتل ذات مرّة رجلاً اتّهمه بأنّ فيه عرقًا زنجيًّا».

«أنت تكذبين».

نفثت الأخرى دخان سيجارتها: «حسنًا، اسألي جدّتك عن عائلته. ألم تكن من سكّان لويزيانا؟».

«ماذا عنك إذن؟ لقد دعوتِه إلى منزلك».

«غير أنّني لم أختبئ معه في خزانة العباءات، ولا تبادلتُ القبل معه».

«أوه فعلاً؟ ربّما لم تفعلي».

«ليس قبل أن تصبحي خارج الصورة على أيّ حال».

تلك الليلة جلست هي وبول على الشرفة المحجوبة المظلمة. لكن عند الحادية عشرة كانت هي التي أصيبت بالتوتّر والشعور بالإلحاح:

«لا! لا! أرجوك! أرجوك!».

«أوه، هيّا، ما الذي يخيفك؟».

«أجل إنّني خائفة. أرجوك ارحل، أرجوك».

«نلتقي غدًا إذن؟».

Twitter: @ketab_n

«لا. ليس غدًا ولا في أيّ يوم».

«بلى غدًا».

هذه المرّة لم تنظر أثناء مرورها بغرفة جدتها. ولا اتّكأت على باب غرفتها لتبكي. لكنّها جعلت تلهث، مردّدة بصوت مرتفع وراء الباب بنوع من الانتشاء: زنجي. زنجي. أتساءل ماذا ستقول لو عرفت بذلك.

عصر اليوم التالي جاء بول إلى الشرفة. كانت على الأرجوحة، وجدّتها على كرسيّ قريب. نهضت ولاقت بول على السلّم: «لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا؟». ثم استدارت وبدت تراقب نفسها وهي تسبقه نحو العجوز الهزيلة الجالسة مستقيمة الظهر كمسمار، بوقار حرون في ذلك المكان القاتم، المحتشد بالأشباح، الذين بالنسبة إلى إلّي ليس لهم عدد ولا أسماء، الذين ربّما كانوا يملكون أيضًا فمًا واحدًا. انحنت على أذن جدّتها صارخة: «هذا مستر دي مونتيني يا جدّتي!».

«ماذا؟».

صرخت ثانية: «مستر دي مونتيني من لويزيانا».

ورأت جدّتها، من دون أن تحرّك أسفل جسدها البتّة، تتراجع بعنف إلى الخلف مثلما تفعل حيّة تستعدّ للانقضاض. كان ذلك عصرًا. تلك الليلة بارحت الشرفة للمرّة الأولى. هي وبول لاذا في جنبة متوارية على المرجة؛ في عتمة تلك البرهة المطبقة المتوحّشة

Twitter: @ketab_n

شعرت بالضياع، وكان دمها يفور يأسًا وابتهاجًا ورغبة بالانتقام أيضًا. تكلّمت في سرّها وهي على حافّة الاستسلام فرنّت كلماتها كصوت: يا ليتها هنا لترى! يا ليتها هنا لترى! حين شيء ما ــ لم يكن هناك أيّ صوت ــ صرخ بها، فانتفضت في حركة جنونيّة غريبة. كانت الجدّة واقفة خلفهما وفوقهما مباشرة. متى وصلت، ومنذ متى تقف هناك، لم يعرفا. لكنّهما رأياها هناك، في صمت تامّ، في لحظة الذروة المضادّة الطويلة بينما غادر بول بلا إسراع، ووقفت إلّي تُحدّث نفسها بغباء: لقد قُبض عليّ وأنا أرتكب خطيئة من دون أن يتسنّى لي الوقت لارتكاب الخطيئة حقًّا. ثم هرعت إلى غرفتها، واستندت إلى الجدار، محاولة تهدئة تنفّسها، مصيخة السمع بانتظار صعود الجدّة السلّم ودخولها إلى غرفة أبيها. استلقت بثيابها على فراشها، وهي ما زالت تلهث، وما زال دمها يفور. وفكّرت: سيكون غدًا إذن، ستخبره في الصباح. ثم راحت تتقلّب بحركة محمومة على جانبي الفراش. لم يتسنّ لي حتى أن أرتكب خطيئة، حدّثت نفسها بندم لاهث ذاهل، تظنّ أنّني ارتكبت خطيئة وستخبر أنّني ارتكبت خطيئة، مع أنّني ما زلت عذراء. لقد قادتني إلى ذلك ثم صدّتني في آخر لحظة. ثم وجدت نفسها مضطجعة والشمس في عينيها وما زالت بكامل ثيابها، وحدّثت نفسها ببلادة: إذن سيكون صباح اليوم، يا إلهي. كيف أمكنني ذلك. كيف أمكنني. لا أريد أيّ رجل. أو أيّ شيء.

Twitter: @ketab_n

كانت تنتظر في حجرة الطعام حين نزل أبوها لتناول الإفطار. لم يقل شيئًا، ومن الواضح أنّه لم يكن يعرف شيئًا. لعلّها أخبرت أمّي، فكّرت إلّي. لكن بعد برهة ظهرت أمّها أيضًا، وسرعان ما غادرت إلى البلدة أيضًا من دون أن تقول شيئًا، إذن لم يحدث الأمر بعد، حدّثت نفسها وهي ترتقي السلّم. وجدت باب جدّتها مقفلاً. وحين فتحته كانت العجوز تقرأ صحيفة في السرير؛ حدجتها ببرود وثبات وعناد، بينما صرخت إلّي بها في البيت الفارغ: «أيّ شيء آخر أستطيع فعله في هذه البلدة الصغيرة الميتة؟ سأعمل. لا أريد أن أكون متبطّلة. فقط جِدي لي عملاً، أيّ عمل في أيّ مكان، لكن بعيدًا بحيث لا أضطرّ إلى سماع كلمة جيفرسون ثانية». كانت تحمل اسم جدّتها ـ إيلانثيا، غير أنّ العجوز لم تسمع اسمها أو اسم حفيدتها أو أيّ اسم آخر منذ خمسة عشر عامًا، إلاّ حين يصرخ أحدهم في وجهها مثلما تفعل إلّي الآن: «لم يحدث ذلك ليلة أمس حتى! ألا تصدّقينني؟ هذا كلّ ما في الأمر! لم يحدث شيء حتى! على الأقلّ كنتُ ربحت شيئًا ما...». وبينما الأخرى تنظر إليها نظرة الصمّاء تلك، الثابتة الباردة الجامدة الثاقبة، صاحت إلّي: «حسنًا، سأتزوّج إذن! هل سترضين عندئذ؟».

عصر ذلك اليوم التقت بول في وسط البلدة. سألها: «أسارت الأمور على ما يرام ليلة البارحة؟ عجبًا ما الذي حدث، هل قاموا...».

Twitter: @ketab_n

«لا يا بول. تزوّجني».

كانا في مؤخّر الصيدلية، متواريين وراء نضد، وإن كان أيّ كان قد يظهر في أيّ لحظة. مالت عليه، وجهها شاحب، متوتّر، شفتاها مطليّتان مثل جرح وحشيّ، قائلة: «تزوّجني يا بول قبل فوات الأوان».

«أنا لا أتزوّجهنّ، هيّا تمالكي أعصابك».

مالت عليه، مفعمة بالأمل، صوتها مستنفر ومنهك: «كدنا نفعلها ليلة البارحة. إذا تزوّجتني سأفعلها».

«ستفعلينها إذن، قبل الزواج أم بعده؟».

«أجل، الآن، وقتما تشاء».

«أنا آسف».

«حتى لو فعلتها الآن؟».

«هيّا الآن، تمالكي أعصابك».

«أوه، أسمعك لكنّني لا أصدّقك. وأخاف أن أجرّب وأكتشف».

راحت تبكي. فخاطبها بانزعاج متضاعف: «كفّي عن هذا أقول لك».

Twitter: @ketab_n

«حسنًا، حسنًا. لقد كففت. ألن تتزوّجني إذن؟ أؤكّد لك سيكون قد فات الأوان».

«اللعنة لا، أنا لا أتزوّجهنّ أؤكّد لك».

«حسنًا إذن، هذا إذن وداع نهائي».

«هذا يناسبني أيضًا. إذا كان هذا شعورك. إذا تقابلنا ثانية فتعرفين ماذا سيعني هذا. لكن لا زواج. وسأحرص المرّة القادمة ألاّ يكون هناك أيّ جمهور».

«لن تكون هناك مرّة قادمة».

في اليوم التالي رحل. وبعد أسبوع نُشر خبر خطوبتها في صحف ممفيس. خُطبت إلى شابّ كانت تعرفه منذ الطفولة. كان مساعد محاسب في مصرف يقال إنّه في طريقه إلى أن يكون مديره يومًا ما. كان رجلاً جدّيًا ذا عادات وسلوكيّات كاملة، كان يتقدّم لخطبتها منذ سنة بنوع من الرسميّة الوادعة. يتناول العشاء مع العائلة مساء كلّ يوم أحد، وحين تأتي عروض الطرق القليلة إلى البلدة كان دائمًا يشتري البطاقات له ولإلّي ولأمّها. حين تقدّم لطلب يدها، وحتى بعد إعلان الخطوبة، لم ينزويا في الأرجوحة المعتمة. ربّما لم يكن يعرف أنّ ثمّة من جلس هناك ولم يعد يجلس عليها أحد الآن. وبدأت إيلي تمرّر أيّامها الروتينيّة بنوع من البلادة الهادئة. أحيانًا في الليل تبكي قليلاً، ولكن ليس غالبًا؛ ومن وقت

Twitter: @ketab_n

لآخر تتأمّل شفتيها في المرآة وتبكي بصمت، بيأس صامت واستسلام. محدّثة نفسها: على أيّ حال، أستطيع العيش بهدوء الآن، على الأقلّ يمكنني عيش ما تبقّى من حياتي الميتة بهدوء تامّ كأنّني ميتة.

ثم ذات يوم، دونما سابق إنذار، كأنّها هي الأخرى قبلت الهدنة والاستسلام، غادرت الجدّة لكي تزور ابنها في ميلز سيتي. بدا البيت في غيابها أوسع وأكثر فراغًا من أيّ وقت مضى، كأنّها كانت الشخص الوحيد الحيّ فيه حقًّا. باتت تتردّد على البيت يوميًّا زمرة مجموعة من الخيّاطات، لتفصيل جهاز العروس، لكنّ إلّي كانت تشعر أنّها تتحرّك بهدوء وبلا هدف، في هوّة عديمة التفكير والحسّ، من غرفة فارغة إلى أخرى، وقد اتّشحت كلّ الغرف بمظهر آخر مألوف جدًّا ومسالم جدًّا، بحيث لم تعد محزنة. لساعات طويلة الآن صارت تقف وراء نافذة مخدع أمّها، مشاهدة النبات المعرّش البطيء والمتناهي الصغر، وهو يزحف ويفيض فوق الباب إلى سقف الشرفة مع تقدّم الصيف. مرّ شهران على هذا النحو؛ وبقيت ثلاثة أسابيع على موعد زفافها. ثم قالت لها أمّها ذات يوم:

«ترغب جدّتك في العودة إلى البيت الأحد. لم لا تذهبان أنت وفيليب إلى ميلز سيتي وتمضيان ليلة السبت هناك مع عمّك وتحضرانها معكما يوم الأحد؟».

Twitter: @ketab_n

بعد خمس دقائق، أمام المرآة، وقفت تتأمّل وجهها مثلما يتأمّل شخص شخصًا آخر نجا من خطر داهم، محدّثة نفسها: «يا إلهي، ما الذي كنتُ سأفعله؟ ما الذي سأفعله؟».

بعد ساعة كلّمت بول على الهاتف، وقد خرجت من البيت لهذا الغرض، متّخذة ما أمكنها من احتراز يسمح به تعجّلها. سألها بول:

«صباح السبت؟».

«أجل. سأخبر أمّي إنّ فيل... يريد المغادرة مبكرًا، عند الفجر. لن يلاحظوك أنت أو السيّارة. سأكون جاهزة ويمكننا الرحيل سريعًا».

سمعت إجابته عبر المسافة. كان لديها شعور بالانعتاق والفرار:

«حسنًا، لكنّك تعرفين ماذا يعني هذا... لو عدت... لقد أخبرتك بذلك».

«لست خائفة، ما زلت لا أصدّقك، لكنّني لست خائفة من المحاولة الآن».

مجدّدًا جاءها صوته عبر الهاتف:

«لن أتزوّجك يا إلّي».

Twitter: @ketab_n

«حسنًا حبيبي. أؤكّد لك أنّني لم أعد أخشى المحاولة. عند الفجر تمامًا. سأكون في انتظارك».

ذهبت إلى المصرف. بعد وهلة فرغ فيليب من عمله وجاء إليها حيث انتظرته، وجهها شاحب ومتوتّر تحت البودرة، عيناها حادّتان برّاقتان:

«هناك شيء يجب أن تفعله من أجلي. من الصعب أن أطلبه منك، وأظنّ أنّ فعله سيكون صعبًا أيضًا».

«بالتأكيد سأفعله. ما هو؟».

«جدّتي ستعود يوم الأحد إلى البيت. أمّي تريدنا أن نذهب معًا السبت ونحضرها معنا».

«حسنًا، أستطيع الذهاب يوم السبت».

«أجل، لكن كما قلت لك، سيكون الطلب صعبًا... لا أريدك أن ترافقني».

«لا تريدينني أن أرافقك...».

تفرّس في وجهها المشعّ الذي يكاد يكون مسعورًا:

«أتريدين الذهاب بمفردك؟».

لم تجب، وظلّت تحملق به. وأخيرًا دنت منه ومالت نحوه بحركة سبق لها التمرّن عليها بصورة أوتوماتيكيّة، وحملت إحدى ذراعيه ولفّتها حولها، فقال لها:

Twitter: @ketab_n

«أوه، فهمت، تريدين الذهاب مع شخص آخر».

«أجل، لا أستطيع أن أشرح لك الأمر الآن. لكنّني سأفعل لاحقًا. لكنّ أمّي لن تفهم البتّة. لن تسمح لي بالذهاب ما لم تعتقد أنّني ذاهبة برفقتك».

«فهمت».

كانت ذراعه بلا حياة؛ أبقتها حولها.

«تريدين الذهاب مع رجل آخر».

ضحكت ضحكة قصيرة خفيضة:

«لا تتحامق هكذا. أجل. سيكون هناك رجل آخر في الحفلة. شخص لا تعرفه ولا أتوقّع أن أراه ثانية قبل الزواج. لكن أمّي لن تفهم. لهذا السبب عليّ أن أطلب ذلك منك. هل أنت موافق؟».

«حسنًا. لا بأس. إذا لم نكن قادرين على تبادل الثقة، فما فائدة أن نتزوّج».

«أجل، يجب أن يثق أحدنا بالآخر».

تركت ذراعه. وراحت تحملق في عينيه، بترقّب، وازدراء بارد حائر:

«وستجعل أمّي تظنّ...».

«يمكنك الوثوق بي. تعرفين ذلك».

Twitter: @ketab_n

«أجل إنّي واثقة من ذلك».

ثم رفعت يدها فجأة:

«إلى اللقاء».

«إلى اللقاء؟».

مالت عليه مجدّدًا، وقبّلته:

«انتبهي قد يرانا...».

«أجل، إلى وقت لاحق إذن، حتى أشرح لك». وخطت إلى الخلف، ونظرت إليه بسهو وترقّب:

«هذه آخر مرّة أسبّب لك فيها المتاعب. ربّما سيكون هذا مجزيًا بالنسبة إليك. إلى اللقاء».

كان ذلك عصر يوم الخميس. صباح السبت، فجرًا، حين ركن بول سيّارته أمام البيت المظلم بدت كأنّها برزت أمامه دفعة واحدة، قاطعة المرج عدوًا. وصعدت إلى السيّارة قبل أن يمدّ يده ويفتح الباب، واتّخذت مكانها بسرعة، منحنية إلى الأمام، مستنفرة كحيوان. «أسرع»، قالت له، «أسرع! أسرع! أسرع!».

لكنّه أبقى السيّارة واقفة برهة أخرى:

«تذكّري أنّني قلت لك ما معنى أن أعود، حسنًا؟».

«سمعتك. أؤكّد لك أنّني لست خائفة من المخاطرة الآن. عجّل! عجّل!».

Twitter: @ketab_n

وبعدها، بعد عشر ساعات، مع تزايد لافتات مدينة ميلز سيتي وتسارعها، قالت له:

«لن تتزوّجني إذن؟ لن تفعل؟».

«لطالما قلت لك ذلك».

«أجل لكنّني لم أصدقك. لم أصدّقك. ظننت أنّه بعد أن.. والآن لم يعد هناك ما أستطيع فعله، أليس كذلك؟».

«لا».

«لا». كرّرت الكلمة. ثم شرعت بالضحك، وأخذ صوتها يرتفع تدريجيًا.

«إلّي، كفّي فورًا عن هذا».

«حسنًا، كلّ ما في الأمر أنّني تذكّرت جدّتي. كنتُ قد نسيت أمرها كليًّا».

واقفة أسفل السلّم، سمعت إلّي بول وعمّها وعمّتها يتحادثون في غرفة المعيشة. وقفت متجمّدة تمامًا، متفكّرة، أشبه براهبة عذراء، كأنّها تتموضع أمام رسّام، كأنّها فرّت للحظة إلى مكان نسيت فيه من أين جاءت وإلى أين تنوي الذهاب. ثم دقّت ساعة الصالة إحدى عشرة دقّة، فتحرّكت إلّي. صعدت الدرج بهدوء واتّجهت صوب مخدع ابنة عمّها التي يفترض أن تشغلها هذه

Twitter: @ketab_n

الليلة. وجدت الجدّة جالسة على كرسيّ واطئ قرب نضد الزينة المحتشد بالأشياء العابثة لفتاة صغيرة: قنانٍ، ومساحيق تجميل، وصور فوتوغرافيّة، وسلسلة من دروس الرقص عُلّقت على إطار المرآة. وقفت إلّي. تبادلنا النظرات برهة كاملة قبل أن تنطق العجوز:

«لست راضية عن خداعك لأبويك وأصدقائك، أن تدخلي زنجيًّا إلى منزل ابني بوصفه ضيفًا».

«جدّتي!».

«تتركينني أجلس على الطاولة نفسها مع زنجي».

«جدّتي!». صرخت إلّي بذلك الهمس المكتوم، وقد علت وجهها ابتسامة صفراويّة مربكة. أصاخت السمع على وقع أقدام ترتقي السلّم. أقدام عمّتها وبول. «صه»، صرخت بجدّتها «صه».

«ماذا، ماذا قلت؟».

هرعت إلّي إلى الكرسي وانحنت فوق العجوز ووضعت يدها على فمها الرفيع الخالي من الدماء، وراحت الاثنتان ـ إحداهما بإلحاح شرس، والأخرى بعناد شرس، تتفرّسان، عبر اليد إحداهما بالأخرى بينما تجاوزت الأقدام الباب ثم اختفت. رفعت إلّي يدها. ثم سحبت واحدة من سلسلة الصور المعلّقة على المرآة وكتبت بقلم

Twitter: @ketab_n

الرصاص الصغير على قفا البطاقة. إنّه ليس زنجيًّا. لقد درس في ڤرجينيا وهارفرد وكلّ مكان.

قرأت الجدّة البطاقة. ثم رفعت رأسها:

«أفهم هارفرد، لكن ليس ڤرجينيا[1]. انظري إلى شعره، إلى أظافره، إذا كنتِ في حاجة إلى برهان. أمّا أنا فلا أحتاج. أعرف الاسم الذي كانت تحمله عائلته قبل أربعة أجيال».

أعادت إليها البطاقة:

«لا يجب أن ينام هذا الرجل تحت هذا السقف!».

سحبت إلي بطاقة أخرى وكتبت سريعًا: بل سينام. إنّه ضيفي. أنا دعوته إلى هنا. أنت جدّتي ولن تقبلي أن أعامل أيّ ضيف بهذه الطريقة ولو كان كلبًا.

قرأت الجدّة البطاقة. جلست والبطاقة في يدها:

«لن يوصلني إلى جيفرسون. لن أضع قدمًا في سيّارته، ولا أنت كذلك. سنعود بالقطار. لن يركب دم يتحدّر من صلبي معه مجدّدًا».

---

(١) بحسب الجدّة التخفيف من أشكال الفصل العنصري في الشمال حيث تقع هارفرد (ولاية ماستشوسيتس وهي أول ولاية أميركيّة تحظّر العبوديّة) أمر مفهوم، لكنّ الأمر مختلف في فرجينيا، وهي من أبرز ولايات الجنوب.

Twitter: @ketab_n

سحبت إلّي بطاقة أخرى، وكتبت بعنف: سأفعل. لا يمكنك منعي. حاولي أن تمنعيني.

قرأت الجدّة البطاقة. رفعت رأسها. حدّقت بها:

«سأضطرّ إذن إلى أن أخبر والدك».

كانت إلّي قد شرعت بالكتابة قبل أن تنهي جدّتها جملتها. دسّت البطاقة بيدها قبل أن يتوقّف القلم عن الكتابة تقريبًا. ثم في اللحظة نفسها حاولت أن تخطفها مجدّدًا من يدها. لكنّ الجدّة كانت قد أمسكت طرفها عندئذ وراحت كلّ منهما تحدّق بالأخرى، وقد ضمّتهما البطاقة كحبل دنس غريب. «دعيها»، صرخت إلّي، «أفلتيها». وقالت الجدّة «اتركيها».

«انتظري»، صرخت إلّي بصوت رفيع هامس، وهي تشدّ البطاقة وتلويها «لقد ارتكبت خطأ. لقد...». ثم بحركة خاطفة، لوت الجدّة البطاقة إلى أعلى بينما إلّي تحاول خطفها من يدها.

«آه»، قالت، ثم قرأت بصوت عال، أخبريه. ما الذي تعرفينه، ثم قالت:

«أرى أنّك لم تكملي العبارة. ما الذي أعرفه؟».

«أجل»، قالت إلّي. ثم بدأت تتكلّم بهمس مسعور:

«أخبريه! أخبريه أنّك رأيتنا في تلك الأيكة هذا الصباح وأنّنا بقينا هناك ساعتين. أخبريه!».

Twitter: @ketab_n

طوت الجدّة البطاقة بعناية وصمت. ثم نهضت. وصرخت إلّي:

«جدّتي!».

«ناوليني عكّازي، هناك إلى الجدار».

حين خرجت الجدّة اتّجهت إلّي صوب الباب وأنزلت سقّاطة الباب وعبرت الغرفة مجدّدًا. كانت تتحرّك ببطء، وهي تخرج لباس نوم من خزانة ابنة عمّها، ثم نضت عنها ملابسها، ببطء، متوقّفة لكي تتثاءب بشدّة. ثم قالت بصوت مرتفع: يا إلهي، كم أنّني متعبة. جلست إلى نضد الزينة وبدأت تطلي أظافرها بعدّة ابنة عمّها. كانت ثمّة ساعة عاجيّة صغيرة على الطاولة. راحت تنظر إليها من وقت لآخر.

ثم أعلنت الساعة في الأسفل منتصف الليل. جلست لحظة إضافيّة متأمّلة أظافر يدها اللمّاعة، مصغية إلى الدقّة الأخيرة. ثم نظرت إلى الساعة العاجيّة، محدّثة نفسها: أكره مرافقتك بالقطار. وبينما هي تتأمّل وجهها في المرآة راح يعلوه ثانية ذلك القنوط الغريب لفترة العصر. ذهبت صوب الباب وعبرت إلى الردهة المعتمة. وقفت في العتمة، على قدميها الحافيتين، محنية رأسها، مردّدة لنفسها بطفوليّة ملؤها الإشفاق على النفس: كلّ شيء ضدّي، كلّ شيء. حين مشت لم تصدر قدماها صوتًا. مشت مادّةً ذراعيها

Twitter: @ketab_n

في العتمة. أحسّت أنّ مقلتيها تدوران دورة كاملة في فراغ تامّ وتعودان إلى جمجمتها بحصيلة إبصار ما. دخلت إلى الحمّام وأقفلت الباب. ثم استحوذت عليها حال من العجلة والإلحاح. هرعت إلى الجدار الذي خلفه غرفة الضيوف وانحنت حاصرة الصوت في الزاوية بيديها. «بول!» همست، «بول»، ممسكة بأنفاسها بينما فشل همسها الخفيض اللجوج في اختراق البلاستر الأبيض. انحنت، غريبة في ثياب النوم المستعارة، مقلتاها الضريرتان تدوران في العتمة بيأس. هرعت إلى حجرة الغسيل، عثرت على الحنفيّة في العتمة وأدارت الماء معدّلة تساقطه إلى الحدّ الأدنى بحيث يظلّ يسقط رتيبًا نفاذًا. ثم فتحت الباب ووقفت خلفه تمامًا. سمعت الساعة في الأسفل تدقّ معلنة مرور نصف ساعة. لم تتحرّك، وراحت ترتجف ببطء كأنّما تشعر بالبرد، حين دقّت الساعة الواحدة.

سمعت صوت بول ما إن غادر غرفة الضيوف. سمعته ينزل إلى الصالة؛ سمعت يده تبحث عن زرّ الإضاءة، وحين ضغطه اكتشفت أنّ عينيها كانتا مغمضتين.

«ما هذا؟»، قال بول. كان يلبس واحدة من بيجامات عمّها، «اللعنة ما هذا». همست قائلة:

«أقفل الباب».

Twitter: @ketab_n

«اللّعنة. أيّتها الخرقاء. أيّتها الخرقاء الصغيرة».

«بول!».

تشبّثت به كأنّها تتوقّع أن يفرّ. ثم أقفلت الباب وراحت تبحث عن السقّاطة حين أمسك معصمها.

«دعيني أخرج من هنا».

مالت عليه، وهي ترتعش ببطء، متشبّثة به. كانت عيناها قاتمتين تمامًا:

«سوف تخبر أبي. ستخبر أبي غدًا يا بول».

أخذ الماء، بين الهمسات، ينقّط بإيقاع بطيء منخفض.

«تخبره بماذا؟ ما الذي تعرفه هي؟».

«احتضنّي يا بول».

«لا. دعيني. لنخرج من هنا».

«بلى. تستطيع فعل شيء ما. يمكنك أن تمنعها من إخبار أبي».

«كيف أستطيع ذلك؟ اللّعنة. أفلتيني!».

«ستشي بي، لكن لن يكون مهمًّا عندها. عدني يا بول، قل إنّك ستفعل».

Twitter: @ketab_n

«أتزوّجك؟ أهذا ما تتكلّمين عنه؟ أخبرتك أمس أنّني لن أفعل».

«حسنًا، حسنًا»، قالت بهمس ملحاح، «أصدّقك الآن. لم أصدّقك في البداية لكنّني أصدّقك الآن. ليس ضروريًّا أن تتزوّجني إذن. تستطيع حلّ الموضوع من دون أن تتزوّجني». تشبّثت به، شعرها، جسدها، مفعم بالأمل الباهت:

«لست مضطرًّا إلى الزواج بي. أتفعل ذلك؟».

«أفعل ماذا؟».

«اسمع. أتذكر ذلك المنعطف ذا السياج الأبيض الصغير حيث الهاوية السحيقة؟ ماذا لو اخترقت سيّارة هذا السياج...».

«أجل. ماذا لو حصل ذلك؟».

«اسمع. أنت وهي ستكونان في السيّارة. لن تعرف. لن يكون أمامها الوقت لتشكّ في الأمر. وذلك السياج الصغير غير قادر على ردع شيء، وسيعتبره الجميع حادثًا. إنّها عجوز؛ لن يستغرق الأمر طويلاً، ربّما تكفي الصدمة، وأنت شابّ ولن يكون الأمر حتى... بول! بول!».

أخذ صوتها يضمحلّ ويتلاشى، مع كل كلمة تلفظها، ويصير إيقاعه ميتًا من شدّة اليأس والاستنفار، بينما هو ينظر إلى وجهها الشاحب، إلى عينيها المليئتين يأسًا وأملاً:

Twitter: @ketab_n

«بول».

«وأين ستكونين طوال هذا الوقت؟».

لم تحرك وجهها كأنّها تسير في نومه:

«أوه. ستعودين بالقطار أليس كذلك؟».

«بول!»، قالت بذلك الهمس المتطاول المحتضر، «بول!».

لحظة ضربه لها، يده، كما لو ترفض المهمّة من تلقاء نفسها، انفتحت ولمست وجهها بحركة طويلة مرتجفة تكاد تكون تربيتة. مجدّدًا، قابضًا على عنقها من الخلف، حاول أن يضربها؛ مجددًا يده، أو شيء ما، لم تستجب، وحين طرحها بعيدًا عنه تعثّرت إلى الخلف صوب الجدار. ثم توقّفت رجلاه عن المضي نحوها ثم بدأت المياه تملأ الصمت بوقعها البطيء الرتيب. بعد لحظات أعلنت الساعة التي في الأسفل الثانية، واتّجهت إلّي منهكة متثاقلة نحو الحنفيّة وأقفلتها.

لكن هذا لم يوقف صوت المياه التي ظلّت تنقّط في الصمت حين استلقت على ظهرها على السرير، مستيقظة، وغير مفكّرة بشيء. ظلّت المياه تنقّط بينما مضت، وراء ابتسامتها المتجلّدة على وجهها المتألّم، في طقس تناول الإفطار والمغادرة، الجدّة بينها وبين بول في المقعد الأمامي. حتى صوت السيّارة لم يستطع أن يحجب صوت المياه، حتى أدركت فجأة ما الأمر. حدّثت نفسها: إنّها

Twitter: @ketab_n

اللاّفتات، وهي تراها تنسحب بسرعة إلى الخلف، أتذكّر هذه اللافتة. بقي الآن ميلان. سأنتظر حتى اللافتة التالية؛ ثم سوف... الآن، الآن. صرخت: «بول». لم ينظر إليها:

«هل ستتزوّجني؟».

«لا».

ولم تكن بدورها تنظر إلى وجهه بل إلى يديه الثابتتين على المقود. بينهما جلست الجدّة، منتصبة الظهر، صلبة تحت القبّعة السوداء القديمة، تنظر أمامها مباشرة كصورة جانبيّة اقتُطعت من كتاب.

«سأسألك لآخر مرّة، ثم سيكون قد فات الأوان. أقول لك سيكون قد فات الأوان عندها يا بول... بول؟».

«لا. أؤكّد لك أنت لا تحبّينني. ولا أنا أحبّك. ولم نقل أبدًا إنّنا متحابّان».

«حسنًا، ليس حبًّا إذن. أتتزوّجني من دونه؟ تذكّر سيكون قد فات الأوان».

«لا، لن أتزوّجك».

«لكن لماذا؟ لماذا يا بول؟».

لم يجب. مضت السيّارة. وصلوا إلى اللافتة الأولى التي

Twitter: @ketab_n

لاحظتها، فكّرت بهدوء: لا بدّ من أنّنا أوشكنا على الوصول. إنّه المنعطف التالي. قالت بصوت مرتفع، العجوز الصمّاء بينهما:

«لماذا يا بول؟ إذا كانت قصّة الدم الزنجي تلك فأنا لا أصدّقها. ولا تهمّني».

ثم فكّرت في نفسها: أجل، هذا هو المنعطف. بدأ الطريق بالانحراف والهبوط. شدّت نفسها إلى الخلف، ثم رأت جدّتها تنظر بالكامل إليها. لكنّها لم تحاول أن تواري وجهها أو عينيها، أكثر ممّا حاولت أن تحجب صوتها:

«افترض أنّني أحمل طفلاً؟».

«أفترض أنّك تفعلين؟ أستطيع حلّ الموضوع الآن. كان عليك التفكير في الأمر. تذكّري، أنت أرسلت بطلبي. أنا لم أطلب ذلك».

«لا، لم تطلب. أنا أرسلت بطلبك. أنا اختلقتك. وهذه المرّة الأخيرة. أتتزوّجني؟ أسرع!».

«لا».

«حسنًا».

شدّت نفسها إلى الخلف؛ في تلك اللحظة بدا الطريق ينقطع قبل أن يندفع عميقًا إلى الأسفل باتجاه الجرف؛ بدأ السياج الأبيض ينسحب إلى الخلف. بينما طرحت رداءها جانبًا رأت جدّتها ما

Twitter: @ketab_n

زالت شاخصة نحوها؛ وبينما مالت أكثر على ركبتي العجوز تبادلتا النظرات مباشرة ـ الفتاة اليائسة المنهكة والمرأة العجوز التي بات يفوت سمعها منذ زمن طويل كل شيء ولا يفوت عينيها شيء ـ للحظة عميقة من الإنذار الأخير اليائس والرفض اللدود. «موتي إذن!»، صرخت في وجه العجوز، «موتي»، ممسكة المقود بينما راح بول يحاول صدّها عنه. لكنّها تمكّنت من وضع كوعها على المقود ملقية كل ثقلها عليه، منبطحة فوق جسد الجدّة، ممسكة المقود بينما بول يحاول لكمها على فمها. «أوه»، صرخت، «تضربني. تضربني!». حين ارتطمت السيّارة بالسياج حرّرتها، بحيث لبرهة تمدّدت بخفّة مثل طائر يحطّ على صدر بول، فمها مفتوح، وعيناها مدوّرتان من الصدمة. «تضربني!»، ناحت. ثم راحت تسقط بحريّة، وحيدة في صمت تامّ ومسالم يشبه الفراغ. وجه بول، جدّتها، السيّارة، اختفت كلّها، تبخّرت كما بفعل سحر؛ بالتوازي مع عينيها، السياج الأبيض المهشّم، حافّة الجرف المتداعية حيث يهمس الغبار وغيمة منه تتشكّل مثل بالون، وترتفع ببطء نحو السماء.

فوق رأسها في مكان ما عبر صوت، متلاشيًا ـ شخير المحرك، الهسهسة الطويلة للعجلات على الحصى، ثم تنهّدت الرّيح في الأشجار ثانية، هازّة أعاليها تحت السماء. على أحد جذوع الأشجار تعلّقت السيّارة في كتلة متشابكة، وجلست إلّي في ركام من

Twitter: @ketab_n

الزجاج المحطّم، محدّقة به ببلادة. لقد حدث شيء ما، قالت ناشجة، لقد ضربني. وها قد ماتا الآن؛ أنا الجريحة فقط ولن يأتي أحد لنجدتي. أنّت قليلاً، ناشجة. ثم بذهول دائخ رفعت يدها. كانت راحتها حمراء ورطبة. جلست، تنتحب بصمت، وتنظر بذهول إلى راحة يدها. الزجاج يغطّيها ولا أستطيع أن أراها حتى، قالت منتحبة محدّقة في راحة يدها بينما الدم الدافئ يتسرّب ببطء إلى تنّورتها. مجدّدًا تكرّر الصوت عاليًا فوقها وتلاشى. نظرت إلى أعلى، متتبّعة إيّاه: ها هي سيّارة أخرى تمضي، انتحبت، لن يتوقّفوا حتى ليروا إذا كنتِ مصابة.

Twitter: @ketab_n

العمّ ويلي[1]

I

أعرف ماذا زعموا. زعموا أنّني لم أهرب من البيت، بل اختطفني مجنون، وأنّه كان، لو لم أسبقه إلى ذلك، سيقتلني في غضون أسبوع آخر. لكنّهم لو قالوا إنّ النسوة، نسوة جيفرسون التقيّات، هنّ اللواتي جعلن العمّ ويلي يفرّ من البلدة، وأنّني تبعته وفعلت ما فعلته لأنّني كنتُ أعلم أنّه يخوضُ آخر جولاته، وأنّهم حين يقبضون عليه هذه المرّة فستكون الأخيرة والنهائيّة، لكانوا محقّين. لأنّني لم أُختطفَ والعمّ ويلي لم يكن مجنونًا، ولا حتى بعد كلّ ما فعلوه به. لم أكن مضطرًّا إلى اللّحاق به، مثلما لم يكن هو مضطرًّا إلى دعوتي بدلاً من أن يعتبر رغبتي في الذهاب من المسلّمات. ذهبت لأنّ العمّ ويلي كان أفضل رجل عرفته، فحتى النسوة التقيّات لم يتمكّنّ من هزمه، لأنّه رغم أنوفهنّ عاش مستمتعًا بحياته، ومات وهو يفعل الأمر الأكثر متعة له لأنّه وجدني قربه

(١) العم ويلي: كُتبت عام ١٩٣٥ ونُشرت في العام نفسه في «أميركان ميركوري».

Twitter: @ketab_n

لمساعدته. وهذا أمر لا يفعله معظم الرجال ولا معظم النساء، ولا حتى اللواتي يسمّين العبث بحيوات الآخرين مرحًا.

لم يكن عمّ شخص محدّد، بل عمّنا جميعًا، وكان كبار السنّ أيضًا ينادونه (أو يعتبرونه) العمّ ويلي. لم يكن له من أقرباء سوى أخت تعيش في تكساس، متزوّجة من مليونير نفطي. وكان يعيش بمفرده في ذلك البيت الصغير الأبيض النظيف الذي وُلد فيه على أطراف البلدة، وكان لديه خادم زنجي يُدعى جوب وايلي يكبره سنًّا، وكان يتولّى الطبخ والاهتمام بالبيت كما كان الحاجب في الصيدليّة التي أسّسها والد العمّ ويلي، وكان العمّ ويلي يديرها من دون أيّ مساعدة من أحد سوى العجوز جوب؛ وخلال فترة الاثني عشر عامًا أو الأربعة عشر عامًا (عمرنا نحن الأطفال ثم الفتيان)، بينما كان يستعمل المخدّر فحسب، كنّا نراه كثيرًا. كنّا نحبّ الذهاب إلى متجره لأنّه كان دائمًا باردًا ومعتمًا وهادئًا لأنّه لم يكن ينظّف النوافذ إطلاقًا، وكان يقول لنا إنّ سبب عدم اضطراره إلى وضع ستائر عليها هو أنّ أحدًا لا يستطيع الرؤية على أيّ حال، كما أنّ حرارة الشمس لم تكن تستطيع النفاذ. ولم يكن له أيّ زبائن ما عدا أهل الريف الذين يشترون عقاقير مرخّصة موضوعة أساسًا في قوارير، والزنوج الذين يشترون النرد وورق اللعب، لأنّ أحدًا لم يُسمح له بأن يكتب وصفة طبّيّة منذ أربعين عامًا على ما أظنّ، ولم يكن يبيع المرطّبات والمثلّجات لأنّ جوب العجوز كان يغسل القناني

Twitter: @ketab_n

ويعدّ المرطبات ويحضّر الآيس كريم منذ بدأ والد العمّ ويلي بهـذه التجارة، في وقت ما من خمسينيّات القرن الثامن عشر، وقد أصبح نظر العجوز جوب ضعيفًا، مع أنّ أبي قال إنّه لا يعتقد أنّه يتعاطى المخدّرات أيضًا، بل كان السبب استنشاقه يوميًّا، وليل نهار، الهواء نفسه الذي يتنفّسه العمّ ويلي.

لكنّنا كنّا نحبّ تناول الآيس كريم حـين نعـود مـن لعبـة البايسبول. كان لدينا رابطة من ثلاث فرق في البلدة، وكـان العـمّ ويلي يمنح جائزة، كرة أو مضربًا أو قناعًا، بعد كل مباراة وإن لم يكن يأتي أبدًا لمشاهدة المباريات، وهكذا بعد المباراة كان يقصـده الفريقان المتنافسان أو الأفرقاء الثلاثة معًا لكي يروا الفريق الفـائز يحصل على الجائزة. وكنّا نتناول الآيس كريم ثم نـذهب جميعًـا وراء صندوق الوصفات ونشاهد العمّ ويلي يشعل موقـد الكحـول الصغير، ويملأ الإبرة ويرفع كمّ قميصه إلـى مـا فـوق الثقـوب الزرقاء الصغيرة التي تبدأ عند مرفقه. واليوم التالي يكـون يـوم الأحد فنجلس وننتظر في باحات منازلنا لكي ننضمّ إليه وهو يمـرّ من بيتٍ إلى بيت، ثم إلى مدرسة الأحد، ثم يجلس معنا ويستمع إلينا بينما ننشد، من دون أن يطلب منه المعلّم مستر بربور المشـاركة بتاتًا. ثم ننهي الدرس والعمّ ويلي ممعنٌ في صمته، فقـط يجلـس هناك مرتّبًا ونظيفًا، بياقة قميصه النظيفة التي بـلا ربطـة عنـق، ووزنه الذي لا يتجاوز المئة وعشرة باوندات، وعينـاه متـداخلتان

Twitter: @ketab_n

وراء نظّارتيه مثل البيض المكسور. ثم نذهب جميعًا إلى المتجر ونتناول الآيس كريم الذي تبقّى من يوم السبت، ثم نقف وراء صندوق العقاقير ونشاهده مجدّدًا: الموقد الصغير وكمّ قميص الأحد الخاصّ به مرفوعًا والإبرة تنغرز ببطء في ذراعه الزرقاء وقد يسأله أحدنا:

«ألا تؤلمك؟».

فيجيبه:

«لا. أحبّها».

II

ثم أرغموه على الإقلاع. كان يتعاطى المخدّرات منذ أربعين عامًا، مثلما أخبرنا ذات مرّة، والآن هو في الستّين وما زالت أمامه عشر سنوات إضافيّة على الأقلّ، غير أنّه لم يخبرنا ذلك، لأنّه لم يكن مضطرًّا لإخبار أحدٍ حتى الفتيان الذين هم في الرابعة عشرة بذلك. لكنّهم أجبروه على الإقلاع. ولم يستغرقهم الأمر طويلاً. بدأ الأمر صباح يوم أحد وانتهى يوم الجمعة التالي؛ كنّا قد استقرّينا على مقاعدنا في الصفّ وبدأ مستر بربور بالدرس لتوّه، حين دخل المحترم شولتز، الكاهن، فجأةً، ومال على العمّ ويلي حاثًّا إيّاه على

Twitter: @ketab_n

النهوض بتلك اللهجة التي يكلّم بها الوعّاظ أولاد الرابعة عشرة التي لا أظنّ أنّ الفتيان المخنّثين أنفسهم يحبّونها:

«الآن يا أخي في المسيحيّة، أعرف أنّك تكره مغادرة صفّ الأخ بربور، لكن دعنا نذهب معًا وننضمّ إلى الأخ ميلر والباقين ونسمع ما لديه ليخبرنا به عن هذا الكتاب الرائع الذي يدخل الدفء إلى القلوب»، والعم ويلي يحاول مقاومة النهوض ويتلفّت حوله، ناظرًا إلينا، وعيناه المتشابكتان تطرفان وتقولان بوضوح أكبر من الكلام: «ما هذا؟ ما هذا يا أصحاب؟ ما الذي يدبّرونه لي؟».

لم نكن نعرف أكثر ممّا يعرف. أنهينا الدرس فحسب، ولم نتكلّم البتّة عن البايسبول ذلك اليوم، ومررنا بالحجرة التي يقدّم فيها الأخ ميلر ورجاله دروسهم، وكان المحترم شولتز جالسًا في وسطهم مثلما يفعل كل يوم أحد، كأنّما هو مجرّد رجل عادي مثلهم جميعًا، ومع ذلك يبرز بينهم كأنّه غير مضطرّ إلى التكلّم أو التحرّك لكي يظلّوا متنبّهين إلى أنّه ليس برجل عادي؛ ودائمًا ما يذكّرني ذلك بكذبة أول أبريل ذات سنة، حين نادت المعلّمة أسماء الحاضرين ثم نزلت عن مكتبها وقالت «الآن سأكون تلميذة»، واحتلّت مقعدًا شاغرًا ونادت اسمًا وجعلته يذهب إلى مكتبها ويشرح الدرس. كان ذلك ليكون رائعًا فقط لو استطعت أن أكفّ عن التذكّر أنّ يوم غد لن يكون كذبة أول نيسان، وأنّ اليوم الذي بعده لن يكون كذلك أيضًا. جلس العمّ ويلي بجانب المحترم شولتز وقد بدا أكثر

Twitter: @ketab_n

ضآلة من أيّ وقت مضى، وتذكّرت ذات يوم من الصيف الماضي حين أخذوا رجلاً ريفيًا يدعى بوندرن إلى المصحّة في جاكسون لكنّه لم يكن فاقد العقل كليًّا بحيث يجهل إلى أين يأخذونه، وجلس هناك عند نافذة العربة مقيّد اليدين بحراسة شريف سمين كان يدخّن سيجارًا.

ثم انتهى الدرس وخرجنا ننتظره لكي نذهب إلى المتجر ونتناول الآيس كريم. ولم يخرج. لم يخرج حتى بعد انتهاء الكنيسة، وكانت تلك هي المرّة الوحيدة في حياته التي يبقى فيها في الكنيسة مثلمًا أخبرني أبي لاحقًا، ليخرج لاحقًا محاطًا بالسيّدة مريدو من جانب والمحترم شولتز من الجانب الآخر يمسكه من ذراعه، وهو ينظر حوله ويرنو مجدّدًا نحونا وعيناه تقولان، إنّما بيأس هذه المرّة: «ما هذا يا أصحاب؟ ما هذا يا أصحاب؟»، والمحترم شولتز يدخله إلى سيّارة السيّدة مريدو وهي تخاطبه بصوت مرتفع كأنّها تقف على منبر الوعظ في الكنيسة:

«الآن أيّها الأخ المسيحي سأصحبك مباشرة إلى بيتي وأحضّر لك كوبًا منعشًا من الليموناضة، ثم نتناول عشاء دجاج شهيّ، ثم تأخذ قيلولة على سريري المعلّق، بعدها سيأتي الأخ والأخت شولتز ونتناول الآيس كريم اللذيذ معًا».

والعمّ ويلي يقول:

Twitter: @ketab_n

«لا، مهلك يا سيّدتي، مهلك! عليّ الذهاب إلى الصيدليّة وتحضير وصفة وعدت أحدهم بها هذا الصباح».

وضعوه في السيّارة وهو يرنو إلى الخلف نحونا؛ اختفى عن أبصارنا بهذه البساطة، جالسًا داخل سيّارة السيّدة مريدو مثل داريل بوردن والشرطي في القطار، وأظنّ أنّ معصمه كان مرفوعًا وأظنّ أنّه لم يكن بحاجة إلى أيّ صفّادات، والعمّ ويلي ينظر إلينا تلك النظرة الوحيدة المفعمة ذهولاً وقنوطًا.

لأنّه الآن كان قد تأخّر ساعة على موعد إبرته، وتلك العصريّة حين فرّ أخيرًا من السيّدة مريدو كان قد تأخّر عنها خمس ساعات ولم يستطع حتى إدخال المفتاح في الخزانة، وأمسكت به السيّدة مريدو والمحترم شولتز، وهذه المرّة لم يكن يتكلّم ولا ينظر حتى، بل حاول الفرار، مثل هرّ نصف برّي يحاول الفرار. أخذوه إلى منزله وأبرقت السيّدة مريدو إلى أخته في تكساس. ولم يأت العمّ ويلي إلى البلدة لثلاثة أيّام لأنّ السيّدة مريدو والسيّدة هوفيز تبادلتا ملازمته في البيت ليل نهار، ريثما تصل أخته. كانت عطلة آنذاك ولعبنا الكرة يوم الإثنين وعصر ذلك اليوم كان المتجر ما يزال مقفلاً والثلاثاء أيضًا، وحتى عصر الأربعاء حين رأينا العمّ ويلي يأتي راكضًا.

لم يكن يلبس قميصًا ولم تكن ذقنه حليقة، ولم يستطع إدخال المفتاح في الصندوق على الإطلاق، وكان ينشج ويقول لاهثًا:

Twitter: @ketab_n

«غفت أخيرًا، لقد غفت أخيرًا».

أخذ أحدنا المفتاح منه وفتح الصندوق. كان علينا أن نشعل الموقد الصغير أيضًا ونملأ الإبرة، وهذه المرّة لم تنغرز في ذراعه ببطء، بل بدا يطعن نفسه بها طعنًا في عظامه مباشرة. ولم يعد إلى بيته. قال إنّه لا يحتاج إلى ما ينام عليه وأعطانا المال وأخرجنا من الباب الخلفي، فاشترينا الشطائر وزجاجة القهوة من المقهى وتركناه هناك.

في اليوم التالي جاءت السيّدة مريدو والمحترم شولتز وثلاث نسوة أخريات، وتركوا المارشال يخلع الباب، وأمسكت السيّدة مريدو بالعمّ ويلي من رقبته من الخلف وراحت تهزّه، ونوعًا ما تهمس في أذنه:

«أيّها البائس المسكين! أيّها البائس! أهكذا تهرب منّي، أهكذا؟».

والمحترم شولتز يقول لها:

«هدّئي من روعك أيّتها الأخت، أيّتها الأخت سيطري على أعصابك».

والنسوة الأخريات يزعقن في وجهه: «أيّها الأخ المسيحي» و«أيّها العمّ ويلي» و«يا ويلي»، بحسب أعمارهنّ أو طول إقامتهنّ في جيفرسون. لم يتطلّب الأمر وقتًا طويلاً. وصلت الأخت من

Twitter: @ketab_n

تكساس تلك الليلة، ومررنا بالبيت ورأينا السيّدات على الشرفة الأماميّة أو يدخلن إلى البيت ويخرجن منه، ومن وقت لآخر كان المحترم شولتز يبرز فجأة من بينهم كما في صفّ السيّد ميلر الإنجيلي. زحفنا خلف السياج وسمعناهم عبر النافذة، وسمعنا العمّ ويلي يصرخ ويشتم، ويكافح للنهوض من السرير والسيّدات يقلن له: «اهدأ أيّها الأخ المسيحي، اهدأ، أيّها العمّ ويلي»، وأيضًا «اهدأ أيّها المدمن»، أخته كانت هناك أيضًا، والعم ويلي يبكي ويصلّي ويشتم. ثم كان يوم الجمعة واستسلم. وسمعناهم يحبسونه في السرير، أظنّ أنّ هذه كانت آخر جولاته لأنّ أحدًا منهم لم يعد لديه الوقت ليتكلّم، ثم سمعناه يتكلّم بصوت واهن إنّما واضح ويتنفّس بانتظام:

«انتظروا، مهلاً! سأطلب ذلك منكم مرّة أخيرة. ألن تتوقّفوا رجاء؟ ألن ترحلوا من فضلكم؟ ألن تذهبوا رجاء إلى الجحيم وتتركوني وشأني فحسب؟»

وأجابته السيّدة مريدو:

«لا أيّها الأخ المسيحي، إنّنا نفعل ذلك لكي ننقذك».

لدقيقة لم نسمع شيئًا. ثم سمعنا العمّ ويلي يستلقي على السرير، كما لو أنّه يرتمي ارتماء. ثم قال:

«حسنًا، حسنًا».

Twitter: @ketab_n

كان يشبه واحدًا من تلك الحملان التي يضحّون بها كما في الإنجيل. كأنّما صعد إلى المذبح بنفسه وارتمى على ظهره رافعًا عنقه إلى الأعلى قائلاً:

«حسنًا. هيّا، فلننه الأمر. جزّوا عنقي واذهبوا ودعوني أستلقي بسكينة في النار».

III

مرض طويلاً. أخذوه إلى ممفيس وقالوا إنّه يُحتضر. ظلّ المتجر مقفلاً، وبعد بضعة أسابيع تخلّينا حتى عن رابطة البايسبول. لم يكن الأمر يتعلّق بالكرات وبالمضارب فحسب. لم يكن الأمر كذلك. كنّا نمرّ بالمتجر وننظر إلى القفل الكبير القديم على بابه، وإلى النوافذ التي لم نعد نرى من خلالها حيث كنّا نتناول الآيس كريم، وحيث كنّا نخبره من الذي فاز ومن قام بالحركات الجيّدة، وهو جالس هناك على كرسيّه الطويل والموقد الصغير مشتعل والمخدّرات تغلي في فقّاعات، والإبرة في يده تنتظر، ناظرًا إلينا، وعيناه تطرفان وتتداخلان خلف نظّارته، بحيث لا تستطيع أن تميّز موضع البؤبؤ مثلما في معظم العيون. وصار الزنوج والفلاّحون الذين كانوا يشترون منه يأتون وينظرون إلى القفل أيضًا، ويسألون

Twitter: @ketab_n

عن أخباره، وعن موعد عودته إلى البيت وموعد فتح متجره. فحتى بعد إعادة افتتاح المتجر، لم يشتروا من الشخص الذي عيّنته مسز مريدو والمحترم شولتز في المتجر. حتى قالت أخت العمّ ويلي لهم ألاّ يعبأوا بأمر المتجر وأن يتركوه مقفلاً لأنّها ستتكفّل بأمر العمّ ويلي حين تتحسّن صحّته. لكن مسز مريدو رفضت، فهي لم تكن تهدف فقط إلى شفاء العمّ ويلي بل إلى جعله يولد من جديد كليًّا، لا ليدخل فحسب إلى المسيحيّة الحقيقيّة، بل إلى العالم العملي، الذي سيجد فيه مكانًا ينتظره بحيث يستطيع أن يرفع رأسه بين الرجال، ليس بشرف فحسب بل بكبرياء أيضًا؛ قالت إنّه في البداية كان أملها الوحيد أن تصلح الأمر بحيث لا يضطرّ إلى مواجهة خالقه عبدًا بالجسد أمّا الروح فرهينة المورفين. أمّا الآن وبما أنّ حالته العقليّة باتت أفضل ممّا كان ليصدّق الجميع، فستحرص على أن يحتلّ في العالم الموقع الذي يخوّله إيّاه نَسَبهُ العائلي قبل أن يحطّ هو من شأن نفسه.

عثرت هي والمحترم شولتز على موظّف للمتجر. جاء إلى جيفرسون منذ ستّة أشهر تقريبًا، حاملاً رسائل توصية للكنيسة، لكن لا أحد، باستثناء المحترم شولتز ومسز مريدو، كان يعرف شيئًا عنه. فعدا أنّهما وضعاه حاجبًا في متجر العمّ ويلي، لم يعرف أحد عنه شيئًا على الإطلاق. لكن زبائن العم ويلي القدماء رفضوا التعامل معه. ونحن أيضًا. فليس هناك الكثير من الفائدة التي يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يجنيها منّا، وبالتأكيد لم نتوقّع منه أن يقدّم لنا الآيس كريم مجّانًا، وأظنّ أنّنا ما كنّا لنقبلها منه لو أنّه عرضها علينا. لأنّه لم يكن العمّ ويلي، وعمّا قريب لم يعد حتى الآيس كريم نفسه، لأنّ أول ما فعله الموظّف الجديد، بعد أن غسل النوافذ، هو طرد جوب العجوز، لكنّ الأخير رفض أن يترك العمل. بقي في المتجر، مدمدمًا، الموظّف يخرجه من الباب الرئيسي فيدور ويدخل من الباب الخلفي فيراه الموظّف ثانية ويشتمه، رغم أنّه كان يحمل رسائل موجّهة إلى الكنيسة. ذهب وجلب مذكّرة من المارشال تمنع جوب العجوز من دخول المتجر. ثم انتقل جوب العجوز إلى الرصيف المقابل. صار يجلس على حافّة الرصيف طوال اليوم حيث يستطيع مراقبة باب المتجر وكل مرّة يرى فيها الموظّف يزعق به:

«سوف أخبره. سوف أفعل!».

ما عدنا نمرّ بالمتجر. صرنا نقطع الشارع إلى الطرف الآخر عند الناصية حتى لا نمرّ به، وقد أصبحت النوافذ نظيفة الآن وصار الزبائن الجدد الذين كوّنهم الموظّف ـ أصبح لديه الكثير منهم الآن ـ يدخلون ويخرجون، ويقفون قليلاً فحسب لكي يسألوا جوب العجوز عن أحوال العمّ ويلي، مع أنّ أخباره كانت تصلنا يوميًّا من ممفيس، وعرفنا أنّ جوب العجوز لن يعرف، وأنّه لن يفهم حتى لو أخبره أحدهم بذلك، لأنّه رفض القول إنّ العمّ ويلي مريض، بل فقط إنّ مسز مريدو ساقته بالقوّة بعيدًا إلى مكان ما

Twitter: @ketab_n

وتحتجزه هناك في سرير آخر، في مكان ما لا يستطيع النهوض منه والعودة إلى بلدته؛ وجوب العجوز يجلس على حافّة الرصيف ناظرًا إلينا بعينيه الحمراوين الدامعتين مثلما يفعل العمّ ويلي، قائلاً:

«عليّ أن أخبره. يحتجزونه هو بينما أولئك القذرون أحرار يعبثون بمتجر مارس هوك كريستيان. يجب أن أخبرهم!».

IV

لم يمت العمّ ويلي. ذات يوم عاد إلى البلدة ولون جلده بلون الودك[1] وانخفض وزنه إلى نحو تسعين باوندًا وعيناه ما زالتا مثل البيض المخفوق لكنّه صار بيضًا ميتًا، بيضًا كُسر منذ وقت طويل جدًّا بحيث لم تعد تفوح منه رائحة البيض الميت ـ لكن هذا الإحساس تبدّد حين نظرنا فيهما، ورأينا أنّهما يمكن أن تكونا أيّ شيء إلاّ ميّتتين. هذا قبل أن يعرفنا مجدّدًا. لا أعني أنّه نسينا بالضبط. كان الأمر كأنّه لا يزال يحبّنا كفتية، لكنّ كل المسألة كانت كأنّه لم يرنا من قبل وعليه أن يحفظ أسماءنا ويعرف أيّ اسم ينتمي إلى أيّ وجه. كانت أخته قد عادت إلى تكساس لأنّ مسز مريدو تكفّلت برعايته حتى يتعافى كلّيًا، حتى يشفى. أجل، يشفى.

(١) الشحم الحيواني.

Twitter: @ketab_n

أذكر أوّل عصريّة حين جاء إلى البلدة ودخلنا إلى المتجر ونظر إلى النوافذ النظيفة التي يمكن الرؤية عبرها، وإلى زبائن البلدة الذين ما كانوا يشترون منه البتّة، وإلى البائع وقال له «أنت حاجبي، أليس كذلك؟»، وراح البائع يتكلّم عن مسز مريدو والمحترم شولتز. قال العمّ ويلي: «حسنًا، حسنًا» وتناول بعض الآيس كريم أيضًا، واقفًا عند النضد كأنّه زبون ناظرًا إلى المتجر حوله بتلك العينين اللتين لم تكونا ميتتين على الإطلاق، ثم قال:

«يبدو أنك استخرجت عملاً من زنجيّي العجوز أكثر ممّا فعلت أنا».

راح الحاجب يتكلّم عن مسز مريدو، فقال له العمّ ويلي «حسنًا، حسنًا، فقط توقّف عن العمل فورًا واذهب وقل له إنّني أتوقّع أن أجده هنا كلّ يوم، وإنّني أريده أن يبقي هذا المتجر على هذه الحال من الآن فصاعدًا». ثم ذهبنا إلى خلف خزانة العقاقير، والعمّ ويلي يتلفّت حوله أيضًا، ورأى كيف قام الموظّف بترتيبها، ووضع للصندوق الذي يحتفظ فيه بالعقاقير قفلاً كبيرًا جديدًا، بتلك العينين اللتين لا يستطيع أحد، أيًّا يكن، أن يسمّيهما ميتتين، وقال: «اذهب إلى هناك وقل لذلك الشابّ إنّني أريد مفاتيحي». لكنّه لم يجد الموقد والإبرة. كانت مسز مريدو قد أتلفتهما في ذلك اليوم. لأنّ الموظّف جاء وراح يتكلّم عن مسز مريدو والمحترم شولتز والعمّ ويلي يصغي ويقول «حسنًا، حسنًا» ولم نكن قد رأيناه يضحك

Twitter: @ketab_n

من قبل، ولم يتغيّر وجهه الآن لكنّنا عرفنا أنّه كان يضحك، من وراء وجهه. ثم خرجنا. انعطف عند الساحة إلى شارع «نيغرو رو»[١] حيث متجر سوني بارغر. أخذت منه المال واشتريت له جامايكا جينجر[٢] من سوني ثم انضممت إليهم ورافقنا مع العمّ ويلي إلى منزله. جلسنا على المرجة بينما راح هو يحتسي الجامايكا جينجر ويتمرّن أكثر على أسمائنا.

تلك الليلة التقيناه في المكان الذي حدّده لنا. أحضر معه مفكًّا وعتلة، فخلعنا باب المتجر الخلفي ثم كسرنا قفل الخزانة الجديد وحملنا صفيحة الكحول إلى بيت العمّ ويلي ودفنّاها في الحظيرة. كانت تحتوي تقريبًا على أربعة غالونات. غاب العمّ ويلي عن البلدة أربعة أسابيع ومرض مجدّدًا، ومسز مريدو تنهب البيت نهبًا، بحثًا في الأدراج وفي الخزائن، والعمّ ويلي ممدّد على السرير يراقبها بعينيه الأبعد من أن تكونا ميتتين. لم تستطع العثور على شيء لأنّ كلّ شيء قد اختفى الآن، وإلى ذلك لم تكن تعرف عمّا تبحث، لأنّها كانت تبحث عن إبرة في كومة قشّ. وفي الليلة التي نهض فيها العمّ ويلي مجدّدًا أخذنا العتلة وعدنا إلى المتجر وحين دخلنا إلى الخزانة وجدناها مفتوحة أصلاً وكرسي العمّ ويلي عند الباب، وقد وُضعت

---

(١) يقول مؤلّفا «مسرد فوكنر» إنّ «نيغرو رو هو على الأرجح شارع يقع ضمن منطقة السود من البلدة يبيع الحاجيات للسود خصوصًا».

(٢) بيرة لاكحوليّة أو بنسبة كحول منخفضة جدًّا.

Twitter: @ketab_n

عليه ربعيّة كحول واضحة للعيان وكان هذا كلّ شيء. وعرفت عندها أنّ الموظّف عرف من سرق الكحول في المرّة السابقة، لكنّني لم أعرف إلاّ بعد مرور سنتين لماذا لم يخبر مسز مريدو.

لم أعرف ذلك إلاّ بعد سنتين، وكان العمّ ويلي قد صار منذ سنة يذهب إلى ممفيس كلّ يوم سبت بالسيّارة التي اشترتها له أخته. كتبت الرسالة والعمّ ويلي ينظر من فوق كتفي ويملي عليّ مضمونها، مخبرًا كيف أنّ صحّته تتحسّن، لكن ليس بالسرعة التي يريدها الطبيب، وأنّ الطبيب قال إنّه يجدر به ألاّ يذهب ويجيء إلى المتجر مشيًا على الأقدام، وإنّه يمكنه الاستعانة بسيّارة، ليست مكلفة، مجرّد سيّارة صغيرة يمكنه قيادتها بنفسه، أو العثور على فتى زنجيّ يقودها له إذا ارتأت الأخت أنّه لا يجدر به القيادة: وأرسلت له أخته المال ووظّف فتى زنجيًّا خفيف الشعر بحجمي تقريبًا اسمه سكريتاري لكي يقودها له. ذلك أنّ سكريتاري قال إنّه يستطيع قيادة سيّارة؛ بالتأكيد هو والعمّ ويلي تعلّما في الرحلات الليليّة التي كانا يقومان بها عائدين إلى الأرياف لكي يشتريا الويسكي المصنوع من الذرة، وتعلّم سكريتاري القيادة في ممفيس بسرعة كبيرة أيضًا لأنّهما كانا يذهبان كلّ سبت، ويعودان صباح الاثنين حيث يكون العمّ ويلي فاقد الوعي في المقعد الخلفي، ورائحة ثيابه تنبعث منها تلك الرائحة التي اكتشفت مصدرها، أوّل مرّة، بعد بضع سنوات، وزجاجتان أو ثلاث زجاجات فارغة ودفتر

Twitter: @ketab_n

ملحوظات صغير مليء بأرقام هواتف وأسماء من قبيل لورين وبيلي وجاك. لم أعرف بهذا الشأن قبل سنتين، حتى صباح الاثنين ذاك حين جاء الشريف وختم بالشمع الأحمر ما بقي من مخزون العمّ ويلي. وحين حاولوا العثور على الموظّف لم يتمكّنوا حتى من معرفة القطار الذي غادر البلدة على متنه: يوم حارّ من أيّام يوليو والعمّ ويلي فاقد الوعي على المقعد الخلفي، وفي المقعد الأمامي سكريتاري وامرأة حجمها ضعف حجم العمّ ويلي تعتمر قبّعة حمراء ملقية فستانًا أحمر ومعطفها الفرو الأبيض المتّسخ على ظهر المقعد، واضعة حقيبتين من القشّ على الرفرف الخلفي، ولها شعر بلون مدخنة نحاسيّة جديدة وقد سالت بفعل الحرّ المسكرة ومساحيق التجميل، وتشكّلت خطوطًا على وجنتيها.

كان الأمر أسوأ ممّا لو أنّه عاد إلى المخدّرات. لتحسب أنّه جلب الجدري إلى البلدة. أتذكّر كيف أنّه حين خابرت مسز مريدو أمّي عصريّة ذلك اليوم، وكان يمكن سماع صوتها آتيًا ليس من الهاتف، بل مباشرة من مطبخها:

«تزوّج! لقد تزوّج! عاهرة! عاهرة! عاهرة!».

شتائم كالتي كان يستعملها الموظّف مع جوب العجوز، وربّما كان يحقّ لأهل الكنيسة الذهاب إلى هذا الحدّ، وربّما هم الذين يعرفون الأفضل ويحقّ لهم أن يقرّروا متى يبتعدون عن الدين لدقيقة أو اثنتين. وكان أبي يشتم أيضًا، لكن ليس شخصًا محدّدًا؛

Twitter: @ketab_n

عرفت أنّه لا يشتم العمّ ويلي أو حتى زوجته الجديدة، تمامًا مثلما علمت أنّني تمنّيت لو كانت مسز مريدو موجودة لكي تسمعه. أظنّ فقط أنها لو كانت موجودة فعلاً لما سمعت شيئًا، لأنّهم قالوا إنّها لا تزال بثياب البيت حين خرجت ووضعت المحترم شولتز في السيّارة واتّجهت إلى بيت العمّ ويلي، حيث كان ما زال في السرير مثل عادته يومي الاثنين والثلاثاء، وقامت زوجته بطرد مسز مريدو والمحترم شولتز من البيت شاهرة في وجهيهما رخصة الزواج كأنّها سكّين أو بندقيّة. وأتذكّر كيف أنّه في أصيل ذلك اليوم ـ العمّ ويلي كان يعيش في شارع صغير هادئ، حيث البيوت كلّها جديدة يسكنها الريفيّون الذين انتقلوا إلى البلدة خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة، مثل عمّال البريد والبقّالين ـ كيف توافدت طوال عصر ذلك اليوم نساء يبدو عليهنّ الجنون من شدّة الغضب يضعن قبّعاتهنّ الواقية من الشمس ويهدرن في ذلك الشارع الهادئ جارّات معهنّ أطفالهنّ وبناتهنّ البالغات، متّجهات إلى مكتب العمدة وإلى منزل المحترم شولتز، وكيف أنّ الفتية والشبّان العاطلين عن العمل وبعض الرجال الذين يعملون راحوا يقودون سيّاراتهم جيئة وذهابًا أمام منزل العمّ ويلي، لكي يشاهدوها جالسة على الشرفة تدخّن السجائر وتحتسي شرابًا ما؛ وكيف نزلت إلى البلدة في اليوم التالي لكي تتسوّق، معتمرة قبّعة سوداء وفستانًا مقلّمًا بالأسود والأبيض بحيث بدت أشبه بلوح حلوى ضخم، وصارت ثلاثة أضعاف حجم

Twitter: @ketab_n

العمّ ويلي. مشت في الشارع بينما الرجال يسترقون النظر إليها من المتاجر وهي تمرّ كأنّها تمشي على حبل من الرقّاصات وردفاها يرتجّان داخل الفستان حتى صاح أحدهم، مرجعًا رأسه إلى الخلف ووجهه نحو السماء: «مرحى». أمّا هي فقد لوت مؤخّرتها بطريقة ما من دون أن تتوقّف عن المسير، عندها تعالى صياح الرجال.

وفي اليوم التالي وصلت البرقيّة من أخته، وذهب أبي بوصفه المحامي ومسز مريدو بوصفها الشاهدة إلى البيت وأرتهم زوجة العمّ ويلي الرخصة وقالت لهم فلتسخروا من هذا، وأنّه سواء أجاءت من شارع مانويل[1] أم سواه فقد تزوّجت بالطريقة نفسها التي تتزوّج بها أي عاهرة متفاخرة في جيفرسون، أو في أيّ مكان آخر، وأبي يقول:

«هدّئي من روعك يا مسز مريدو،اهدئي أيّتها السيّدة المسيحيّة الفاضلة».

وأخبر الزوجة أنّ العمّ ويلي بات مفلسًا، وقد يخسر منزله أيضًا، وسألت زوجته عن تلك الأخت في تكساس، وكان أبي سيقول لها إنّ تجارة النفط قد أفلست أيضًا من دون أن يجعلها تضحك. فأبرقوا للأخت مجددًا، وجاءت الألف دولار. وكان عليهم

---

(١) شارع مانويل: هو شارع في ممفيس، يتردّد ذكره في أكثر من عمل لفوكنر، فهو الشارع الذي يقع فيه ماخور المسّ ريبا ريفرز في روايته «قدّاس لراهبة».

Twitter: @ketab_n

أن يعيدوا إلى زوجة العمّ ويلي السيّارة أيضًا. عادت إلى ممفيس عصر ذلك اليوم نفسه، قادت السيّارة في الساحة مع حقيبتيها القشّ، لابسة فستانًا أسود مخرّمًا، وقد بدأت تتعرّق مجدّدًا تحت المساحيق الجديدة على وجهها، لأنّ الطقس كان ما زال حارًّا، وتوقّفت عند مكتب البريد حيث ينتظر الرجال بريد العصر وقالت لهم:

«تعالوا إلى مانويل ستريت يومًا ما وسأريكم ما يمكن أن تفعلوه أنتم وهذه البلدة ببعضكم البعض».

وعصر ذلك اليوم انتقلت مسز مريدو إلى منزل العمّ ويلي من جديد، وقال أبي إنّ الرسالة التي كتبتها لأخت العمّ ويلي كانت من إحدى عشرة صفحة لأنّها قالت إنّها لن تسامح أبدًا العمّ ويلي لدفع نفسه إلى الإفلاس. كنّا نسمعها من وراء السياج وهي تصرخ به:

«أنت مجنون أيّها الأخ المسيحي؛ مجنون. حاولت أن أنقذك وأصنع منك شيئًا ما لكن الآن نفد صبري. سأعطيك فرصة أخيرة. سآخذك إلى كيلي[١] وإذا لم يعط ذلك نتيجة فسآخذك بنفسي إلى أختك وأجبرها على وضعك في مصحّ. وأرسلت الأخت أوراقًا من تكساس تعلن أنّ العمّ ويلي ليس مؤهّلاً لرعاية نفسه، جاعلة مسز

(١) كيلي: مؤسّسة أو مستشفى في ممفيس لمعالجة المدمنين على المخدّرات أو الكحول.

Twitter: @ketab_n

مريدو المؤتمنة والوصيّة عليه، وأخذته مسز مريدو إلى كيلي في ممفيس. وكانت هذه نهاية الأمر.

٧

بكلام آخر، أحسب أنّهم ظنّوا أنّ هذه كانت نهاية الأمر، أنّ العمّ ويلي سيموت هذه المرّة بكلّ تأكيد. فحتى أبي اعتقد أنّه فقد عقله إذ قال إنّه لولا العمّ ويلي لما كنتُ فررت، وإنّني بالتالي لم أفرّ، بل اختطفني رجل معتوه؛ ولم يكن أبي، بل كان العمّ روبرت الذي قال إنّه ليس بمجنون لأنّ رجلاً يمكنه بيع عقارات جيفرسون نقدًا[١] وهو مسجون في مصحّة كيلي ليس بالمجنون ولا بالسكّير حتى. لأنّهم لم يعرفوا أنّه خرج من كيلي، حتى مسز مريدو لم تعرف إلاّ بعد يومين من رحيله ولم يستطيعوا العثور عليه. ولم يعثروا عليه البتّة ولا عرفوا كيف تمكّن من الفرار، ولم أعرف أنا أيضًا حتى وصلتني منه رسالة يطلب إليّ فيها أن أستقلّ الحافلة إلى ممفيس في يوم معيّن وسيلتقيني عند الموقف على أطراف المدينة. ولم ألاحظ أنّني لم أر جوب العجوز ولا سكريبّاري منذ أسبوعين. لكنّه لم يختطفني. بل ذهبت بملء إرادتي، لأنّه كان أفضل رجل

---

(١) باع العمّ ويلي بيته وهو مُحتجز في كيلي.

Twitter: @ketab_n

عرفته في حياتي، لأنّه استمتع طوال حياته رغم كل ما حاولوا فعله به، أو معه، وأملت بأنّني ربّما أستطيع البقاء معه لفترة من الزمن، أتعلّم خلالها كيف أظلّ قادرًا على الاستمتاع بحياتي حين أصير عجوزًا. أو ربّما عرفت أكثر من ذلك، من دون أن أعلم، فقد عرفت مثلاً أنّني عرفت أنّني قد أفعل أيّ شيء يطلبه منّي، أيًّا يكن، تمامًا مثلما ساعدته على خلع باب المتجر لسرقة الكحول حين أخذه كأمر مسلّم به، وأنّني سأقبل من دون أن يطلب منّي بتاتًا، ثم ساعدته على الاختباء من مسز مريدو. ربّما عرفت ما الذي سيفعله جوب العجوز حتى. ليس ما فعله حقًّا، لكن ما يمكن أن يفعله إذا سنحت له الفرصة، وأنّ هذه الفرصة ستكون آخر فعل مقاومة للعمّ ويلي، وإذا لم أذهب إليه سيكون وحده في مواجهة الجميع، عجوزًا مذعورًا خائفًا، متعلّقًا بأنفاس جيفرسون النتنة التي، رغم أنّه فرّ منها، فإنّ جوب العجوز ما زال يمثّلها.

خلال ذلك الأسبوع من العمل في جزّ العشب حصلت على نحو دولارين. ثم استقلّيت الحافلة في اليوم الذي قال لي إنّه ينتظرني به عند طرف المدينة، راكبًا سيّارة فورد مكشوفة مستعملة، منقوش على زجاجها الأمامي السعر الذي اشتراها به: ٨٥ دولارًا، وكانت هناك خيمة جديدة تمامًا مطويّة في الخلف والعمّ ويلي وجوب العجوز في المقعد الأمامي، وبدا العمّ ويلي بحال حسنة يعتمر قبّعة مخطّطة جديدة لولا لطخة زيت عليها،

Twitter: @ketab_n

رافعًا حافّتها إلى خلف خصلتي الشعر في الأمام، واضعًا ياقة شفّافة نظيفة من دون ربطة عنق، وأنفه يتقشّر من حروق الشمس، وعيناه تبرقان وراء النظّارة. كنتُ مستعدًّا لمرافقته إلى أيّ مكان. وأنا مستعدّ لتكرار ذلك، رغم علمي بما سيحدث. ما كان مضطرًّا إلى أن يطلب منّي الآن أكثر ممّا فعل حينها. جلست فوق الخيمة ولم نتّجه صوب البلدة بل في الاتّجاه المعاكس. سألته عن وجهتنا لكنّه طلب منّي أن أتريّث فحسب، مسرعًا بسيّارته الصغيرة كأنّه غير قادر على الوصول إلى هناك بالسرعة الكافية. وكان يمكنني أن أعرف من صوته أنّ هذا جيّد، أنّه الأفضل حتى الآن، أفضل ممّا كان أيّ شخص ليفكّر بفعله، ومال جوب العجوز في المقعد الأمامي، متمسّكًا بكلتا يديه وصارخًا في العمّ ويلي بسبب سرعته الشديدة. أجل، ربّما عرفت من العجوز جوب حتى أنّ العم ويلي قد يكون فرّ من جيفرسون لكنّه تجنّبها فحسب، ولم يفرّ منها.

ثم وصلنا إلى اللافتة، إلى السهم الذي يشير صوب المطار، ودخلنا في منعطف وسألت: «ماذا؟ ما الأمر؟»، لكنّ العمّ ويلي اكتفى بالقول: «تريّث، تريّث فحسب» كأنّه هو أيضًا بالكاد يطيق صبرًا، وهو منكبّ على المقود وشعره الشائب يتطاير تحت القبّعة وياقته تطير إلى الوراء، بحيث يمكنك رؤية رقبته بين الياقة والقميص، والعجوز جوب يقول: (أجل، كان يمكنني أن أعرف ذلك حتى حينها):

Twitter: @ketab_n

«لقد جُنّ الرجل حقًا. جُنّ كثيرًا. لكنّني أخبرته. لقد أنذرته».
وصلنا إلى المطار فتوقّف العمّ ويلي بسرعة وأشار إلى الأعلى من دون أن يخرج من السيّارة وقال: «انظر».

كانت هناك طائرة تحلّق بشكل دائري، والعمّ ويلي يركض جيئة وذهابًا في الحقل، ملوّحًا بمنديله حتى رآه من يقود الطائرة وهبط بها واقترب منّا، كانت طائرة صغيرة ذات محرك من أسطوانتين. وكان هذا سكريتاري، يعتمر قبّعة جديدة مقلّمة وياقة مثل العم ويلي وأخبرني أنّ العمّ ويلي اشترى قبّعة لجوب العجوز أيضًا لكنّه رفض أن يضعها. تلك الليلة مكثنا في مخيّم صغير للسيّاح يبعد نحو ميلين وكان قد أحضر قبّعة وياقة لي أيضًا، وعندها عرفت لماذا لم يتمكّنوا من العثور عليه ـ أخبرني العمّ ويلي أنّه اشترى هذه الطائرة ببعض المال من بيع منزله، بعد أن أنقذته أخته لأنّه البيت الذي وُلدت فيه أيضًا، لكن أخبرني أنّ الكابتن «بين» في المطار رفض أن يعلّمه قيادتها بنفسه لأنّه سيكون بحاجة إلى إذن من الطبيب («بحقّ الله»، قال العمّ ويلي، «اللعنة على أولئك الديمقراطيّين والجمهوريّين الذين سيوصلوننا إلى وقت لا يستطيع المرء فيه أن يضغط طرّادة مياه المرحاض في حمّامه)، ولم يكن بمقدوره الذهاب إلى الطبيب لأنه قد يعيده إلى كيلي أو يشي لمسز مريدو بمكانه. لذا جعل سكريتاري يتعلّم القيادة أوّلاً، وها هو يفعل ذلك منذ أسبوعين، أي أكثر بأربعة عشر يومًا من

Twitter: @ketab_n

الوقت الذي احتاج إليه لكي يتعلّم قيادة السيّارة قبل أن ينطلقا بهـا. فاشترى العمّ ويلي السيّارة والخيمة وعدّة التخييم أمس وكنّا سـنبدأ غدًا. سنذهب أوّلاً إلى مكان يدعى «رينفرو»[1] حيث لا أحد يعرفنا وحيث هناك حقل كبير اكتشفه العمّ ويلي. وسنبقى هنـاك أسـبوعًا بينما يعلّم سكريتاري العمّ ويلي. قيادة الطائرة. ثـم نتّجـه غربًـا. بعدها نفد منّا المال فصرنا نتوقّف في بلدة ما ونحمل معنـا ركّابًـا ونجني ما يكفي ثمنًا للوقود والطعام حتى نصل إلى البلدة التاليـة، العم ويلي وسكريتاري في الطائرة، وأنـا وجـوب العجـوز فـي السيّارة؛ ثم يجلس الأخير على كرسيّ عند الجدار، ناظرًا إلى العمّ ويلي بعينيه الواهنتين الحردانتين الحمراوين، والعمّ ويلـي علـى السرير واضعًا القبّعة والياقة (لم تكن معقودة على قميصه بـالمرّة: بل مزرّرة فحسب حول عنقه) أحيانًا جانبيًّا وأحيانًا إلى الوراء مثل أسقف، وعيناه تبرقان وراء نظّارته وصوته واضح ورائق:

«وبحلول الميلاد سنكون في كاليفورنيا، فكّـروا فـي هـذا. كاليفورنيا».

---

(١) رينفرو Renfro: بلدة لا تبعد كثيرًا عن جيفرسون كان يخطّط العمّ ويلـي للانطلاق منها إلى كاليفورنيا.

Twitter: @ketab_n

VI

إذن، كيف أمكنهم القول إنّه اختطفني؟ كيف أمكنهم ذلك؟ أظنّ أنّني عرفت وقتذاك أنّ الخطّة لن تنجح، وأنّها أجمل من أن تكون حقيقيّة. أظنّ أنّني عرفت حتى كيف سينتهي الأمر فقط من تجهّم سكريتاري كلّما قال له العمّ ويلي إنّه يريد قيادة الطائرة بنفسه، مثلما علمت من نظرات جوب العجوز إليه، ليس بما فعله بالطبع، لكن بما يمكن أن يفعله حين تسنح الفرصة المناسبة. لأنّني كنتُ الأبيض الثاني. كنتُ أبيض حتى لو كان العجوز جوب وسكريتاري أكبر سنًّا منّي، فسيكون الأمر على ما يرام. كان يسعني القيام بالأمور بشكل حسن. كان الأمر كما لو أنّني عرفت حتى عندئذ أنّه، أيًّا كان ما سيحدث له، فإنّه لن يموت. بل فكّرت أنّه لو أمكنني فقط تعلّم العيش مثلما عاش، مهما حدث لي فإنّني لن أموت البتّة أنا أيضًا.

غادرنا صباح اليوم التالي، قبل الفجر بقليل إذ كانت ثمّة قاعدة أخرى غبيّة، وهي أنّ على سكريتاري البقاء ضمن الحقل حتى يمنحوه رخصة للابتعاد بالطائرة. ملأنا الطائرة بالوقود وارتفع بها سكريتاري كأنّه يفعل ذلك فقط ليتمرّن. ثم دفعنا العمّ ويلي إلى السيّارة على عجل لأنّه قال إنّ الطائرة يمكنها السير ستّين ميلاً في الساعة وسيصل سكريتاري إلى ريفنرو قبلنا بفترة

Twitter: @ketab_n

طويلة. لكن حين وصلنا إلى هناك لم نجد سكريتاري. نصبنا الخيمة وتناولنا الغداء ولم يصل، وبدأ العمّ ويلي بالسباب، وتناولنا العشاء وحلّ الظلام ولم يأت سكريتاري، عندها راح العمّ ويلي يشتم بشدّة. وصل في اليوم التالي. سمعناه وهرعنا وشاهدناه في الطائرة فوقنا، آتيًا بسرعة من الاتّجاه المعاكس لممفيس، فرحنا نصرخ ونلوّح له. لكنّه مضى قدمًا، بينما العمّ ويلي يقفز أرضًا ويشتم. ووضعنا الخيمة في السيّارة لكي نحاول اللحاق به، لكنّه عاد. لم نسمعه أبدًا هذه المرّة. رأينا المروحة ولم تكن تدور البتّة وعلمنا أنّ سكريتاري لم يكن سيحطّ في الحقل حتى بل فوق بعض الأشجار على طرفه. لكنّه مرّ بمحاذاتها ونوعًا ما هبط بالطائرة فجأة. هرعنا ووجدناه لا يزال في داخلها وعيناه مغمضتان ووجهه بلون الرماد وقال: «كابتن، هلاّ قلت لي رجاء أين أجد رين...». قبل أن يفتح عينيه ليرى من نحن. قال إنّه حطّ بالطائرة سبع مرّات البارحة ولم تكن ريفنرو وكانوا يدلّونه على الطريق فيتبع إرشاداتهم ولا يجد ريفنرو، وأنّه بات ليلته في الطائرة ولم يأكل شيئًا منذ غادرنا ممفيس لأنّه أنفق الدولارات الثلاثة التي أعطاه إيّاها العمّ ويلي ثمنًا للوقود، ولو لم ينفد منه الوقود لما عثر علينا البتّة.

طلب منّي العمّ ويلي الذهاب إلى البلدة وجلب بعض الوقود بحيث يستطيع التمكّن من البدء بتعلّم الطيران فورًا، لكن سكريتاري رفض ذلك. رفض فحسب. قال إنّ الطائرة ملك العم ويلي وإنّه

Twitter: @ketab_n

يظنّ أنّه هو أيضًا ملك العمّ ويلي، على الأقلّ حتى يعود إلى مسقط رأسه، لكنّه لم يعد يحتمل الطيران حاليًّا. فبدأ العمّ ويلي وحده صباح اليوم التالي.

فكّرت لبرهة أنّني قد أضطر إلى تثبيت جوب العجوز أرضًا، وهو يصرخ «لا تصعد إلى ذلك الشيء»، ويصرخ «عليّ أن أخبرهم! عليّ أن أخبرهم!» بينما نرى الطائرة وفيها سكريتاري والعمّ ويلي ونوعًا ما قفزت في الهواء ثم انحدرت هبوطًا كأنّ العمّ ويلي يريد أن يسلك طريقًا مختصرة إلى الصين، ثم عاودت الصعود ثم تمكّن من التحليق بها بشكل مستقيم أخيرًا ودار حول الحقل ثم مال لكي يحطّ. وكل يوم يروح جوب العجوز يزعق بالعمّ ويلي بينما تبرز أيدي المزارعين من الحقل ويقف أشخاص يركبون العربات وآخرون مشاة على الأقدام لمشاهدة هبوط الطائرة وفي داخلها العمّ ويلي وسكريتاري جنبًا إلى جنب، متشابهين تمامًا مثل شوك الحديقة قبل جزّه. كان بوسعنا رؤية عيني سكريتاري وفمه يبرز إلى الخارج بحيث تكاد تستطيع سماعه يقول: «هوووووووو» ونظّارتا العمّ ويلي تلمعان وشعره يطير تحت قبّعته والياقة الشفّافة التي يغسلها كل يوم قبل النوم من دون ربطة عنق، وتمرّ الطائرة بسرعة فوقنا، ويزعق جوب العجوز: «اخرج من هناك! اخرج من هذا الشيء!»، وكنّا نسمع سكريتاري أيضًا: «أطلقها يا عمّ ويلي! أطلقها» والطائرة تمضي صعودًا وهبوطًا ثم

Twitter: @ketab_n

تنطلق جانبيًا، وربّما ترتطم بالأرض جانبيًا في المرّة الأولى، ويرتفع الغبار ثم تنطلق مجدّدًا وسكريتاري يصرخ: «عمّ ويلي أطلقها!». وليلاً في الخيمة يكون البريق ما زال في عيني العمّ ويلي ويكون مرهقًا بشدّة بحيث ينام وهو يتكلّم، ولا أعتقد أنّه كان منتبهًا إلى أنّه لم يعاقر الخمرة منذ فكّر للمرّة الأولى بشراء الطائرة.

أوه أجل، أعرف ما قالوه عنّي بعد أن انتهى كلّ شيء، ما قاله أبي حين وصل ومسز مريدو إلى هناك ذلك الصباح، ما قاله عنّي بوصفي الفتى الأبيض، وكيف أنّي أكاد أكون رجلاً، وأنّ سكريتاري وجوب العجوز ليسا إلاّ زنجيّين عديمي المسؤوليّة. لكنّ جوب العجوز وسكريتاري هما من حاولا منعه. لأنّ هذه كانت المسألة؛ هذا ما لم يستطيعوا فهمه.

أذكر الليلة الأخيرة حين كان سكريتاري وجوب العجوز يحاولان إقناعه، حين جعل جوب العجوز سكريتاري يقول للعمّ ويلي إنّه لن يتعلّم الطيران البتّة، وتوقّف العمّ ويلي عن الكلام ووقف ونظر إلى سكريتاري:

«ألم تتعلّم قيادتها في غضون أسبوعين؟».

وأجاب سكريتاري: بلى.

قال له العمّ ويلي:

«أنت البائس عديم القيمة الجاهل الزنجي قصير الشعر؟».

Twitter: @ketab_n

وقال سكريتاري: «أجل».

«وأنا الخرّيج الجامعي الذي يدير تجارة بقيمة خمسة عشر ألف دولار منذ أربعين عامًا، ومع ذلك تقول لي إنّني لا أستطيع تعلّم قيادة طائرة لعينة بقيمة خمسمائة دولار؟».

ثم نظر إليّ:

«ألا تعتقد أنّني أستطيع قيادتها؟».

ونظرت إليه وقلت له:

«بلى، أعتقد أنّك تستطيع فعل كل شيء».

VII

والآن لا أستطيع أن أقول لهم. لا أستطيع القول. قال لي أبي ذات مرّة إنّ أحدهم قال إنّك إذا كنتَ تعرف شيئًا فيمكنك قوله. ربّما لم يأخذ صاحب هذا القول في الحسبان الفتيان الذين يبلغون الرابعة عشرة. إذ لا بدّ من أنّني عرفت أنّ ذلك سيحدث. ولا بدّ أنّ العمّ ويلي عرف ذلك أيضًا، عرف أنّ اللحظة ستأتي. كان الأمر كأنّنا كلينا عرفنا ذلك ولم يكن علينا حتى أن نقارن بين ما يعرفه كلّ واحد منّا، أو أن يقول للآخر بأنّه يعرف: هو لم يضطرّ إلى أن

Twitter: @ketab_n

يقول لي، ذلك اليوم في ممفيس: «تعال معي بحيث تكون موجودًا حين أحتاج إليك»، وأنا لم أضطرّ إلى أن أقول له: «دعني آتي بحيث أستطيع أن أكون هناك حين تحتاج إليّ».

لأنّ جوب العجوز اتّصل هاتفيًا بمسز مريدو. انتظر حتى نمنا وتسلّل وقطع المسافة كلّها إلى البلدة وخابرها؛ لم يكن يملك أي مال وعلى الأرجح لم يسبق له استعمال الهاتف في حياته، ومع ذلك اتّصل بها. وفي الصباح التالي جاء راكضًا تحت الندى (البلدة، الهاتف، كانا يبعدان خمسة أميال) في الوقت الذي كان فيه سكريتاري يشغّل المحرّك، وعرفت ما الذي فعله حتى قبل أن يقترب منّا لكي يصيح، راكضًا ومتعثّرًا ببطء على الحقل، صارخًا «أوقفوه! أوقفوه! سيكونون هنا في أيّ لحظة!» وعرفت وهرعت ولاقيته، وهذه المرّة أمسكته وهو يكافح ويضربني ولا يزال يصرخ بالعمّ ويلي في الطائرة «لقد اتّصلت؟»، سألته، «بها؟ بها؟ أخبرتها عن مكانه؟».

«أجل»، صاح جوب العجوز «وقالت إنّها ستحضر أباك وتنطلق فورًا وتكون هنا في السادسة فجرًا»، وأنا أمسك به كأنّه حفنة من العصيّ الجافّة، وسمعت رئتيه تئزّان وشعرت بتسارع دقّات قلبه، وجاء سكريتاري راكضًا أيضًا وبدأ جوب العجوز يصيح به «أخرجه من هناك! إنّهم قادمون! سيكونون هنا في أيّ لحظة إذا أوقفته فحسب!»، وسكريتاري يقول «من؟ من؟»، وصاح

Twitter: @ketab_n

به جوب العجوز أن يهرع ويوقف الطائرة واستدار سكريتاري وحاولت الإمساك برجله فلم أستطع، ورأيت العمّ ويلي ينظر نحونا وسكريتاري يركض نحو الطائرة. جثوت على ركبتيّ ولوّحت وكنتُ أصرخ أيضًا. لا أعتقد أنّه كان بمقدور العمّ ويلي سماعي بسبب هدير المحرك. لكنّني أجزم أنّه لم يكن في حاجة إلى ذلك، لأنّنا كنّا نعرف، وكلانا كان يعرف؛ وهكذا جثوت هناك وثبّتّ جوب العجوز أرضًا ورأينا الطائرة تنطلق، وسكريتاري يعدو خلفها، ويقفز في الهواء ثم يهبط ثم يعاود القفز ثم بدا أنّ الطائرة توقّفت عاليًا في السماء فوق الأشجار حيث ظننّا أنّ سكريتاري كان ينوي أن يهبط في ذلك اليوم الأول قبل أن تهبط الطائرة وراء الأشجار وتغيب عن النظر، وكان سكريتاري ما زال يركض فلم يبقَ إلاّ أنا وجوب العجوز وكان علينا أن ننهض ونتّبع الطائرة.

أوه بلى، لقد عرفت ما قالوه عنّي؛ عرفت كلّ شيء عصر ذلك اليوم بينما كنّا عائدين إلى البيت مع عربة الموتى أمامنا وسكريتاري وجوب العجوز في الفورد بجوار أبي وأنا في سيّارتنا وجيفرسون تقترب أكثر فأكثر؛ ثم فجأة شرعت بالبكاء. لأنّ الموت لم يكن بالأمر المهمّ، إنّه يلمس فقط خارجك الذي تلبسه للراحة والملاءمة مثلما تفعل مع ثيابك: كان بكائي لأنّ الثياب القديمة، الثياب التي لم تكن تساوي شيئًا، خانت واحدًا منّا، وأنا الذي تعرّضت للخيانة، وأبي يحيطني بذراعه الأخرى قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«اهدأ اهدأ؛ لم أعنِ ذلك. أنت لم تفعل شيئًا. لا أحد يلومك».

أترون؟ هذه كانت المسألة. لقد ساعدت العمّ ويلي حقًّا. وهو يعرف أنّني فعلت. لم نكن مضطرّين لتبادل النظرات حين رحل. هذه هي المسألة.

والآن لن يفهموا البتّة، ولا حتى أبي، وليس هناك سواي لكي أحاول أن أقول لهم، وكيف لي أن أخبرهم، وأن أجعلهم يفهمون؟ كيف لي ذلك؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بغلٌ في الفناء[1]

كان يومًا مكفهرًّا في نهاية يناير، لكنّه لم يكن بالبارد بسبب الضباب. خرجت هيت العجوز من دار العجزة، وهرعت صوب المطبخ، ضاجّة بصوت ملؤه المرح والحبور. كانت على الأرجح في السبعين، وإن كانت في حساباتها هي، التي تستنتجها وفقًا لأعمار ربّات البيوت الكثيرات في البلدة، من حديثات العهد بالزواج إلى الجدّات اللواتي تزعم أنّها رعتهنّ في طفولتهنّ، ينبغي أن تكون قد بلغت المئة والثلاثين عامًا على الأقلّ. امرأة طويلة، محدودبة الظهر، تلبس ثوبًا فضفاضًا وحذاء رياضيًّا وعباءة جرذيّة اللّون، طويلة مهدّبة بما كان قبل أربعين أو خمسين سنة فروًا، تعتمر قبّعة بنفسجيّة غير جديدة إنّما على الموضة وتحمل (كان وقت جولتها الأسبوعيّة من مطبخ إلى آخر حاملة حقيبة مكوّنة من النسيج المقصّب، مع أنّه منذ نشوء متاجر العشرة سنتات أصبح هذا النوع من الحقائب خليفة نهائيّة للأكياس الورقيّة التي تؤمّنها هذه المتاجر

---

(١) **بغلٌ في الفناء**: يعتبر «إدموند فولبي» في «دليل القارئ إلى قصص فوكنر القصيرة» أنّ مشاهد مطاردة البغل في هذه القصّة «بين أفضل ما كتبه فوكنر على صعيد الكوميديا». كتبها فوكنر ونشرها عام ١٩٣٤ في «سكريبنر». أصبحت لاحقًا مادّة الفصل السادس عشر من رواية «البلدة»، وإن أضاف إليها في الرواية شخصيّتين أخريين.

Twitter: @ketab_n

لزبائنها لقاء سنتات قليلة) حقيبة التسوّق. هرعت إلى المطبخ وصاحت ببهجة عامرة شبه طفوليّة:

«مسز ماني! ثمّة بغل في الفناء!».

ما إن سمعت مسز هايت ذلك، وهي منحنية فوق الموقد، تملأ دلوًا من الرماد، حتى انتفضت واقفة، والدلو في يدها، وحملقت في هيت العجوز، ثم قالت هي الأخرى بنبرة قويّة مستنفرة:

«أبناء الأوغاد أولئك».

خرجت من المطبخ، غير راكضة بالتحديد، لكن بنوع من الاستعجال المحموم، حاملة الدلو ــ امرأة مكتنزة، في الأربعين تقريبًا، بهيئة حداد نهائيّة إنّما صبورة، كأنّ من رملّها كان امرأة، وليست بعالية المقام عندها كذلك. كانت ترتدي ثوبًا قطنيًّا فضفاضًا وسترة وقبّعة شبه رجّاليّة من اللّبّاد يعرف جميع أهل البلدة أنّها كانت تخصّ زوجها المتوفّى قبل عشر سنوات. لكنّ الحذاء الرجّالي الذي تنتعله لم يكن له. كان جزمة ذات أزرار تبرز أصابعها كبصيلات الخُزامى، ويعرف الجميع أيضًا أنّها اشترت هذا الحذاء جديدًا لنفسها. هرعت هي وهيت العجوز على سلّم المطبخ ومنه إلى الضباب. لهذا السبب لم يكن الطقس باردًا: كأنّما أنفاس الليل الشتوي للبلدة النائمة في غرف متلاصقة معتمة، محبوسة بين الأرض والضباب ــ النعاس والنهوض؛ الجفاف يولد ترموستاتيًّا،

Twitter: @ketab_n

ومن ذلك ينشأ الحرّ ثانية: يتمدّد مثل طبقة من الشحم على السلّم ومدخل الدور السفلي الخشبي، وفوق المجاز الخشبي الضيّق الذي يقود إلى سقيفة عند زاوية الفناء، والذي هرعت عليه مسز هايت بكلّ شراسة، حاملة دلو الرماد.

«احذري»، هتفت هيت العجوز بحماسة ملؤها الحبور، مطمئنّة إلى جزمتها الطويلة: «إنّه أمامك هناك!». لم تقع مسز هايت. ولم تخفّف سرعتها حتى. استوعبت المشهد بنظرة خاطفة وتابعت الركض. وهناك عند زاوية البيت، وكأنّما نشأ فجأة من الضباب نفسه، ظهر بغل. بدا أطول من زرافة. طويل الرأس مع رسن فالت حول أذنيه الشبيهتين بالمقصّ، وهرع نحوهما بفجائيّة شبحيّة.

«ها هو!» هتفت هيت العجوز، ملوّحة بكيس التبضّع، وصرخت السيّدة هايت: «هووو». واستأنفت عدوها الجنوني فوق الألواح الخشبيّة الزلقة في خطّ متواز مع البغل صوب السقيفة حيث برزت من بابها المفتوح بقرة مذهولة جامدة. بالنسبة إلى البقرة فإنّ البغل الذي نشأ من الضباب بدا بلا ريب أطول، ومفاجئًا أكثر من زرافة حتى، ومن الواضح أنّه انحنى خلال اقتحامه السقيفة كأنّها مصنوعة من القشّ أو كأنّها مجرّد سراب. وقد اتّخذ وجه البقرة أيضًا مظهرًا خرافيًّا وشبحيًّا ومفاجئًا. اختفت البقرة، ابتلعها الضباب في لحظة عابرة تشبه انطفاء عود ثقاب، رغم إدراك العقل

Twitter: @ketab_n

وإصرار المنطق على أنّها دخلت إلى السقيفة، التي منها، كبرهان، انبعث صوت حيواني يصعب تمييزه، صوت صدمة وذعر، أشبه بضربة واحدة عميقة على وتر قيثارة. اندفعت مسز هايت من فورها باتّجاه الصوت، كأنّما بردّة فعل صافية، كأنّما في تضامن حتمي لأنثيين تقفان ضدّ عالم من البغال والرجال. هي والبغل اتّجها صوب السقيفة بأقصى سرعة، كان الدلو الثقيل خفيفًا في يدها استعدادًا لرشقه. بالطبع لم يستغرق الأمر كلّ هذه المدّة، وكذلك كان البغل هو الذي رفض المناورة. كانت هيت العجوز ما زالت تصرخ «ها هو! ها هو!» حين انحرف مسرعًا نحوها حيث تقف طويلة كمدخنة، حاملة كيس التبضّع الذي سدّدته نحو البغل وهو يتجاوزها ويختفي وراء الزاوية الأخرى، كأنّ الضباب الذي أنشأه قد امتصّه ثانية إلى أعماقه في لحظة صمّاء واحدة.

محتفظة بإيقاعها السريع وبحذرها استدارت مسز هايت ووضعت الدلو على الحافّة الحجريّة المائلة عند مدخل القبو، والتقت هي وهيت العجوز عند زاوية المنزل في الوقت المناسب لكي تريا البغل الأشبه بالطيف لحظة تقاطع مساره مع ديك رومي هائج وعشر من دجاجات رود آيلاند الحمراء برزت من أسفل البيت. ثم لبرهة وجيزة اتّخذ البغل شكل كائن أسطوري: ولد من جهنّم ويعود إليها، وهو يذوب كليًّا في الضباب، بدا يختفي في

Twitter: @ketab_n

محيط بلا شمس ولا أبعاد، فتحته عفاريت قصيرة الأجنحة ثم أقفلته.

زعقت هيت العجوز:

«ها هو هناك!».

وقالت مسز هايت:

«أولاد العاهرات». مجدّدًا بذلك الغضب الاستبصاري الفاتر الخالي من الغلّ. لم تكن تقصد البغال ولا حتى مالكها. بل كلّ تاريخ عيشها في البلدة منذ فجر أبريل ذاك، قبل عشر سنوات حين تمّ جمع أشلاء السيّد هايت من بين أشلاء خمسة بغال، وبضع أقدام من حبل مانيلا[1] جديد عند منعطف غير ظاهر للعيان لخطّ سكّة الحديد، الواقع خارج البلدة مباشرة؛ وكانت تقصد الموقع الجغرافي لمنزلها قرب تلك النقطة، ومكوّنات ثكلها: البغال، والزوج المتوفّى، ومالك البغال. كان اسمه سنوبس[2] وكانوا في البلدة يعرفون قصّته أيضًا: كيف اشترى ماشيته من سوق ممفيس وأحضرها إلى

---

(١) حبل مانيلا: حبل متين يصنع من خيوط القنّب في مانيلا.

(٢) المقصود آي أو سنوبس I.O. Snopes: إحدى شخصيّات سلالة سنوبس التي هي محور ثلاثيّة فوكنر الروائيّة: «القرية»، «المدينة»، و«القصر». والتي تظهر كذلك في عدد من قصصه القصيرة مثل «إحراق حظيرة» و«الجياد المرقّطة»، «قنطور من نحاس»، أمّا آي أو سنوبس فيظهر في «الصخب والعنف» و«رايات في الغبار» وفي هذه القصّة.

Twitter: @ketab_n

جيفرسون حيث باعها للمزارعين والأرامل والأيتام من البيض والسود، بأفضل سعر يستطيع الحصول عليه تحت سقف رقم معيّن، وكيف كانت تقوم (عادة في موسم الشتاء الميت) أزواج، وحتى مجموعات صغيرة من ماشيته، بالهرب من المرعى المسيّج حيث يحتفظ بها، مقيّدة إلى بعضها البعض، أحيانًا بحبل قنّب جديد (وهو الآخر كان سنوبس يضيفه إلى لائحة مطالبه)[1] حيث يدهسها القطار عند الزاوية غير المنظورة نفسها التي شهدت خروج هايت من هذا العالم؛ وقد أرسل له ذات مرّة أحد ظرفاء البلدة بالبريد برنامج رحلات القطار مطبوعًا. وسنوبس هذا رجل مربوع شاحب الوجه، لا يضع طوال العام ربطة عنق، ويبدو دائمًا مجهدًا ومشغول البال، في أوقات محدّدة يعبر البلدة الساكنة الناعسة محدثًا موجة من الغبار والصخب، ويسبق مروره صراخ الرعاة وصياحهم، أمّا مروره هو نفسه فترافقه غيمة صفراء من الرؤوس الهائجة الشبيهة بالأكواز وبقعقعة الحوافر والصرخات البائسة المتجهّمة لرعاة الماشية أنفسهم، وأخيرًا، وخارجًا من قلب الغبار، سنوبس نفسه لاهثًا ومضطرب الخطى، ويقال في البلدة إنّ السبب هو فزعه الشديد من الحيوانات نفسها التي يتاجر فيها بكلّ دهاء.

المسار الذي عليه أن يتبعه من محطّة القطارات إلى مرعاه

---

(١) أي لائحة التعويضات التي تدفعها له إدارة السكّة الحديد لقاء خسارته.

Twitter: @ketab_n

يمرّ بطرف البلدة قرب منزل هايت؛ وقد غاب آل هايت أسبوعًا عن البيت ليستيقظا ذات صباح ويجداه محاصرًا بالبغال الراكضة، وبصياح الرعاة وزعيقهم. لكن حتى فجر ذلك اليوم من أبريل، بعد بضع سنوات، حين وجد أولئك الذين وصلوا إلى المكان أوّلاً ما يمكن تسميته أمرًا غريبًا بين أشلاء البغال والحبل الجديد، لم يكن أحد يشكّ بأنّ هايت على علاقة ما بسنوبس وبغاله تتجاوز المساعدة من وقت لآخر في إخراجها من فناء منزله. بعد ذلك ظنّوا أنهم باتوا يعرفون حقيقة الأمر؛ وراحوا يترقّبون طوال ثلاثة أيّام من الاهتمام والصدمة والفضول ليروا ما إذا كان سنوبس سيحاول أن يقبض تعويضًا عن هايت أيضًا.

لكنّهم علموا أنّ محقّق شركة التأمين زار مسز هايت، وأنّه بعد بضعة أيّام قبضت مبلغ ثمانية آلاف وخمسمائة دولار، وهذا يعود إلى تلك الأيّام القديمة الوادعة حين كانت حتى الشركات تعتبر فروعها وأقسامها القائمة في الجنوب فريسة شرعيّة لكلّ المقيمين في نطاقها. قبضت مسز هايت المال: وقفت بسترتها والقبّعة التي كان يعتمرها هايت في تلك الصبيحة القاتلة قبل أسبوع، مصغية بصمت متجهّم بارد إلى الصرّاف وهو يعدّ المال، وإلى مدير المصرف والمحاسب وهما يحاولان إقناعها بأفضليّة الإيداع وحسابات التوفير على المال النقدي، ثم غادرت حاملة المال في كيس ملح خبّأته تحت عباءتها. وبعد فترة طلت منزلها، مستعملة

Twitter: @ketab_n

ذلك الطلاء العملي الذي يصمد طويلاً، والذي يستعمل في طلاء محطّات القطارات، كأنّما بدافع من التعاطف معها أو (مثلما قال بعضهم) بدافع الامتنان لها.

دعا محقّق شركة التأمين أيضًا سنوبس إلى لقاء خرج منه وقد ارتسمت على وجهه ليس أمارات الانزعاج الشديد وحسب، بل خيبة الأمل الذاهلة التي ظلّت ترافقه منذ ذلك الحين، وتلك كانت المرّة الأخيرة التي يفسح فيها سياجه المجال لعبور مجموعات البغال التي يضمّها حبل واحد متين، وإن لم يكن جديدًا دائمًا. وعندها بدا كأنّ البغال نفسها علمت بهذا، حتى عندما تُجلب إليه في المزاد في ممفيس، فقد كانت تستشعر بذلك بطريقة ما، كأنّما تستشعر خوفه منها. الآن، ثلاث أو أربع مرّات سنويًا، وكأنّما بفعل تواطؤ شيطاني في ما بينها وما إن يتمّ إطلاقها من الشاحنة، فإنّ الصخب كلّه ــ غيمة الغبار المحتشدة صراخًا متجهّمًا مستنفرًا مرتعبًا، بأبدان شيطانيّة هجوميّة ــ كلّ هذا الصخب يترجم في انفجار واحد من العنف العنيد الذي تستحيل السيطرة عليه، من دون أن يعوقه أيّ اتّصال بالزمن أو المسافة أو الأرض، يخترق البلدة المذهولة الساكنة صوب فناء مسز هايت، حيث يتجنّب سنوبس، في نوع من اليأس العاجز الذي يشلّ في تلك اللحظة حتى خوفه الجسدي، هذه الأبدان الهائجة أمام البيت (الذي يقول أبناء البلدة إنّه يشعر أنّه هو من دفع ثمن طلائه الممتاز، والذي تعيش سيّدته فيه

Twitter: @ketab_n

مثل ملكة، حياة من التبطّل والرخاء، من المال الذي يعتبره، جزئيًّا على الأقلّ، من حقّه)، بينما يحتشد تدريجيًّا أبناء ذلك الحيّ لكي يتفرّجوا على المشهد من نوافذ بيوتهم وشرفاتهم المحجوبة والمكشوفة، ومن الأرصفة وحتى من العربات المتوقّفة والمارّة ـ أناس من كلّ نوع: زوجات في أردية وقبّعات النوم، أطفال متّجهون إلى المدارس، زنوج وبيض عابرون، جميعهم يتفرّجون على المشهد بصمت ورباطة جأش.

كانوا جميعًا هناك عندما ركضت السيّدة هايت، حاملة دلو الرماد، تتبعها العجوز هيت، ثم انعطفت عند الزاوية التالية إلى رقعة الأرض الصغيرة جدًّا التي تسمّيها فناء. كانت الأرض صغيرة إلى حدّ أنّ أيّ كائن في وسعه الجري لثلاث أقدام يمكن أن يقطعها بخطوتين، بيد أنه في تلك اللّحظة، ربّما بسبب الضباب الذي يخفي المنظر ويشوّهه، بدت هذه البقعة بشكل غير معقول مليئة بالحياة المجنونة، كأنّها نقطة ماء تحت المجهر. لكنّها مجدّدًا لم تتردّد. متسلّحة بمكنسة ومن الواضح أيضًا بإيمان عميق بمنعتها راحت تعدو وراء البغل الهارب الذي كان ما يزال في خضمّ ذلك الاختفاء الشبحي المباغت في الضباب، تؤشّر إلى أثره أشكال الدجاجات الثماني المنتشرة مثل قصاصات ورق بعيد انفجار عادم سيّارة، ووجه رجل هارب بجنون. وهذا الرجل ليس إلاّ سنوبس المغطّى أيضًا بالندى، وجهه الجامح مفتوح بصراخ مبحوح وخطًّا

Twitter: @ketab_n

لحيته الحليقة الحادّان ينزلان من زاويتي وجهه مثل خطّـي تبـغ قذرين، صرخ بها:

«بحقّ الله مسز هايت، لقد فعلت كلّ ما في مستطاعي».

لم تنظر إليه حتى. قالت بصوتها البارد اللاهث:

«أمسك هذا البغل الكبير ذا الرسن، أخرج هذا البغل الضـخم من هنا».

صاح سنوبس:

«بالتأكيد! فقط دعيه يأخذ وقته، فقط لا تستثيريه الآن».

وصرخت هيت العجوز:

«احذري إنّه يتّجه مجدّدًا إلى الخلف».

وقالت مسز هايت لها:

«أحضري الحبل».

ركضت ثانية. وراح سنوبس يحدّق في هيت العجـوز، ثـم صرخ بها:

«بحقّ الربّ أين هو هذا الحبل؟».

«في القبو، بحقّ الله!» صرخت العجوز هيت، مـن دون أن تتوقّف عن الركض أيضًا «اهرع من الجانب الآخر».

Twitter: @ketab_n

مجدّدًا انعطفت هي ومسز هايت عند الزاوية في الوقت المناسب لترى البغل الذي لا يزال في طور الاختفاء، ورسنه يطير إلى الخلف في غيمة من الدجاجات التي كان في وسعها المرور تحت البيت على وتر الدائرة، بينما البغل يضطرّ إلى الالتفاف على قوس الدائرة، فتقاطعوا معًا مرّة أخرى. حين انعطفتا عند الزاوية التالية أصبحتا في الفناء الخلفي مجدّدًا.

زعقت هيت العجوز:

«بحقّ الربّ، سوف يفزع البقرة ثانية».

ثم تمكّنتا من الوصول إلى البغل الذي توقّف عن الركض. في الواقع رأتا ما يشبه اللوحة حين انعطفتا عند الزاوية: كانت البقرة تقف في وسط الفناء، في مواجهة البغل الذي تفصلها عنه بضع أقدام. بلا حراك، برأسين منخفضين وقوائم أماميّة متحفّزة بدا الحيوانان مثل طرفي كتاب ممزّق قد يكون اشتراه شخص ريفي هاوٍ، وقام طفل ما بإنقاذه، وألصقه عشوائيًّا ببعضه ثم نسيه؛ أمّا سنوبس فقد وقف بارز الوجه والكتفين أمام مدخل القبو المائل إلى الداخل، حيث لا يزال دلو الفحم، كأنّه مدفون تحت إبطي أرملة إسبانيّة هنديّة أميركيّة. بيد أنّ الفرق هو أنّ الأمر لم يحتج إلى هذا الوقت الطويل. كان أقلّ من لوحة؛ كان واحدًا من تلك الأشياء التي لا تستطيع حتى الذاكرة تأكيده لاحقًا. الآن، وبالدور، اختفى رجل وبقرة وبغل وراء الزاوية التالية، سنوبس الآن في الطليعة، الحبل

Twitter: @ketab_n

بيده، البقرة خلفه مرفوعة الذيل مثل سارية قارب. استمرّت مسز هايت وهيت العجوز بالركض، ومرّتا بباب القبو المفتوح المليء بأشياء الأرامل ــ صناديق لإشعال الحطب، صحف ومجلاّت قديمة، أثاث محطّم وبالٍ، وأوعية لا تتخلّص منها أيّ امرأة؛ كومة من الفحم وكومة أخرى من الصنوبر الراتنجي لإشعال جذوة النيران ــ وركضتا وانعطفتا عند الزاوية التالية لتريا رجلاً وبقرة وبغلاً يختفون في الغيمة الضخمة من الدجاج كلّي الوجود، الذي عبر، مرّة أخرى تحت البيت ثم برز منه. استمرّتا بالركض، مسز هايت في صمت مواظب وعنيد، وهيت العجوز بذهول طفل وحماسته. لكن حين صارتا في الطليعة مجدّدًا لم تريا سوى سنوبس. كان منبطحًا على بطنه، وقد ارتفع رأسه وكتفاه بذراعيه المبسوطتين، وذيل معطفه مشدود إلى الأمام بزخمه الخاصّ وملتفّ حول رأسه بحيث بدا من تحته وجهه المربّع في سبات جامح شبيه بوجه راهبة هزليّة. صرخت به هيت العجوز:

«إلى أين ذهبا؟».

لم يجب. ثم هتفت:

«لقد اتّجها إلى الزاوية، لقد أصبحا في الخلف مجدّدًا».

وهناك كانا. البقرة قامت بمناورة، موهمةً أنّها تركض صوب السقيفة، لكنّها ربّما قرّرت أنّ سرعتها كانت زائدة عن الحدّ،

Twitter: @ketab_n

فانعطفت في بسالة شبيهة بيأس اللحظة الأخيرة. لكنّها لم تر هذا، ولا رأت البغل، وهو ينحرف لكي يتجاوزها، ويصطدم بباب القبو المفتوح ويتخبّط عنده لبرهة قبل أن يدخل إليه. حين وصلتا كان البغل قد اختفى وكذلك الدجاجات، لكنّهما لم تلاحظا ذلك؛ رأتا فقط البقرة تقف في وسط الفناء كما في المرّة السابقة، متجمّدة، لاهثة، متحفّزة، خفيضة الرأس لكن ليس بمواجهة أحد، كأنّما الطفل قد عاد وانتزع أحد طرفي الكتاب من أجل لعبة أجدّ. تابعتا الركض. مسز هايت متثاقلة الآن، فاغرة فمها، وجهها بلون العجين، واضعة إحدى يديها على ردفها. صارتا بطيئتين جدًّا بحيث إنّ البغل في دورته الثالثة حول المنزل فاجأهما من الخلف وتجاوزهما بسرعة مطّردة، بعصف شيطاني وجيز ورائحة عرق حارقة مفاجئة وحادّة مثل صراخ هازئ، ثم اختفى. بيد أنّهما ركضتا حتى الزاوية التالية ورأتاه ينجح أخيرًا في الاختفاء في الضباب؛ سمعتا حوافره، وجيزة، مختصرة، ساخرة، على الشارع المعبّد، وهي تتلاشى مبتعدة. فقالت هيت العجوز، لاهثة رغم توقّفها عن الجري، بنوع من السعادة:

«اسكتوا أيّها السادة، ألم يكن يومنا...».

ثم تجمّدت مكانها كالحجر؛ وأدارت رأسها على مهل، شاخصة بأنفها، ومنخراها ينبضان؛ ربّما لتلك البرهة رأت باب

Twitter: @ketab_n

القبو مثلما رأته حين مرّت به المرّة الأخيرة، بلا دجاج في داخله، ثم قالت:

«يا إلهي أشمّ رائحة دخان، هيّا اهرعي واجلبي أموالك».

كان الوقت مبكرًا، لم يتجاوز العاشرة. وعند الظهر كان المنزل قد احترق بالكامل. كان ثمّة مخزن زراعي يتواجد فيه سنوبس عادة؛ وأكثر من شخص قصدوه إلى هناك أثناء الحريق. وأخبروه أنّه حين وصلت سيّارة الإطفاء والحشد إلى المكان، خرجت مسز هايت، تتبعها هيت العجوز، حاملة كيس التبضّع بيد وصورة مؤطّرة لمستر هايت باليد الأخرى، تحمل مظلّة، وتلتحف بمعطف رمادي يشبه معاطف عمّال البريد، وقد وضعت في أحد جيوبه جرّة فاكهة مليئة بأوراق البنكنوت التي لُفّت بعناية، وفي الجيب الآخر مسدّسًا كبيرًا مطليًا بالنيكل، وعبرت الشارع إلى شرفة البيت المقابل، حيث جلست وهيت العجوز على كرسيّين هزّازين، وظلّت جالسة مذ ذاك على الشرفة، متجهّمة صامتة، والمرأتان تهزّان كرسيّيهما بثبات، بينما راح رجال أشدّاء ومثابرون ينقلون تباعًا أطباق السيّدة هايت وما تبقّى من أثاثها، ويتحرّكون ذهابًا وإيابًا عبر الشارع. قال سنوبس:

«لماذا تخبرونني بهذا؟ لستُ من ترك دلو فحم فيه رماد حيّ يمكن أن يوقعه أيّ شيء داخل القبو».

Twitter: @ketab_n

«لكنّك أنت من فتح باب القبو».

«ولأيّ غرض؟ لكي أجلب الحبل، حبلها هي، وهي التي طلبت منّي ذلك».

«لكي تربط به بغلك الذي اقتحم فناءها. لن تنجو من فعلتك هذه المرّة. ليس من محكمة في المقاطعة لن تحكم لصالحها».

«أجل أظنّ ذلك. وفقط لأنّها امرأة. هذا هو السبب. لأنّها امرأة لعينة. حسنًا. فلتذهب إلى محكمتها اللعينة هذه. أنا أيضًا أستطيع الدفاع عن نفسي. أظنّ أنّه ثمّة بضعة أشياء أستطيع أن أخبر المحكمة عنها...».

كفّ عن الكلام، وكان الجميع ينظرون إليه.

«ماذا؟ تخبر المحكمة عن ماذا؟».

«لا شيء. لأنّ المسألة لن تصل إلى المحاكم، محكمة بيني وبينها؟ أنا وماني هايت؟ أنتم يا شباب لا تعرفونها جيّدًا. إذا حسبتموها ستثير ضجّة حول حادث صرف لم يكن بوسع أحد الحيلولة دونه، فما من امرأة في المقاطعة برمّتها أكثر إنصافًا من مسز ماني هايت. فقط أتمنّى لو أتيحت لي فرصة لأخبرها ذلك».

وواتته الفرصة فورًا. كانت هيت العجوز خلفها، حاملة كيس التبضّع.

Twitter: @ketab_n

نظرت مسز هايت مرّة، بصمت، منقّلة نظرها بين الوجـوه، دون أن تردّ على الهمس الفضولي المرفق بالتحيّة، ولم تنظر إليهم ثانية. وكذلك لم تطل النظر إلى سنوبس، ولا كلّمته طـويلاً. فقـط قالت له:

«جئت لأشتري ذلك البغل».

«أيّ بغل».

وراحا يتبادلان التحديق.

«أتريدين شراء ذلك البغل، سيكلّفك مئة وخمسين يـا مسـز ماني».

«أتعني مئة وخمسين دولارًا؟».

«لا أعني الدايمات والنكلات يا مسز ماني».

«دولارات إذن، هذا أكثر ممّا كان عليه سعر البغال في زمن هايت».

«الكثير من الأمور تغيّر منذ زمن هايت. بما في ذلك أنـت وأنا».

«أظنّ ذلك».

ثم ذهبت. استدارت من دون قول كلمة، تتبعها العجوز هيت. ولم تردّ على سنوبس حين قال لها:

Twitter: @ketab_n

«ربّما يناسبك أحد البغال الأخرى التي رأيتها هذا الصباح».

وعلّق أحد الحاضرين:

ـ لا لست أكيدًا من أنّني كنتُ سأقول لها هذه العبارة الأخيرة لو كنتُ مكانك.

فردّ سنوبس:

«لماذا؟ إذا كانت تنوي مقاضاتي بسبب ذلك الحريق، أتظنّ أنّها كانت ستأتي وتعرض شراء ذلك البغل».

كانت الساعة الواحدة حينها. عند الساعة الرابعة كان يشقّ طريقه بين حشد من الزنوج أمام متجر بقالة حقير حين ناداه أحدهم. كانت العجوز هيت، حاملة كيس التبضّع الذي كان منتفخًا هذه المرّة، وتتناول الموز من كيس ورقي. ثم قالت له:

«عجبًا لقد كنتُ في هذه اللّحظة بالذات أسأل عنك».

ناولت كيس الموز إلى امرأة بجوارها وراحت تنقّب في كيس التبضّع وأخرجت منه رزمة خضراء.

«أعطتني مسز ميني هذا لأعطيه لك. كنتُ في صدد الاستفسار عن مكانك. هاك».

أخذ منها الرزمة قائلاً:

«ما هذا؟ من مسز هايت؟».

Twitter: @ketab_n

«هذا ثمن البغل، لا حاجة إلى أن تعطيني أيّ إيصال، فأنا شاهدة على أنّني أعطيته لك».

كانت الأوراق تساوي عشرة دولارات.

«عشرة دولارات؟ ثمنًا لذلك البغل؟ قلت لها مئة وخمسين دولارًا».

«عليك أن تسوّي هذه المسألة بنفسك معها. لقد أعطتني هذا فحسب لكي أعطيه لك حين ذهبت لتأخذ البغل».

«ذهبت لتأخذ... ذهبت إلى مرعاي بنفسها وأخذت البغل؟».

«يا إلهي يا بنيّ، ألم تعرف بعد أنّ مسز ماني لا تخشى أيّ بغل؟».

ثم بدأت الشمس بالغياب، شأن أيّام الشتاء القصيرة الأخرى. حين رأت المدفأتين الشحيحتين عند الغروب، كان المساء قد حلّ أساسًا. لكنّها اشتمّت رائحة شواء اللّحم قبل أن تصل إلى سقيفة البقرة، مع أنّها لم ترها قبل أن تصل إلى حيث النيران تشتعل تحت مقلاة حديديّة وُضعت فوق موقد قرميديّ، وحيث كانت مسز هايت تحلب البقرة على مقربة منها. فقالت لها:

«إذن، لقد استقرّ بك الحال أليس كذلك؟».

نظرت إلى السقيفة وقد باتت نظيفة تمامًا الآن، وفُرشت

Twitter: @ketab_n

بالتبن النضر. وكان ثمّة قنديل جديد مضاء داخل علبة، وبجواره فراش من القشّ موضّب إلى الخلف من أجل الليل. فقالت لها بدهشة جذلة:

«حسن أنّك وضّبت أمورك».

وفي الداخل كان ثمّة كرسيّ مطبخ. أخرجته وجلست عليه قرب المقلاة ووضعت بجانبها كيس التبضّع المنتفخ.

«سأهتمّ بهذه اللّحمة بينما تحلبين البقرة. كنتُ عرضت عليك أن أحلبها لك لو لم أكن شديدة الإنهاك جرّاء كلّ ما مررنا به اليوم».

تلفّتت حولها، ثم قالت:

«لا أحسب أنّني أرى بغلاً جديدًا هنا».

غمغمت مسز هايت، ورأسها على عجز البقرة. وبعد برهة قالت:

«أأعطيته ذاك المال؟».

«أجل. فوجئ في البداية، ربّما لم يكن يتوقّع أنّك تنوين شراء البغل بهذه السرعة. قلت له أن يسوّي التفاصيل معك لاحقًا. أخذ المال مع ذلك. أظنّ أنّ المسألة أصبحت بينكما».

مجدّدًا غمغمت مسز هايت. قلّبت هيت العجوز شريحة اللّحم

Twitter: @ketab_n

في المقلاة. إلى جانبها كانت المياه في ركوة القهوة تغلي ويتصاعد منها الدخان. قالت:

«القهوة رائحتها شهيّة أيضًا، فقدت شهيّتي منذ سنوات، حتى الطائر لا يستطيع العيش على ما أقتات به، لكـن مـا إن أحتسـي بعض القهوة حتى أجدني قد صرت... الآن لو كانت لديك قطعـة صغيرة أخرى من اللّحم... بحقّ الله، ها قد جاءك ضيوف...».

لكن مسز هايت لم ترفع رأسها لترى من الآتي حتى انتهـت من عملها. ثم التفتت من دون أن تنهض عن الصندوق الذي كانت جالسة عليه.

كان هذا سنوبس الذي بادرها:

«أظنّ أنّه يجدر بنا أن نتحدّث قليلاً، أظـنّ أنّ لـديّ شـيئًا يخصّك وأنّ لديك شيئًا يخصّني أيضًا».

نظر حوله بسرعة، وبلا مبالاة، بينما راحت هيت العجـوز تتفرّس به. التفت نحوها:

«أنت يمكنك الذهاب أيّتها العمّة، لا أحسبك راغبة في البقـاء هنا وسماعنا».

«لا تقلق بشأني يا عزيزي، لديّ ما يكفينـي مـن المتاعـب بحيث أجلس وأستمع إلى أحاديث أشخاص آخـرين، مـن دون أن

Twitter: @ketab_n

يسبّب لي ذلك أيّ قلق. يمكنك أن تقول ما جئت لقوله وأنا سأجلس هنا وأعتني بشرائح اللحم».

نظر سنوبس إلى مسز هايت:

«ألن تطلبي منها الذهاب؟».

«لماذا؟ أعتقد أنّها ليست أوّل من دخل إلى هذا الفناء وقت شاء وغادر وقت شاء».

أومأ سنوبس بيده، إيماءة امتعاض موجزة ومضبوطة. ثم قال:

«حسنًا، لا بأس بهذا. إذن لقد أخذت البغل».

«دفعت لك ثمنه. لقد أعطيتك المال».

«عشرة دولارات. لقاء بغل ثمنه مئة وخمسون دولارًا. عشرة دولارات!».

«لا علم لي ببغال ثمنها مئة وخمسون دولارًا. كلّ ما أعرفه هو ما دفعته محطّة سكّة الحديد».

عندئذ نظر إليها سنوبس برهة كاملة.

«إلام ترمين بكلامك هذا؟».

«أعني الستّين دولارًا التي كانت سكّة الحديد تدفعها لك مسبقًا ثمنًا للبغال حين كنت أنت وهايت...».

Twitter: @ketab_n

«صه»، قال سنوبس، وتلفّت حوله ثانية، ملقيًا نظرة خاطفة:

«حسنًا. حتى لو سلّمنا جدلاً بأمر الستّين دولارًا. لكنّك أرسلت عشرة دولارات فحسب».

«أجل، أرسلت لك الفارق».

نظر إليها، صامتًا بالكامل:

«فارق ثمن البغل وما كنتَ تدين به لهايت».

«ما الذي كنتُ مدينًا له به...».

«لوضع تلك البغال الخمسة في طريق الـ...».

«صه»، صرخ بها، «اصمتي». لكنّها واصلت الكلام بصوتها البارد، المستوي، المتجهّم.

«لمساعدته لك كنتَ تدفع له خمسين دولارًا كلّ مرّة، وسكّة الحديد كانت تدفع لك ستّين دولارًا عن كلّ بغل. أليس هذا صحيحًا؟».

جعل يحملق بها.

«وآخر مرّة لم تدفع له شيئًا. لذا أخذت هذا البغل. وأرسلت لك الفارق: عشرة دولارات».

«أجل»، أجاب بنبرة تأمّل هادئ وعميق، قبل أن يصرخ:

Twitter: @ketab_n

«لكن اسمعي! هنا أحشرك في الزاوية. كان اتّفاقنا أنّني لن أكون مدينًا له بأيّ شيء قبل أن...».

«أظنّ أنّه يستحسن لك أن تأمر نفسك بالصمت».

«حتى ينتهي الأمر. وتلك المرّة حين انتهى الأمر لم أكن مدينًا لأحد بأيّ مال، لأنّ الرجل الذي يفترض أن أكون مدينًا له لم يعد موجودًا». صرخ بنبرة منتصرة.

جالسة على الصندوق، بلا حراك، ناظرة إلى الأرض، بدت السيّدة هايت تفكّر بعمق.

«أرأيت؟ لذا خذي دولاراتك العشرة وأخبريني بمكان بغلي وسنعود أصدقاء مثلما كنّا. بحقّ الله، إنّني آسف جدًّا بشأن هذا الحريق...».

«بحقّ الله»، قالت هيت العجوز، «لقد شبّ حريق، أليس كذلك؟».

«لكن مع كلّ المال الذي ما زال لديك من التعويض، كنتِ تنتظرين منذ مدّة طويلة فرصة لإعادة بناء البيت. لذا هاك. خذي المال».

دسّ المال في يدها قائلاً «أين بغلي؟». لكنّ السيّدة هايت لم تمدّ يدها. ثم سألته:

Twitter: @ketab_n

«أتريد إعادة المال لي؟».

«بالتأكيد. لطالما كنّا صديقين، والآن سنعود فحسب إلى ما كنّا عليه. لا أكنّ لك أيّ بغض ولا أريدك أن تكنّي لي البغض. أين خبّأت البغل؟».

«في الأعلى، عند نهاية القناة خلف منزل سبيلمر».

«بالتأكيد. أعرفه. ملاذ جيّد، ما دمت لا تملك حظيرة. فقط لو تركته في المرعى، لكان وفّر ذلك العناء علينا معًا. لكن لا ضغينة مع ذلك. وإذن سأتمنّى لك ليلة سعيدة. أرى أنّك تدبّرين أمورك جيّدًا. أظنّ أنّك تستطيعين توفير بعض المال بعدم بناء بيت على الإطلاق».

«أظنّ ذلك»، أجابته مسز هايت، لكنّه كان قد ذهب.

«لماذا تركت له ذاك البغل»، سألتها هيت العجوز.

«أظنّ أنّ هذا كاف».

«كاف؟».

لكن مسز هايت دنت ونظرت إلى المقلاة، وقالت هيت العجوز:

«هل أتوهّم ذلك أم أنّك قلت للتوّ قبل قليل شيئًا عن قطعة أخرى من اللّحم؟».

Twitter: @ketab_n

كانتا تتناولان الطعام حين عاد سنوبس قبل حلول الظلمة التامّة. جاء بصمت وهدوء ووضع يديه فوق الموقد ليتدفّأ. لم ينظر ساعتها إلى أحد. ثم قال:

«أظنّ أنّني سآخذ العشرة دولارات تلك».

«أيّة عشرة دولارات؟»، أجابته مسز هايت. بدأ يتأمّل النيران. راحت مسز هايت وهيت العجوز تمضغان طعامهما على مهل، وهيت العجوز لم تنظر إليه قطّ. قال:

«ألن تعيدي لي العشرة دولارات؟».

«أنت من قلت فلنعد من حيث بدأنا».

«أجل قلت ذلك، هذا صحيح»، قالت هيت العجوز. ظلّ سنوبس شاخصًا نحو النار. تكلّم بنبرة تنمّ عن الشرود واليأس الذاهل. ثم قال:

«أنا أتحمّل القلق والمخاطرة والعذاب لسنوات وسنوات وأحصل على ستّين دولارًا. وأنت مرّة واحدة، وبلا أيّ مشقّات ومخاطر، ومن دون أن تعرفي حتى أنك ستحصلين عليها، تحصلين على ٨٥ دولارًا. لم أحسدك أبدًا على ذلك، ولن تسمعي أحدًا يقول ذلك وإن بدا غريبًا بعض الشيء أن تحصلي على كلّ شيء، في حين لم يكن يعمل من أجلك وأنت لم تعرفي حتى أين كان وماذا كان يفعل؛ كلّ ما كان عليك فعله أن تتزوّجي منه. والآن بعد هذه

Twitter: @ketab_n

السنوات العشر التي لم أحسدك على شيء خلالها، أخــذت أفضــل بغالي ولن تدفعي لي حتى عشرة دولارات ثمنًا لــه. هــذا غيــر صحيح. وليس عدلاً».

قالت له هيت العجوز:

«لقد استرجعت بغلك ولست راضيًا بعد، ما الذي تريده؟».

لكن سنوبس التفت إلى مسز هايت.

«أسألك للمرّة الأخيرة، هل سترجعين العشرة دولارات لي أم لا؟».

«أرجع لك ماذا؟»، قالت مسز هايت. تعثّر بشيء ما ــ كان كيس تبضّع هيت العجوز، ثم وقف مجــدّدًا ومضـــى. رأوه ظــلاً أسود، كأنّه مؤطّر بالمدفأتين القاتمتين في نهايــة الغــروب؛ رأوه يرفع كلتا يديه بحركة تنمّ عن اليأس التامّ. ثم رحل. راحت هيــت العجوز تحملق في مسز هايت. ثم سألتها:

«عزيزتي، أخبريني ماذا فعلت بالبغل؟».

انحنت السيّدة هايت فوق النار. وكان ثمّة في طبقهــا قطعــة خبز. رفعت المقلاة وصبّت فوق الخبز الشحم الذي قَلَتْ به اللّحمة. ثم قالت:

«أرديته بالرصاص».

Twitter: @ketab_n

«ماذا فعلت؟»، قالت هيت العجوز. وراحت مسز هايت تتناول قطعة الخبز، «حسنًا»، قالت العجوز هيت بسعادة، «البغل أحرق البيت وأنت قتلت البغل. هذا ما أسمّيه عدلاً». بدأت العتمة تهبط بسرعة، وأمامها الأميال الثلاثة التي كان عليها أن تمشيها إلى دار العجزة. لكنّ العتمة تستمرّ طويلاً في يناير، ودار العجزة لن تنتقل الآن من مكانها. تنهّدت باسترخاء ينمّ عن التعب والسعادة في آن:

«اسكتوا أيّها السادة، ألم يكن يومنا رائعًا!».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيكون هذا حسنًا[1]

I

تناهى إلى مسامعنا صوت المياه المتدفّقة في المغطس. نظرنا إلى الهدايا المتناثرة فوق السرير والتي لفّتها أمّي بأوراق ملوّنة ووضعت أسماءنا عليها، بحيث يستطيع جدّي أن يعرف بسهولة لمن تنتمي كلّ واحدة منها حين يأتي بها عن الشجرة. كانت هناك هديّة لكلّ واحد منّا ما عدا جدّي، لأنّ أمّي قالت إنّه أكبر سنًّا من أن يتلقّى الهدايا. وقلت لروزي:

«هذه الهديّة لك».

قالت:

«اصمت الآن، هيّا إلى المغطس مثلما قالت لك أمّك».

---

(١) سيكون هذا حسنًا: كتبت ونشرت عام ١٩٣٥ في «أميركان ميركوري». يرى فيها جوزيف بلوتنر، كاتب سيرة فوكنر، وغيره من النقّاد توازيًا مع إحدى جزئيّات «الصخب والعنف» التي نشرها فوكنر قبل ستّ سنوات، ويقارن تحديدًا بين شخصيّتي جايسون كومبسون والخال موري في الرواية، وشخصيّتي جورجي والخال رودني في القصّة، وإن كان مصير الشخصيّتين البالغتين، أي موري ورودني، يختلف بصورة كبيرة.

Twitter: @ketab_n

ثم ألقت نظرة على هديّتها، وقالت:

«أظنّ أنّني أستطيع أن أصبر حتى أحصل عليها في حينها».

«سأخبرك بما فيها إذا أعطيتني نيكلاً».

نظرت روزي إلى هديّتها، قائلة:

«ليس معي نيكل، لكن سيكون معي صبيحة الكريسماس حين يعطيني السيّد رودني تلك الدايم»[1].

ـ ستكونين قد عرفت عندها ما بداخلها ولن تدفعي لي، اذهبي واطلبي من أمّي أن تقرضك نيكلاً.

ثم جذبتني من ذراعي:

«هيّا الآن إلى المغطس، أنت والمال! إذا لم تَثْرَ في الحادية والعشرين فسيكون ذلك فقط لأنّ الربّ قد ألغى النقود أو ألغاك أنت!».

مضيت واستحممت ورجعت، فوجدت الهدايا ما تزال مبعثرة على سرير أمّي وأبي، وكان في وسعي أن أشتمّ رائحتها وليلة غد ستبدأ الألعاب الناريّة وعندها سيمكن سماعها أيضًا. سننتظر الليلة فحسب ثم في الغد نستقلّ القطار، ما عدا أبي، لأنّه سيضطرّ إلى

(١) الدايم قطعة نقديّة تساوي عشرة سنتات من الدولار الأميركي. أمّا النيكل فتساوي خمسة سنتات.

Twitter: @ketab_n

البقاء في الإصطبل إلى ما بعد عشيّة الكريسماس، ونـذهب إلـى منزل جدّي، ثم تكون ليلة غد وتكون ليلة الكريسماس وسيأتي جدّي بالهدايا عن الشجرة وينادي على أسمائنا، ثم سيأخذ الهديّـة التـي اشتريتها بدايم للخال رودني، وبعدها سيقوم الخال رودنـي بفـتح منضدة جدّي بالقوّة ويأخذ جرعة من زجاجة التونيك الخاصّة بـه، وربّما يعطيني ربع دولار إضافيًّا لمسـاعدته، مثلمـا فعـل فـي الكريسماس الماضي، بدلاً من أن يعطيني مجرّد دايم، مثلما فعـل الصيف الفائت عندما كان يزورنا، وقمنا ببيزنس[١] مع مسز تـاكر قبل أن يعود الخـال رودنـي ويبـدأ العمـل فـي «الكـومبرس أسوسياشن»[٢]، وسيكون الأمر حسنًا. وقد يعطيني حتـى نصـف دولار، وشعرت أنّني لا أطيق صبرًا. وقلت:

«يا نبيّ، مش قادر أصبر»[٣].

---

(١) استعمال كلمة «بيزنس» Business في سياق هذه القصّة لا يأتي بـالمعنى المعروف للكلمة، أي القيام بصفقات أو أعمال تجاريّة مثلما يكشف سـياق القصّة.

(٢) «كومبرس أسوسياشن» Compress Gas Association: أقدم وأكبر شـركة غاز في العالم، ضمّت اتّحادًا من عشـرات شـركات الغـاز الأميركيّـة والكنديّة، تأسّست عام ١٩١٤.

(٣) يا نبي Jesuss : تستعمل عادة على هذا النحو للتعبير عـن الغضـب أو الاستياء أو المفاجأة. ولهذا السبب توبّخ الأخت في العبارة التالية أخاها لأنّه يلعن أو يشتم. ولمّا كان الراوي هنا طفلاً في السابعة فقد ارتأيت اسـتعمال تعبير «يا نبيّ» بدلاً من «أيّها المسيح» أو «يا إلهي» أو حتى «اللّعنة». أمّا

Twitter: @ketab_n

فصاحت بي روزي:

«ماذا قلت؟ أقلت يا نبيّ؟ فقط لو تسمعك أمّك تلعن بهذا الشكل! وتكلّمني عن نيكل! لقاء نيكل يمكن أن أخبرها بما ما قلته الآن».

فأجبتها:

«إذا دفعت لي نيكلاً أخبرها بنفسي».

صاحت بي:

«هيّا إلى الفراش، فتى في السابعة ويلعن!».

ـ إذا وعدتني بألاّ تخبريها فسأخبرك ماذا في هديّتك ويمكنك أن تدفعي لي النيكل صبيحة الكريسماس».

فصاحت بي مجدّدًا:

«إلى الفراش الآن. أنت وقروشك هذه! أراهن أنّ أحدًا منكم لم يفكّر بشراء هديّة لجدّه ولو بنيكل واحد، كنتُ شاركت أنا نفسي بنيكل».

«جدّي لا يريد هدايا، إنّه عجوز جدًّا على ذلك».

- العبارة العاميّة «مش قادر أصبر» فقد تكون، نظرًا لسنّ الصبي أيضًا، أكثر ملاءمة من «لا أطيق صبرًا».

Twitter: @ketab_n

وقالت روزي:

«هكذا إذن؟ افترض أنّ أحدهم قرّر أنك صغير جدًّا على الحصول على نيكل! فما سيكون رأيك عندها؟ ها؟».

ثم أطفأت روزي النور وخرجت من الغرفة. لكن كان ما زال في وسعي رؤية الهدايا على ضوء المدفأة: هدايا الخال رودني وجدّتي والخالة لويزا وزوجها العمّ فريد وابنتهما والطفل وطبّاخة جدّي وطبّاختنا، أعني روزي، وربّما يجدر أن يقدّم أحدهم هديّة لجدّي، وربّما ينبغي أن تكون الخالة لويزا لأنّها والعمّ فريد يعيشان مع جدّي، أو ربّما الخال رودني لأنّه هو أيضًا يعيش معه. ولطالما قدّم خالي الهدايا لأبي وأمّي، لكن ربّما ستكون مضيعة لوقته ولوقت جدّي أن يقدّم له هديّة، لأنّني ذات مرّة سألت أمّي لماذا ينظر جدّي دائمًا إلى الهدايا التي يقدّمها الخال رودني لها ولأبي ويستشيط غضبًا. ضحك أبي فقالت له أمّي إنّ عليه أن يخجل من نفسه، لأنّه ليس ذنب الخال رودني أنّ كرمه أكبر من حجم جيبه، وقال أبي أجل، بالتأكيد ليس بخطأ الخال رودني، فهو لم يعرف شخصًا بذل جهدًا أكبر منه للحصول على المال بحيث جرّب كلّ وصفة معروفة لذلك ما عدا العمل، وأنّه لو عادت أمّي بذاكرتها عامين إلى الوراء لتذكّرت ذات مرّة حين كان ينبغي أن يشكر الخال رودني حظّه فهناك ثمّة رجل من «الكونكشن» كان كرمه أو مهما تسمّيه أمّي، أكبر من جيبه بنحو خمسمائة دولار، وقالت أمّي إنّها تتحدّاه أن

Twitter: @ketab_n

يقول إنّه سرق هذا المال، وإنّها ليست إلاّ ادّعاءات خبيثة وأبي يعرف ذلك، لكنّه ومعظم الآخرين متحيّزون ضدّ الخال رودني، ولا تعرف السبب، ولو أنّ أبي أقرض الخال رودني الخمسمائة دولار حين كان صيت العائلة على المحكّ لكان جدّي دبّره بطريقة ما وأرجعه إليه، ثم بدأت تبكي. فقال لها أبي لا عليك، لا عليك. بكت أمّي وقالت إنّ الخال رودني صغير العائلة ولا بدّ أنّ هذا سبب كره أبي له. قال أبي لا عليك، لا عليك، بحقّ الربّ اهدئي.

لأنّ أمّي وأبي ما كانا يعلمان أنّ الخال رودني كان يقوم بالبيزنس طوال مدّة زيارته لنا الصيف الفائت، كما لم يكن الناس في موتستاون[١] يعلمون أنّه كان يقوم بالبيزنس في الكريسماس الفائت حين عملت لحسابه للمرّة الأولى، وأعطاني الربع دولار. لأنّه قال إنّه إذا كان يحبّذ القيام ببيزنس مع السيّدات لا الرجال فهذا شأنه وحده، وهو لا يعني حتى مستر تاكر. قال إنّه لا يجدر بي إطلاقًا أن أخبر أحدًا عن عمل أبي، وقلت له إنّ الجميع يعرفون أنّ أبي يعمل في الإصطبل، وبالتالي لست مضطرًّا إلى إخبارهم. قال

---

(١) موتستاون: Mottstown: مركز مقاطعة «أوكاتوبا» التي تقع في أعمال فوكنر إلى جنوب جيفرسون، وقد أسماها «موتسون» Mottson، في «الصخب والعنف» و«بينما أضطجع محتضرة»، وموتستاون في أعمال أخرى.

Twitter: @ketab_n

الخال رودني «حسنًا»، وأضاف أنّه سيعطيني نصف نيكل لقيامي بذاك العمل وسألني إن كنت أريد الحصول على المزيد من النيكلات أم أريده أن يلجأ إلى سواي؟ فذهبت وراقبت سياج مستر تاكر حتى رأيته يخرج من البيت ذاهبًا إلى البلدة، فمضيت من خلف السياج إلى الزاوية وراقبته حتى توارى عن الأنظار، فعلّقت قبّعتي على عمود السياج وتركتها هناك حتى رأيت مستر تاكر عائدًا. غير أنه لم يعد البتّة أثناء وقوفي هناك لأنّ الخال رودني انتهى قبل وصوله، وجاء ورحنا نتحدّث في طريقنا إلى البيت وأخبر أمّي عن المسافة الطويلة التي مشيناها ذلك اليوم، فقالت أمّي إنّ هذا مفيد لصحّة الخال رودني. فدفع لي نيكلاً فحسب في البيت. ولم يكن بالمبلغ الكبير مثل الربع دولار الذي أعطاني إيّاه حين قمت بالبيزنس مع تلك السيّدة الأخرى في «موتستاون» على الكريسماس، لكن تلك كانت مرّة وحيدة، وظلّ عندنا طوال الصيف. وهكذا بحلول ذلك الوقت كان معي أكثر بكثير من ربع دولار. وإلى جانب ذلك جاء الكريسماس العام التالي وشرب الخال رودني من تونيك جدّي، ودفع لي ربع دولار وربّما هذه المرّة سيعطيني نصف دولار حتى. لم أكن أطيق صبرًا.

Twitter: @ketab_n

II

أخيرًا جاء النهار، فارتديت بذلة الأحد، ومضيت إلى الباب الأمامي وانتظرت سيّارة الأجرة، ثم ذهبت إلى المطبخ وسألت روزي إذا كان قد حان الوقت، فقالت لي إنّ القطار لن يصل قبل ساعتين. وبينما كانت تخبرني بذلك سمعنا صوت السيّارة، وفكّرت أنّه آن الأوان لكي نذهب ونلحق بالقطار وسيكون هذا حسنًا، ثم نذهب إلى منزل جدّي ويكون صار الليل، ثم يأتي يوم غد وقد يكون نصف دولار هذه المرّة، ويا ربّي، كم سيكون الأمر حسنًا. ثم خرجت أمّي تركض حاسرة الرأس، وقالت إنّه لم يبق سوى ساعتين وهي لم تلبس ثيابها بعد. فقال لها جون بول حاضر سيّدتي، وقال إنّ أبي أرسله لكي يخبر أمّي بوصول الخالة لويزا وبضرورة أن تعجّل. علّقنا سلّة الهدايا في العربة المستأجرة وركبت بجانب جون بول وأمّي تصيح سائلة عن الخالة لويزا، فقال جون بول إنّها قَدِمَت بعربة مستأجرة وأخذها أبي إلى الفندق لكي تتناول الإفطار لأنّها غادرت «موتستاون» قبل الفجر. وإذن ربّما تكون الخالة لويزا قد جاءت إلى جيفرسون لكي تساعد أمّي وأبي على شراء هديّة لجدّي. قلت لجون بول:

«لأنّنا اشترينا هدايا للجميع ما عداه، وقد اشتريت هديّة للخال رودني من جيبي الخاصّ».

Twitter: @ketab_n

أخذ جون بول يضحك، فسألته لماذا يضحك فقال إنّ ما أضحكه هو فكرة أن أقدّم أنا للخال رودني أيّ شيء ممّا قد يرغب فيه. سألته لماذا، فقال لأنّ شكلي أقرب إلى الرجال. فسألته لماذا، فقال إنّه يراهن على أنّ أبي يرغب في أن يقدّم هديّة للخال رودني من دون انتظار الكريسماس حتى. قلت ماذا؟ قال جون بول: وظيفة ما. أخبرت جون بول أنّ الخال رودني كان يعمل طوال وقت زيارته لنا الصيف الفائت. كفّ جون بول عن الضحك وقال عجبًا، وزعم أنّه يظنّ أنّ أيّ شيء يواظب الرجل على القيام به، ليل نهار، يسمّيه عملاً، بصرف النظر عن مدى المتعة المتأتّية من هذا العمل. قلت، على أيّ حال، الخال رودني يعمل حاليًّا، يعمل في مكتب «كومباس أسوسياشن»، فاستغرق جون بول في الضحك هذه المرّة وقال إنّ الأمر بالتأكيد يتطلّب اتّحادًا بأكمله لـ «ضغط»[1] الخال رودني. ثم راحت الماما تصيح بأن تذهب العربة مباشرة إلى الفندق، فقال جون بول إنّ أبي أوصى أن نذهب مباشرة إلى الإصطبل وننتظره. ذهبنا إلى الفندق فخرج أبي والخالة لويزا إلى السيّارة، ثم شرعت الخالة لويزا بالبكاء وأمّي تصيح لويزا! لويزا! ما الذي حدث؟ وأبي يقول لها اهدئي الآن. اهدئي. تذكّري أنّ

(١) لعب على كلمة ضغط في اسم شركة «اتّحاد الغاز المضغوط» والمقصود هنا: «احتواء»، في الإشارة إلى شخصيّة الخال رودني المتفلّتة.

Twitter: @ketab_n

الزنجي حاضر، قاصدًا جون بول، ولا بدّ أنّ المسألة كانت تتعلّق بهديّة لجدّي ولم تصل.

في نهاية المطاف لم نستقلّ القطار. ذهبنا إلى الإصطبل حيث كانت عربة سفر تنتظرنا هناك. وجعلت أمّي تبكي عندئذ قائلة إنّ أبي لم يلبس حتى ثياب الأحد، وأبي يشتم ويقول تبًّا للملابس؛ إذا لم نصل إلى الخال رودني قبل أن يصل إليه الآخرون، فإنّ أبي سيلبس الثياب التي يلبسها الخال رودني الآن. ركبنا العربة على عجل وأسدل أبي الستائر بحيث تستطيع أمّي وخالتي أن تبكيا بكلّ حرّيّة. صاح أبي بجون بول أن يذهب إلى البيت ويقول لروزي أن توضّب له ثياب الأحد وتأخذها إلى القطار؛ وعلى أيّ حال سيكون هذا حسنًا بالنسبة إلى روزي. فلم نذهب بالقطار إذن لكنّنا ذهبنا بسرعة، وتولّى أبي القيادة مردّدًا: ألا يعلم أحد بمكانه؟ كفّت الخالة لويزا عن البكاء وقالت إنّ الخال رودني لم يأت إلى العشاء ليلة البارحة، لكنّه جاء بعد العشاء، وإنّه انتابها شعور رهيب ما إن سمعت خطواته في الردهة، وإنّ الخال رودني رفض أن يحكي شيئًا حتى أصبحا في غرفته وأقفلا الباب، وعندها قال لها إنّه بحاجة إلى ألفي دولار. قالت له: من أين بحقّ السماء تأتي له بألفي دولار؟ طلب منها الخال رودني أن تقصد فريد، أي زوج الخالة لويزا، وجورج، أي أبي، وأن تقول لهما إنّ عليهما تدبير المبلغ،

Twitter: @ketab_n

فقالت الخالة لويزا إنّه انتابها ذلك الشعور الرهيب وقالت: رودني! رودني! ماذا... وراح الخال رودني يشتم قائلاً: اللعنة، لا تبدئي بالارتعاش والبكاء الآن. قالت الخالة لويزا: رودني ما الذي فعلته الآن؟ ثم سمع كلاهما طرقًا على الباب. وعندها نظرت الخالة لويزا إلى الخال رودني وعلمت الحقيقة حتى قبل أن ترى مستر بروت و«الشريف»، وقالت للخال رودني: لا تخبر أبي! أبق الأمر سرًّا عن أبي! هذا سيودي بحياته...

وسألها أبي:

«من؟ السيّد من؟».

فقالت وقد عاودها النشيج:

«مستر بروت، مدير شركة كومباس أسوسياشن. نقلوا مركزهم إلى مونتستاون الربيع الفائت. أنت لا تعرفه».

ذهبت إلى الباب وكان هناك مستر بروت والشريف. وحكت كيف أنّها راحت ترجو مستر بروت بألاّ يفعل شيئًا الآن حتى لا يعرف جدّي، مقسمة له إنّ الخال رودني سيبقى في البيت حتى وصول أبي، فأعرب لها مستر بروت عن مدى كرهه لحدوث هذا وقت الكريسماس، وأنّه كرمى لجدّي ولها سيعطيهم مهلة حتى ما بعد الكريسماس بيوم إذا وعدته بأنّ الخال رودني لن يغادر

Twitter: @ketab_n

مونتستاون. وحكت أنّ مستر بروت أراها الشيك الذي عليه توقيع جدّي وأنّها حتى هي علمت أنّ توقيع جدّي مزوّ... وقاطعتها أمّي: لويزا! لويزا! تذكّري أنّ جورجي هنا! وكانت تقصدني، وشتم أبي أيضًا، صائحًا كيف بحقّ الله تتوقّعين إخفاء الأمر عنه؟ أستخفين الصحف؟ انتحبت الخالة لويزا مجدّدًا، قائلة إنّ الجميع سيعرف بالأمر، وإنّها لا تتوقّع ولا تأمل بأن يتمكّن أيّ منّا من رفع رأسه مجدّدًا، وإنّ كلّ ما ترجوه هو إخفاء الأمر عن جدّي لأنّه إذا علم به فسيقتله. وراحت تنشج بشدّة. فاضطرّ أبي إلى التوقّف عند جدول صغير لكي يبلّل منديلاً لأمّي لكي تمسح به وجه الخالة لويزا، ثم أخرج زجاجة التونيك من جيب العربة وسكب بضع قطرات على المنديل، ثم أخذ جرعة منها فصاحت أمّي: جورج! شرب أبي جرعة أخرى ثم ناول الزجاجة لأمّي وللويزا لكي تأخذا جرعة أيضًا قائلاً:

«لا ألومك، لو كنتُ امرأة في هذه العائلة لشربت أيضًا. الآن دعيني أستوضح قضيّة سندات الطريق تلك التي ورّط نفسه بها»[١].

فردّت خالتي:

«هذه سندات الطريق الخاصّة بأمّي».

---

(١) سندات تصدرها الحكومة بمعدّل فائدة مرتفع لتمويل مشاريع بناء الطرق.

Twitter: @ketab_n

انطلقنا بسرعة مجدّدًا لأنّ الجياد كانت قد استراحت ساعة راح أبي يبلّل المنديل وأخذ جرعة التونيك تلك. قال أبي حسنًا ماذا بخصوص هذه السندات؟ ومال فجأة إلى الخلف وقال:

«سندات الطريق؟ أتعنين أنّه فتح عنوة بذاك المفكّ اللّعين نضد أمّه أيضًا؟».

هتفت أمّي: جورج! وصارت الخالة لويزا الوحيدة التي تتكلّم الآن، بسرعة، ومن دون نشيج، وأبي يلتفت إلى الخلف سائلاً إن كانت الخالة لويزا تقصد أنّ الخمسمائة دولار التي كان عليه دفعها قبل عامين لم تكن المبلغ كلّه؟ وأجابته الخالة لويزا أنّ المبلغ هو ألفان وخمسمائة دولار، لكنّهم أرادوا إخفاء الأمر عن جدّي، فوضعت جدّتي السندات كتأمين على القرض، ثم سدّد الخال رودني للمصرف دين جدّتي واستعاد السندات مقابل بعض سندات الكومبرس أسوسياشن التي سرقها من خزنة الشركة، وحين اكتشف مستر بروت اختفاء السندات بحث عنها فوجدها في المصرف، وحين بحث في خزنة الشركة لم يجد سوى الشيك بقيمة ألفي دولار الذي يحمل توقيع جدّي. وحكت خالتي أنّ مستر بروت لا يعيش في موتستاون إلاّ منذ سنة، ومع ذلك حتى هو يعرف أنّ جدّي لم يوقّع البتّة على ذاك الشيك، ناهيك أنّه راجع المصرف ثانية ولم يكن جدّي يملك إيداعًا بقيمة ألفي دولار فيه، قال مستر بروت إنّه

Twitter: @ketab_n

سيمهلهم حتى اليوم التالي للكريسماس إذا ما أقسمت له الخالة لويزا إنّ الخال رودني لن يهرب، وأقسمت الخالة لـويزا ثـم صـعدت السلالم مجدّدًا إلى الطابق العلوي لكي تناشد الخال رودني أن يعيد السندات لمستر بروت ودخلت إلى غرفته حيث كانت قـد تركتـه فوجدت النافذة مفتوحة، وكان الخال رودني قد رحل. صاح أبي:

«اللعنة على رودني. السندات! أتعنين أنّ أحـدًا لا يعـرف بمكان السندات؟».

الآن بتنا نمضي أسرع لأنّنا بدأنا ننزل الهضبة الأخيرة نحو الوادي إلى «مونتستاون». عمّا قريب سنبدأ باشتمام تلـك الرائحـة ثانية؛ لن ننتظر سوى هذا النهـار، ثـم هـذه الليلـة، ثـم يـأتي الكريسماس. جلست الخالة لويزا هناك ووجهها شاحب مثل جـدار أبيض مغسول بعيد هطول المطر. قال أبي: من بحقّ السماء دبّر له هذه الوظيفة على أيّ حال، وأجابته الخالة لويزا أنّ مستر بـروت يعيش في مونتستاون منذ بضعة أشهر فقط، ثم بدأت تبكي من دون حتى أن تغطّي وجهها بوشاحها هذه المرّة، ونظرت أمّي إلى الخالة لويزا وبدأت تبكي هي أيضًا. وساط أبي الجوادين رغم أنّهما كانـا يعدوان بسرعة وجعل يشتم. «اللعنة على الجحـيم!»، قـال أبـي: «فهمت. بروت متزوّج».

ثم رأينا «مونتستاون». كان ثمّة أكاليل زهور علـى النوافـذ

Twitter: @ketab_n

مثل تلك التي في جيفرسون، وقلت:

«هناك ألعاب ناريّة في موتستاون كما في جيفرسون».

راحت أمّي والخالة لويزا تتشجان بشدّة، وأبي يقول اهدآ، اهدآ، تذكّرا جورجي، أي أنا. قالت الخالة لويزا:

«أجل، أجل! تتسكّع طوال النهار في عربة مكشوفة، والمرّة الوحيدة التي زارتها فيها مسز تشورش، وهذا بسبب منصب مستر بروت فقط، وجدتها من دون مشدّ أيضًا، وقد أخبرتني مسز تشورش أنّ رائحة الخمر كانت تفوح من أنفاسها.

قال أبي اهدئي! اهدئي! بينما الخالة لويزا تنشج قائلة إنّ مسز بروت تتحمّل المسؤوليّة لأنّ الخال رودني يافع ويسهل التغرير به، لأنّه لم يحظ بفرصة للقاء فتاة لطيفة يتزوّجها. قاد أبي العربة بسرعة نحو منزل جدّي وقال:

«يتزوّج؟ رودني يتزوّج؟ أيّ متعة قد يحصل عليها من التسلّل خارجًا من منزله والانتظار حتى تحلّ العتمة ويتسلّق المزراب إلى غرفة لن يجد فيها سوى زوجته؟»».

تابعت أمّي وخالتي النشيج والبكاء، حتى وصلنا إلى منزل جدّي.

Twitter: @ketab_n

III

لم نجد الخال رودني هناك. دخلنا إلى البيت. قالت جدّتي إنّ ماندي، وهي طبّاخة جدّي، لم تأت لكي تعدّ الإفطار وحين أرسلت جدّتي إملين، وهي ممرّضة طفلة الخالة لويزا، إلى كوخ ماندي في الفناء الخلفي، وجدت الباب مقفلاً من الداخل، لكن ماندي لم تردّ فذهبت جدّتي بنفسها ولم تجب ماندي فتسلّق العمّ فريد النافذة ولم يجد ماندي في الداخل وكان العمّ فريد قد عاد لتوّه من البلدة وراح هو وأبي يصيحان:

«مقفل؟ من الداخل؟ ولا أحد في الغرفة؟».

طلب العمّ فريد من أبي أن يذهب ويشغل جدّي وسيذهب بنفسه، لكنّ الخالة لويزا منعتهما قائلة بأنّه يجدر بهما ترك جدّي بسلام، وأن يذهبا كلاهما معًا ويعثرا عليه، وقال أبي فقط لو لم يحاول المغفّل بيع السندات، وقال العمّ فريد يا للربّ الرحيم، يا رجل، ألا تعرف أنّ تاريخ هذا الشيك يرجع إلى عشرة أيّام؟ دخلنا إلى حيث يجلس جدّي على كرسيّه قائلاً إنّه لم يتوقّع وصول أبي حتى يوم غد لكنّه مسرور بحقّ لرؤية أحدهم أخيرًا، لأنّه استيقظ صباح اليوم ووجد أنّ طبّاخته قد تركت العمل ولويزا ذهبت إلى مكان ما قبل الفجر، والآن لا يستطيع حتى أن يجد الخال رودني

Twitter: @ketab_n

لكي يذهب ويجلب له بريده وعلبة أو اثنتين من السيجار، فحمدًا للربّ أنّ الكريسماس لا يأتي إلاّ مرّة في السنة، وليكن ملعونًا لو لم يغتبط عند انتهائه، لكنّه أخذ يضحك عندئذ لأنّه حين يقول ذلك عن الكريسماس قبل يوم من مجيئه كان دائمًا يضحك، أمّا بعد انتهاء الكريسماس فلم يكن يضحك. ثم سحبت الخالة لويزا مفاتيح جدّي من جيبه بنفسها وفتحت نضده الذي اعتاد الخال رودني فتحه عنوة بالمفكّ، وأخرجت منه زجاجة التونيك التي تخصّ جدّي ثم طلبت منّي أمّي أن أذهب وألتحق بابن العمّ فريد والخالة لويزا.

لم يكن الخال رودني هناك. لكنّني ظننت في البداية أنّني ربّما لن أحصل حتى على ربع دولار، ولن أحصل على شيء هذه المرّة، فأوّل ما عليّ التفكير به إذن أنّه على أيّ حال سيكون الكريسماس وهذا سيكون شيئًا مهمًّا. طفت حول المنزل، وبعد فترة خرج أبي والعمّ فريد ورأيتهما من وراء الأشجار يطرقان على باب كوخ ماندي وينادبان: «رودني رودني». تواريت خلف الأشجار لأنّ العمّ فريد مرّ من أمامي مباشرة في طريقه إلى سقيفة الحطب، لكي يأتي بالفأس التي سيخلع بها باب ماندي. لكنّهما لم يستطيعا خداع الخال رودني. إذا كان مستر تاكر عجز عن خداعه في منزل مستر تاكر نفسه، فكان يجدر بأبي والعمّ فريد أن يعلما أنّهما لا يستطيعان خداعه في فناء أبيه الخلفي. فلم أحتج إلى سماعهما حتى.

Twitter: @ketab_n

فقط انتظرت حتى بعد حين عاود العمّ فريد الخروج وحمل الفأس وكسر القفل على باب الكوخ، ثم عاد، ثم خرج أبي من بيت ماندي ووضعوا القفل على الباب وأقفلوه وطافوا حول بيت ماندي من الخلف. سمعت العمّ فريد يسمّر النافذة. ثم عادا إلى البيت. لكن لم يكن مهمًّا ما إذا كانت ماندي في البيت أيضًا ولم تستطع الخروج لأنّ القطار وصل من جيفرسون مع روزي وثياب أبي الخاصّة بيوم الأحد، فكانت روزي هناك لكي تعدّ الطعام لجدّي ولنا، وكان هذا حسنًا أيضًا.

لكن ما كان في مقدورهم خداع الخال رودني. كنتُ لأخبرهم بذلك. كنتُ لأخبرهم أنّ الخال رودني يحبّ أحيانًا الانتظار حتى حلول الظلام، قبل أن يبدأ القيام بالبيزنس حتى. كان الأمر حسنًا حتى لو تأخّر الوقت حتى الأصيل، قبل أن أتمكّن من الابتعاد عن ابن العمّ فريد والخالة لويزا. كان الوقت متأخّرًا؛ عمّا قريب ستبدأ الألعاب الناريّة في وسط البلدة، وعندها سنسمعها أيضًا، فلم أرَ وجهه إلاّ قليلاً من بين القدد الخشبيّة التي سمّرها أبي والعمّ فريد على النافذة الخلفيّة؛ ورأيت أنّه قد أرخى ذقنه، وسألني لماذا بحقّ الجحيم تأخّرت إلى هذا الحدّ لأنّه سمع قطار جيفرسون يصل قبل الظهر، قبل الحادية عشرة، وراح يضحك حول كيف أنّ أبي والعمّ فريد حبساه في المنزل، في حين أنّ هذا كلّ ما يريده، وأنّ عليّ أن

Twitter: @ketab_n

أتسلّل بعد العشاء بطريقة ما، وهل أظنّ أنّني أستطيع تدبير ذلك؟ قلت له إنّه أعطاني في الكريسماس الفائت ربع دولار، في حين لم أكن مضطرًّا إلى التسلّل من البيت، وضحك قائلاً: ربع دولار؟ ربع دولار؟ هل رأيت عشرة أرباع دولار دفعة واحدة؟ لم أكن قد رأيت ذلك، وطلب منّي أن آتي إلى النافذة بعد العشاء مباشرة مع المفكّ وسأرى العشرة أرباع، وأن أتذكّر أنّه حتى الربّ لا يجب أن يعرف بمكانه الآن، وأنّ عليّ أن أذهب وأبقى بعيدًا حتى أعود بعد هبوط الظلام ومعي المفكّ.

لم يكونوا بقادرين على خداعي أيضًا. لأنّني رحت أراقب الرجل طوال العصر، حتى وهو يحسبني ألعب فحسب، وفي ظنّه أنّني لا أعرفه لأنّني من جيفرسون لا موتستاون. لكنّني عرفته، لأنّه ما إن مرّ من أمام السياج الخلفي وتوقّف عن السير لكي يشعل سيجاره مجدّدًا ورأيت الشارة تحت معطفه حين أشعل عود الثقاب، حتى عرفت أنّه مثل مستر واتس في جيفرسون الذي يقبض على الزنوج. كنتُ إذن ألعب قرب السياج وسمعته يتوقّف عن السير ويحملق بي. تابعت اللعب، فقال لي:

«مرحبًا يا بنيّ، هل سيزورك بابا نويل غدًا؟».

«أجل سيّدي».

«أنت ابن السيّدة مسز من جيفرسون أليس كذلك؟».

Twitter: @ketab_n

«أجل سيّدي».

«أجئت لإمضاء الكريسماس مع جدك؟ أتساءل ما إذا كان خالك رودني في البيت عصر اليوم؟».

«لا، سيّدي».

«حسنًا، حسنًا، هذا سيئ جدًا، لأنّني أردت أن أراه قليلاً. أظنّ أنّه في وسط البلدة؟».

«لا، سيّدي».

«حسنًا، حسنًا، أتقصد أنّه ربّما ذهب في زيارة ما؟».

«أجل، سيّدي».

«حسنًا، حسنًا، هذا سيّئ جدًّا. أردت رؤيته في أمر صغير. لكن أظنّ أنّني أستطيع الانتظار».

ثم نظر إليّ وسألني:

«ألأنت أكيد من أنّه خارج البلدة؟».

«أجل، سيّدي».

«حسنًا، هذا كلّ ما أردت معرفته، إذا ما ذكرت هذا لخالتك لويزا في منزل عمّك فريد فيمكنك أن تقول لها إنّ هذا كلّ ما أردت معرفته».

Twitter: @ketab_n

«أجل، سيّدي».

ثم مضى مبتعدًا، ولم يعد يمرّ بالبيت. راقبته لكنّه لم يعد. لم يستطع خداعي أيضًا.

IV

هبط الظلام وبدأوا بإطلاق الأسهم الناريّة في ساحة البلدة. أوّلاً سمعنا الأصوات. وسرعان ما سنرى الأسهم الناريّة والصواريخ، وسأكون قد حصلت على العشرة أرباع عندئذ، وفكّرت في السلّة المليئة بالهدايا، وأنّه ربّما يمكنني الذهاب إلى ساحة البلدة حين أنتهي من عملي مع الخال رودني، وأشتري هديّة لجدّي بنيكل من العشرة أرباع وأقدّمها له يوم غد، وربّما، لأنّ أحدًا لم يقدّم له هديّة، يعطيني جدّي ربعًا أيضًا بدلاً من النيكل يوم غد، وسيصبح لديّ واحد وعشرون ربعًا، عدا عن النيكل، وسيكون ذلك حسنًا جدًّا. لكن لم يكن لديّ الوقت لفعل ذلك. تناولنا العشاء وكان على روزي أن تعدّه أيضًا. طلت أمّي والخالة لويزا وجهيهما بالمساحيق من كثرة البكاء، وتولّى أبي مشاركة جدّي احتساء التونيك من وقت لآخر طوال فترة العصر، بينما العمّ فريد في ساحة البلدة، وعاد العمّ فريد ووافاه أبي إلى الصالة حيث أخبره أنّه

Twitter: @ketab_n

بحث في كلّ مكان، في المصرف وفي «الكومبرس»، وقد ساعده مستر بروت لكنّهما لم يعثرا على أثر له أو للمال، لأنّ العمّ فريد يخشى أنّه ذات ليلة من الأسبوع الفائت استأجر الخال رودني عربة وذهب إلى مكان ما. واكتشف العمّ فريد أنّه ذهب إلى الخطّ الرئيسي في كينغستون وركب القطار السريع إلى ممفيس. قال أبي إنّها لعنة لعناء، وقال العمّ فريد بحقّ الله سنذهب إلى هناك بعد العشاء ونأخذ منه المال، وهو قد أخبر مستر بروت بذلك، وقال له إنّهم إذا تمكّنوا من استبقائه فسيمنحهم فرصة.

جلس أبي والعمّ فريد وجدّي إلى طاولة العشاء، وجلس جدّي بينهما وراح يحكي أنّ الكريسماس لا يأتي سوى مرّة واحدة في السنة، والحمد لله على ذلك، ومرحى له، وأبي والعمّ فريد يقولان أنت الآن على ما يرام يا أبتاه؛ اهدأ الآن يا أبتاه، وكان جدّي يهدأ ثم يصيح فجأة: اللعنة، أين هذا الفتى؟ قاصدًا الخال رودني، وأردف أنّه مستعدّ للذهاب إلى ساحة البلدة بنفسه وإخراج الخال رودني من صالة البليارد تلك، وإجباره على العودة إلى البيت لرؤية أقربائه. تناولنا العشاء، وقالت أمّي إنّها ستأخذ الأطفال إلى الطابق الأعلى، فقالت الخالة لويزا لا ضرورة لذلك لأنّ إملين يمكنها أن تضعنا في أسرّتنا، فارتقينا السلّم الخلفي، وتذمّرت إملين لأنّها اضطرّت إلى إعداد إفطار إضافي اليوم، وإذا ظنّ الجماعة

Twitter: @ketab_n

أنّها ستمضي كل الكريسماس وهي تقوم بعمل إضافي فإنّهم لا يتمتّعون بأيّ عقل، وإنّها تفضّل ألاّ تكون موجودة في هذا البيت حاليًّا. ذهبنا إلى الغرفة وبعد فترة نزلت مجدّدًا السلّم الخلفي وتذكّرت أين يمكن أن أجد المفكّ أيضًا. ثم تناهت إلى مسامعي أصوات الأسهم الناريّة آتية من الساحة. كان القمر متوهّجًا ومع ذلك فقد رأيت الأسهم الناريّة والصواريخ في السماء. ثم مدّ الخال رودني يده من الشقّ وأخذ المفكّ. لم أكن قادرًا على رؤية وجهه عندئذ ولم يكن يضحك بالضبط، لم يبد ذلك ضحكًا، كانت فقط طريقة تنفّسه وراء ضلفتي النافذة، لأنّهم لم يتمكّنوا من خداعه. ثم قال:

«حسنًا، سأعطيك العشرة أرباع. لكن مهلاً، هل أنت واثق من أنّ أحدًا لم يعرف بمكاني؟».

«أجل سيّدي، انتظرت عند السياج حتى اقترب منّي وسألني».

«من هو؟».

«الرجل الذي يضع شارة».

شتم الخال رودني، لكنّه لم يكن غاضبًا. ولولا الكلمات التي استعملها لبدا كأنّه يضحك.

Twitter: @ketab_n

«سألني إذا كنت في زيارة خارج البلدة وأجبته أجل».

«جيّد، ذات يوم ستكون بيزنسمان ماهرًا مثلي. ولن أجعلك تكذب أكثر من ذلك أيضًا. والآن فقد حصلت على الأرباع العشرة، أليس كذلك؟».

«لا، لم أحصل عليها بعد».

شتم ثانية، فقلت له:

«سأرفع قبّعتي ويمكنك أن ترمي الأرباع فيها ولن تتبعثر عندها».

ثم شتم بشدّة، لكن صوته لم يكن مرتفعًا: «لكنّني لن أعطيك الأرباع العشرة»، قال، وهممت بالقول لكنّك قلت... وقال الخال رودني: «لأنّني سأعطيك عشرين».

قلت أجل سيّدي، ودلّني كيف أصل إلى المنزل الصحيح، وماذا أفعل حين أجده. لكن لم يكن من ورقة هذه المرّة، لأنّ الخال رودني قال إنّها ستكون مهمّة بعشرين ربعًا، وهي أهمّ من أن تدوّن على ورقة إلى جانب أنّني لن أحتاج إلى أيّ ورقة لأنّني لن أعرف العشرين ربعًا على أيّ حال. كان يدمدم من وراء ضلفة النافذة ولم أستطع تبيّن وجهه وكان ما زال يبدو يشتم وهو يقول إنّ أبي والعمّ فريد قدّما له خدمة بتسمير الباب والنافذة وبأنّ ليس لديهما القدر الكافي من الذكاء ليعرفا ذلك.

Twitter: @ketab_n

«تقف عند زاوية المنزل، وتعدّ ثـلاث نوافـذ. ثـم ترشـق الحصى على النافذة، ثم حين تفتح ـ لا يهمّك من تجد وراءها، فلن تعرفه على أيّ حال، فقط عرّف بنفسك وقل: إنّه في انتظارك عند الناصية مع العربة بعد عشر دقائق. أحضـر المجـوهرات. والآن ردّد ورائي: الخال رودني يقول سيكون عند الناصية مع العربة بعد عشر دقائق أحضر كلّ المجوهرات».

«قل أحضر كلّ المجوهرات»، قال الخال رودني.

فقلت: «أحضر كلّ المجوهرات».

«جيّد»، قال الخال رودني، ثم قال: «حسنًا؟ ماذا تنتظر؟».

«أن تعطيني العشرين ربعًا».

شتم الخال رودني مجدّدًا وقال: «أتتوقّع منّي أن أدفع لك قبل أن تنجز المهمّة؟».

قلت: «سمعتك تقول عربة، ربّما ستنسى أن تدفع لي قبل أن ترحل، وقد لا ترجع قبل أن نعود إلى البيت. وإلى ذلك، ذلك اليوم في الصيف الفائت حين لم نتمكّن من القيام بأيّ بزنس مـع مسـز تاكر لأنّها كانت مريضة ورفضت أن تدفع لي النيكل، وقلت لي إنّه ليس ذنبك أنّ مسز تاكر كانت مريضة».

ثم شتم الخال رودني بشدّة، «اسمع. ليس معي عشرين ربعًا

Twitter: @ketab_n

الآن. والطريقة الوحيدة لكي أحصل عليها هي أن أخرج من هنا وأنهي البيزنس. ولا أستطيع إنهاءه الليلة ما لم تقم بعملك، أفهمت؟ سأكون خلفك تمامًا. سأكون منتظرًا هناك عند المنعطف في العربة حين ترجع. والآن اذهب بسرعة».

V

اجتزت الفناء على ضوء القمر، وسرت وراء السياج حتى وصلت إلى الشارع وسمعت صوت الأسهم الناريّة والصواريخ في السماء، لكن كلّ هذا كان في الساحة، ولم أرَ على طول الشارع سوى النوافذ المزيّنة بالشموع والأكاليل. ثم وصلت إلى الزقاق، وسرت إلى الإصطبل، لكنّني لم أعرف ما إذا كان الزقاق الصحيح أم لا؛ لكن سرعان ما قفز الخال رودني من زاوية الإصطبل وقال ها أنت، وأراني أين يقف وأين اتّجاه البيت وعاد إلى الإصطبل. لكنّني لم أستطع سماع شيء سوى الخال رودني يعدّ الخيل، ثم صفّر وعدت كان الفرس جاهزًا ومربوطًا بالعربة وقلت: لمن العربة والخيل؟ الحصان أهزل بكثير من حصان جدّي؟ قال الخال رودني إنّه حصاني الآن، لكنّ اللعنة على ضوء القمر هذا. ثم عدت

Twitter: @ketab_n

إلى الزقاق ومنه إلى الشارع ولم أر أحدًا آتيًا فلوّحت بذراعي في ضوء القمر، وجاءت العربة وصعدت ومضينا بسرعة. كانت الستائر الجانبيّة مرفوعة فلم أر الأسهم والألعاب الناريّة، لكنّني سمعت أصواتها وفكّرت أنّنا ربّما كنّا نعبر البلدة وربّما سيتوقّف الخال رودني ويعطيني بعضًا من العشرين ربعًا ويمكنني عندها شراء هديّة لجدّي من أجل يوم الغد، لكنّنا لم نتوقّف؛ فقط رفع الخال رودني الستارة الجانبيّة من دون أن يتوقّف وعندها رأيت البيت، وشجرتي الماغنوليا، لكنّنا لم نتوقّف حتى وصلنا إلى الناصية.

«الآن»، قال الخال رودني، «حين تفتح النافذة قل: سيكون في انتظارك عند الناصية بعد عشر دقائق. أحضر جميع المجوهرات»، لا يهمّ من يكون وراء النافذة. لا تريد أن تعرف من هو. لا بل يجب أن تنسى هذا البيت أيضًا، أفهمت؟».

«حاضر سيّدي، وعندها ستدفع لي الـ...».

«أجل، اللّعنة، أجل! اذهب من هنا بسرعة!».

ترجّلت من العربة التي تابعت سيرها وعدت إلى الشارع. كان البيت مظلمًا بالكامل باستثناء ضوء واحد، فعرفت أنّه المنزل الصحيح، ناهيك عن الشجرتين. فعبرت الفناء وعددت ثلاث نوافذ وكنتُ على وشك رشق الحصى حين امتدّت يد من الأجمة

Twitter: @ketab_n

وجذبتني. وراحت صاحبتها تحاول قول شيء ما، لكنّني لم أعرف ما هو هذا الذي تحاول قوله، إضافة إلى أنّها لم يكن لديها الوقت لتقول الكثير لأنّ رجلاً خرج راكضًا من وراء أجمة أخرى وأمسك بنا نحن الاثنين. أطبق كفّه على فمها، وقد عرفت ذلك من صوتها المكتوم وهي تعارك للتحرّر منه.

قال الرجل: «حسنًا أيّها الفتى؟ ما الأمر؟ هل أنت الشخص المنتظر؟».

«أنا أعمل لصالح الخال رودني...».

«أنت هو إذن».

وراحت السيّدة تعارك وتصرخ صراخًا مكتومًا، لكنّه ظلّ يطبق على فمها، ثم قال: «حسنًا، ما الأمر؟».

لكنّني لم أكن أعرف أنّ الخال رودني يقوم بالبيزنس مع رجال. لكن ربّما بعد أن بدأ بالعمل في «الكومبرس» اضطرّ إلى ذلك. ثم أخبرني أنّني لن أعرفهما على أيّ حال، فربّما كان هذا ما كان يقصده.

قلت: «يقول عليك أن تكون عند الناصية بعد عشر دقائق، وأن تحضر كلّ المجوهرات. طلب منّي أن أردّد هذا مرّتين، أحضر كلّ المجوهرات»..

Twitter: @ketab_n

جعلت السيّدة تغمغم وتقاتل بضراوة أشدّ من قبل، لذا ربّما اضطرّ إلى تحريري بحيث يتمكّن من الإمساك بها بكلتا يديه.

قال: «أحضر كلّ المجوهرات»، ممسكًا بالسيّدة بكلتا يديه، «هذه فكرة حسنة. هذا جيّد. لا ألومه على تشديده على هذه النقطة. حسنًا. الآن عد إلى الناصية وانتظر، وحين يأتي قل له هذا: تقول لك أن تأتي وتساعدها على حمل المجوهرات، قل له ذلك مرّتين. هل فهمت؟».

«وعندها أحصل على العشرين ربعًا».

«عشرون ربعًا، هاه؟»، قال الرجل وهو يمسك بالسيّدة، «أهذا ما ستحصل عليه؟ هذا غير كاف. قل له هذا أيضًا: تطلب إليك أن يعطيك قطعة من المجوهرات، فهمت؟».

«لا أريد سوى العشرين ربعًا».

ثم عاد هو وتوارى مع السيّدة في الأجمة ومضيت أنا أيضًا، عائدًا إلى الناصية، ورأيت الأسهم والألعاب الناريّة ترتفع مجدّدًا من الساحة وسمعت المفرقعات، ثم اقتربت العربة مجدّدًا وراح الخال رودني يهمس ثانية من وراء الستارة مثلما كان الأمر وراء نافذة ماندي.

سألني: «حسنًا؟».

Twitter: @ketab_n

«تطلب إليك أن تأتي وتساعدها على حملها».

«ماذا؟ أقالت لك إنّه ليس في البيت؟».

«لا سيّدي، طلبت أن تأتي وتساعدها على حمل المجوهرات. وأن أقول لك هذا مرّتين».

ثم سألته: «أين العشرون ربعًا خاصتي؟»، لأنّه كان قد قفز من العربة وإلى الممشى نحو ظلّ بعض الشجيرات. فتبعته إليها أيضًا وقلت: «قلت إنّك ستعطيني...».

«حسنًا! حسنًا!»، قال الخال رودني. كان نوعًا ما يشقّ طريقه عبر الشجيرات؛ وكنتُ أسمع تنفّسه:

ـ سأعطيك إيّاها غدًا. سأعطيك ثلاثين ربعًا غدًا. والآن اذهب إلى البيت. وإذا رأيتهم في كوخ ماندي فلا تقل لهم شيئًا. اركض الآن، بسرعة.

«أفضّل الحصول على العشرين ربعًا الليلة».

شقّ طريقه مسرعًا في ظلّ الشجيرات ورحت أتبعه كظلّه، لأنّه حين التف مستديرًا كاد يلمسني، لكنّني تراجعت إلى الخلف خارجًا من بين الشجيرات في الوقت المناسب، ووقف هناك يشتمني ثم جثم أرضًا ورأيت أنّه يحمل عصا في يده والتفتّ وركضت. ثم مضى في طريقه، مقرفصًا في الظلّ، ثم عدت إلى العربة، إذ إنّنا

Twitter: @ketab_n

بعد الكريسماس سنعود إلى جيفرسون، فإذا لم يعد الخال رودني قبل هذا الوقت فلن أراه ثانية حتى الصيف التالي، وربّما عندها يكون مشغولاً في البيزنس مع سيّدة أخرى، وسيكون مصير العشرين ربعًا شبيهًا بمصير النيكل حين مرضت مسز تاكر. انتظرت قرب العربة وشاهدت الأسهم والألعاب الناريّة وسمعت المفرقعات آتية من الساحة، لكن كان الوقت متأخّرًا عندئذ، وربّما تكون كلّ المتاجر أقفلت ولن أتمكّن من شراء هديّة لجدّي، حتى حين يعود الخال رودني ويعطيني العشرين ربعًا. رحت أصغي إلى المفرقعات، وأفكّر كيف يمكنني أن أخبر جدّي أنّني كنتُ أريد شراء هديّة له وربّما عندها يعطيني ١٥ نيكلاً بدلاً من دايم على أيّ حال، حين فجأة بدأ إطلاق المفرقعات في المنزل الذي دخل إليه الخال رودني. أطلقوا خمس مفرقعات سريعة، وحين توقّف الصوت فكّرت أنّهم ربّما قريبًا سيبدأون بإطلاق الأسهم والألعاب الناريّة أيضًا. لكنّهم لم يفعلوا. فقط أطلقوا المفرقعات الخمس بسرعة وتوقّفوا. وقفت قرب العربة ثم بدأ الناس يخرجون من المنازل صائحين ببعضهم بعضًا ورأيت رجالاً يهرعون إلى المنزل الذي دخل إليه الخال رودني، ثم خرج رجل من الفناء مسرعًا وسار في الشارع نحو منزل جدّي. فكّرت في البداية أنّه الخال رودني وأنّه نسي العربة، حتى رأيت أنّه لم يكن هو.

Twitter: @ketab_n

لكنّ الخال رودني لم يعد البتّة فذهبت إلى الفناء حيث يقف الرجال، إذ كان في وسعي مراقبة العربة أيضًا وأن أرى إذا خرج الخال رودني من الشجيرات، ووصلت إلى الفناء ورأيت ستّة رجال يحملون شيئًا طويلاً، ثم رجلين آخرين يركضان ويوقفانني. قال أحدهم اللّعنة، إنّه أحد أولئك الفتية، من جيفرسون. ورأيت عندها أنّ ما كان يحمله الرجال كان ستارة نافذة مع شيء ملفوف في داخلها ففكّرت في البداية أنّهم جاؤوا لكي يساعدوا الخال رودني على حمل المجوهرات، لكنّني لم أر الخال رودني في أيّ مكان، ثم قال أحد الرجال، «من؟ أحد الفتيان؟ اللعنة، فليأخذه أحدكم إلى البيت».

ساقني أحد الرجال، لكنّني قلت إنّ عليّ أن أنتظر الخال رودني، وقال الرجل إنّ الخال رودني سيكون بخير، وقلت لكنّني أريد أن أنتظره هنا. قال أحد الرجال خلفنا: اللّعنة، أخرجه من هنا، ومضينا من المكان. كنتُ على ظهر الرجل ونظرت إلى الوراء ورأيت الرجال الستّة في ضوء القمر حاملين الستارة وفي داخلها الرزمة، وسألت هل هذه تخصّ الخال رودني؟ قال الرجل: لا، إذا كانت تنتمي لأيّ أحد الآن فإنّها تنتمي لجدّي. وعندها عرفت ما هي.

وقلت: «في داخلها ضلع عجل، ستأخذونه إلى جدّي». ثم

Twitter: @ketab_n

أصدر الرجل صوتًا مضحكًا وقال الرجل الذي كنتُ على ظهره أجل، يمكنك أن تسميّه ضلع عجل، وقلت إنّها هديّة الكريسماس لجدّي. ممّن هي؟ أهي من الخال رودني؟

فقال الرجل: «لا، ليست منه. اعتبرها من رجال موتستاون. من جميع الأزواج في موتستاون».

VI

وصلنا إلى منزل جدّي. ووجدت جميع الأضواء مشتعلة، حتى على الشرفة، ورأيت الجماعة في الصالة، ورأيت سيّدات يضعن شالات على رؤوسهنّ والمزيد منهنّ يجتزن الممشى إلى الشرفة، وعندها سمعت أحدهم في المنزل يبدو أنّه يغنّي ثم خرج أبي من المنزل، واجتاز الممشى إلى البوّابة واقتربنا. وضعني الرجل أرضًا ورأيت روزي تنتظر عند البوّابة أيضًا. لكنّ الأمر لم يبد غناء الآن لأنّه لم يكن هناك أيّ موسيقى مع الصوت، فربّما كانت الخالة لويزا مجدّدًا وربّما لم تكن تحبّ الكريسماس الآن أكثر ممّا يقول جدّي إنّه يحبّه. وقلت:

«إنّها هديّة لجدّي».

قال أبي:

Twitter: @ketab_n

«أجل، أنت اذهب الآن مع روزي ولتأوِ إلى الفراش. ستأتي أمّك إليك قريبًا. لكن كن فتى عاقلاً حتى تصل. اهتمّ بأمر روزي. لا بأس يا روزي. خذيه. بسرعة».

قالت له روزي:

«لا حاجة إلى أن تخبرني ذلك. هيّا بنا».

وأمسكت يدي.

لكنّنا لم نعد إلى الفناء، لأنّ روزي خرجت من البوّابة ومشينا صعودًا في الشارع. وفكّرت عندها أنّنا ربّما سنراوغ هؤلاء الناس ونلتفّ من حول المنزل ولم نفعل هذا أيضًا. فقط صعدنا الشارع، وسألتها: «إلى أين نذهب؟».

قالت روزي:

«سنذهب لننام في منزل سيّدة تدعى السيّدة جوردون».

أكملنا طريقنا. وظللت صامتًا. لأنّ أبي نسي أن يقول شيئًا حتى الآن عن تسلّلي من البيت، وقد ينسى الأمر إذا ما أويت إلى الفراش وبقيت هادئًا حتى يوم غد أيضًا. إضافة إلى أنّ الأمر الأهمّ هو أن أجد الخال رودني وأحصل على العشرين ربعًا، قبل أن نعود إلى ديارنا، ولذا قد يكون هذا حسنًا غدًا أيضًا.

تابعنا السير، وقالت روزي ها هو البيت. دخلنا الفناء ثم فجأة

Twitter: @ketab_n

رأت روزي الأبوسوم[1]. كان على شجرة برسيمون في حديقة السيّدة جوردون ورأيته تحت نور القمر أيضًا وصحت: «اركضي اركضي وأحضري سلّم السيّدة جوردون!».

قالت روزي «تبًّا للسلالم! سنأوي إلى الفراش!». لكنّني لم أنتظر. بدأت بالعدو صوب المنزل، وروزي تعدو ورائي وتصيح أنت، جورجي! عد إلى هنا! لكنّني لم أتوقّف. يمكننا جلب السلّم والإمساك بالأبوسوم ونُهديه لجدّي مع ضلع العجل ولن يكلّف هذا قرشًا، وعندها ربّما قد يعطيني جدّي ربع دولار أيضًا، وحين أحصل على العشرين ربعًا من خالي رودني سيصبح لديّ واحد وعشرون ربعًا، وسيكون هذا حسنًا.

(١) الأبوسوم Possum: حيوان أميركي صغير يعيش في الأشجار وينشط في الليل، يتماوت إذا قُبض عليه، وهو من ذوات الجراب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شمس ذاك الغروب[١]

I

لم يعد يوم الإثنين في جيفرسون يختلف عن سواه من أيّام الأسبوع. فقد باتت الشوارع معبّدة، وما فتئت شركات الهاتف والكهرباء تقطع المزيد والمزيد من الأشجار الظليلة ــ أشجار البلوط والقيقب والخرّوب والدردار ــ كي تفسح في المجال لمزيد من الأعمدة الحديديّة التي تحمل عناقيد شبحيّة ضخمة عديمة اللون[٢]، وأصبح لدينا مغسلة عامّة تجول عرباتها في المدينة

---

(١) **شمس ذاك الغروب**: عنوان هذه القصّة مقتبس من أغنية «سانت لويس بلوز» تأليف و. ك. هاندي، وغناء لويس أرمسترونغ. وفيها يستوحي فوكنر إيقاع أغنيات البلوز مثلما يظهر عبر النبرة التكراريّة في القصّة. يرد عنوان القصّة في الأغنية كالتالي: «أكره رؤية شمس هذا المساء تغيب/ أكره رؤية شمس هذا المساء تغيب/ لأنّ حبيبي غادر البلدة». كُتبت عام ١٩٣٠. قدّمها فوكنر أوّلاً إلى مجلّة «سكريبنرز» التي رفضت نشرها، فنشرت مطلع العام ١٩٣١ في «أميركان ميركوري». هي واحدة من أكثر قصص فوكنر نشرًا في الأنطولوجيّات، ويُجمع النقّاد، بمن فيهم هانز سكي، على أنّها بين أفضل قصص فوكنر القصيرة.

(٢) إشارة إلى مصابيح الإنارة المصنوعة من زجاج شفّاف يظهر ما بداخلها من أسلاك كهربائيّة. ويشبّه فوكنر في الأصل هذه المصابيح بعناقيد العنب.

Twitter: @ketab_n

صباح كل اثنين، جامعة صرر الملابس في سيّارات مبهرجة صُنعت خصيّصًا لذلك: صار غسيل الأسبوع كلّه يُشحن على وقع الأبواق النزقة للسيّارات التي تحدث ضجيجًا طويلاً أشبه بتمزيق القماش، ناجمًا عن احتكاك المطّاط بالإسفلت، وحتى أولئك الزنجيات اللواتي ما زلن يتبعن الطريقة القديمة ويغسلن ملابس البيض صرن يأخذن الملابس ويُعدنها بهذه السيّارات.

لكن، قبل خمسة عشر عامًا، كانت الشوارع الظليلة الهادئة بغصّ بالنسوة الغسّالات اللواتي يمضين حاملات على رؤوسهنّ الثابتة صرر الملابس الملفوفة بالملاءات، والتي يكاد بعضها يكون بضخامة بالات القطن، ويسرن بها في ثبات من دون أن يلمسنها بأيديهنّ، من باب مطبخ بيت الأسرة البيضاء[١]، حتى مرجل الغسيل المسودّ بجانب باب أحد الأكواخ في «نيغرو هولو»[٢].

كانت نانسي تضع صرّتها أعلى رأسها، ثم تضع فوقها قبّعة القشّ السوداء التي ما كانت تفارقها صيف شتاء. كانت طويلة القامة حزينة الوجه، مجوّفة الفم بسبب فقدانها أسنانها. وكنّا أحيانًا نرافقها من البيت عبر جزء من الزقاق والزريبة، لكي نتفرّج على

---

(١) في زمن العبوديّة كان أفراد العائلة البيض يستخدمون الباب الأمامي في الدخول والخروج من البيت، أمّا الخدم والعبيد فيستخدمون باب المطبخ أو الباب الخلفي.

(٢) حيّ السود في جيفرسون.

Twitter: @ketab_n

الصرّة المتوازنة على رأسها والقبّعة التي لا ترجرج ولا تهتز، حتى تنزل في القناة ثم تصعد من الجهة الأخرى وتحني قامتها لكي تمرّ عبر السياج، زاحفة على يديها ورجليها، مبقية رأسها جامدًا ومرفوعًا والصرّة ثابتة فوقه كصخرة أو كمنطاد، ثم تعاود الوقوف على قدميها وتستأنف سيرها.

أحيانًا كان أزواج الغسّالات يتولّون أخذ الغسيل وإرجاعه، لكن «جيسوس»[1] لم يكن يفعل ذلك لنانسي، حتى قبل أن ينهاه أبي عن الاقتراب من البيت، وحتى حين مرضت ديلسي وتولّت نانسي الطهو نيابة عنها.

وعندها صرنا نضطرّ غالبًا إلى الذهاب إلى كوخ نانسي، عابرين ذلك الزقاق، لكي نخبرها بأن تأتي وتعدّ لنا الإفطار. كنّا نقف عند أوّل القناة، لأنّ أبي حذّرنا من التعاطي مع جيسوس — كان زنجيًا قصير القامة، على وجهه ندوب شفرة — فكنّا نقف بعيدًا ونرشق باب نانسي بالحجارة، حتى تمدّ رأسها أخيرًا ساترة جسمها وراء الباب لأنّها لا تلبس شيئًا. وذات مرّة زعقت بنا:

«ما قصدكم بهذا؟ ما قصدكم أيّها الشياطين الصغار؟».

فقالت كادي[2]:

---

(١) جيسوس Jesus: على اسم السيّد المسيح.

(٢) كادي caddy أو Candace: شخصيّة محوريّة في رواية فوكنر «الصخب

Twitter: @ketab_n

«يطلب منك أبي أن تأتي لكي تعدّي الإفطار، يقول أبي إنّك تأخّرت أكثر من نصف ساعة ويجب أن تأتي فورًا».

«لن أعدّ أيّ إفطار، سأعود إلى الفراش وأكمل نومي».

وقال جايسون[1]:

«أراهن أنك سكرى، يقول أبي إنّك سكرى. هل أنت سكرى يا نانسي؟».

«من يقول إنّني سكرى؟ أريد أن أحصل على كفايتي من النوم. لن أحضّر أيّ إفطار».

بعد قليل توقّفنا عن رشق الحجارة وعدنا إلى البيت. وحين جاءت أخيرًا كان قد فات أوان ذهابي إلى المدرسة. فظنّنا أنّ الويسكي هو السبب، حتى اعتقلتها الشرطة ذات يوم. وفي الطريق إلى السجن، مرّوا بمستر ستوفال أمين صندوق المصرف وشمّاس الكنيسة المعمدانيّة، فراحت نانسي تصرخ به:

- والعنف» وهي الابنة الوحيدة لعائلة كومبسون التي يتتبّع فوكنر في الرواية سلالتها من العام ١٦٩٩ وحتى ١٩٤٥.

(١) جايسون Jason: جايسون ليكورغوس كومبسون الرابع: أصغر أولاد كومبسون الأربعة. يلعب دور الراوي في الجزء الثالث من «الصخب والعنف». كما يظهر في روايتي «البلدة» و«القصر»، وفي القصّة القصيرة «عدالة». معه تنتهي سلالة كومبسون.

Twitter: @ketab_n

«متى ستدفع لي أجري أيّها الرجل الأبيض؟ متى ستدفع لي أيّها الرجل الأبيض؟ لقد غسلت لك ثلاث مرّات ولم تدفع لي سنتًا...».

فانقضّ عليها مستر ستوفال وطرحها أرضاً، لكنّها ظلّت تصرخ:

«متى ستدفع لي أيّها الرجل الأبيض؟ لقد مرّت ثلاث مرّات منذ آخر مرّة...».

فما كان من السيّد ستوفال إلاّ أن ركلها بقدمه على فمها قبل أن يردّه المارشال عنها، أمّا هي، مرتمية هكذا على الأرض، فجعلت تضحك. ثم لوت رأسها جانبًا وبصقت بعض الدم والأسنان، ثم قالت:

«لقد مرّت ثلاث مرّات ولم يدفع لي فلسًا».

وهكذا فقدت أسنانها، وطوال ذلك اليوم ظلّوا يحكون عن نانسي ومستر ستوفال، وطوال تلك الليلة ظلّ بوسع المارّة قرب السجن سماع صوتها وهي تغنّي وتصرخ، وأن يروا يديها على قضبان نافذة الزنزانة، وكُثُر توقّفوا عند السياج، لكي يستمعوا إلى زعيقها والسجّان الذي يحاول إسكاتها. ولم تسكت حتى الفجر تقريبًا، حين سمع السجّان صوت خمش وطرق في الأعلى فصعد

Twitter: @ketab_n

إلى الزنزانة ليجد نانسي معلّقة من قضبان النافذة. قال إنّ السبب هو الكوكايين لا الويسكي، إذ ما من زنجي يقدم على الانتحار ما لم يكن مليئًا بالكوكايين، لأنّ زنجيًا مليئًا بالكوكايين لا يعود زنجيًا.

قطع السجّان الحبل وأنزلها وقام بإنعاشها؛ ثم ضربها بالسوط. كانت قد شنقت نفسها بفستانها، ورتّبت الأمر جيّدًا، لكن حين قبضوا عليها لم يكن معها شيء آخر سوى الفستان فلم تجد ما تربط يديها به فظلّت متشبّثة بحافّة النافذة. فسمع السجّان الجلبة وهرع إلى الأعلى ووجد نانسي على هذه الحال، عارية تمامًا، وبطنها منتفخ بعض الشيء، مثل بالون صغير.

حين كانت ديلسي راقدة في كوخها، وتولّت نانسي الطبخ لنا، رأينا مئزرها ينتفخ قليلاً، وذلك قبل أن يمنع أبي جيسوس من الاقتراب من البيت. كان جيسوس جالسًا خلف الموقد في المطبخ، وتلك الندبة على وجهه الأسود تشبه قطعة حبل قذرة. قال إنّها بطيخة هذه التي تضعها نانسي تحت فستانها. فردّت عليه:

«لكنّها ليست من كرمك على أيّ حال».

قالت كادي: «ومن أيّ كرم هي؟».

فقال جيسوس: «أستطيع أن أدمّر الكرم الذي جاءت منه».

«لماذا تتكلّم هكذا أمام الأطفال؟ لمَ لا تذهب وتقوم بعملك؟

Twitter: @ketab_n

أتريد أن يجدك مستر جايسون تتسكّع في مطبخه، متكلّمًا بهذه اللغة أمام أطفاله؟».

فقالت كادي: «يتكلّم كيف؟ أيّ كرم؟».

وقال جيسوس: «ممنوع عليّ التسكّع في مطبخ رجل أبيض، أمّا الرجل الأبيض فمسموح له التسكّع في مطبخي. يستطيع الرجل الأبيض الدخول إلى بيتي ولا أستطيع منعه. وحين يرغب الرجل الأبيض في دخول بيتي لا يعود بيتي. لا يمكنني منعه، لكنّه لا يستطيع طردي منه. لا يستطيع فعل ذلك».

كانت ديلسي ما تزال راقدة في كوخها. ومنع أبي جيسوس من الاقتراب من منزلنا. ظلّت ديلسي راقدة طويلاً. دخلنا إلى غرفة المكتبة بعد العشاء. وسألتنا أمّي:

«ألم تفرغ نانسي من عملها في المطبخ بعد؟ لقد استغرقت وقتًا طويلاً في غسل تلك الأطباق».

قال أبي: «فليذهب كونتن[1] ويرَ. اذهب إلى المطبخ وإذا

---

(١) كونتن Quentin: أكبر أطفال كومبسون. هو راوي الجزء الثاني من «الصخب والعنف» ورواية «أبسولام! أبسولام!» كما أنّه الراوي في هذه القصّة. يفترض أنّه يسرد أحداث هذه القصّة بعد ١٥ عامًا من وقوعها. في «الصخب والعنف» يفترض أنّه انتحر في التاسعة عشرة، لكن في «شمس ذاك الغروب» فإنّ عمره ٢٤ عامًا. يظهر كونتن كذلك في القصّتين

Twitter: @ketab_n

كانت نانسي قد أنهت عملها فقل لها إنّها تستطيع الذهاب إلى بيتها».

فذهبت إلى المطبخ. ووجدت أنّ نانسي قد أنهت عملها. كانت الأطباق موضوعة جانبًا والموقد مطفأ. وجلست نانسي على كرسي بجوار الموقد البارد. وأخذت تحملق بي.

«أمّي تسأل إذا كنتِ قد أنهيتِ عملك».

«أجل، لقد انتهيت».

«ما المشكلة؟ ما المشكلة؟».

«لست إلاّ زنجيّة، وهذا ليس خطأي البتّة».

ظلّت تحملق بي، جالسة على الكرسي أمام الموقد البارد، تعلو رأسها القبّعة القشّ. عدت إلى غرفة المكتبة. الموقد البارد كان سبّب لي ذلك الإحساس بالحزن، حين تفكّر في المطبخ كمكان دافئ ومتّصل الحركة ومبهج، ثم تجد الموقد باردًا والأطباق موضوعة جانبًا، وليس هناك من يأكل في تلك الساعة، فالأمر محزن جدًّا. سألتني أمّي:

«هل انتهت؟».

القصيرتين «عدالة» و«أسد»، لكن فوكنر حذفه من هذه الأخيرة، ووضعه في مقطع «الدبّ» من رواية «فليسقط موسى».

Twitter: @ketab_n

«أجل سيّدتي».

«ماذا تفعل الآن؟».

«ليست تفعل شيئًا، لقد أنهت عملها».

قال أبي: «سأذهب لأرى».

قالت كادي: «ربّما تنتظر أن يأتي جيسوس ويصحبها إلى البيت».

قلت: لقد رحل جيسوس. كانت نانسي قد أخبرتنا أنّها استيقظت ذات صباح ولم تجد جيسوس. قالت: «لقد هجرني. أظنّ أنّه الآن في ممفيس. يراوغ شرطة المدينة لبعض الوقت».

فقال أبي: «نعمَ الخلاص! آمل أن يبقى هناك».

قال جايسون: «نانسي تخاف من العتمة».

فقالت كادي: «وأنت كذلك».

وردّ عليها: «غير صحيح».

وقالت أمّي: «صه كانداس».

عاد أبي وقال: «سأرافق نانسي حتى تعبر الزقاق، تقول إنّ جيسوس قد عاد».

قالت أمّي: «هل رأته؟».

Twitter: @ketab_n

«لا. لكنّ أحد الزنوج أرسل يخبرها بذلك. لن أغيب طويلاً».

«ستتركني وحدي لكي توصل نانسي إلى البيت؟ هل سلامتها أهم عندك من سلامتي؟».

«لن أتأخّر».

«وستترك هؤلاء الأطفال بلا حماية، بوجود هذا الزنجي في الجوار؟».

قالت كادي: «سأذهب معه. دعني أذهب معك».

قال أبي: «وما الذي سيفعله بهم إذا كان تعيس الحظّ ووصل إليهم؟».

وقال جايسون: «أريد الذهاب أيضًا».

وصاحت أمّي: «جايسون!»[1].

كانت تخاطب أبي. يمكن معرفة ذلك من طريقة لفظها الاسم، كأنّها تحسب أنّ أبي كان يخطّط طوال اليوم لفعل أكثر ما تمقته، مدركة منذ البداية أنّه بعد قليل سيفكّر به. ظللت صامتًا، لأنّني أنا وأبي نعلم أنّ أمّي ستطلب بقائي معها إذا خطر لها ذلك في الوقت المناسب. فلم ينظر أبي نحوي. كنتُ الأكبر سنًّا. كنتُ في التاسعة. وكادي في السابعة، وجايسون في الخامسة.

(١) المقصود جايسون الثالث، الأب.

Twitter: @ketab_n

قال أبي: «هراء، لن نتأخّر».

كانت نانسي تعتمر قبّعتها. وحين صلنا إلى الزقاق قالت: «لطالما كان جيسوس طيّبًا معي، كلّما جنى دولارين كان يعطيني واحدًا منهما».

دخلنا في الزقاق فقالت: «فقط لو اجتزت هذا الزقاق، فسأكون على ما يرام».

كان الزقاق معتمًا دائمًا. وقالت كادي «هنا خاف جايسون في الهالوين».

ردّ جايسون: «لم أخف».

سألها أبي: ألا تستطيع العمّة راشيل فعل شيء معه؟».

كانت العمّة راشيل عجوزًا تعيش بمفردها في كوخ يقع وراء كوخ نانسي. كان شعرها أبيض وكانت تمضي جُلّ وقتها في البيت تدخّن الغليون، إذ لم تعد تعمل. وكان يقال إنّها والدة جيسوس. وكانت أحيانًا تؤكّد ذلك، وتزعم في أحايين أخرى أنّها لا تربطها به أيّ قرابة.

وقالت كادي: «بلى خفت، خفت أكثر من فروني وأكثر من تي بي[1] وأكثر من الزنوج».

---

(١) فروني وتي بي: ابنة طبّاخة آل كومبسون ديلسي وابنها.

Twitter: @ketab_n

قالت نانسي: «لا يستطيع أحد فعل شيء معه، يقول إنّني أيقظت الشيطان في داخله ولن يسكته مجدّدًا سوى شيء واحد».

«حسنًا، لقد رحل الآن، لم يعد ثمّة ما يخيفك منه بعد الآن. وفقط إذا تركت الرجال البيض وشأنهم».

قالت كادي: «تترك الرجال البيض وشأنهم، كيف تتركهم وشأنهم؟

قالت نانسي: لم يغادر إلى أيّ مكان، أحسّ بوجوده هنا. أحسّ به الآن، في هذا الزقاق. يسمعنا ونحن نتكلّم، يسمع كلّ كلمة، مختبئًا في مكان ما، متربّصًا. لم أره، ولن أراه مجدّدًا إلاّ مرّة واحدة، واضعًا تلك الشفرة بين أسنانه. تلك الشفرة المتدلّية من عنقه، التي يخفيها داخل قميصه. وعندها لن أفاجأ البتّة».

قال جايسون: «لم أخف».

قال أبي: «لو لم تسيئي التصرّف لما حدث كلّ هذا، لكنّ كلّ شيء الآن على ما يرام. إنّه على الأرجح في سانت لويس الآن. والأرجح أنّه تزوّج من أخرى ونسي أمرك تمامًا».

«إذا كان قد تزوّج فيستحسن ألاّ أعرف، سأقف فوقهما تمامًا، وكلّ مرّة يلمسها فيها سأقطع له ذراعه، سأقطع رأسه، وسأبقر بطنها وسـ...».

Twitter: @ketab_n

قال أبي: «صه».

قالت كادي: «تبقرين بطن من يا نانسي؟».

قال جايسون: «أنا لم أخف. أستطيع أن أمشي في هذا الزقاق بمفردي».

قالت كادي: «صحيح. لن تجرؤ على أن تضع قدمًا فيه لو لم نكن معك».

II

كانت ديلسي ما تزال مريضة فصرنا نوصل نانسي إلى بيتها كلّ مساء حتى قالت أمّي: «حتّام سيستمرّ هذا؟ أنا أُترك وحيدة في هذا المنزل الكبير بينما ترافق زنجيّة مذعورة إلى بيتها؟».

وضعنا فراشًا لنانسي في المطبخ. وذات ليلة صحونا على صوتها. لم يكن غناء ولا بكاء، ذلك الصوت الذي جاء من الأسفل. كان النور مضاء في غرفة أمّي وسمعنا أبي ينزل إلى البهو، عبر السلّم الخلفي، وخرجت وكادي إلى البهو. كانت الأرضيّة باردة. فتكوّرت أصابع أقدامنا من شدّة البرد بينما أصخنا السمع. كان

Twitter: @ketab_n

الصوت شبيهًا بالغناء وليس بغناء، كان كالأصوات التي يصدرها الزنوج.

ثم توقّف الصوت وسمعنا أبي ينزل السلّم الخلفي، واتّجهنا إلى أعلى السلّم. ثم سمعنا الصوت مجدّدًا، على السلّم، ولم يكن بالمرتفع، لكنّنا رأينا عيني نانسي. كانت مستندة إلى الجدار. بدتا مثل عيني القطط، مثل عيني قطّة تستند إلى الجدار، شاخصة نحونا. حين نزلنا السلالم واقتربنا منها توقّفت عن إصدار الصوت، وظللنا هناك حتى صعد أبي مجدّدًا من المطبخ، حاملاً مسدّسه. عاود النزول مع نانسي ثم عادا ومعهما فراش نانسي.

وضعنا الفراش في غرفتنا. وبعد أن انطفأ الضوء في غرفة أمّي، رأينا عيني نانسي مجدّدًا. ونادت كادي هامسة:

ـ نانسي، هل غفوت يا نانسي؟

همست نانسي كلمة ما. كانت «أوه» أو «لا»، لست أكيدًا. كأنّما لم تصدر عن أحد، كأنّها لم تصدر من أيّ مكان، ولا اتّجهت إلى أيّ مكان، حتى شعرت أنّ نانسي لم تعد موجودة هناك. لأنّني كنتُ قد حدّقت في عينيها على السلّم بحيث انطبعتا في مقلتي مثلما يحدث حين تغمض عينيك وأنت تحدّق في الشمس. وراحت نانسي تهمس: «جيسوس، جيسوس».

فقالت كادي: أكان جيسوس؟ هل حاول اقتحام المطبخ؟

Twitter: @ketab_n

«جيسوس»، قالت نانسي. هكـذا: جيسسسسسسسسسسسسسـوس، حتى تبدّد الصوت، مثلما يفعل عود ثقاب أو شمعة. وقلت: «إنّهـا تقصد جيسوس الآخر».

قالت كادي: «أترييننا يا نانسي؟ أترين عيوننا أيضًا».

قالت نانسي: «لست سوى زنجيّة، الربّ يعلم، الربّ يعلم».

همست كادي: «ماذا رأيت في الأسفل، هناك في المطبخ؟ من الذي كان يحاول اقتحامه؟».

قالت نانسي، وكنّا نرى وميض عينيها: «الربّ يعلم، الـربّ يعلم».

ثم تعافت ديلسي. وجاءت لتعدّ الغداء، وقال لها أبي: «يحسن بك البقاء يومًا إضافيًا أو يومين في السرير».

قالت ديلسي: «لأيّ غرض؟ إذا غبت يومًا آخر فسيصبح هذا البيت خربة. اخرج من هنا الآن، ودعني أهتمّ بأمور مطبخي».

أعدت ديلسي العشاء أيضًا. وتلك الليلة، قبل هبـوط الظـلام بقليل، دخلت نانسي إلى المطبخ. فسألتها ديلسي: «وكيف تعـرفين أنّه عاد؟ فأنت لم تريه».

قال جايسون: «جيسوس زنجي».

قالت نانسي: «أحسّ به، أحسّ به متربّصًا هناك في القناة».

Twitter: @ketab_n

قالت ديلسي: «الليلة؟ أتحسّين أنّه هناك هذه الليلة؟».

قال جايسون: «ديلسي زنجيّة أيضًا».

قالت لها ديلسي: «حاولي أن تتناولي شيئًا من الطعام».

«لا أريد شيئًا».

قال جايسون: «لست زنجيًّا».

قالت ديلسي: «اشربي بعض القهوة»، وسكبت لها فنجانًا، «أتعرفين أنّه هناك في الخارج هذه الليلة؟ كيف تعرفين أنّه آت الليلة؟».

«أعرف. إنّه هناك، ينتظر. أعرف ذلك. لقد عاشرته طويلاً جدًّا. أعرف ما الذي يخطّط لفعله قبل أن يعرفه هو نفسه».

«اشربي بعض القهوة».

حملت نانسي الفنجان وقرّبته من فمها وأخذت تنفخ فيه. انتفخ فمها كأفعوان، كفم مطّاطي، كأنّها نزعت كل اللون عن شفتيها وهي تنفخ على القهوة.

قال جايسون: «لست زنجيًّا، ألنت زنجيّة يا نانسي؟».

«أنا ابنة الجحيم يا بنيّ. ولن أكون شيئًا عمّا قريب. قريبًا أرجع من حيث أتيت».

Twitter: @ketab_n

III

أخذت تحتسي القهوة. وبينما هي تفعل ذلك، حاملة الفنجان بكلتا يديها، بدأت تصدر ذلك الصوت ثانية. أصدرت الصوت في الفنجان ودلقت القهوة على يديها وعلى فستانها. راحت تحملق بنا وهي جالسة هناك، مسندة مرفقيها على ركبتيها، حاملة الفنجان بكلتا يديها، ناظرة إلينا عبر الفنجان المبلّل. وقال جايسون: «انظروا إلى نانسي، لن تطبخ لنا بعد الآن لنا، لقد تعافت ديلسي».

قالت له ديلسي: «اصمت أنت». حملت نانسي الفنجان بكلتا يديها، وأخذت تحملق بنا، وتصدر الصوت، كأنّها شخصان: واحدة تنظر إلينا والثانية تصدر الصوت. قالت ديلسي: «لماذا لا تطلبي من مستر جايسون أن يبلغ المارشال».

وعندئذ توقّفت نانسي عن ارتشاف القهوة، حاملة الفنجان بيديها السوداوين الطويلتين. حاولت الارتشاف مجدّدًا لكنّ القهوة اندلقت على يديها وفستانها، فوضعت الفنجان من يديها. وراح جايسون ينظر إليها.

قالت نانسي: «لا أستطيع ابتلاعها... أبتلعها لكنّها لا تدخل في حلقي».

Twitter: @ketab_n

قالت ديلسي: «اذهبي إلى بيتي، ستدبّر لك فروني فراشًا وسألحق بك قريبًا».

«لن يتمكّن أيّ زنجي من إيقافه».

قال جايسون: «لست زنجيًّا، أأنا زنجي يا ديلسي؟».

قالت ديلسي وعيناها على نانسي: «لا أظنّ ذلك، لا أظنّ ذلك. ماذا ستفعلين إذن؟».

نظرت نانسي إلينا. تحرّكت مقلتاها بسرعة، كأنّها تخاف ألاّ تملك متّسعًا من الوقت للنظر، من دون أن تتحرّك على الإطلاق. راحت تحملق بنا، نحن الثلاثة معًا. ثم قالت: «أتذكرون تلك الليلة التي بتّ فيها في غرفتكم؟». وحكت كيف أفقنا باكرًا صبيحة اليوم التالي ورحنا نلعب. كان علينا أن نلعب بهدوء على فراشها، حتى يستيقظ أبي ويأتي موعد الإفطار، وقالت نانسي: «اذهبوا واسألوا أمّكم أن تسمح لي بالمكوث عندكم الليلة، لن أحتاج إلى أيّ فراش. ويمكننا أن نلعب معًا».

ذهبت كادي وسألت أمّي. وذهب جايسون أيضًا، وأجابتهما أمّي: «لا يمكنني السماح لزنوج بالنوم في بيتي».

وبكى جايسون. وظلّ يبكي حتى قالت له أمّي إنّها ستحرمه من الحلوى لثلاثة أيّام ما لم يكفّ عن البكاء. وقال جايسون إنّه سيكفّ عن البكاء إذا أعدّت ديلسي قالب حلوى بالشوكولا. وكان

Twitter: @ketab_n

أبي موجودًا. وقالت له أمّي: «لماذا لا تفعل شيئًا حيال ذلك، لماذا لدينا رجال شرطة؟».

قالت كادي: «لماذا تخاف نانسي من جيسوس؟ أتخافين أنت من أبي يا أمّاه؟».

قال أبي: «ماذا تستطيع الشرطة أن تفعل، إذا كانت نانسي لم تره رأي العين، فكيف يمكن أن يعثر عليه رجال الشرطة؟».

«ما سبب خوفها إذن؟».

«تقول إنّه هناك. تقول إنها تعرف إنّه هناك هذه الليلة».

قالت أمّي: «ومع ذلك ندفع الضرائب، عليّ أن أقبع وحدي منتظرة في هذا المنزل الكبير بينما تقوم بإيصال زنجيّة إلى بيتها».

«تعرفين أنّني لست متربّصًا لك في الخارج حاملاً شفرة».

قال جايسون: «سأكفّ إذا أعدّت ديلسي كعكة بالشوكولا». أمرتنا أمّي بأن نذهب إلى الخارج، وقال أبي إنّه لا يعرف إذا كان جايسون سيحصل على كعكة بالشوكولا أم لا، لكنّه يعرف ما سيحصل عليه جايسون بعد دقيقة واحدة. عدنا إلى المطبخ وأخبرت كادي نانسي: «يأمرك أبي أن تذهبي إلى بيتك وتقفلي عليك بابك، وستكونين بخير. بخير ممّ يا نانسي؟ هل جيسوس غاضب منك؟».

كانت نانسي تحمل مجدّدًا فنجان القهوة، متّكئة بمرفقيها على

Twitter: @ketab_n

ركبتيها، محدّقة في الفنجان. قال كادي: «ما الذي فعلته وأغضب جيسوس منك؟». أفلتت نانسي الفنجان من يدها. لم ينكسر على الأرض لكن اندلقت منه القهوة، وقبعت نانسي هناك مكوّرة يديها كأنّهما ما تزالان تحملان الفنجان. ثم جعلت تصدر ذلك الصوت من جديد، ليس بصوت مرتفع. ليس غناء ولا عدم غناء. أخذنا نحدّق بها.

قالت ديلسي: «اهدئي. كفّي عن هذا. تحكّمي بأعصابك. انتظري هنا. سأذهب وأنادي فيرش[١] لكي يرافقك إلى المنزل».

وخرجت ديلسي.

جعلنا ننظر إلى نانسي. كتفاها ترتعشان، لكنّها كفّت عن إصدار الصوت. حدّقنا بها. وسألتها كادي: «ما الذي سيفعله بك جيسوس؟ لقد رحل بعيدًا».

نظرت نانسي إلينا: «لقد تسلّينا تلك الليلة التي بتّ فيها في غرفتكم، أليس كذلك؟».

قال جايسون: أنا لم أتسلّ، لم أتسلّ البتّة.

---

(١) فيرش Versh الابن الأكبر لديلسي. في الصخب والعنف هو الذي يعتني ببينجي، ابن آل كومبسون المتخلّف عقليًا. والأغلب أنّ اسمه تحريف لاسم «فيرجيل».

Twitter: @ketab_n

قالت كادي: «كنتُ نائمًا في غرفة الماما، لم تكن معنا في الغرفة».

قالت نانسي: «فلنذهب إلى منزلي ونتسلَّ أكثر».

قلت: «لن تسمح لنا الماما، لقد تأخّر الوقت كثيرًا».

«لا تهتمّ لذلك، يمكن أن نخبرها إيّاها في الصباح. لن تمانع».

«لن تسمح لنا».

«لا تسألوها الآن، لا تزعجوها الآن».

قالت كادي: «لم تقل إنّنا لا نستطيع الذهاب».

قلت: «لم نسألها ذلك».

قال جايسون: «إذا ذهبتم فسأخبر...».

قالت نانسي: «سنتسلّى، لن يمانع والداكما ذهابكما إلى بيتي. إنّني أعمل في منزلكم منذ زمن بعيد. لن يمانعا».

قالت كادي: «لا أخاف الذهاب، جايسون هو الذي يخاف، وسيشي بنا».

«لن أفعل».

«بلى ستفعل، ستفعل».

Twitter: @ketab_n

«لن أشي، ولست خائفًا».

قالت نانسي: «جايسون لا يخاف الذهاب معي، أتخاف يا جايسون؟».

قالت كادي: «سيشي بنا».

كان الزقاق مظلمًا. اجتزنا بوّابة الزريبة. وقالت كادي: «أراهن أنّه إذا كان قفز شيء ما من وراء البوّابة فإنّ جايسون سيصرخ».

«لن أفعل».

مشينا في الزقاق وأخذت نانسي تتكلّم بصوت مرتفع. وسألتها كادي: «لماذا تتكلّمين بصوت مرتفع يا نانسي؟».

«من، أنا؟ اسمعوا... كونتن وجايسون وكادي يقولون إنّني أتكلّم بصوت مرتفع».

قالت كادي: «تتكلّمين كأنّنا خمسة أشخاص، كأنّ أبي معنا أيضًا».

«من، أنا أتكلّم بصوت مرتفع يا مستر جايسون؟».

قالت كادي: «نانسي نادت جايسون مستر».

وقالت نانسي: «اسمعوا كيف يتكلّم كونتن وكادي وجايسون».

Twitter: @ketab_n

قالت كادي: «لسنا نتكلّم بصوت مرتفع، أنت التـــي تتكلّمـــين كأنّ أبي...».

قالت نانسي: «صه، صه يا مستر جايسون».

وقالت كادي: «نانسي نادت جايسون مستر...».

ـ صه، قالت نانسي. أخذت تتكلّم بصوت مرتفع حين عبرنا القناة وانحنينا عند فتحة السياج حيث اعتـــادت أن تمـــرّ، واضـــعة الصرّة على رأسها. ثم وصلنا إلى بيتها. أسرعنا الخطـــى عندئـــذ. كانت رائحة بيتها كالقنديل ورائحتها هي كالفتيـــل، كأنّهمـــا كانـــا ينتظران بعضهما بعضًا لكي تفوح رائحتهمـــا. أضـــاءت القنـــديل وأقفلت الباب ورتّجت الباب من الداخل. ثم كفّت عن التكلّم بصوت مرتفع، وراحت تنظر إلينا. وسألتها كادي: «ماذا سنفعل؟».

«ما الذي ترغبون في فعله؟».

قالت كادي: «قلت إنّنا سنتسلّى».

كان ثمّة شيء ما في المكان، شيء ما يمكنك أن تشمّه إضافة إلى رائحة نانسي والكوخ. وحتى جايسون شمّه، فقـــال: «لا أريـــد البقاء هنا، أريد العودة».

قالت كادي: «فلتعد إذن».

«لا أريد الذهاب وحدي».

Twitter: @ketab_n

قالت نانسي: «سنتسلّى قليلاً».

سألتها كادي: «كيف؟».

وقفت نانسي عند الباب. وأخذت تحملق بنا، لكن كان الأمر كأنّها أفرغت عينيها، كأنها ما عادت تستعملهما: «ما الذي تريدون فعله؟».

قالت كادي: «احكِي لنا قصّة، أتعرفين كيف تحكين قصّة؟».

أجابت نانسي: «أجل».

قالت كادي: «احكيها إذن». ورحنا ننتظرها، «أنت لا تعرفين أيّة قصص».

قالت نانسي: «بلى، بلى أعرف».

جلست على الكرسي أمام الموقد. كان ثمّة جذوة نار صغيرة قامت نانسي بتشبيبها أكثر وأضرمت نارًا. وراحت تخبر قصّة. بدا كلامها مثل عينيها، كأنّما عيناها اللتان تنظران بهما إلينا لا تخصّانها وكذلك صوتها. كأنّها تعيش في مكان آخر، تنتظر في مكان آخر. خارج الكوخ. كان صوتها في الداخل، أمّا جسدها، جسدها الذي تحنيه في أثناء عبورها السياج الشائك حاملة على رأسها صرّة الملابس كأنّها بلا وزن، مثل منطاد، فقد كان في الخارج. لكنّ هذا كلّ شيء. «وهكذا كان، هناك ملكة جاءت تمشي

Twitter: @ketab_n

عبر القناة، حيث يكمن لها ذلك الشرّير. أخذت تمشي في القناة، وقالت فقط لو أتمكّن من عبور هذه القناة، كان هذا ما قالته...».

قالت كادي: «أيّ قناة؟ مثل تلك التي في الخارج هناك؟ لماذا قد ترغب ملكة في الذهاب إلى قناة؟».

قالت نانسي: لكي تصل إلى بيتها، كان عليها عبور القناة إلى بيتها بسرعة وأن تقفل الباب من الداخل».

وقالت كادي: «ولماذا تريد الذهاب إلى البيت وإيصاد الباب؟».

IV

أخذت نانسي تحدّق بنا. توقّفت عن الكلام، وعيناها محدّقتان بنا. كان جايسون جالسًا في حضنها ورجلاه بارزتان من سرواله. قال:

«لا أظنّها قصّة حلوة، أريد العودة إلى البيت».

قالت كادي وهي تنهض عن الأرض وتتّجه إلى الباب: «ربّما نسمع هناك قصّة أحلى، أراهن أنّهم يبحثون عنّا الآن».

صرخت نانسي: «لا، لا تفتحيه».

وهرعت نحو الباب ووقفت هناك من دون أن تلمسه.

Twitter: @ketab_n

سألتها كادي: «لمَ لا؟».

قالت نانسي: عودي واجلسي قرب القنديل، سوف نتسلّى، لستم مضطرين للذهاب».

قال كادي: «علينا أن نذهب، إلاّ إذا تسلّينا كثيرًا». وعادت مع نانسي إلى المدفأة، إلى القنديل.

قال جايسون: «أريد العودة إلى البيت، سوف أخبر...».

قالت نانسي: «أعرف قصّة أخرى». وقفت في جوار القنديل وراحت تحملق في كادي، مثلما حين تحملق في عود متوازن على أرنبة أنفك. كان عليها أن تخفض رأسها لكي ترى كادي، لكنّ عينيها بدتا هكذا، كأنّها توازن عودًا.

قال جايسون: «لن أسمعها، سأطرق الباب».

قالت نانسي: «إنّها قصّة جيّدة، أحلى من القصّة الأولى».

سألتها كادي: «عمّ تحكي؟». كانت نانسي تقف في جوار القنديل، واضعة يدها عليه، يكتنفها ضوؤه.

فقالت كادي: «إنّ يدك على البلّورة الساخنة، ألا تحسّين بالحرارة؟

نظرت نانسي إلى يدها على البلّورة. ثم نزعتها، ببطء.

Twitter: @ketab_n

ووقفت هناك تحملق بكادي، هازّة يدها الطويلة كأنّها مربوطة إلى رسغها بخيط.

قالت كادي: «فلنفعل شيئًا آخر».

قال جايسون: «أريد العودة إلى البيت».

قالت نانسي: «لديّ بعض الفشار». ونظرت إلى كادي، ثم إلى جايسون ثم إليّ ثم إلى كادي مجدّدًا: «لديّ بعض الفشار».

قال جايسون: «لا أحبّ الفشار، أفضّل الحلوى».

نظرت نانسي إلى جايسون، وهي ما تزال تهزّ يدها الطويلة النحيفة القاتمة. وقالت له: «سأدعك تحمل حمّاصة الفشار».

فقال جايسون: «حسنًا سأبقى قليلاً إذا كان بوسعي فعل ذلك. كادي لا يمكنها الإمساك بها. سأريد العودة إلى البيت إذا أمسكتها كادي».

أضرمت نانسي النار في المدفأة. قالت كادي: «أنظروا إلى نانسي تضع يدها في النار، ما مشكلتك يا نانسي؟».

قالت نانسي: «لديّ ذرة، لديّ بعض الذرة».

وأخرجت الحمّاصة من تحت السرير. كانت مكسورة. فبدأ جايسون بالبكاء قائلاً: «لن نحصل الآن على أيّ فشار».

Twitter: @ketab_n

قالت كادي: «يجدر بنا العودة إلى البيت على أيّ حال، هيّا بنا يا كونتن».

قالت نانسي: «انتظروا، انتظروا، يمكنني إصلاحها. ألا تريدون مساعدتي على إصلاحها؟».

قالت كادي: «لا أظنّ أنّني راغبة في الفشار، لقد تأخّر الوقت».

قالت نانسي: «ساعدني أنت يا جايسون، ألا تريد أن تساعدني؟».

«لا، أريد العودة إلى البيت».

قالت نانسي: «صه، صه. انظرا. انظرا إليّ. يمكنني إصلاحها بحيث يحملها جايسون ويفرقع الذرة». جلبت سلكًا صغيرًا وأصلحت السخّان.

قالت كادي: «لن تتمكّن من الصمود طويلاً».

قالت نانسي: «بلى ستصمد، انظروا... ساعدوني على تقشير بعض الذرة».

كانت الذرة تحت السرير. قشّرناها ووضعناه في الحمّاصة وساعدت نانسي جايسون على حملها فوق النار.

ثم قال جايسون: «إنّها لا تفرقع، أريد العودة إلى البيت».

Twitter: @ketab_n

قالت نانسي: «انتظر، ستبدأ بالفرقعة. سنتسلّى عندها». كانت جالسة قرب النار. وكان فتيل القنديل عاليًا بحيث بدأت البلّورة تسودّ. سألتها: «لماذا لا تخفضين الفتيل قليلاً؟».

قالت: «لا بأس به، سأنظّف البلّورة. انتظروا. ستبدأ الذرة بالفرقعة بعد ثوان».

قالت كادي: «لا أصدّق ذلك، علينا الذهاب إلى البيت على أيّ حال. سيقلقون علينا».

قالت نانسي: «لا، ستفرقع. ديلسي ستخبرهما أنّكم معي. إنّني أعمل لديكم منذ زمن طويل. لن يمانعا مجيئكما إلى بيتي. انتظروا الآن. ستبدأ بالفرقعة في أيّ لحظة».

ثم دخل بعض الدخان في عيني جايسون فبدأ يبكي. وأوقع الحمّاصة في النار. أحضرت نانسي قطعة قماش مبلّلة ومسحت وجه جايسون، لكنّه لم يتوقّف عن البكاء.

قالت له نانسي: «صه، صه». لكنّه لم يصمت. أخرجت كادي الحمّاصة من النار. وقالت: «لقد احترقت الذرة، سيكون عليك جلب المزيد من الفشار يا نانسي».

قالت نانسي: «هل وضعتها كلّها في الحمّاصة؟».

«أجل». نظرت نانسي إلى كادي. ثم أخذت الحمّاصة وفتحتها وسكبت الحبوب في مئزرها وراحت بيدها البنّيّة الطويلة

Twitter: @ketab_n

تنقّي السليمة منها، بينما نحن نتفرّس بها. وسألتها كـادي: «ألـيس لديك المزيد؟».

وقالت نانسي: «بلى، أجل انظروا، ليست بمحترقة. كل مـا نحتاج إلى فعله هو...».

قال جايسون: «أريد الذهاب إلى البيت، سأخبر...».

وقالت كادي: «صه». فأصخنا جميعًا السمع. التفتت نانسـي صوب الباب الموصد، وعيناها مغمورتان بضوء القنديل الأحمـر. قالت كادي: «أحدهم آت».

ثم بدأت نانسي تصدر ذلك الصوت ثانيـة، لـيس مرتفعًـا، جالسة هناك عند النار ـ يداها الطويلتان متدلّيتان بـين ركبتيهـا؛ فجأة بدأت قطرات كبيرة من المياه تسيل على وجهها، وكانت كـلّ قطرة منها، على الضوء المنبعث من المدفأة، أشبه بالشرارة.

قلت: «لست تبكين»..

قالت نانسي وقد أغمضت عينيها: لست أبكي، لست أبكـي. من هنالك عند الباب؟

قالت كادي: «لا أعرف». ثم اتّجهت إلى الباب وألقت نظـرة إلى الخارج، وقالت: «علينا الذهاب الآن، إنّه أبي».

قال جايسون: «سوف أخبره، أنتم أجبرتموني على المجيء».

Twitter: @ketab_n

كانت المياه ما زالت تنحدر على وجه نانسي. استدارت في كرسيّها، وقالت: «اسمعوا، قولوا له إنّنا سنتسلّى. قولوا له إنّني سأعتني بكم جيّدًا حتى الصباح. اطلبوا منه أن يسمح لي بالعودة معكم إلى البيت والنوم على الأرض. قولوا له إنّني لن أحتاج إلى فراش. سنتسلّى. أتذكرون كم تسلّينا المرّة السابقة؟».

قال جايسون: «أنا لم أتسلَّ، لقد آذيتني. لقد وضعت دخانًا في عينيّ. سوف أخبر».

V

دخل أبي. وأخذ ينظر إلينا. لم تنهض نانسي. لكنّها قالت: «قولوا له».

قال جايسون: «لقد جعلتنا كادي نأتي إلى هنا، لم أرد المجيء».

اقترب أبي من المدفأة. رفعت نانسي عينيها. قال لها: «ألا يمكنك المبيت عند العمّة راشيل؟».

رفعت نانسي رأسها نحو أبي مكوّرة يديها بين رجليها.

Twitter: @ketab_n

قال أبي: «إنّه ليس في الجوار. كنتُ رأيته لو كان هنا. ليس من شخص في المكان برمّته».

قالت نانسي: «إنّه في القناة، إنّه ينتظر هناك».

قال أبي محملقًا بها: «هذا هراء، أتعرفين أنّه هناك؟».

«وصلتني الإشارة».

«أيّ إشارة؟».

«لقد وصلتني. وجدتها على الطاولة حين دخلت. كانت عظمة خنزيرما زال الدم عليها، قرب القنديل. إنّه في الخارج. لحظة خروجكم من الباب أكون قد رحلت».

قالت كادي: «غادرت إلى أين يا نانسي؟».

قال جايسون: «لست بِوَاشٍ».

وقال أبي: «هذا هراء».

قالت نانسي: «إنّه في الخارج، إنّه ينظر من تلك النافذة في هذه اللّحظات، ينتظر رحيلكم. ثم أرحل أنا».

قال أبي: «هراء، أوصدي بابك وسنوصلك إلى بيت العمّة راشيل».

قالت نانسي: «لن يجدي نفعًا».. لم تعد تنظر إلى أبي، لكنّه

Twitter: @ketab_n

كان مخفضًا نظره نحوها، نحو يديها الطويلتين الهزيلتين، «لن يجدي إطفاء القنديل نفعًا».

قال أبي: «ما الذي تريدين فعله إذن؟».

«لا أعرف، لا أستطيع فعل شيء. فقط أطفئوه. وهذا لن يفيد. أظنّ أنه لي. أظنّ أنّ ما سأحصل عليه ليس أكثر ممّا لي».

قالت كادي: «علام تحصلين؟ ما الذي لك؟».

قال أبي: «لا شيء، أنتم جميعًا يجب أن تأووا إلى النوم».

قال جايسون: «كادي دفعتني للمجيء»..

قال أبي: «اذهبي إلى منزل العمّة راشيل».

قالت نانسي: «هذا لن يجدي نفعًا. كانت جالسة قرب المدفأة، متّكئة بمرفقيها على ركبتيها، ويداها الطويلتان بين ركبتيها.. «حين حتى مطبخكم لن يجدي نفعًا، حين حتى لو كنت نائمة على أرض الغرفة مع أطفالك، وفي اليوم التالي سأكون، وسيكون الدم...».

قال أبي: «اصمتي، أوصدي الباب وأطفئي القنديل واخلدي إلى النوم».

قالت نانسي: «أخشى الظلمة، أخشى أن يحدث ذلك في الظلمة».

«أتعنين أنّك ستجلسين هنا مع القنديل مضاء؟».

Twitter: @ketab_n

ثم بدأت نانسي تصدر ذلك الصوت مجددًا، جالسة قرب النار، ويداها الطويلتان بين ركبتيها، وقال أبي: «آه لعنة لعناء، هيّا بنا يا أطفال، لقد تجاوزتم وقت نومكم».

قالت نانسي: «حين ترحلون إلى بيتكم، سأرحل». جعلت تتكلّم بصوت أهدأ عندئذ، وبدا وجهها هادئًا، مثل يديها، «على أيّ حال لقد ادّخرت مال الدفن مع السيّد لوفلادي». كان السيّد لوفلادي رجلاً قصيرًا قذرًا يجمع مال الدفن من الزنوج، ويأتي إلى الأكواخ أو المطابخ صباح كل سبت لكي يأخذ ١٥ سنتًا. كان هو وزوجته يعيشان في فندق. ذات صباح انتحرت زوجته. كان لديهما طفلة صغيرة. هو والطفلة غادرا البلدة. وبعد أسبوع عاد بمفرده. كنّا نراه يسير في الأزقّة والشوارع الخلفيّة في صباحات الأحد.

قال أبي: «هذا هراء. ستكونين أوّل من أراه في المطبخ صبيحة الغد».

قالت نانسي: «سترى ما سترى، على ما أظنّ، ولكن على الربّ أن يقول ماذا سيكون».

VI

تركناها قرب النار.

Twitter: @ketab_n

قال أبي: «تعالي وضعي الرتاج». لكنّها لم تحرك ساكنًا. لم تنظر إلينا ثانية، بل ظلّت جالسة بصمت هناك بين القنديل والمدفأة. ظللنا ننظر برهة بعد برهة إلى الخلف ونحن نسير في الزقاق فنراها من خلال الباب المفتوح.

قالت كادي: «ماذا يا أبي؟ ماذا سيحدث؟».

قال أبي: «لا شيء». كان يحمل جايسون على ظهره، ممّا جعله الأطول بيننا. نزلنا إلى القناة. نظرت إليه بصمت. لم أستطع رؤية الكثير بسبب تشابك الظلال وشعاع القمر.

سألت كادي: «لو كان جيسوس مختبئًا هنا أيمكنه أن يرانا؟».

قال أبي: «ليس هنا، لقد رحل بعيدًا منذ أمد بعيد».

قال جايسون بصوت مرتفع «هي جعلتني آتي، لم أرد ذلك». تحت السماء بدا كأنّ أبي له رأسان، واحد صغير وثان كبير.

خرجنا من القناة. كان ما يزال في وسعنا رؤية كوخ نانسي والباب المفتوح، لكنّنا ما عدنا نرى نانسي، جالسة أمام النيران تاركة الباب مفتوحًا، لأنّها كانت منهكة، قالت لنا: «إنّني منهكة فحسب، لست إلاّ زنجيّة. وهذا ليس خطأي».

لكنّنا سمعنا صوتها، لأنّها بدأت تصدره قبل أن نخرج من القناة ولم يكن الصوت غناء ولم يكن إلاّ غناء.

Twitter: @ketab_n

سألت أبي: «من سيغسل ملابسنا الآن؟».

وقال جايسون: «لست زنجيًّا»، رافعًا رأسه عاليًا على مقربة من رأس أبي.

قالت كادي: «أنت أسوأ، أنت وَاشٍ. ولو قفز أيّ شيء فجـأة لارتعبت أكثر من زنجي».

قال جايسون: «لن أفعل»..

قالت كادي: «ستبكي».

قال أبي: «كادي!»..

قال جايسون: «لن أبكي».

قالت كادي: «قطّ جبان».

نهرها أبي: «كانداس!».

Twitter: @ketab_n

الفهرس

الأرياف ٥
إحراق حظيرة ٧
سقف جديد للربّ ٤٣
الرجال الطوال ٦٩
صيد دبّ ٩٣
جنديّان ١٢١
لن نفنى ١٤٩
القرية ١٧١
وردة لإميلي ١٧٣
شعَر ١٩١
قنطور من نحاس ٢١٩
سبتمبر جافّ ٢٤٩

Twitter: @ketab_n

لعبة الموت ٢٧٣

إلّي ٣٠٧

العمّ ويلي ٣٣٥

بغلّ في الفناء ٣٦٩

سيكون هذا حسنًا ٣٩٧

شمس ذاك الغروب ٤٣٣

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لمحة عن المؤلف وليام فوكنر:

ولد وليام فوكنر عام ١٨٩٧ في نيو آلباني بولاية ميسيسيبي.

كتب عن بيئته الخاصة، أيْ بيئة الجنوب الأمريكي، ليبتدع لاحقًا ما بات يُعرف باسم مقاطعة «يوكناباتوفا» التي ستكون الموطنَ المتخيَّل لكلّ كتاباته اللاحقة عن الجنوب، ولا سيما روايات مثل الصخب والعنف (١٩٢٩)، وإحرام (١٩٣١)، ونور في أغسطس (١٩٣٢)، وهي التي أرست شهرتَه ككاتب عالمي، مع حصوله عام ١٩٤٩ على جائزة نوبل.

ترافقتْ كتابة فوكنر للقصة القصيرة مع كتابته للرواية وأحيانًا تداخلتْ معها، إذ كان يستحضر شخصيات من قصصه لاستخدامها في الروايات، أو العكس.

في العام ١٩٥١ أصدر الأعمال القصصية المجموعة التي أعاد فيها ترتيبَ وتحريرَ القصص التي نشرها على امتداد أكثر من عقدين من الزمن.

Twitter: @ketab_n

لـمحة عن المترجم سامر أبو هواش:

كاتب ومترجم فلسطيني، وُلد في لبنان عام ١٩٧٢ . يحمل درجةَ ليسانس في الإعلام من الجامعة اللبنانية. يعمل محرّرًا أدبيًا في هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

له عدة أعمال شعرية منها: تحية الرجل المحترم ، وشجرتان على السطح. وله روايتان: السعادة وعيد العشّاق.

من ترجماته: على الطريق لجاك كرواك، حياة باي ليان مارتل، بوذا الضواحي لحنيف قريشي.

أصدر حتى الآن ١٥ مجموعة ضمن ترجماته للشعر الأمريكي المعاصر التي بدأها عام ٢٠٠٢.

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي لوفاة والدها زارها جميعُ السيّدات في منزلها لتقديم واجب العزاء والمؤاساة، مثلما تقتضي عاداتُنا. فقابلتْهم مسّ إميلي عند الباب، وهي ترتدي ملابسَها كالعادة ولا يَظْهر على وجهها أيّ أثر للحزن. وقالت لهن إنّ أباها لم يمت. وأصرّت على ذلك لثلاثة أيام، بينما كان الكهنة والأطباء يحاولون إقناعَها بدفن الجثمان. وعندما لوّحوا باللجوء إلى القانون والقوة أذعنتْ، فقاموا بالدفن على وجه السرعة. لم نعتبرْها مختلّة التفكير وقتذاك، بل إنّها اضطرّت إلى فعل ذلك. تذكّرنا جميع الشبان الذين رفضهم والدها، وأدركنا أنها مضطرّة، بعد افتقارها إلى كلّ شيء، إلى أن تتشبّث بذاك الذي كان سببَ حرمانها، مثلما يفعل سائرُ الناس.

«ليست هناك قصة كتبها فوكنر لا تتضمّن عناصر سرد عظيم».

شيكاغو تريبيون

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة/التطبيقية
الفنون والألعاب والرياضة
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA
دار الآداب
ISBN: 978-9953-89-100-2
9 789953 891002